الحياة الآخرة

ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار

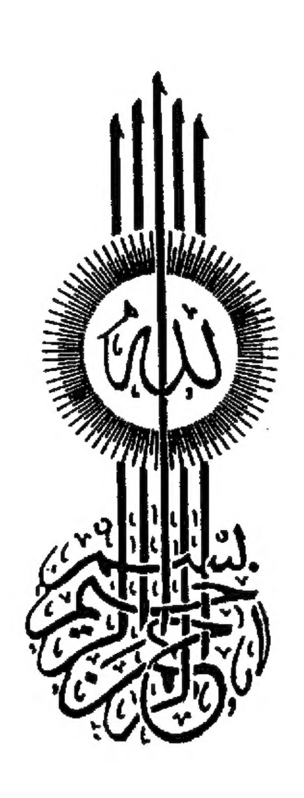
تأليف
د. غالب بن علي عواجي

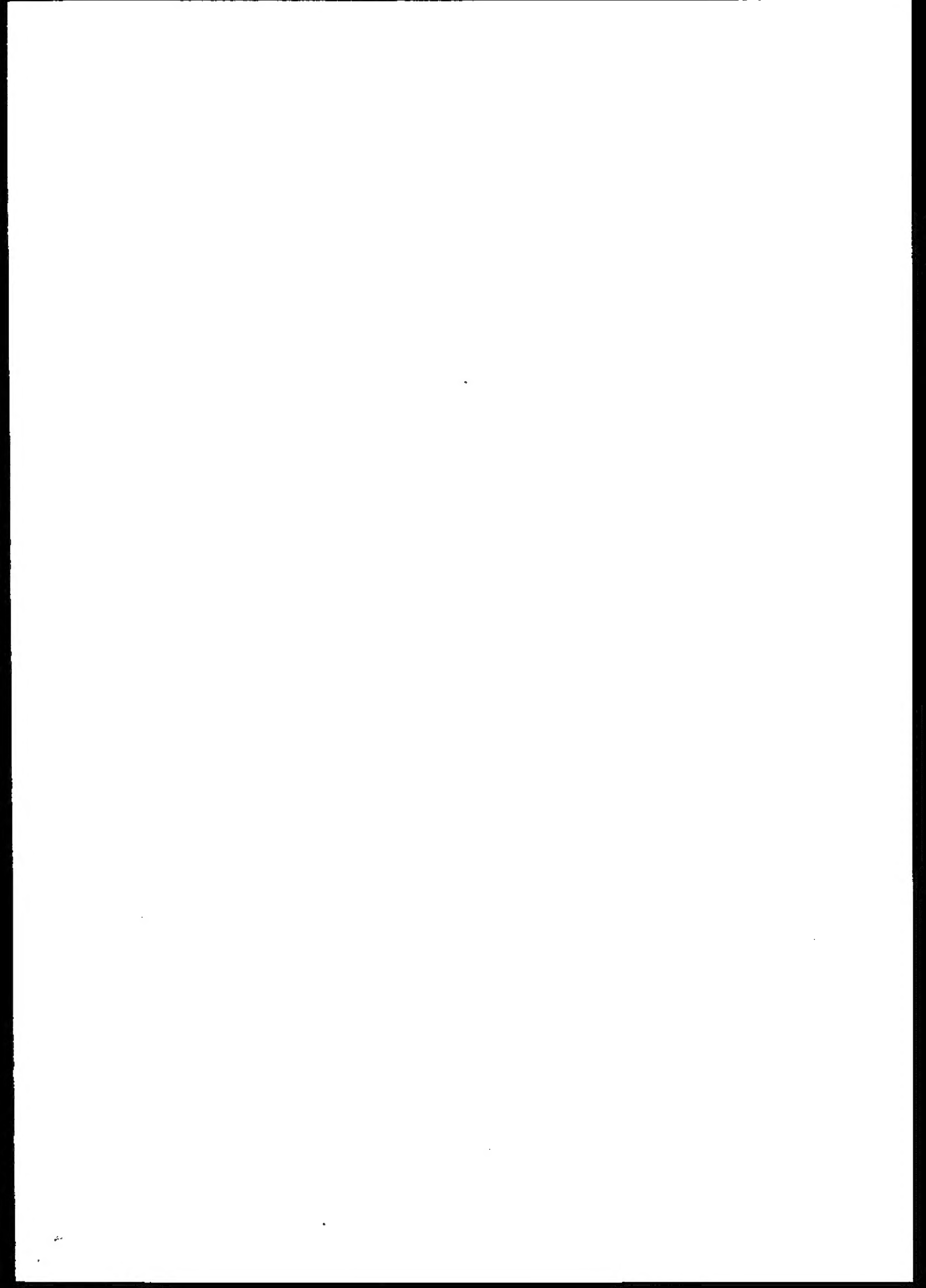
الجزء الثاني

المكتبة العصرية الذهبية
جدة

الطبعة الثانية
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتبة العصرية الذهبية
للطباعة والنشر والتسويق
جدة: ٦٧٣٦٥٨ - ٦٢٩٣٨٨٩
الرياض: ٤٧٦٥٠٠٨ - ٤٧٧٤٨٤٤
الدمام :


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



الباب الثالث

مجيء الله تبارك وتعالى لفصل القضاء

ويشتمل على ما يأتي:

الفصل الأول: الأدلة على نزول الله تعالى لفصل القضاء .

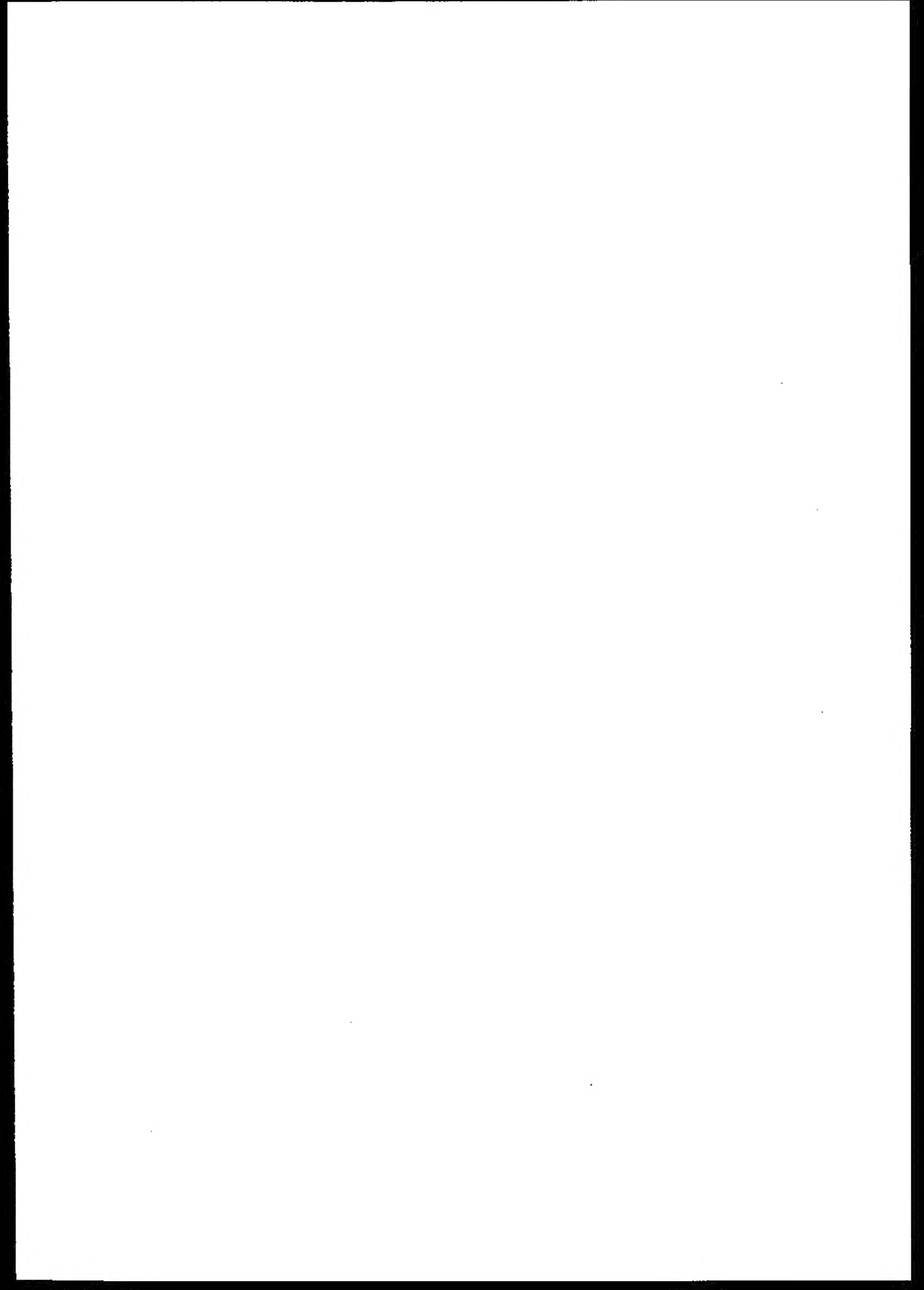
١ - من القرآن الكريم.

٢ - من السنة النبوية .

الفصل الثاني: معنى مجيء الله لفصل القضاء.

١ - مذهب السلف.

٢ - مذهب المؤولين.



مجيء الله تبارك وتعالى لفصل القضاء

تمهيد :

من أسماء يوم القيامة - وهي كثيرة كما تقدم - يوم الفصل، وقد ذكره الله تعالى في كتابه الكريم، وبين ما يحدث فيه للخلق من الأهوال العظيمة والأمور الجسام بعد أن يستقر بهم المقام في الموقف حين يحشرهم الله من قبورهم إليه، يقفون فيه شاخصة أبصارهم، قد شغل كل مخلوق منهم بنفسه، ينتظرون المصير النهائي، إما جنة عالية قطوفها دانية وإما نار حامية تتلظى وقودها الناس والحجارة.

وقد ذكر الله تعالى هذا اليوم وما يقع فيه للمكذبين في آيات كثيرة منها: قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ۝ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٧ - ١٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

يقفون على حالهم هذه حتى يأذن الله بمجيئه سبحانه للفصل بين الخلق، ويقع فصل القضاء حينما يأذن الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ بالشفاعة العامة؛ وهي المقام المحمود - على ما تبين في مبحث الشفاعة - وبعد قبولها

منه ﷺ يأتي الرب تبارك وتعالى للفصل بين الخلق وهم في الموقف على الحال التي وصفنا فيما مضى ـ إتياناً يليق بجلاله سبحانه وتعالى كما سنبين ذلك بأدلته.

قال ابن جرير الطبري في معنى قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٢]: قال: «يقول تعالى، ذكره: وإذا جاء ربك يا محمد والملائكة صفوفاً صفاً بعد صف»[١].

وقال ابن كثير رحمه الله في شرحها: «وجاء ربك يعني لفصل القضاء بين خلقه وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحداً بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول: أنا لها، أنا لها، فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء، فيشفعه الله تعالى في ذلك، وهي أول الشفاعات وهي المقام المحمود»[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أن كثيراً من العلماء حينما يذكرون هذه الشفاعة لا يذكرون أنها تكون لفصل القضاء لإراحة الناس من كرب الموقف؛ بل يذكرونها على أنها تقع لإخراج أقوام من النار بعد أن دخلوها ـ كما تبين في باب الشفاعة.

ومما ينبغي أن يذكر هنا أيضاً: أن الصفات التي يمكن أن يتصف الله بها من النزول والمجيء ونحوهما هي:

---

(١) تفسير ابن جرير: ٣٠/ ١٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥١٠.

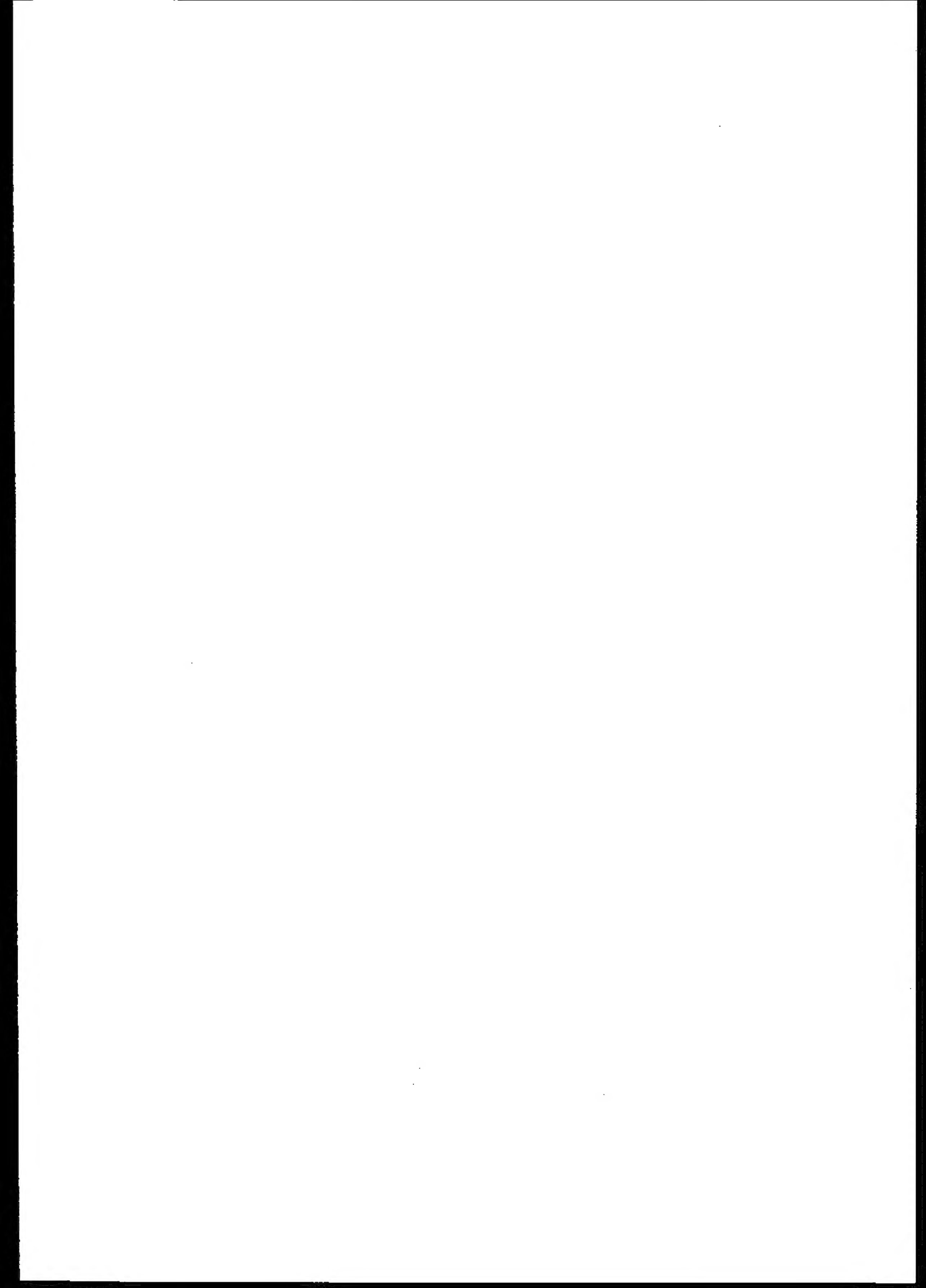
الأولى: ما جاء في السنة النبوية من إثبات نزول الله تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير.

وقد ألف فيه شيخ الإسلام كتابه المفيد «شرح حديث النزول».

والثانية: نزول الله تبارك وتعالى في عشية عرفة يباهي بأهل عرفة الملائكة.

والثالثة: نزوله لفصل القضاء في الموقف في يوم القيامة؛ وهذا هو موضوع هذا البحث.

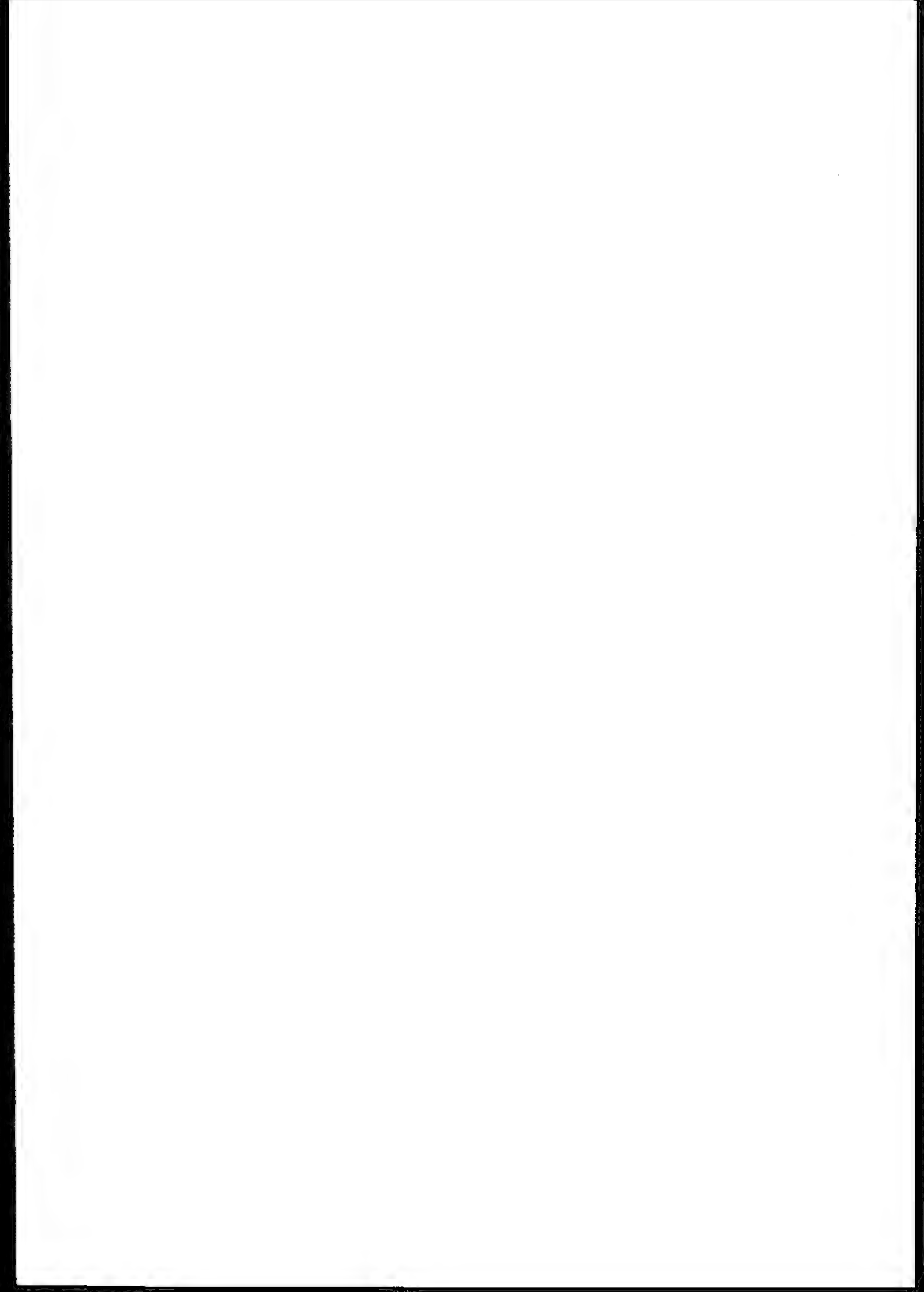
* * *





الفصل الأول

الأدلة على نزول الله تعالى لفصل القضاء



الفصل الأول

الأدلة على نزول الله تعالى لفصل القضاء

١ ـ الأدلة على نزول الله تعالى لفصل القضاء من القرآن الكريم :

ومما جاء في القرآن الكريم لإثبات نزول الله تعالى للفصل بين خلقه في يوم القيامة الآيات الآتية :

قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر : ٢١ - ٢٣].

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾[البقرة : ٢١٠].

وقال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[1] وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩ - ٧٠].

---

(١) انظر لإثبات النور لله جل وعلا : مختصر الصواعق حيث أورد العلامة ابن القيم الأدلة المستفيضة على إثبات هذه الصفة لله عز وجل ٢/ ١٩٢-١٩٦ .

٢ ـ الأدلة من السنة النبوية على نزول الله عز وجل لفصل القضاء :

ومما جاء في السنة النبوية لإثبات نزول الله تبارك وتعالى لفصل القضاء ما أفادته أحاديث الشفاعة العامة الثابتة في الصحيحين وغيرهما من وقوف الخلق في الموقف إلى أن يأذن الله بالشفاعة فيهم لإراحتهم من كرب الموقف، ومنها ما سيأتي كذلك في مبحث رؤية الله تعالى في الموقف ومحاسبته الناس.

وقد أخرج الترمذي في «جامعه الصحيح» حديثاً طويلاً في كتاب الزهد عن أبي هريرة رضي الله عنه جاء فيه :

«حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية»[١] الحديث.

وأخرج ابن جرير الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«توقفون موقفاً واحداً يوم القيامة مقدار سبعين عاماً لا ينظر إليكم، ولا يقضى بينكم، قد حصر عليكم، فتبكون حتى ينقطع الدمع، ثم تدمعون دماً وتبكون حتى يبلغ ذلك منكم الأذقان أو يلجمكم فتصيحون، ثم تقولون: من يشفع لنا إلى ربنا فيقضي بيننا؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم؟ جبل الله [٢] تربته، وخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قبلاً،**

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥٩٢، وقال: حديث حسن غريب.

(٢) جبل الله تربته : من معاني كلمة «جبل» أنها تأتي ـ كما قال الليث ـ بمعنى تأسيس الخلقة التي جبل عليها وقال : «الجبل : الخلق جبلهم الله فهم مجبولون. انظر : تهذيب اللغة ١١/ ٩٥ـ٩٦، وجبل على كذا أي خلق وطبع عليه. انظر : النهاية لابن الأثير ١/ ٢٣٦ .

فيؤتى آدم فيطلب ذلك إليه فيأبى.

ثم يستقرئون الأنبياء نبياً نبياً، كلما جاءوا نبياً أبى؛ قال رسول الله ﷺ : **حتى يأتوني؛ فإذا جاءوني خرجت حتى آتي الفحص،** قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الفحص؟ قال: **قدام العرش، فأخر ساجداً فلا أزال ساجداً حتى يبعث الله إليّ ملكاً فيأخذ بعضدي فيرفعني ثم يقول الله لي: يا محمد، فأقول: نعم: وهو أعلم، فيقول: ما شأنك؟ فأقول يا رب وعدتني الشفاعة فشفعني في خلقك فاقض بينهم: فيقول: قد شفعتك، أنا آتيكم فأقضي بينكم.** قال رسول الله ﷺ : **فأنصرف حتى أقف مع الناس.**

فبينا نحن وقوف سمعنا حساً من السماء شديداً فهالنا فنزل أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم، فقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت، ثم نزل أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة وبمثلي من فيها من الجن والإنس، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم، فقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت.

ثم نزل أهل السماء الثالثة بمثلي من نزل من الملائكة وبمثلي من في الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم، وأخذوا مصافهم، فقلنا لهم: أفيكم ربنا؟ قالوا: لا، وهو آت.

ثم نزل أهل السموات على عدد ذلك من التضعيف حتى نزل الجبار في ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم يقولون:سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان رب العرش ذي الجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، قدوس قدوس، سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه أبداً أبداً.

فينزل تبارك وتعالى يحمل عرشه يومئذ ثمانية، وهم اليوم أربعة، أقدامهم على تخوم الأرض السفلى والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم فوضع الله عز وجل عرشه حيث شاء من الأرض.

ثم ينادي مناد نداءً يسمع الخلائق، فيقول: يا معشر الجن والإنس إني قد أنصت منذ يوم خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع كلامكم وأبصر أعمالكم، فأنصتوا إليّ فإنما هي صحفكم وأعمالكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فيقضي الله عز وجل بين خلقه الجن والإنس والبهائم، فإنه ليقتص يومئذ للجماء من ذات القرون»[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

وحديث الصور إسناده ضعيف؛ لأنه من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن أبي زياد، وكلاهما ضعيف بسندهما عن رجل من الأنصار وهو مجهول لم يسم ا. هـ، الألباني في تعليقه على شرح الطحاوية ص ٢٥٦.

ثم قال الألباني: وقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٢٤٨ إنه حديث مشهور لا يستلزم صحته كما لا يخفى على أهل العلم.

وفي تفسير القرآن العظيم لابن كثير ما نصه:

«هذا حديث مشهور وهو غريب جداً ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة، وفي بعض ألفاظه نكارة، تفرد به إسماعيل بن رافع قاصّ أهل المدينة، وقد اختلف فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعفه، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبي حاتم الرازي وعمرو بن علي الفلاس، ومنهم من قال فيه: هو متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء.

قلت ـ ابن كثير ـ: وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها في جزء على حدة، وأما سياقه فغريب جداً ويقال إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كشواهد لبعض مفردات هذا الحديث فالله أعلم».

والخبر ظاهر في اثبات وجه الدلالة منه وهو نزول المولى تبارك وتعالى لفصل القضاء.

وقد يقول بعضهم: إنه قد ثبت أن الأرض بالقياس إلى السماء كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فكيف بالقياس إلى العرش والكرسي؟ فملائكة هذه المواضع بأسرها أي شيء يسعها ؟

ومن الجواب عن ذلك أن يقال ـ والله أعلم ـ: إن ذلك غير مستحيل على الله تعالى بأن يجعل الأرض المبدلة من السعة بحيث تكون كافية لهؤلاء جميعاً؛ إذ النصوص ظاهرة في نزولهم وإحاطتهم بجميع المخلوقات دائرة.

وإن كان البرديسي قد نقل جواباً عن الشاذلي منسوبًا إلى الفخر الرازي ونصه: «الجواب أن الملائكة تتلون في الغمام وهو ستر بين السماء والأرض، قاله الفخر الرازي ونقله الشاذلي»[(١)] .

ولكن هذه الإجابة ـ فيما يظهر ـ لا تتفق مع النصوص الواردة في صفة نزول الملائكة وما جاء في وصفهم بأنهم يحيطون بالمخلوقات دائرة، وكذا ما جاء من أن البشر يسألونهم حين ينزلون قائلين لهم: أفيكم ربنا؟ ويجيبونهم: سبحان الله ليس فينا، وهو آت، كل هذا يجعل الإجابة السابقة المنسوبة للرازي فيها نظر.

علماً بأن البرديسي نفسه نقل كثيراً من الروايات في نزول الملائكة وإحاطتهم بجميع من في الموقف دائرة[(٢)] . مثل قوله: « فإذا جمع الله الخلائق أجمعين في صعيد واحد سكوتاً لا يتكلمون، عراة غرلاً، مؤمنهم

(١) تكملة شرح الصدور ص ١٤.

(٢) انظر: ص ١٦، ص ١٨ من المخطوطة تكملة شرح الصدور.

وكافرهم، حرهم وعبدهم، صغيرهم وكبيرهم، إنسهم وجنهم، وملكهم ووحشهم وطيرهم حتى الذر والنمل قال الله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] أي لم نترك منهم أحداً.

وتتناثر النجوم من فوقهم ويطمس ضوء الشمس والقمر فتشتد الظلمة ويعظم الأمر، ثم تنشق السماء على غلظها وصلابتها فتسمع الخلائق لانشقاقها صوتًا عظيماً منكراً فظيعاً تدهش لهوله الألباب وتخضع لهيبته الرقاب، ثم ينظرون الملائكة هابطين إلى الأرض، فينزل ملائكة السماء الدنيا فتحيط بالخلق ثم ملائكة السماء الثانية خلفهم دائرة ثانية، كذلك حتى يكون سبع دوائر في كل دائرة ملائكة سماء»[١] . . . إلخ ما ذكره.

وأخرج ابن جرير الطبري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا، وجمع الخلائق بصعيد واحد جنهم وإنسهم، فإذا كان ذلك اليوم قيضت هذه السماء[٢] الدنيا عن أهلها على وجه الأرض، ولأهل السماء وحدهم أكثر من أهل الأرض جنهم وإنسهم بضعف، فإذا نثروا على وجه الأرض فزعوا منهم فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيفزعون من قولهم ويقولون: سبحان ربنا ليس فينا، وهو آت.

ثم تقاض السماء الثانية، ولأهل السماء الثانية وحدهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع أهل الأرض بضعف جنهم وإنسهم فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيفزعون من

(١) تكملة شرح الصدور ص ١٩.

(٢) أي نقضت أو انشقت.

قولهم، ويقولون: سبحان ربنا ليس فينا، وهو آت.

ثم تقاض السموات سماء سماء، كلما قيضت سماء عن أهلها كانت أكثر من أهل السموات التي تحتها ومن جميع أهل الأرض بضعف، فإذا نثروا على وجه الأرض فزع إليهم أهل الأرض فيقولون لهم مثل ذلك، ويرجعون إليهم مثل ذلك حتى تقاض السماء السابعة. فلأهل السماء السابعة أكثر من أهل ست سموات ومن جميع أهل الأرض بضعف، فيجيء الله فيهم والأمم جثيّ صفوفاً وينادي مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم: ليقم الحمادون لله على كل حال قال: فيقومون فيسرحون إلى الجنة.

ثم ينادي الثانية ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون؟ فيسرحون إلى الجنة.

ثم ينادي الثالثة ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم، أين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار؟ فيقومون فيسرحون إلى الجنة.

فإذا أخذ من هؤلاء ثلاثة خرج عنق من النار فأشرف على الخلائق، له عينان تبصران ولسان فصيح؛ فيقول: إني وكلت منكم بثلاثة بكل جبار عنيد فيلقطهم من الصفوف لقط الطير حبّ السمسم فيحبس بهم في جهنم، ثم يخرج ثانية فيقول إني وكلت منكم بمن آذى الله ورسوله فيلقطهم لقط الطير حب السمسم، فيحبس بهم في جهنم ثم يخرج ثالثة.

قال عوف: قال أبو المنهال: حسبت أنه يقول: وكلت بأصحاب التصاوير فيلتقطهم من الصفوف لقط الطير حب السمسم فيحبس بهم في جهنم.

فإذا أخذ من هؤلاء ثلاثة ومن هؤلاء ثلاثة نشرت الصحف ووضعت الموازين ودعي الخلائق للحساب»[١].

وعن الضحاك بن مزاحم قال: «إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا بأهلها ونزل من فيها من الملائكة وأحاطوا بالأرض ومن عليها، ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة فصفوا صفاً دون صف، ثم ينزل الملك الأعلى على مجنبته اليسرى جهنم فإذا رآها أهل الأرض ندوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قول الله: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾[غافر: ٣٢٧].

وذلك قوله: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٣].

وقوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾[الرحمن: ٣٣].

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ

---

(١) تفسير ابن جرير ٣٠/ ١٨٥، وفي سند هذا الحديث الحارث وقال الذهبي عن الحديث: إنه موقوف وسنده حسن. المطالب العالية ٤/ ٣٧٥.

أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة: ١٦ - ١٦].

وروايته السابقة عن ابن عباس وروايته الأخرى كذلك عن الضحاك بن مزاحم لم يصرح فيها بالرفع إلى رسول الله ﷺ ، ولكن مثل هذه الأمور الغيبية لا يستطيع أن يجزم فيها بحكم إلا إذا أيده النص، فهي ليست من المسائل التي تقبل أن يقال فيها بالرأي دون دليل، والله أعلم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ من حديث طويل وفيه قال رسول الله ﷺ : «**يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء، قال: وينزل الله عز وجل في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي، ثم ينادي مناد: أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً أن يولي كل إنسان منكم ما كانوا يعبدون في الدنيا أليس ذلك عدلا من ربكم قالوا: بلى، فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون في الدنيا**[١] . . . » إلخ الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية . . . إلخ الحديث في وصف الحساب[٢] .

وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يجمع الأمم يوم**

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب الترهيب ٤/ ٣٩٢، وعزاه إلى ابن أبي الدنيا والطبراني من طرق أحدها صحيح واللفظ له، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٨٠ وعزاه إلى ابن مردويه، وابن كثير في التفسير ١/ ٥٩٢ وقال: إن فيه غرابة.

(٢) الترمذي ٤/ ٥٩٢.

القيامة، ثم ينزل من عرشه إلى كرسيه، وكرسيه وسع السموات والأرض[١].

وقد اكتفيت بما تقدم ذكره والإشارة إليه - مما وجدته - من أحاديث نزول الله تبارك وتعالى لفصل القضاء.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه «شرح حديث النزول» أن الأحاديث في نزول الله تعالى لفصل القضاء كثيرة متواترة حيث قال: «والأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في إثبات نزول الرب يوم القيامة كثيرة»[٢].

إلا أن الأحاديث التي ذكرها في هذا الكتاب تتعلق بنزول الله تعالى يوم عرفة، ونزوله في الثلث الأخير من كل ليلة، على أنه مهما كانت منزلة الأحاديث السابقة فإن مصداقها في كتاب الله تعالى واضح تمام الوضوح.

وقال ابن القيم: «وهذا النزول إلى الأرض يوم القيامة قد تواترت به الأحاديث والآثار ودل عليه القرآن صريحاً في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

ثم نقل عن عبد الله بن المبارك بسنده إلى شقي بن ماتع الأصبحي قال: قدمت المدينة فدخلت المسجد فإذا الناس قد اجتمعوا على أبي هريرة، فلما تفرقوا دنوت فقلت حدثنا حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة نزل الله إلى العباد ليقضي بينهم وكل**

---

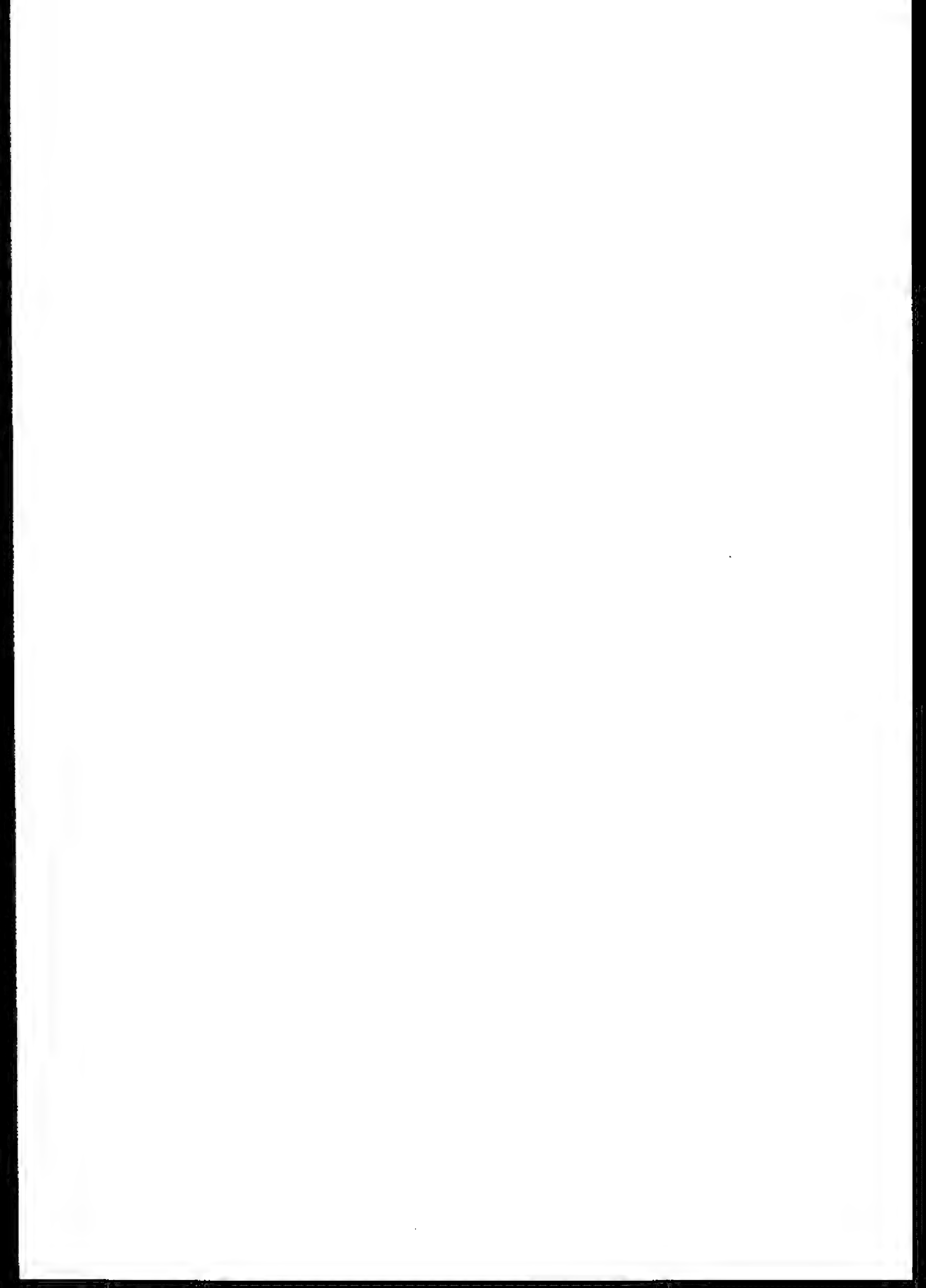
(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٣ إلا أن الحديث ضعيف؛ لأن فيه عبد الأعلى بن أبي المساور وهو متروك كما ذكر الهيثمي.

(٢) انظر: شرح حديث النزول ص ٣٩.

أمة جاثية، فأول من يدعى رجل جمع القرآن، وذكر الحديث بطوله، وأصله في صحيح مسلم وفي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك وفيها: «**ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى**»[1].

* * *

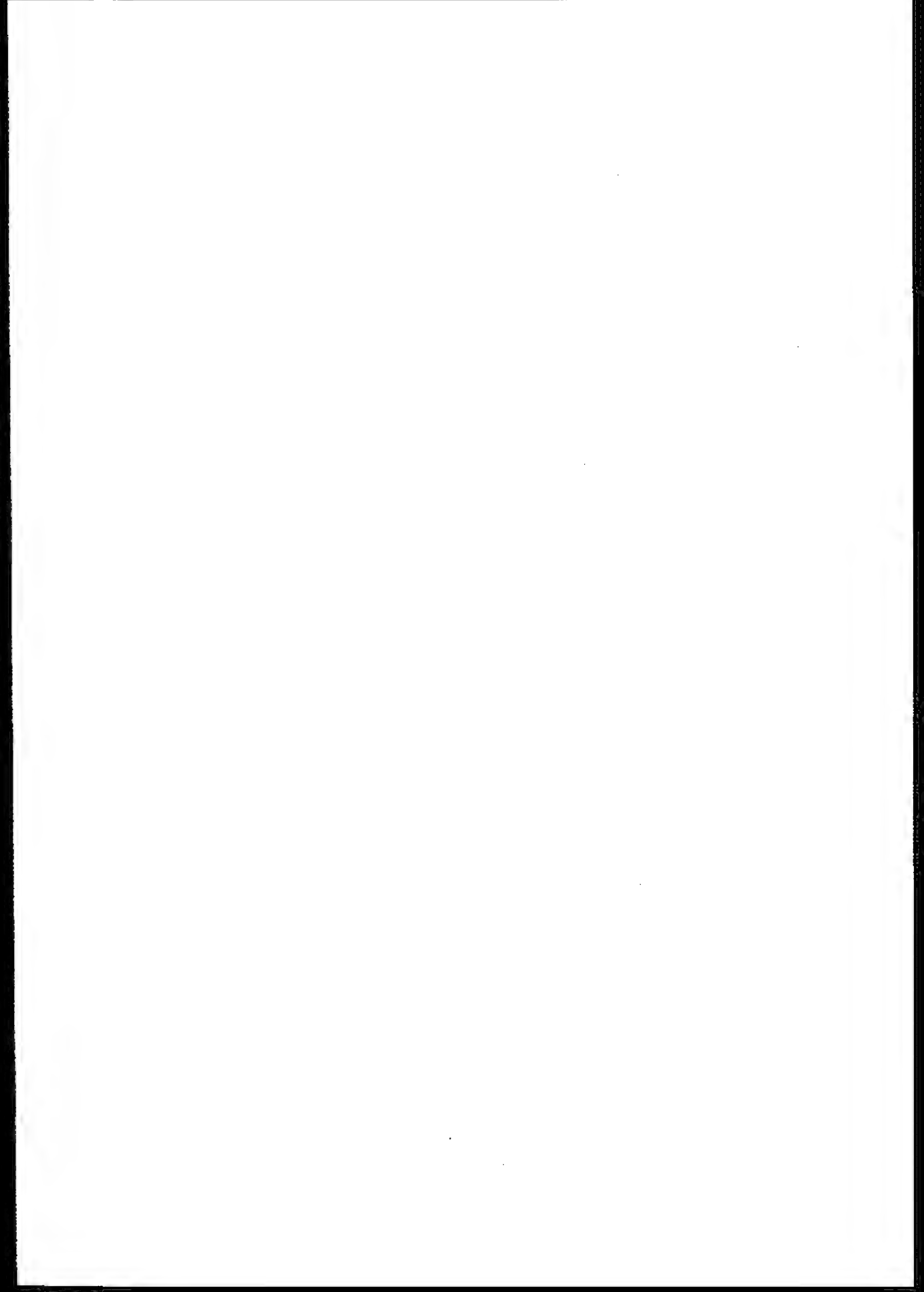
(١) انظر: مختصر الصواعق ص ٢٤٨.





الفصل الثاني

معنى مجيء الله تبارك وتعالى



الفصل الثاني

معنى مجيء الله تبارك وتعالى

وإذا كانت تلك النصوص التي قدمنا إيرادها تثبت المجيء للرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء فما معنى هذا المجيء ؟

هل هو مجيء ذاته جل وعلا ؟ أم هو مجيء أمره؟ أو حسابه أو عذابه ؟ أو ملائكته؟

إلى آخر ما أورد أهل العلم من متكلمين ومفسرين ومحدثين وغيرهم نبينها فيما يلي.

ونبين القول الحق منها الذي يؤيده الدليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال السلف وعلماء الإسلام في ذلك، مع رد الأقوال الأخرى الباطلة والتأويلات البعيدة في معنى إتيان الله عز وجل:

* * *

مذهب السلف

ذهب أهل الحق من علماء السلف إلى القول بأن المراد من معنى إتيان الله المذكور في الآيات الكريمة السابقة والأحاديث النبوية هو إتيان الله جل وعلا حقيقة بذاته، على صفة تليق بجلاله؛ إتياناً من غير تشبيه ولا تكييف، وأنه تبارك وتعالى يضع كرسيه لفصل القضاء أين شاء، إثباتاً على ضوء قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] فهو الواحد الأحد الفرد الصمد يجيء وينزل لا كنزول خلقه ومجيئهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما ينقله عن ابن عمر الطلمنكي: «أجمعوا -يعني أهل السنة والجماعة- على أن الله يأتي يوم القيامة والملائكة صفاً صفاً لحساب الأمم وعرضها كما يشاء وكيف يشاء»[1] .

ثم استدل بالآيات من قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وكذا قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢]، على ثبوت المجيء حقيقة.

وقال الحافظ أبو نعيم: «وأجمعوا أن الله فوق سمواته عال على عرشه مستو عليه، لا مستول عليه كما تقول الجهمية إنه بكل مكان، خلافاً لما نزل في كتابه: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ

---

(١) شرح حديث النزول ص ١٨٨ .

الطَّيِّبُ ﴾[فاطر: ١٠]، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥].

له العرش المستوي عليه والكرسي الذي وسع السموات والأرض وهو قوله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. وكرسيه جسم، والأرضون السبع والسموات السبع عند الكرسي كحلقة في أرض فلاة.

وليس كرسيه علمه كما قالت الجهمية بل يوضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء بين خلقه كما قاله النبي ﷺ، وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، والملائكة صفاً صفاً كما قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

«وأنه تعالى وتقدس يجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده فيغفر لمن يشاء من مذنبي الموحدين ويعذب من يشاء كما قال تعالى ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾»[1].

وقال ابن كثير في التفسير في معنى قول الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٠]. . . إلخ الآية الكريمة أن ذلك «يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر»[2].

وقال في تفسير سورة الزمر عند قوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩] إلخ الآية الكريمة:

---

(١) شرح حديث النزول: ص ١٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٤٨.

«أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء»[1].

ويقول ابن جرير في معنى الآية كذلك: «يقول تعالى ذكره فأضاءت الأرض بنور ربها يقال: أشرقت الشمس إذا صفت وأضاءت، وأشرقت إذا طلعت، وذلك حين يبرز الرحمن لفصل القضاء بين خلقه».

ثم استدل على هذا بما أخرجه بسنده إلى قتادة أنه قال في تفسير الآية ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] قال: «فما يتضارون في نوره إلا كما يتضارون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه».

وبما أخرج عن السدي كذلك من تفسيره للآية بأن الأرض تضيء بنور الله تعالى[2]، وساق ابن أبي حاتم بسنده إلى عبد الله بن عمرو في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ الآية، قال: «يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب»[3].

وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ قال: «هو غير السحاب ولم يكن - أي الغمام

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٦٤.

(٢) جامع البيان ٢٤/ ٣٢ وانظر: الدار المنثور ٧/ ٢٦٢.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٢٤٨.

وذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٨٠ وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

- إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة»[١].

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**إن من الغمام طاقات يأتي الله فيها محفوفاً وذلك قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾**»[٢]، وهو رأي عكرمة أيضاً[٣].

وقد رجح ابن جرير في معنى الآية أنها تدل على إتيان الله تعالى في ظلل من الغمام وأن الملائكة تأتي كذلك[٤].

وقال أبو سعيد الدارمي رحمه الله: «فمما يعتبر به من كتاب الله عز وجل في النزول، ويحتج به على من أنكر - قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ**﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله تعالى: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر: ٢٢]، وهذا يوم القيامة إذا نزل الله ليحكم بين العباد وهو قوله: ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا**﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦]»[٥].

وفي باب نزول الرب تبارك وتعالى يوم القيامة للحساب ساق الإمام

---

(١) ذكره ابن جرير ٢/ ٣٢٨ والسيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٨٠ معزواً إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد.

(٢)، (٣)، (٤) المصدر السابق ص ٣٢٩. وقد ذكره السيوطي ١/ ٥٨٠ في الدر المنثور معزواً إلى ابن جرير والديلمي عن ابن عباس.

(٥) كتاب الرد على الجهمية ص: ٣٨.

الدارمي بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: وتلا هذه الآية ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] قال: يبدلها الله يوم القيامة بأرض من فضة لم يعمل عليها الخطايا، ينزل عليها الجبار تبارك وتعالى[١].

وساق أبو سعيد الدارمي بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٥] قال: ينزل أهل سماء الدنيا وهم أكثر من أهل الأرض ومن الجن والإنس، فيقول أهل الأرض: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وسيأتي، ثم تشقق السماء الثانية؛ وساق أبو سلمة الحديث إلى السماء السابعة قال: فيقولون: أفيكم ربنا؟ فيقولون: لا، وسيأتي، ثم يأتي الرب تبارك وتعالى في الكروبيين[٢] وهم أكثر من أهل السموات والأرض[٣].

وروى بسنده كذلك إلى الضحاك بن مزاحم قال: إن الله يأمر السماء يوم القيامة فتنشق بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها، ويأمر السماء الثانية، حتى ذكر سبع سموات فيكونون سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس، قال: ثم ينزل الله في بهائه وجماله ومعه ما شاء من الملائكة، مجنبته اليسرى جهنم فإذا رآها الناس تلظى وسمعوا زفيرها وشهيقها ندّ الناس في الأرض فلا يأتون قطراً من أقطارها إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة وذلك قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [غافر: ٣٢] يقول: يند الناس فيقول الله عز وجل:

---

(١) الرد على الجهمية ص: ٤٢.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية: وفي حديث أبي العالية: «الكروبيون سادة الملائكة» هم المقربون. النهاية في غريب الحديث ٤/ ١٦١.

(٣) الرد على الجهمية ص: ٤٣.

﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣] .

وذلك قوله عز وجل : ﴿ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ [الفجر : ٢٣]، وقوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ [الفرقان : ٢٥] ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾[الحاقة : ١٧] قال : قلت له : ما أرجاؤها؟ قال : حافتها[١] .

وقال الحسن : «إذا كان يوم القيامة برز ربنا تبارك وتعالى فيراه الخلق ويحجب الكفار فلا يرونه»[٢] وسيأتي بيان رؤية الكفار لربهم أو عدمها في مبحث الرؤية.

وقال الإمام ابن خزيمة ـ رحمه الله تعالى ـ في نصوص النزول : «نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب، من غير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه عليه السلام بيان ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول»[٣] .

---

(١) الرد على الجهمية للدارمي ص ٤٣ . وذكر الألباني أن الحديث مقطوع وإسناده ضعيف .
(٢) مختصر لوامع الأنوار ص : ٤٤٤ .
(٣) كتاب التوحيد ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

وقد أكثر العلامة ابن القيم من النصوص في إثبات هذه الصفة لله عز وجل في أكثر من موضع كما في «مختصر الصواعق» ومن ذلك قوله في تفسير الآية ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٦٩].

قال: «فأخبر أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره وهو نوره، الذي هو نوره فإنه سبحانه يأتي لفصل القضاء بين عباده وينصب كرسيه بالأرض، فإذا جاء الله تعالى أشرقت الأرض وحق لها أن تشرق بنوره، وعند المعطلة لا يأتي ولا يجيء ولا له نور تشرق به الأرض»[1].

وذكر العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي في معنى الآية ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٢٠] الآية ما نصه: « وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين ويحق الجزاء السيىء على المفسدين.

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب وتكور الشمس والقمر وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق وينزل الباري تبارك وتعالى في ظلل من الغمام ليفصل بين عباده بالقضاء العدل، فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله».

إلى أن يقول: «وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة

---

(١) مختصر الصواعق ٢/ ١٩٣.

المثبتين للصفات الاختيارية كالاستواء والنزول والمجيء ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، وأخبر بها عنه رسوله ﷺ ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم من الجهمية والمعتزلة والأشعرية ونحوهم ممن ينفي هذه الصفات ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله بها من سلطان»[1].

* * *

مذهب المؤولين

وأما القسم الآخر من العلماء وهم الذين ذهبوا إلى تأويل معنى مجيء الله تعالى حيث قالوا: إن معنى مجيء الله تعالى الوارد في النصوص هو بمعنى مجيء أمره أو مجيء الساعة أو العذاب، أو أنه من المتشابه الذي لا يعلم وليس معناه مجيء الله بذاته جل وعلا لفصل القضاء ـ على حد زعمهم ـ. فهو ما ذكره ابن جرير الطبري عنهم بقوله: «وقال آخرون معنى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٢٠].

١ – يعني به: هل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله[١]، كما يقال: قد خشينا أن يأتينا بنو أمية يزاد به حكمهم.

٢ – وقال آخرون: بل معنى ذلك : هل ينظرون إلا أن يأتيهم ثوابه وحسابه وعذابه، كما قال هو عز وجل: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، [سبأ: ٣٣]، وكما يقال: قطع الوالي اللص أو ضربه، وإنما قطعه أعوانه»[٢].

٣ – وذكر كذلك رأي فريق آخر من الناس في صفة المجيء الذي ذكره الله، ويظهر أنهم يريدون التوقف عن إثبات تلك الصفة لله تعالى فلا يثبتون منها إلا الاسم فقط وذلك في قوله: «ثم اختلف في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى الذي ذكره، وذلك في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ

---

(١) وقد رد العلامة ابن القيم هذا التأويل ردًا مستفيضاً من عشرة أوجه، انظر: مختصر الصواعق ٢/ ١٠٦ـ١٠٩.

(٢) تفسير الطبري ٢/ ٣٢٩.

الله ﴾ فقال بعضهم: لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عز وجل من المجيء والإتيان والنزول، وغير جائز تكلف القول في ذلك لأحد إلا بخبر من الله جل جلاله أو من رسول مرسل. فأما القول في صفات الله وأسمائه فغير جائز لأحد من جهة الاستخراج إلا بما ذكرنا.

وفي المقابل هناك طائفة ذكرها ابن جرير ذهبت في إثبات صفة النزول إلى ما يبدو أنه قول بالتشبيه فقال عنهم: «وقال آخرون: إتيانه عز وجل نظير ما يعرف من مجيء الجائي من موضع إلى موضع وانتقاله من مكان إلى مكان»[1].

وقد حصر شيخ الإسلام ابن تيمية خلاف الناس وافتراقهم في ستة أقوال وهي إجمالاً:

١ ـ طائفة يقولون: تجرى على ظاهرها، ويجعلون إتيانه من جنس إتيان المخلوق، ونزوله من جنس نزولهم، وهؤلاء المشبهة الممثلة.

٢ ـ وطائفة يقولون: بل النصوص على ظاهرها اللائق به . . . ويقولون نزل نزولاً يليق بجلاله، وكذلك يأتي إتياناً يليق بجلاله، وهو عندهم ينزل ويأتي ولم يزل عالياً وهو فوق العرش كما قال حماد بن زيد: هو فوق العرش يقرب من خلقه كيف شاء، وقال إسحاق بن راهويه: ينزل ولا يخلو منه العرش. ونقل ذلك عن أحمد بن حنبل في رسالة إلى مسدد.

وتفسير النزول بفعل يقوم بذاته هو قول علماء أهل الحديث، وهو الذي حكاه أبو عمر بن عبد البر عنهم، وهو قول عامة القدماء من أصحاب أحمد وقد صرح به ابن حامد وغيره.

---

(١) جامع البيان ٢/ ٣٢٩.

٣ ـ ٤ ـ وطائفتان يقولان: بل لا ينزل ولا يأتي كما تقدم، ثم منهم من يتأول ذلك، ومنهم من يفوض معناه.

٥ ـ ٦ ـ وطائفتان واقفتان، منهم من يقول: ما ندري ما أراد الله بهذا، ومنهم من لا يزيد على تلاوة القرآن[1].

وهو ما ذكره كذلك الرازي في بيانه لا ختلاف أهل الكلام في معنى الآية ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٢٠] إلخ الآية الكريمة، حيث ذكر لهم وجوهاً كثيرة في معنى الآية وكلها في الواقع تأويلات وخروج عن معنى الآية الصحيح كما نتبين ذلك من عرض تلك الأقوال وهي ـ بتصرف ـ:

(أ) أن المجيء والذهاب محال على الله تعالى وليس المراد من هذه الآية إثبات ذلك وإنما تثبت الآية شيئاً آخر لا نعلمه، والأولى السكوت عن تأويلها.

(ب) وهو مذهب جمهور المتكلمين الذين ذهبوا إلى تأويل الآية على سبيل التفصيل، وهؤلاء قد ذهبوا في ذلك التأويل إلى ما حاصله:

١ ـ معنى إتيان الله : أي إتيان آيات الله، فجعل مجيء الآيات مجيئاً له على التفخيم لشأن الآيات، كما يقال: جاء الملك إذا جاء جيش عظيم من جهته.

٢ ـ معنى إتيان الله : أي إتيان أمره في ظلل من الغمام.

٣ ـ معنى الإتيان: أي إتيان الله لهم بما وعد من العذاب والحساب،

---

(١) الفتاوى ١٦/ ٣٩٩.

فحذف ما يأتي به تهويلاً عليهم وهو ما ذكره أيضاً في تفسير سورة الفجر أي: «وجاء أمر ربك بالمحاسبة والمجازاة»[1].

٤ ـ أن يكون معنى «في» معنى الباء وتقديره: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة، والمراد العذاب الذي يأتيهم في الغمام مع الملائكة.

٥ ـ أن المقصود من الآية تصوير عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها، فيكون الغرض من ذكر إتيان الله تصوير غاية الهيبة ونهاية الفزع، وشرح هذا في سورة الفجر عند قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

فقال ـ في معرض بيانه لأقوال أهل العلم ـ: وخامسها أن هذا تمثيل لظهور آيات الله وتبيين آثار قهره وسلطانه، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه فإنه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها.

٦ ـ أن الآية نزلت في حق اليهود وذلك أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ إنما نزلت في حق اليهود، وعلى هذا التقدير فقوله ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يكون خطاباً مع اليهود، وحينئذ يكون قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ...﴾ الآية. حكاية عن اليهود.

---

(١) التفسير الكبير ٣١/ ١٧٣.

قال الرازي: «والمعنى أنهم لا يقبلون دينك إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة، ألا ترى أنهم فعلوا مع موسى مثل ذلك فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ الآية.

وإذا كان هذا حكاية عن حال اليهود ولم يمنع إجراء الآية على ظاهرها؛ وذلك لأن اليهود كانوا على مذهب التشبيه وكانوا يجوزون على الله المجيء والذهاب، ومع بعد هذا التأويل لمعنى الآية فإن الرازي غفر الله له - يقول عن هذا الوجه: «وهو أوضح عندي من كل ما سلف».

ثم ذكر الرازي وجهاً آخر قاله القفال في تفسيره عن أبي العالية: «وهو أن الإتيان في الظلل مضاف إلى الملائكة، فأما المضاف إلى الله جل جلاله فهو الإتيان فقط، فكان حمل الكلام على التقديم والتأخير، ويستشهد في صحته بقراءة من قرأ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] قال القفال - رحمه الله -: هذا التأويل مستنكر[1].

وأضاف الرازي في سورة الفجر عند قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. من معاني المجيء قوله: «وثانيها: وجاء قهر ربك كما يقال: جاءتنا بنو أمية، أي قهرهم»... ورابعها: وجاء ظهور ربك، وذلك لأن معرفة الله تصير في ذلك اليوم ضرورية. فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق، فقيل: وجاء ربك، أي زالت الشبهة وارتفعت الشكوك».

ثم ذكر قولاً خامساً يعد من أشنع أنواع التأويل وهو قوله: «وسادسها: أن الرب هو المربي ولعل ملكاً هو أعظم الملائكة هو مربي للنبي ﷺ جاء

---

(١) التفسير الكبير ٥/ ٢١٣-٢١٧.

فكان هو المراد من قوله ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾»[1] .

ومع أن الأقوال التي ذكرها كلها خروج عن المعنى الحق وباطلة ، لكن أردؤها هذا التأويل في القول السادس ، فما فائدة مجيء ملك واحد كان مربياً للنبي ﷺ في ذلك اليوم ، هذا هو التكلف الظاهر الذي لا مستند له .

وذكر عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : ٦٩] أقوالاً مردودة تأولها النفاة على غير معناها الصحيح ومنها :

١ ـ أن النور المذكور هنا معناه مجيء عدل الله تعالى كما يقال للملك : أشرقت الآفاق بعدلك .

٢ ـ أنه يحصل هناك نور مضاف إلى الله تعالى نسبة تشريف كبيت الله وناقة الله .

٣ ـ «أنه قد يقال فلان رب هذه الأرض ورب هذه الدار ورب هذه الجارية ، ولا يبعد أن يكون رب هذه الأرض ملكاً من الملوك وعلى هذا التقدير فلا يمتنع كونه نوراً»[2] .

وهذه الأوجه يذكرها الرازي دفعاً للقول بأن ذلك الإشراق يحصل عندما يتجلى الله لفصل القضاء .

ويقول الشوكاني في بيانه لمعنى الآية وإشراق الأرض بنور ربها : «والمعنى أن الأرض أضاءت وأنارت بما أقامه الله من العدل بين أهلها وما قضى به من الحق فيهم فالعدل نور والظلم ظلمات ، وقيل : إن الله يخلق نوراً

---

(١) التفسير الكبير ٣١/ ١٧٤ .

(٢) المصدر السابق ٢٧/ ١٩ .

يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق به غير نور الشمس والقمر».

ولكنه قال بعد هذه التأويلات الباطلة: «ولا مانع من الحمل على المعنى الحقيقي، فإن الله سبحانه هو نور السموات والأرض»(١).

ثم عرض الشوكاني هنا كذلك بعض معاني الإتيان المذكور في الآية على حسب آراء النحاة، وهي الآراء التي سار عليها أهل الكلام للإبعاد بمعنى الآية عن إثبات إتيان الله حقيقة لفصل القضاء، ومن ذلك قولهم:

١ - إن معنى الآية على رأي الزجاج: هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعدهم من الحساب والعذاب في ظلل من الغمام والملائكة.

٢ - وقال الأخفش: وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء فسمى الجزاء إتياناً كما سمى التخويف والتعذيب في قصة ثمود إتياناً فقال: ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ [النحل: ٢٦]، وقال في قصة بني النضير: ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ [الحشر: ٢].

وإنما احتمل الإتيان هذا لأن أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشيء فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد محاربتهم، وقيل: إن المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه . . .، وقيل: إن المعنى يأتيهم ببأسه في ظلل.

ويذكر محمد رشيد رضا بعضاً من تلك التأويلات في معنى إتيان تعالى ومنها:

إن من المفسرين من قال: إن معنى الآية: «أي هل ينظرون إلا أن

---

(١) فتح القدير ٤/ ٤٧٦.

يأتيهم الله بما وعدهم به من الساعة والعذاب»، ثم قال: «وعده آخرون من المتشابهات فقالوا: إن الله تعالى يأتي بذاته ولكن لا كإتيان البشر بل إتيانه من صفاته التي لا نبحث عن كيفيتها اتباعاً للسلف».

وقال كذلك: «وأما تأويل الإتيان بما نقله البيهقي عن الأشعري فلا نذكره لأنه مما يزيد المعنى بعداً عن الفهم»[1].

ورأي الأشعري الذي أشار إليه محمد رشيد رضا وأن البيهقي يقول به، يريد به ما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية من أنه يرى أن الله تعالى لا يقوم بذاته فعل اختياري، وأن معنى النزول والاستواء وغير ذلك أفعال يفعلها الرب في المخلوقات.

ثم قال: «وهذا هو المنصوص عن أبي الحسن الأشعري وغيره، قالوا: الاستواء فعل فعله في العرش كان به مستوياً، وهذا قول أبي الحسن الزاغوني، وهؤلاء يدعون أنهم وافقوا السلف وليس الأمر كذلك»[2].

والأستاذ/ محمد رشيد رضا وهو يشرح معنى الآية بعد أن ذكر قول من ذهب من المفسرين إلى أن معنى الآية هو من المتشابه[3] ـ لم يرتض هذا القول، ثم رد عليه بأنه ليس من مقتضى مذهب السلف أن يجعل كل ما يسند إلى الله تعالى من المتشابه الذي لا يفهم فقال: «وقد يقال إنه ليس من مقتضى مذهب السلف أن يجعل كل ما يسند إلى الله تعالى من المتشابهات التي لا تفهم بحال ولا تفسر ولو بإجمال، فحسبنا أن نقول على رأي من فسر

---

(١) تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.

(٢) شرح حديث النزول ص: ٥٨.

(٣) تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.

إتيان الله هنا بإتيان أمره وما وعد به من العذاب أو إتيانه بما وعد به: إننا نفوض إليه تعالى كيفية ذلك وبذا نكون على طريقة السلف في التفويض»[١].

والسلف ما كانوا يثبتون تلك التأويلات ثم بعد ذلك يفوضون معناها إلى الله تعالى وإنما كانوا يثبتون حقيقة الصفة ثم يفوضون كيفيتها إلى الله تعالى كما هو المشهور من مذهبهم: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة». وكذلك القول في النزول فيقال: «النزول غير مجهول والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة»[٢].

فلو أن المرء جرى على ما سار عليه السلف من القول بمجيء الله تعالى بذاته ثم تفويض الأمر بعد ذلك إلى الله تعالى في الكيفية لكان هو المعتقد الصحيح.

وقال الأستاذ/ محمد عبده كما ينقله عنه محمد رشيد رضا في تعليله لمعنى إتيان الله في ظلل من الغمام ما نصه: «وقال الأستاذ الإمام: إن الحكمة في نزول العذاب في الغمام إنزاله فجأة من غير تمهيد ينذر به ولا توطئة توطن النفوس على احتماله، وذلك أبلغ من هوله (ما من دهي بالأمر كالمعتد) وهو ذلك الغمام الذي يحدث عن تخريب العالم فجأة فيأتيهم العذاب قبل أن يتبدد الغمام الناشئ عند الخراب»[٣].

ولكنه بعد أن قال ما تقدم ـ ذكر أيضا أن الأستاذ الإمام ذهب في تفسير الآية إلى وجه آخر يتفق مع مذهب السلف ثم بينه محمد رشيد بقوله:

---

(١) تفسير المنار ٢/ ٢٦٣.

(٢) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي ص ٣٤.

(٣) تفسير المنار ٢/ ٢٦٤.

«وذكر الأستاذ الإمام في تفسير الآية وجها آخر يعد بياناً للقول بأن الإتيان مسند إلى الله تعالى على أنه هو الذي يأتي على ظاهر مذهب السلف لا عذابه ولا يومه الموعود» .

ثم نقل عنه كلاماً حاصله : أن الناس بالنسبة للإيمان بالله تعالى واليقين به يختلفون إلى أهل يقين خالص بمعنى أن الله يكون حاضراً عندهم وأنه معهم أينما كانوا ، وهم الذين قال قائلهم : لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً .

ومنهم من ليس له تلك المعرفة وهذا اليقين بل هم أصحاب شكوك وظنون ، فاتخذوا بينهم وبين الله حجاباً ووسطاء وشبهوه بخلقه في كثير من الشئون ، فهم غائبون عن الله تعالى ومحجوبون عن ربهم بحيث لا تطوف معرفته الحقيقية بعقولهم ولا تلابس عظمته وكماله قلوبهم ، فإذا كان يوم القيامة وكشف الحجاب عرفوا الله ربهم الحق وتبين لهم ما كانوا عليه من الباطل فذلك إتيان الله لهم ، أي يأتيهم من معرفته ما كانوا غائبين عنه ومحرومين منه في الدنيا»[1] .

وهذه العبارات ـ كما يبدو عليها ـ لا تدل على القول بإتيان الله بذاته جل وعلا بل هو نوع آخر من التأويلات التي لا تثبت إتيان الله بذاته وهذا ظاهر من قوله : «يأتيهم من معرفته ما كانوا غائبين عنه ومحرومين منه في الدنيا» .

وهذا الرأي هو ما سار عليه العلامة الغزالي وغيره من علماء الصوفية حسب ما نقله عنهم محمد رشيد رضا بقوله :

«وقال الغزالي وغيره من أئمة الصوفية : إن الحجب أي الموانع التي تمنع

(١) تفسير المنار ٢/ ٢٦٥ .

العبد من معرفة الحق كثيرة أكثفها نفسه، وهذه الحجب تزال يوم القيامة عن المؤمنين إلا حجاباً واحداً، فيعرفون الحق معرفة كاملة تستغرق الروح وذلك ما عبر عنه بالرؤية وبمجيء الله وإتيانه»[١] .

وقد سار على هذا التأويل أيضاً من علماء التفسير الجلالان: المحلي والسيوطي حيث فسرا كل آية فيها ذكر مجيء الله ، بمجيء أمره[٢]. وكذا النسفي في تفسيره[٣] وغيرهم ممن ينفي القول بمجيء الله حقيقة.

وقد أضاف القرطبي إلى تلك التأويلات الباطلة في معنى الآية تأويلات أخرى فقال: «فمعنى الآية: هل ينظرون إلا أن يظهر الله تعالى فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى مجازاتهم ويقضي في أمرهم ما هو قاض، وكما أنه سبحانه أحدث فعلاً سماه نزولاً واستواء كذلك يحدث فعلاً يسميه إتياناً، وأفعاله بلا آلة ولا علة سبحانه»[٤] .

وهذا التأويل خروج بمعنى الآية إلى غير ما دلت عليه، وإسناده جزاء العباد إلى فعل من أفعال الله مع خلق من خلقه يجازيهم ويقضي بينهم غير مسلم، فإن مذهب السلف أن المتولي لحساب العباد هو الله وحده.

ويتضح مما سبق عرضه أن تلك التأويلات التي جاء بها من ينفي تلك الصفة في شرحهم لآيات إثبات نزول الله لفصل القضاء أنها كلها أقوال متكلفة وغير مسلمة ومن أمثلة ذلك تأويل المجيء إلى معنى العدل، ذلك أن

---

(١) تفسير المنار ص ٢٦٧.
(٢) تفسير الجلالين في عدة صفحات منها ص ٢٩.
(٣) تفسير النسفي ص ١٠٥ ج ١.
(٤) تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٢٦.

عدل الله حاصل في كل وقت ولا يختص بوقت بعينه، وكذا نسبة النور إلى الله فهو على حقيقته ولا لزوم للتأويل لأنها صفة كمال بخلاف نسبة الناقة والبيت إلى الله تعالى.

ثم ما هي النتيجة من مجيء نور مضاف إلى الله ينزل إلى الموقف، وكذا تأويل معنى الآية بأن ملكاً تشرق الأرض بنوره هو رب هذه الأرض فهذا مما لا يخفى بعده عن الحق وهو قول لم يدل عليه أي دليل من القرآن ولا من السنة ولا من أقوال السلف، إلى آخر تلك المعاني التي ذكرها المؤولون لصفة المجيء.

فالأولى بالمؤمن الذي يتحرى الحقيقة أن يكون في غنى عن مثل تلك التأويلات فنثبت ما أثبته الله لنفسه أو وصفه به رسوله ﷺ ثم يترك بحث الكيفيات ويكل علمها إلى الله تعالى.

وهذا هو الأسلم، وهذا هو الذي ينبغي، ويغني عن تلك التكلفات؛ لأن الحامل لهؤلاء على هذه التأويلات هو الهرب من إثبات الكيفية التي يلزم منها المحال على الله وهذا طيب لولا أنهم تجاوزوا في النفي إلى الحد المذموم؛ إذ لم يقتصروا على نفي الكيفية بل تعدوه إلى نفي الصفة ذاتها فنفوا ما أثبته الله لنفسه.

وكون الذي حملهم على تلك الأقوال هو الفرار من إثبات صفة المجيء لله تعالى تنزيهاً لله تعالى أن يشبه بخلقه الذين يتصفون بصفة المجيء والإتيان؛ حجة غير مقبولة؛ ذلك أن الاتفاق في التسمية لا يلزم منه القول بالتشبيه كما قرره علماء السلف.

فقد سمى الله نفسه بأسماء في كتابه الكريم وسمى بها كذلك بعض خلقه في آيات كثيرة ولم يكن هذا من باب التشبيه، وإن كان الاتفاق في التسمية حاصلاً فلا يمنع أن يتصف المخلوق بالإتيان ويتصف الله بذلك، ولله المثل الأعلى، فإتيان المخلوق إتيان يليق به وإتيان الله إتيان يليق به تعالى.

فعلمنا مما سبق ذكره آنفا أن الله تعالى يتصف بصفة النزول مثل اتصافه بالصفات الأخرى الثابتة له كما دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية، وليس هناك أي محذور من إطلاق هذا الوصف على الباري سبحانه وتعالى حقيقة كما جاءت به النصوص.

ولا ينبغي الإنكار على من أطلق على الله صفة النزول لأن من ينكر ذلك سيفضي به حتما إلى رد النصوص الصحيحة الصريحة في إثبات هذه الصفة التي اتضحت أدلتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ كما رأينا.

وإذا قلنا بأنه ليس هناك أي محذور من إطلاق هذه الصفة على الله تعالى فإن ذلك لا يشمل من أطلق هذه الصفة على كيفية مخصوصة كما هو معلوم، لأن ذلك هو من القول على الله بغير علم، فإذا بلغ الاعتقاد بالشخص إلى ذكر الكيفية وتفصيلها فلا شك أنه قد جاوز الحق وصار مشبهاً مذموماً، وذلك لعدم ورود نص يبين الكيفية التي يتم بها نزول الله تعالى، فالواجب هو الاقتصار على إثبات ما أثبته الله ورسوله من الصفات التي تطلق على الله تعالى من غير إفراط ولا تفريط.

وهذا هو القول الحق والطريق السوي الذي جاء بيانه في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ، وسار عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وقال أبو سعيد الدارمي في رده على من أول إتيان الله بمعنى من المعاني

الباطلة: «فقال قائل منهم: معنى إتيانه في ظلل من الغمام ومجيئه والملك صفاً صفاً كمعنى كذا وكذا، قلت: هذا التكذيب بالآية صراحاً، تلك معناها بين الأمة، لا اختلاف بيننا وبينكم وبين المسلمين في معناها المفهوم المعقول عند جميع المسلمين، فأما مجيئه يوم القيامة وإتيانه في ظلل من الغمام والملائكة فلا اختلاف بين الأمة أنه إنما يأتيهم يومئذ كذلك لمحاسبتهم وليصدع بين خلقه ويقررهم بأعمالهم ويجزيهم بها ولينصف المظلوم منهم من الظالم، لا يتولى ذلك أحد غيره - تبارك اسمه وتعالى جده .

فمن لم يؤمن بذلك لم يؤمن بيوم الحساب، ولكن إن كنتم محقين في تأويلكم هذا وما ادعيتم من باطلكم - ولستم كذلك - فائتوا بحديث يقوي مذهبكم فيه عن رسول الله ﷺ أو بتفسير تؤثرونه صحيحاً عن أحد من الصحابة أو التابعين كما أتيانكم به عنهم نحن لمذهبنا»[1] إلخ رده على الجهمية.

ولقد استفاض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الرد على المؤولين لصفة نزول الله يوم الفصل بمجيء أمره ونحو ذلك من التأويلات البعيدة المجانبة للحق وذكر أقوال علماء السلف في إبطالها، فهو بعد أن ذكر الآيات التي تدل على نزول الله تبارك وتعالى لفصل القضاء بين مذهب طائفتين كلاهما على خطأ وعلى طرفي نقيض فقال: «والنفاة المعطلة ينفون المجيء والإتيان بالكلية ويقولون: ما ثم إلا ما يحدث في المخلوقات».

ثم بين أن هؤلاء في جانب والحلولية في جانب آخر، فقال: «والحلولية يقولون: إنه يأتي ويجيء بحيث يخلو منه مكان ويشغل آخر فيخلو منه ما

(١) الرد على الجهمية ص: ٤٧ .

فوق العرش ويصير بعض المخلوقات فوقه فإذا أتى وجاء لم يصر على قولهم العلي الأعلى»[1] .

وكلاهما قول باطل والقول الحق هو الوسط ؛ إذ إن الغلو في النفي يؤدي إلى التعطيل والغلو في الإثبات يؤدي إلى القول بالحلول، والسلف على خلاف هذا كله، فإنه لم ينقل عن أحد من السلف أنه قال بتأويل إتيان الله لفصل القضاء إلى معنى مجيء أمره.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن ما يرويه أبو الفرج ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلى عن أحمد «أنه قال: المراد به - يعني إتيان الله في ظلل من الغمام - قدرته وأمره»، وكذا ما نقل عن الإمام مالك من تأويله لنزول الله إلى معنى مجيء أمره؛ أن هذا كله لا يصح؛ فقد رد شيخ الإسلام ما نقل عن الإمام أحمد هنا وأبطله من وجوه كما في قوله: «قلت هذا الذي ذكره القاضي وغيره أن حنبلا نقله عن أحمد في كتاب «المحنة» أنه قال ذلك في المناظرة لهم يوم المحنة لما احتجوا عليه بقوله: «**تجيء البقرة وآل عمران**» قالوا: والمجيء لا يكون إلا لمخلوق، فعارضهم أحمد بقوله: وجاء ربك أو يأتي ربك، وقال: المراد بقوله: «**تجيء البقرة وآل عمران**: ثوابهما كما في قوله: وجاء ربك، أمره وقدرته».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «وقد اختلف أصحاب أحمد فيما نقله حنبل فإنه لا ريب أنه خلاف النصوص المتواترة عن أحمد في منعه من تأويل هذا وتأويل النزول والاستواء ونحو ذلك من الأفعال.

---

(١) الفتاوى: ١٦/ ١٠٨.

ولهم ثلاثة أقوال:

قيل: إن هذا غلط من حنبل انفرد به دون الذين ذكروا عنه المناظرة مثل صالح وعبدالله والمروزي وغيرهم؛ فإنهم لم يذكروا هذا، وحنبل ينفرد بروايات يغلطه فيها طائفة كالخلال وصاحبه، قال أبو إسحاق بن شاقلا: هذا غلط من حنبل لا شك فيه.

والقول الثاني: قال طائفة من أصحاب أحمد: هذا قاله إلزاماً على مذهبه؛ لأنهم في يوم المحنة لما احتجوا بقوله: **«يأتي البقرة وآل عمران»**، أجابهم بأن معناه يأتي ثواب البقرة وآل عمران كقوله: «أن يأتيهم الله» أي أمره وقدرته على تأويلهم لا أنه يقول بذلك، فإن مذهبه ترك التأويل.

والقول الثالث: أنهم جعلوا هذا رواية عن أحمد[1]. وقد يختلف كلام الأئمة في مسائل مثل هذه، لكن الصحيح المشهور عنه رد التأويل.

وينقل كذلك الشيخ علي بن عبيد الله الزاغوني أنه قد اختلفت الرواية عن أحمد في مجيء الله على روايتين إحداهما: القول بمجيء الله بذاته من غير تأويل لذلك المجيء إتياناً يليق بجلاله، لا يتصف بصفات الخلق من الزوال والانتقال وفراغ مكان وشغل آخر فقال:

«وقد اختلف كلام إمامنا أحمد في هذا المجيء هل يحمل على ظاهره؟ وهل يدخل التأويل ؟ على روايتين:

(١) وقد تمسك بهذه الرواية من يذهب إلى التأويل من أصحاب أحمد، كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما يجعلون هذه عمدتهم حتى يذكرها أبو الفرج بن الجوزي في تفسيره ولا يذكر من كلام أحمد والسلف ما يناقضهما. شرح حديث النزول ص ٥٧.

إحـداهما: أنه يحمل على ظاهره من مـجيء ذاته، فـعلى هذا يقـول لا يدخل التأويل إلا إنه لا يجب أن يحمل مجيئه بذاته إلا على ما يليق به.

وفي قـول الزاغـوني بمـنع إطلاق لفظة «الـزوال» والانـتـقـال اعـتـراض لابن تيمية بأنه من الألفاظ المجملة التي تحتاج إلى إيضاح وذلك في قوله: «قلت: أما كون إتيانه ومجيئه ونزوله ليس مثل إتيان المخلوق ومـجيئه ونزوله؛ فهذا أمر ضروري متفق عليه بين علماء السنة ومن له عقل، فإن الصفات والأفعال تتبع الذات المتصفة الفاعلة، فإذا كانت ذاته مباينة لسائر الذوات ليست مثلها لزم ضرورة أن تكون صفاته مباينة لسائر الصفات ليست مثلها، ونسبة صفاته إلى ذاته كنسبة صفة كل موصوف إلى ذاته».

إلى أن يقـول في إطلاق لفظة الزوال وكـذا المجيء على الله ـ: «وأما لفظ الزوال والانتقال فهذا اللفظ مجمل، ولهذا كان أهل الحديث والسنة فيه على أقوال:

فعثمان بن سعيد الدارمي وغيره أنكروا على الجهمية قولهم: إنه لا يتحرك وذكروا أثراً إنه لا يزول وفسروا الزوال بالحركة، فبين عثمان بن سعيد أن ذلك الأثر إن كان صحيحاً لم يكن حجة لهم لأنه في تفسير قوله: الحي القيوم ذكروا عن ثابت[1]: دائم باق لا يزول عـما يستحقه كما قال ابن إسحاق: لا يزول عن مكانته، قلت: والكلبي بنفسه الذي روى هذا الحديث هو يقـول: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استقر. ويقول: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾: صعد إلى السماء.

---

(١) هكذا عبارة الكتاب ولعل الصواب «أنه».

وأما الانتقال؛ فابن حامد وطائفة يقولون: ينزل بحركة وانتقال، وآخرون من أهل السنة - كالتميمي من أصحاب أحمد أنكروا هذا وقالوا: بل ينزل بلا حركة وانتقال، وطائفة ثالثة كابن بطة وغيره يقفون في هذا.

قال ابن تيمية: «والأحسن في هذا الباب مراعاة ألفاظ النصوص؛ فيثبت ما أثبت الله ورسوله باللفظ الذي أثبته، وينفي ما نفاه الله ورسوله كما نفاه وهو أن يثبت النزول والإتيان والمجيء وينفى المثل والسمي والكفؤ والند»[1].

أما ما يروى عن مالك من التأويل المشار إليه آنفاً فهو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «وكذلك نقل عن مالك رواية أنه تأول، **«ينزل إلى السماء الدنيا»** أنه ينزل أمره، ثم بين أن هذا باطل لأنه من رواية كذاب فقال: «لكن هذا من رواية حبيب كاتبه وهو كذاب باتفاقهم، وقد رويت من وجه آخر لكن الإسناد مجهول».

والخلاصة:

لقد ذكرنا فيما مضى ما ورد في القرآن والسنة من إثبات النزول لله تبارك وتعالى لفصل القضاء. وهذا النزول أمر متفق عليه بين السلف والخلف، ولكنهم انقسموا في تفسيره إلى قسمين:

١ - فعلماء السلف رضي الله عنهم يثبتون النزول بمعنى أن الله تعالى ينزل بذاته ولكن من غير أن يكون نزوله مشابهاً لما يتصف به المخلوق لقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، فيقولون بالنزول

(١) الفتاوى ١٦/ ٤٢١-٤٢٤.

من غير أن يضيفوا إليه شيئاً آخر مما يوجب التشبيه أو التمثيل.

٢ - أما علماء الخلف فإنهم قد ذهبوا إلى التأويل، وربما يكون ذلك بسبب ظهور الفتن في زمانهم من اختلاط الديانات والمذاهب ومن نقل كتب الأقدمين من الفلاسفة وغيرهم، فإبعاداً للفتنة اختاروا تأويل النزول، لأن الظاهر من كلمة النزول أن معناها يوحي بالانتقال من جهة إلى جهة وخلو المنتقل من مكانه الأول وانشغال المكان الثاني به، وهذا كله محال على الله تعالى فنفوا النزول نفياً عاماً، ولما كان الأمر كذلك ذهبوا إلى تأويل معنى النزول تنزيهاً لله تبارك وتعالى من مشابهته للحوادث؛ فقالوا: إن النزول يعني نزول عدله أو نوره أو ملائكته إلى آخر ما ذكروه في هذا المعنى وقد قالوا: إن مذهب السلف أسلم، و مذهب الخلف أعلم وأحكم.

ولكننا نقول: إن مذهب السلف أسلم وأحكم وأعلم؛ لأنهم يقفون عند كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ولا يتجاوزونه إلى ما أحدثه أهل البدع من الجهمية المعتزلة وغيرهم.

وليس معنى وقوفهم أنهم يقولونه بالألفاظ من غير إثبات مدلول الصفات.

وإذا كان النزول معناه كما ذكرنا الحركة والفراغ والامتلاء فهذا نزول للمخلوقات.

أما النزول الذي أثبته الله لنفسه وأثبته الرسل له فهو نزول على ما يليق بجلاله وعظمته وهو يختلف باختلاف من يتصف به، ومثل ذلك بقية الصفات كالحياة مثلاً فإنها بالنسبة إلى الله لا تتوقف على الأسباب، بخلافها

إذا نسبت إلى المخلوقات فإنها تتوقف على الأسباب وإن كان لفظ الحياة يطلق على الحادث والقديم.

ومن هنا نعلم أن مذهب السلف ـ رضوان الله عليهم ـ أعلم وأحكم بخلاف مذهب الخلف فإنهم في تأويلهم أسندوا لله تعالى أمرًا زائداً عما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وهذا ما ينبغي أن يدين به المسلم خوفاً من أن يقع في المحذور.

ونشير هنا إلى أن ما تقدم ذكره عمن وصف بالتأويل ـ كالأشعري ومن قال بقوله ـ أن هؤلاء قد حثوا على مذهب السلف والقول به وترك تأويلات أهل الكلام المذموم.

فالأشعري في كتابه «الإبانة عن أصول الديانة» يقرر قوله باعتقاد مذهب السلف وأنه يدين الله به سائراً على طريقة إمام السنة أحمد بن حنبل في جميع مسائل العقيدة، فهو يقول في إبانة قول أهل الحق والسنة:

«فإن قال لنا قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التي بها تدينون قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا ﷺ وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال» إلخ كلامه[1]. وما ورد كذلك عن الشهرستاني

(١) الإبانة ص ٨.

والرازي في :الرازي والجويني كما حكى ذلك عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتوى الحموية[1].

* * *

(١) انظر ص ٧-٨.

الباب الرابع

رؤية الله تعالى في عرصات القيامة

ويشتمل على الفصول الآتية :

تمهيد:

الفصل الأول : الأدلة على إمكان وقوع رؤية الله تعالى.

١ - من القرآن الكريم، مع بيان وجه الاستدلال وذكر شبه المخالفين والرد عليهم.

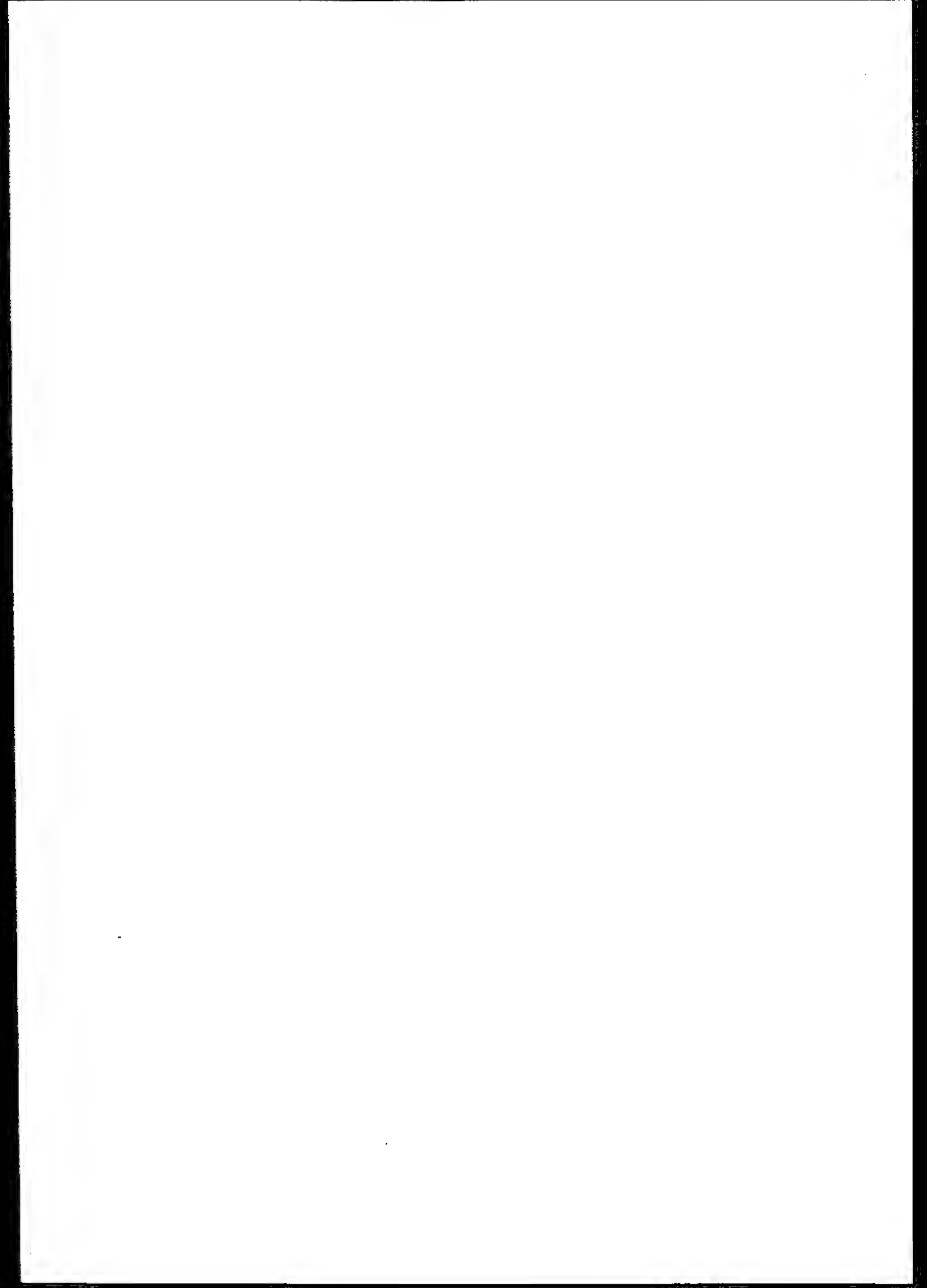
٢ - من السنة النبوية وذكر شبه المخالفين والرد عليهم.

٣ - دلالة العقل على إمكانها .

الفصل الثاني: آراء الفرق في إمكان وقوع رؤية الله تعالى.

الفصل الثالث: الخلاف في رؤية غير المؤمنين لربهم، وبيان الخلاف بين المثبتين للرؤية والنافين لها .

الفصل الرابع: هل تستلزم رؤية الله تعالى الجهة أم لا ؟



تمهيد

البحث في رؤية الله تبارك وتعالى من أجلّ وأعظم المسائل وقد وصف ذلك الإمام ابن القيم في كتابه «حادي الأرواح» فقال:

«هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلُّها قدراً وأعلاها خطراً وأقرها لعيون أهل السنة والجماعة، وأشدها على أهل البدعة والضلالة، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون وتسابق إليها المتسابقون ولمثلها فليعمل العاملون»[1] إلخ ما ذكر رحمه الله تعالى من أوصاف.

وقال ابن أبي العز عنها بأنها: «من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون وعن بابه مردودون»[2].

ولعظيم شأنها وخطورتها صارت من المسائل الكبيرة التي كثر الجدل والخلاف في وقوعها بين أهل السنة والجماعة من جانب وبين غيرهم من الفرق التي تنتسب إلى الإسلام من جانب آخر.

ومجمل الخلاف في ذلك يتمثل فيما يلي:

١ - هل يمكن رؤية الله تعالى مطلقاً أي سواء كان ذلك في الدنيا أم في

(١) حادي الأرواح ص: ١٩٦.

(٢) شرح الطحاوية ص: ٢٠٤.

الآخرة أم إن ذلك غير ممكن لا في الدنيا ولا في الآخرة؟ ومنه رؤية المؤمنين ربهم في الجنة ؟

٢ - هل يرى الله في الآخرة في موقف فصل القضاء بالنسبة لجميع الخلق أم إن الرؤية هناك خاصة بالمؤمنين ويحرم منها الكفار ؟

وعلى هذا فإننا سنتناول مبحث الرؤية من الوجهين الآتيين:

الوجه الأول: إثبات إمكان وقوع رؤية الله تعالى - أي عموماً - وأن ذلك ليس بمستحيل ولا ممنوع.

والثاني: أن رؤيته تعالى في الموقف واقعة كما تؤيده الأدلة الثابتة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وهو الاعتقاد الذي سار عليه السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، لم يخالف في وقوع ذلك غير أهل البدع كما سنذكر ذلك عنهم ونذكر أدلتهم ونبطلها.

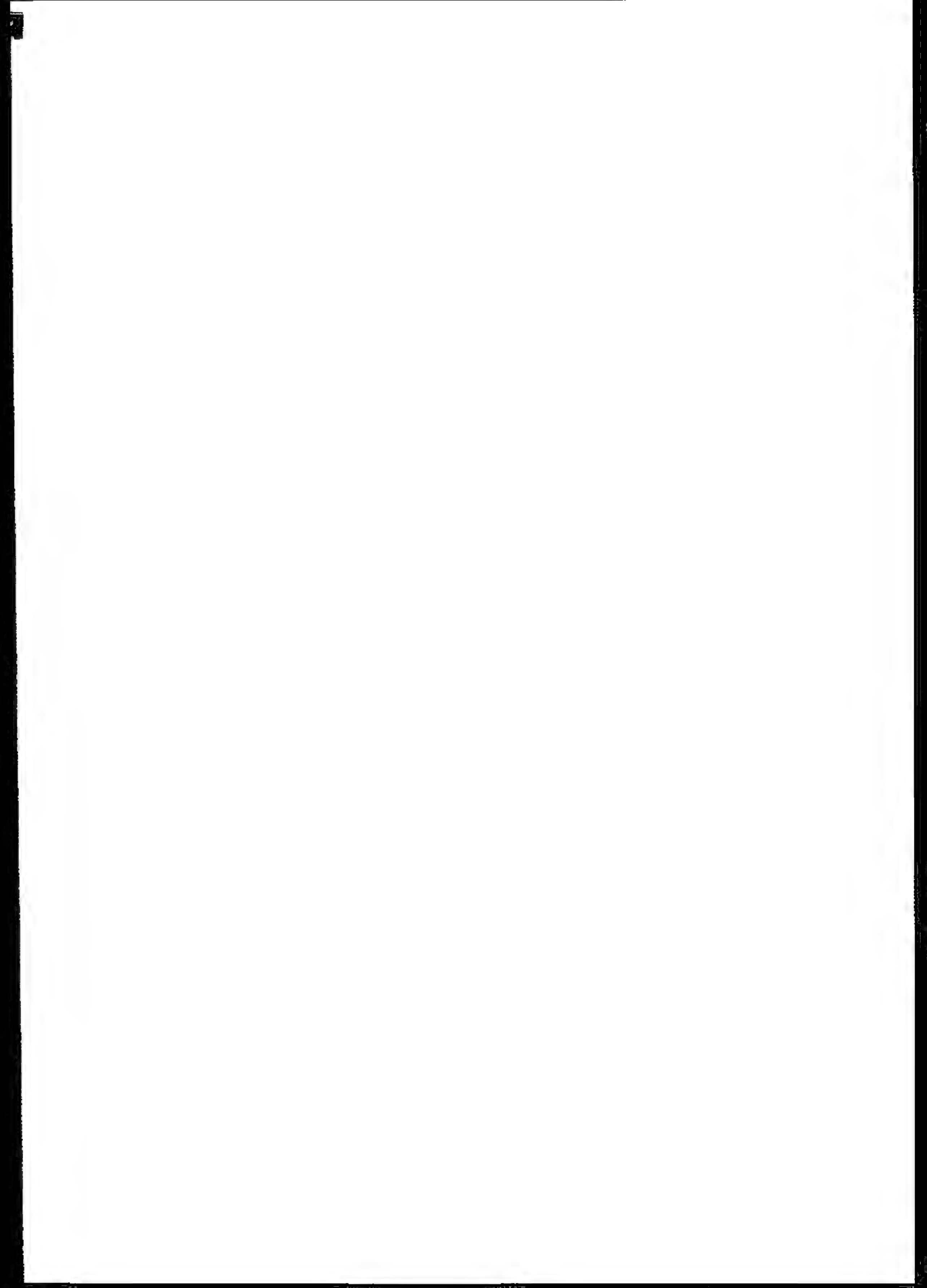
وفيما يلي نعرض بعض الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية على ثبوت وقوع رؤية الله تعالى وإمكانها.

* * *



الفصل الأول

الأدلة على وقوع رؤية الله تعالى



الفصل الأول

الأدلة على وقوع رؤية الله تعالى

لقد ثبت وقوع رؤية الله تعالى بنص الكتاب والسنة والإجماع والعقل وسنذكر فيما يلي أدلة إثبات ذلك من القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع السلف، ثم نذكر دلالة العقل على إمكان وقوعها.

أ ـ الأدلة من القرآن الكريم، مع بيان وجه الاستدلال وذكر شبه المخالفين والرد عليهم:

يستدل أهل السنة والجماعة على جواز وقوع وإمكان رؤية الله تعالى بأدلة من كتاب الله عز وجل ظاهرة الدلالة على ثبوت الرؤية له، وإذا ثبتت رؤيته تعالى سواء كان ذلك في الجنة أو في الموقف كان ذلك إبطالاً لمن خرج عن الحق فنفى إمكان وقوعها.

ومن الأدلة التي يستدل بها أهل الحق لإثباتها الآيات الآتية:

* قول الله عز وجل لموسى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا** ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

* ومنها آيات وردت في إثبات رؤيته تعالى مثل قوله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ**

يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣] .

* ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

* وكذا قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[ق: ٣٥].

وقد فسرت هذه الزيادة بوقوع النظر إلى الله عز وجل.

* وقال تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

* وقال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين: ١٥]، وإذا كان الكفار محجوبين عن رؤية ربهم فإن المؤمنين بعكس ذلك ولابد.

وكذا ما ورد في القرآن الكريم مما يدل على ذكر لقاء الله تعالى كما في الآيات الآتية: ـ

١ ـ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٦].

٢ ـ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

٣ ـ ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٤ ـ ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥].

٥ ـ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ [التوبة: ٧٧]؛ لأن المنافقين والكفار يرون ربهم في عرصات القيامة، على الخلاف في ذلك كما

سيأتي ذكره[1].

٦ ـ ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ١٩٨].

٧ ـ ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥].

والآيات في لقاء الله تعالى كثيرة في القرآن الكريم نكتفي بما تقدم ذكره.

وبعد عرض ما تقدم من الأدلة من كتاب الله عز وجل على وقوع وإمكان رؤية الله تعالى وأنها جائزة وغير مستحيلة نبين القول الحق في وجه الاستدلال بالآيات السابقة على ثبوت وقوع الرؤية بإيجاز:

أما الآية الأولى الواردة في شأن موسى عليه الصلاة والسلام من طلبه من ربه النظر إليه فإن البحث فيها يكون من الجوانب الآتية:

(أ) دلالتها على إمكان وقوع رؤية الله تعالى.

(ب) موقف المعتزلة من دلالتها على رؤية الله تعالى وشبههم في ذلك.

(جـ) الرد عليهم وإبطال شبههم.

(أ) أما وجه دلالتها على رؤية الله تعالى:

فإن أهل القول الحق يستدلون بها على إمكان وقوع رؤيته تعالى من عدة وجوه: وقد ذكر العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ سبعة وجوه فيها وهي ـ بتصرف ـ:

١ ـ إنه لا يظن بموسى عليه الصلاة والسلام ـ وهو العارف بربه ـ أن يسأله

---

(١) حادي الأرواح: ص: ١٩٨.

ما لا يجوز عليه سبحانه وتعالى .

قال الرازي: «ولا شك أن موسى يكون عارفاً بما يجب ويجوز ويمتنع على الله تعالى؛ فلو كانت الرؤية ممتنعة على الله لما سألها، وحيث سألها علمنا أن الرؤية جائزة على الله تعالى»[1] .

٢ـ أن الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالاً لأنكره عليه كما أنكر على نوح سؤاله نجاة ابنه وقال: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

٣ـ أن الله أجابه بقوله: ﴿ لَن تَرَانِي ﴾[الأعراف: ١٤٣] ولم يقل إني لا أرى ولا إني لست بمرئي، أولا تجوز رؤيتي، وإنما فيه الإخبار من الله سبحانه وتعالى عن عدم استطاعة موسى أن ينظر إلى الله في هذه الحياة ولا في غيرها.

قال الرازي ـ ممثلاً لهذا ـ: «ألا ترى أنه لو كان في يد رجل حجر فقال له إنسان: ناولني هذا لآكله فإنه يقول له: هذا لا يؤكل ولا يقول له لا تأكل، ولو كان في يده بدل الحجر تفاحة لقال له لا تأكلها أي: هذا مما يؤكل ولكنك لاتأكله، فلما قال تعالى: ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ ولم يقل: لا أرى، علمنا أن هذا يدل على أنه تعالى في ذاته جائز الرؤية»[1] .

٤ـ أن الله تعالى بين لموسى السبب في عدم رؤيته له وهو قوله ـ سبحانه: ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار فكيف

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢٣١.

بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف ؟

٥ ـ أن الله تعالى علق رؤيته على إمكان استقرار الجبل وهذا ممكن في مقدوره وقد علق به الرؤية ولو كانت محالاً في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته .

٦ ـ إذا جاز أن يتجلى الله للجبل وهو جماد فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامته ويريهم نفسه؟ .

٧ ـ أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبة كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز[1] .

وقد اتفق ابن القيم والرازي في ذكر أغلب هذه المطالب وزاد ابن القيم وانفرد الرازي بقوله في إيضاح تجلي الله تعالى للجبل :

«الحجة الرابعة من الوجوه المستنبطة من هذه الآية في إثبات جواز الرؤية قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ ، وهذا التجلي هو الرؤية ويدل عليه وجهان :

الأول : أن العلم بالشيء يجلي لذلك الشيء ، وإبصار الشيء أيضاً يجلي لذلك الشيء إلا إن الإبصار في كونه مجلياً أكمل من العلم به وحمل اللفظ على المفهوم الأكمل أولى .

(١) حادي الأرواح : ص : ١٩٧ ـ ١٩٨ .

الثاني : أن المقصود من ذكر هذه الآية تقرير أن الإنسان لا يطيق رؤية الله تعالى بدليل أن الجبل مع عظمته لما رأى الله تعالى اندك وتفرقت أجزاؤه ولولا أن المراد من التجلي ما ذكرناه، وإلا لم يحصل هذا المقصود، فثبت أن قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ هو أن الجبل لما رأى الله تعالى اندكت أجزاؤه، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن الله تعالى جائز الرؤية».

ثم قال : ـ عن احتمال أن يقول قائل إن الجبل جماد والجماد يمتنع أن يرى شيئاً قال ـ : «لا يمتنع أن يقال إنه تعالى خلق في ذات الجبل الحياة والعقل والفهم ثم خلق فيه رؤية متعلقة بذات الله تعالى والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾، وكونه مخاطباً بهذا الخطاب مشروط بحصول الحياة والعقل فيه فكذا هاهنا».

وقد ذكر الرازي أربع حجج على أن الآية تدل على جواز وقوع رؤية الله تعالى ثم قال: «فثبت بهذه الوجوه الأربعة دلالة هذه الآية على أنه تعالى جائز الرؤية»[1] .

(ب) موقف المعتزلة من دلالة الآية على جواز وقوع رؤية الله تعالى وشبههم في ذلك:

ينفي المعتزلة نفياً تاماً أن يرى الله تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا فإنهم وقفوا من مدلول هذه الآية موقفاً خاطئاً، فقد ردوا دلالتها على وقوع رؤية الله تعالى متلمسين تأويلات وشبهاً بعيدة لدفعها.

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢٣١-٢٣٢.

وقد أجمل الرازي شبههم في الآية في أربعة أقوال وهي في قوله: «قال القاضي: الذي قاله المحصلون من العلماء في ذلك أربعة أقوال:

أحدها: ما قاله الحسن وغيره أن موسى عليه السلام ما عرف أن الرؤية غير جائزة على الله تعالى، قال: ومع الجهل بهذا المعنى قد يكون المرء عارفاً بربه وبعدله وتوحيده فلم يبعد أن يكون العلم بامتناع الرؤية وجوازها موقوفاً على السمع.

وثانيها: أن موسى عليه السلام سأل الرؤية على لسان قومه فقد كانوا جاهلين بذلك يكررون المسألة عليه يقولون ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فسأل موسى الرؤية لا لنفسه، فلما ورد المنع منها ظهر أن ذلك لا سبيل إليه وهذه طريقة أبي علي وأبي هاشم.

وثالثها: أن موسى عليه السلام سأل ربه من عنده معرفة باهرة باضطرار وأهل هذا التأويل مختلفون؛ فمنهم من يقول: سأل ربه المعرفة الضرورية ومنهم من يقول: بل سأله إظهار الآيات الباهرة التي عندها تزول الخواطر والوساوس عن معرفته، وإن كانت من فعله كما نقوله في معرفة أهل الآخرة وهو الذي اختاره أبو القاسم الكعبي.

ورابعها: المقصود من هذا السؤال أن يذكر تعالى من الدلائل السمعية ما يدل على امتناع رؤيته حتى يتأكد الدليل العقلي بالدليل السمعي، وتعاضد الدلائل أمر مطلوب للعقلاء وهو الذي ذكره أبو بكر الأصم».

ثم قال الرازي: «فهذا مجموع أقوال المعتزلة في تأويل هذه الآية»[1].

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢٢٩.

وبالرجوع إلى كتب المعتزلة فإننا نجد القاضي عبد الجبار يؤكد نفي رؤية الله بالتأويلات الباطلة فهو يقول:

١ - وقد أجاب شيخنا أبو الهذيل عن هذا بأن الرؤية هاهنا بمعنى العلم، ولما كان بطلان هذا التأويل ظاهراً فقد أدرك القاضي ضعف جواب شيخه أبي الهذيل وذكر أنه لا اعتماد على جوابه هذا وإنما الاعتماد على ما ذكره غيره من مشائخهم، وهو كما يقول.

٢ - أن السؤال لم يكن سؤال موسى وإنما كان سؤالاً عن قومه؛ ثم استدل على هذا الزعم بقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣].

وبقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

قال: «فصرح الله تعالى بأن القوم هم الذين حملوه على هذا السؤال»[1].

قال: «ويدل عليه أيضاً قوله حاكياً عن موسى عليه السلام:

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾، قال: فبين أن السؤال عن قومه وأن الذنب ذنبهم». ثم أورد القاضي السؤال الآتي:

«فإن قيل: لولا أن الرؤية غير مستحيلة على الله تعالى وإلا لما جاز أن يسأله ذلك لا عن نفسه ولا عن قومه كما لا يجوز أن يسأل الله عن الصاحبة

(١) شرح الأصول الخمسة: ص: ٢٦٢.

والولد لما كانت مستحيلة عليه».

وهذا سؤال مهم ويحتاج إلى إجابة مقنعة كافية، ولكن القاضي يجيب عن ذلك بما لا مقنع فيه ويفصل القول بما لا دليل عليه، وهذه إجابته:

«قلنا: فرق بينهما لأن مسألة الرؤية يمكن معرفتها بالسمع فجاز أن يطلب فيها دلالة سمعية بخلاف مسألة الصاحبة والولد، وقيل: إنه علم أن الرؤية مستحيلة على الله ولكن سأله عن ذلك لأن الأمة لم يكن يقنعهم جوابه فسأل الله سبحانه ليروا من جهته جواباً يقنعهم»[1].

وبعد هذا يذكر القاضي عبد الجبار أيضاً أن هذه الآية حجة لهم في نفي الرؤية عن الله تعالى من وجهين:

أحدهما: هو أنه تعالى قال مجيباً لسؤاله - ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ قال: ﴿لَن تَرَانِي﴾، ولن موضوعة للتأبيد فقد نفى أن يكون مرئياً البتة وهذا يدل على استحالة الرؤية عليه.

والوجه الثاني من الاستدلال بهذه الآية: هو أنه تعالى قال: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، علق الرؤية باستقرار الجبل؛ فلا يخلو إما أن يكون علقها باستقراره بعد تحركه وتدكدكه أو علقها به حال تحركه.

لا يجوز أن تكون الرؤية علقها باستقرار الجبل لأن الجبل قد استقر ولم ير موسى ربه، فيجب أن يكون قد علق ذلك باستقرار الجبل بحال تحركه دالاً بذلك على أن الرؤية مستحيلة عليه كاستحالة استقرار الجبل حال تحركه ويكون هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ

(١) شرح الأصول الخمسة: ص: ٢٦٤-٢٦٥.

الْخِيَاطِ ﴾(1) [الأعراف: ٤٠].

ونجيب فيما يلي عن تلك الشبه للمعتزلة.

الجواب عن شبه المعتزلة في دعواهم عدم دلالة الآية على وقوع الرؤية هو أن يقال:

إن دعوى المعتزلة عدم دلالة الآية على جواز وقوع الرؤية مما لم يسلمه لهم أهل القول الحق، ونذكر فيما يلي إبطال ما تأوله المعتزلة مسألة مسألة:

١ - أما قولهم إن موسى عليه السلام ما كان يعرف أن الرؤية غير جائزة على الله تعالى فسأله؛ فإنه قول في غاية الضعف وذلك إن موسى عليه السلام ما كان يجهل ما يليق بالله تعالى وما لا يليق به وكيف يعرف أراذل المعتزلة - كما سماهم الرازي - ما يمكن في حق الله وما لا يمكن أكثر من موسى ﷺ ؟! وضعف قولهم ذلك يتبين فيما ذكر الرازي من وجوه فقال:

«الأول: إجماع العقلاء على أن موسى عليه السلام ما كان في العلم بالله أقل منزلة ومرتبة من أراذل المعتزلة، فلما كان كلهم عالمين بامتناع الرؤية على الله تعالى وفرضنا أن موسى عليه السلام لم يعرف ذلك كانت معرفته بالله أقل درجة من معرفة كل واحد من أراذل المعتزلة، وذلك باطل بإجماع المسلمين.

الثاني: أن المعتزلة يدعون العلم الضروري بأن كل ما كان مرئياً فإنه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل؛ فإما أن يقال إن موسى عليه السلام حصل له هذا العلم أو لم يحصل له هذا العلم.

---

(١) شرح الأصول الخمسة: ص ٢٦٤-٢٦٥.

فإن كان الأول كان تجويزه لكونه تعالى مرئياً يوجب تجويز كونه تعالى حاصلاً في الحيز والجهة، وتجويز هذا المعنى على الله تعالى يوجب الكفر عند المعتزلة، فيلزمهم كون موسى عليه السلام كافراً، وذلك لا يقوله عاقل.

وإن كان الثاني فنقول: لما كان العلم بأن كل مرئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل علماً بديهياً ضرورياً، ثم فرضنا أن هذا العلم ما كان حاصلاً لموسى عليه السلام، لزم أن يقال: إن موسى عليه السلام لم يحصل فيه جميع العلوم الضرورية، ومن كان كذلك فهو مجنون فيلزمهم الحكم بأنه عليه السلام ما كان كامل العقل بل كان مجنوناً، وذلك كفر بإجماع الأمة، فثبت أن القول بأن موسى عليه السلام ما كان عالماً بامتناع الرؤية مع فرض أنه تعالى ممتنع الرؤية يوجب أحد هذين القسمين الباطلين فكان القول به باطلاً»[1].

وفي هذا يذكر البغدادي أن حال موسى حين طلب الرؤية لا يخرج عن أحد أمرين قال: «فإن اعتقد استحالتها وسألها ـ فهو كمن سأله أن يتخذه ولداً أو شريكاً مع علمه باستحالة ذلك عليه، وإن كان اعتقد جواز الرؤية عليه فقد صح جوازها عليه لأن الأنبياء معصومون عن اعتقاد ما لا يليق بالله عز وجل في صفاته»[2].

وقال الإيجي ـ وهويذكر إجابته عن سؤال موسى للرؤية وإن ذلك يدل على إمكان وقوعها من وجهين ـ:

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢٣٠.

(٢) أصول الدين ص: ٩٩.

«الأول: أن موسى سأل الرؤية ولو امتنع لما سأل لأنه حينئذ إما أن نعلم امتناعه أو نجهله؛ فإن علمه؛ فالعاقل لا يطلب المحال فإنه عبث وإن جهله؛ فالجاهل بما لا يجوز على الله ويمتنع لا يكون نبياً كليماً.

الثاني: أنه علق الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل أمر ممكن في نفسه وما علق على الممكن فهو ممكن»[1] .

٢ ـ أما قولهم إن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الرؤية لقومه لا لنفسه لأجل تكرارهم وإلحاحهم في طلب ذلك؛ فإن هذا قول مردود وذلك أنه لو كان طلب النظر إلى الله تعالى لقومه لقال: «رب أرنا ننظر إليك»، لكن إفراده بطلب النظر إلى الله وقول الله له: ﴿لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، بتوجيه الخطاب إليه وحده وقوله بعد ذلك: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾، كل هذا يدل على أن طلب الرؤية كانت من موسى وبرغبته في ذلك غير مدفوع من قومه.

وقال البغدادي في رده عليهم فإن قالوا: إنما سأل الرؤية لقومه لأن قومه قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] «الآية». قيل: لو كان كذلك لقال: إن قومي يسألونك أن ينظروا إليك، ولقال الله في جوابه لهم: إنهم لن يروني، على أن قومه لما سألوا المحال بقولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] أجابهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ولم يرجع إلى الله في جوابهم، فلو كانت الرؤية مستحيلة عليه لأجاب قومه ولم يرجع فيها إلى سؤال ربه لأجلهم»[2] .

---

(١) المواقف ص: ٣٠٠.

(٢) أصول الدين ص: ٩٩.

فظهر أن قول المعتزلة بعد ذلك أن موسى كان يعلم أنها مستحيلة على الله ولكنه سألها لأجل جواب قومه، قول لا دليل عليه، ويخالفه ظاهر الآية، بل الدليل يدل على أن موسى ﷺ كان يعلم أن الرؤية غير مستحيلة على الله تعالى بدليل تلك المخاطبة بينه وبين ربه.

ثم هل يليق بموسى أن يسأل الله تعالى الأمور المستحيلة وهو يعلم أنه لا حق له في سؤالها؟ وهل يقدم طلب قومه مع علمه بأنه مستحيل ؟ !

الجواب : أنه لا يمكن أن يحصل هذا حتى من البشر مع بعضهم؛ إذ لو فرضنا أن عاقلاً مسلماً قيل له: اذهب إلى الرسول ﷺ واسأله أن يشركك في النبوة، أو أن يدعو الله تعالى أن تكون نبياً بعده؛ لامتنع من الذهاب؛ إجلالاً للرسول ﷺ ؛ واحتراماً لنفسه وعقله من طلب المستحيلات.

وقد ذكر الرازي ـ رحمه الله ـ: أربعة أوجه لإبطال زعم المعتزلة أن موسى إنما سأل الرؤية، لأجل قومه، فقال:

«الأول: أنه لو كان الأمر كذلك؛ لقال موسى: أرهم ينظروا إليك، ولقال الله تعالى: لن يروني، فلما لم يكن كذلك بطل هذا التأويل.

الثاني: أنه لو كان هذا السؤال طلباً للمحال؛ لمنعهم عنه، كما إنهم لما قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ منعهم عنه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

والثالث: أنه كان يجب على موسى إقامة الدلائل القاطعة على أنه تعالى لا تجوز رؤيته، وأن يمنع قومه بتلك الدلائل عن هذا السؤال، فأما أن لا يذكر شيئاً من تلك الدلائل ألبتة، مع أن ذكرها كان فرضاً مضيقاً، كان هذا نسبة

لترك الواجب إلى موسى عليه السلام، وأنه لا يجوز.

والرابع: أن أولئك الأقوام الذين طلبوا الرؤية: إما أن يكونوا قد آمنوا بنبوة موسى عليه السلام، أو ما آمنوا بها؛ فإن كان الأول؛ كفاهم في الامتناع عن ذلك السؤال الباطل مجرد قول موسى عليه السلام؛ فلا حاجة إلى هذا السؤال الذي ذكره موسى عليه السلام.

وإن كان الثاني؛ لم ينتفعوا بهذا الجواب؛ لأنهم يقولون له: لا نسلم أن الله منع من الرؤية، بل هذا قول افتريته على الله تعالى، فثبت أن على كلا التقديرين لا فائدة للقوم في قول موسى عليه السلام ﴿ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾[1].

٣ - وأما قولهم: إن موسى عليه السلام سأل ربه معرفة باهرة اضطرارية ضرورية، أو إظهار آيات باهرات تزيل الوساوس والخواطر؛ فإن هذا التأويل بعيد جداً؛ وذلك أن موسى عليه السلام إنما طلب من ربه النظر إليه، لا إلى أمر من الأمور الأخرى كالمعرفة، أو إظهار آية تزيل الشك والوساوس.

وما أبعد هذا الكلام عن مراد موسى عليه السلام، فكيف يليق بموسى أن يسأل ربه آية تدل على وجوده تعالى بما يقطع الوساوس؟! فموسى ما كان جاهلاً بوجود ربه، وما كان جاهلاً كذلك بآيات ربه، فكم أعطي من معجزات باهرات، كالعصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وجعل الجبل فوقهم كأنه ظلة، وفلق البحر، وغير ذلك من الآيات الكثيرة.

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢٣٠.

ثم كيف يليق بموسى عليه السلام أن يسأل ربه آية تدل على وجوده وهو يخاطبه ويناجيه؟! وعلى فرض أنه كان يطلب آية؛ فإن الله تعالى ما كان يمنعه من إظهارها وقد أعطاه تلك الآيات الباهرات[1].

٤ - وكذلك قولهم: إن موسى ﷺ أراد بهذا السؤال أدلة سمعية تؤكد ما يعرف من الأدلة العقلية في عدم جواز رؤية الله تعالى فإن هذا قول بعيد؛ «لأنه لو كان المراد ذلك؛ لكان الواجب أن يقول: أريد يا إلهي أن يقوى امتناع رؤيتك بوجوه زائدة على ما ظهر في العقل، وحيث لم يقل ذلك بل طلب الرؤية علمنا أن هذه التأويلات بأسرها فاسدة»[2].

٥ - وأما دعوى المعتزلة: أن الله أخبر عن عدم جواز رؤيته بقوله عز وجل لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾، وأن (لن) موضوعة لتأبيد النفي، فهذا قول غير مسلم، وذلك أن (لن) لا تفيد التأبيد المطلق في نفي الرؤية في الآخرة، وإنما تفيد التأبيد المطلق في نفيها في الدنيا.

والقول بأنها تفيد تأبيد النفي في الدنيا والآخرة قول لا تدل عليه أقوال السلف ولا علماء العربية.

قال ابن أبي العز:

«فإنها لو قيدت بالتأبيد؛ لا يدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟ قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾[3] [البقرة: ١٥]، مع قوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

(١) انظر: التفسير الكبير ١٤/ ٢٣٠.

(٢) المرجع السابق نفسه ١٤/ ٢٣١.

(٣) شرح الطحاوية ص: ٢٠٧.

ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق؛ لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قال تعالى: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ [يوسف: ٨٠]، وهذا دلالة على أن لن لا تقتضي النفي المؤبد، وعلى هذا القول علماء العربية، قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ:

ومن رأى النفي بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

ويذكر العلامة البغدادي أن (لن) في الآية تقتضي النفي المؤبد في الدنيا، لا في الآخرة[1].

وقال الواحدي فيما ينقله عنه الرازي: «أن ما نقل عن أهل اللغة من أن كلمة (لن) للتأبيد، إنها دعوى باطلة على أهل اللغة، وليس يشهد بصحته كتاب معتبر ولا نقل صحيح»[2].

٦ ـ وأما قول القاضي عبد الجبار بأن الله تعالى قد علق الرؤية باستقرار الجبل حال تحركه ليدل بذلك على أن الرؤية مستحيلة عليه كاستحالة استقرار الجبل حال تحركه.

فإن السلف قد استدلوا بهذه الآية على النقيض من استدلال المعتزلة، وأنها تدل على إمكان وقوع رؤية الله تعالى، وذلك لأن الله قد علق الرؤية على أمر ممكن، وهو تجلي الله للجبل مع بقاء استقراره، وهذا في مقدور الله تعالى جائز الوجود؛ لأن ذلك الشرط الذي ذكره الله ممكن في نفسه.

قال الرازي:

«إذا ثبت هذا وجب أن تكون رؤيته جائزة الوجود في نفسها؛ لأنه لما

---

(١) أصول الدين ص: ١٠٠.

(٢) التفسير الكبير ١٤/ ٢٣٣.

كان ذلك الشرط أمراً جائز الوجود؛ لم يلزم من فرض وقوعه محال؛ فبتقدير حصول ذلك الشرط: إما أن يترتب عليه الجزاء الذي هو حصول الرؤية، أو لا يترتب، فإن ترتب عليه حصول الرؤية؛ لزم القطع بكون الرؤية جائزة الحصول، وإن لم يترتب عليه حصول الرؤية؛ قدح هذا في صحة قوله: إنه متى حصل ذلك الشرط حصلت الرؤية. وذلك باطل.

أما ما قرره القاضي عبد الجبار من أن الرؤية علقها الله تعالى على محال - وهو استقرار الجبل حال تحركه - فقد أجاب الرازي عن ذلك بقوله:

«والجوب: هو أن اعتبار حال الجبل من حيث هو مغاير لاعتبار حاله من حيث إنه متحرك أو ساكن، وكونه ممتنع الخلو عن الحركة والسكون؛ لا يمنع اعتبار حاله من حيث إنه متحرك أو ساكن، ألا ترى أن الشيء لو أخذته بشرط كونه موجوداً؛ كان واجب الوجود، ولو أخذته بشرط كونه معدوماً؛ كان واجب العدم.

فلو أخذته من حيث هو هو مع قطع النظر عن كونه موجوداً أو كونه معدوماً؛ كان ممكن الوجود. فكذا ههنا، الذي جعل شرطاً في اللفظ هو استقرار الجبل، وهذا القدر ممكن الوجود، فثبت أن القدر الذي جعل شرطاً أمر ممكن الوجود جائز الحصول، وهذا القدر الذي جعل شرطاً أمر ممكن الوجود جائز الحصول، وهذا القدر يكفي لبناء المطلوب عليه»[1].

وأما وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فهي ظاهرة الدلالة على ثبوت الرؤية.

---

(١) التفسير الكبير ١٤/ ٢٣٢.

فقد أطبق علماء السنة على أن معنى الآية: هو إثبات النظر إلى وجه الله تعالى حقيقة، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] قال: «من البهاء والحسن، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: في وجه الله عز وجل»[١].

«وقال أبو صالح عن ابن عباس ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى وجه ربها عز وجل وقال عكرمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: من النعيم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى ربها نظراً»[٢].

وعن الحسن في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: حسنة، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى ربها الخالق، وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى الخالق[٣].

وقد ذكر العلماء أن للنظر عدة استعمالات بحسب ما يتصل به، فهو:

١ ـ إما أن يتعدى بنفسه، ويكون معناه: التوقف والانتظار لقوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

٢ ـ وإما أن يعدى بفي، ويكون معناه: التفكر والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

٣ ـ وإما أن يعدى بإلى، ويكون معناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩][٤].

---

(١) حادي الأرواح ص: ٢٠٤.

(٢)، (٣) تفسير ابن جرير ٢٠/ ١٩٢.

(٤) حادي الأرواح ص ٢٠٤ وانظر: الرد على الزنادقة ص: ١٥، وشرح الطحاوية ص: ٢٠٥.

وتعدية النظر بإلي، ثم إضافة ذلك إلى الوجه، من أدل الدلائل على أن إطلاق النظر إلى الله في هذه الآية معناه: المعاينة بالأبصار. قال العلامة ابن القيم: «فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟».

* * *

موقف المعتزلة من دلالة الآية على وقوع النظر إلى الله تعالى

لقد حرف المعتزلة وغيرهم من الجهمية والزنادقة مدلول هذه الآية الكريمة، وخرجوا به عن المقصود منه؛ فحملوا الآية ما لم تحتمله من التأويلات الفاسدة، بل وصل بهم الحال إلى أن ادعوا التناقض بين آيات الله تعالى، كما يذكر الإمام أحمد في رده عليهم، حيث قال:

«فقالوا: كيف يكون هذا؟ يخبر أنهم ينظرون إلى ربهم، وقال في آية أخرى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قال: «فشكوا في القرآن وزعموا أنه ينقض بعضه بعضاً»[(١)].

وبطلان هذا الزعم ظاهر؛ إذ إن كتاب الله ليس فيه تناقض، وإنما التناقض في عقولهم التي لم تقدر الله حق قدره، والتي جعلت التأويل المذموم هو الحق.

ويتجلى تأويل المعتزلة وتحريفهم لمعنى الآية الكريمة في الأمور الآتية التي قررها القاضي عبد الجبار:

١ - نفيهم أن النظر بمعنى الرؤية، وقد ذكر القاضي عبد الجبار عدة أوجه يستدل بها على ذلك وهي:

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ص: ١٥.

١ - إن الله تعالى يقول: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

أثبت النظر ونفى الرؤية، فلو كان أحدهما بمعنى الآخر؛ لتناقض الكلام، وينزل منزلة قول القائل: «يرونك ولا يرونك» وهذا خلف من الكلام.

٢ - تأويلهم للنظر المذكور في الآية إلى معنى الانتظار، ويكون معنى الآية: (وجوه يومئذ ناضرة لثواب ربها منتظرة).

واستدل القاضي عبد الجبار على هذا بقوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] أي فانتظار. واستدل بقول الشاعر:

وجوه يوم بدر ناضرات إلى الرحمن يأتي بالخلاص

٣ - تأويلهم معنى الآية: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إلى أنها بمعنى الآلاء التي هم النعم، فكأنه قال تعالى: وجوه يومئذ ناظرة آلاء ربها منتظرة ونعمهُ مترقبة[1].

* * *

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٢٤٥-٢٤٦.

الرد عليهم وإبطال حججهم

لو تركنا التأويل المذموم جانباً وأخذ القول الحق؛ لوجدنا أن الآية ظاهرة الدلالة على رؤية الله تعالى وعدم استحالتها عليه سبحانه، لكن هذا يقتضي - كما هو معلوم - ترك التأويل والانقياد للحق، إذ لولا شؤم التأويل المذموم لما أقدم أحد على إنكار أن النظر في هذه الآية معناه المشاهدة بالبصر.

فإن تأويلهم للنظر في هذه الآية بالثواب أو غيره، وكذا تأويلهم لكثير مما ورد من أخبار يوم القيامة إلى معان لم تدل عليها النصوص، ليس بالأمر الصعب على كل مبطل أراد أن يتأول النصوص لتقوية مذهبه، فما قويت حدة المذاهب وتفرقت الكلمة إلا بمثل هذا المسلك البغيض، ولقد قاسى أهل الإسلام من التفرق والتشتت، وضرب بعضهم بعضاً من جراء التأويلات الفاسدة؛ ما لا يعلم مدى فداحته إلا الله.

قال ابن أبي العز عن شؤم التأويل - ومنه تأويل هذه الآية إلى غير معناها - قال: «وهذا الذي أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية، فهل قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل وصفين ومقتل الحسين والحرة؟ وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة؛ إلا بالتأويل الفاسد؟»[1].

---

(١) شرح الطحاوية ص: ٢٠٤.

وللرد على تلك المزاعم للمعتزلة يقال:

١ - زعمهم أن النظر ليس عبارة عن الرؤية غير مسلم؛ لأن الله تعالى حينما قال له موسى: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال له: ﴿لَن تَرَانِي﴾ مما يدل على أنه لا فرق بين النظر والرؤية.

ثم قال له: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾، فلما نظر إليه حصل له ما حصل؛ ففهم من هذا أن النظر في إطلاقاته هذه يراد به نظر المشاهدة وهو الرؤية.

وأما استدلالهم بالآية ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، فهو استدلالهم في غير موضع النزاع، وذلك أن الآية هذه نزلت في بيان أن المشركين يدعون أصناماً مصورة على صورة بني آدم، حينما يقابلهم الشخص يظن أنهم يبصرون وهم لا يبصرون، فهم ينظرون ولكنهم لا يبصرون، أي يقابلونك ويحاذونك وهم لا يبصرونك؛ لأنه لا أبصار لهم، والعرب تقول للشيء إذا قابل شيئاً أو حاذاه: نظر إليه.

وهذا هو المعنى الذي قرره أهل التفسير كابن جرير الطبري وابن كثير وغيرهما، ورجحوه، على أنه قد ورد عن مجاهد أنه أعاد الضمير إلى المشركين أنفسهم ويكون معنى الآية: وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ما تدعوهم إلى الهدى. قال ابن جرير: «وكأن مجاهداً وجه معنى الكلام إلى أن معناه: وترى المشركين ينظرون إليك وهم لا يبصرون، فهو وجه، ولكن الكلام في سياق الخبر عن الآلهة فهو بوصفها أشبه»[1].

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٩/ ١٥٢-١٥٣، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٧٧.

فظهر أن تشبث المعتزلة للدلالة على أن النظر غير الرؤية، من باب التكلف؛ فبطل استدلالهم بهذه الآية.

وأما ما ذهبوا إليه من تأويل معنى النظر في الآية إلى معنى الانتظار، أي منتظرة ثواب ربها، مستدلين بقوله تعالى: ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾.

وبقول الشاعر:

وجـوه يوم بدر ناضـرات ... إلخ ....

فهو أن يقال: إنه قد جاء استعمال النظر مراداً به الانتظار في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾، ولكن على كثرته تلك؛ فإنه لم يقرن أبداً بحرف الجر (إلى) مما يدل على «أن النظر المقرون بحرف (إلى) المعدى إلى الوجوه؛ ليس إلا بمعنى الرؤية؛ فوجب أن لا يرد بمعنى الانتظار دفعاً للاشتراك»[1].

وقال البغدادي: «فإن تأولوا الآية على معنى الانتظار للثواب؛ فإن نظر الانتظار لا يقرن بحرف (إلى) ولا بالوجه»[2].

وأما الاستدلال بالبيت:

«وجـــوه يوم بدر ناظرات إلى الرحـــمن يأتي بالخـلاص»

---

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) أصول الدين ص: ١٠٠.

فهذا الشعر موضوع[١] ومحرف عن لفظه الصحيح؛ فقد أبدل فيه (يوم بكر) بيوم بدر، ويوم بكر هو اليوم الذي قتل فيه مسيلمة، فذكر الشاعر أن أصحابه كانوا ينظرون إليه يرجون منه الإتيان بالخلاص، وكان قد سمى نفسه رحمان اليمامة؛ وهذا «نظر الرؤية»[٢]، «لأن أصحابه كانوا ينظرون إليه، ويتوقعون منه التخلص من الأعداء».

هذا على القول الصحيح من أن حرف (إلى) المعدى إلى الوجوه لا يستعمل إلا لأجل نظر الرؤية، لكن «هب أن النظر المعدى بحرف (إلى) المقرون بالوجوه جاء في اللغة بمعنى الانتظار، لكن لا يمكن حمل هذه الآية عليه؛ لأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة في الدنيا، فلابد وأن يحصل في الآخرة شيء أزيد منه حتى يحسن ذكره في معرض الترغيب في الآخرة، ولا يجوز أن يكون ذلك هو قرب الحصول؛ لأن ذلك معلوم بالعقل؛ فبطل ما ذكروه من التأويل»[٣].

وأما تأويلهم لمعنى الآية إلى معنى انتظار النعم التي هي الآلاء المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ فلا شك أنه تأويل بعيد لمعنى الآية، وخروج بها عن المقصود من سياقها، فإن نعم الله تعالى حاصلة في كل وقت ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] فكيف خصصت بيوم القيامة الذي ينسى فيه الإنسان كل ما قدم من عمل، ويخاف فيه كل مخلوق

(١) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٩.
(٢) أصول الدين ص: ١٠٠.
(٣) التفسير الكبير ٣٠/ ٢٢٩.

من الناس الوقوف أمام ربه.

ثم إن انتظار الثواب لا يمنع من أن انتظار الرؤية معه، فيكونون منتظرين للثواب ومنتظرين كذلك لرؤية الله تعالى، وأما ما يروى عن بعض السلف من تأويلهم للآية؛ فهو قول مهجور وليس بمرضي عند عامة السلف، وهذا مثل ما روي عن مجاهد من تأويله لناظرة إلى معنى: منتظرة للثواب. وفي رواية عنه قال: «تنتظر رزقه وفضله» وفي رواية قال: «تنتظر من ربها ما أمر لها». وكذا ما جاء عن أبي صالح من تأويله لناظرة إلى معنى «أنها تنتظر الثواب».

وبعد أن ذكر ابن جرير عنهما هذا التأويل قال: «وأولى القولين في ذلك عندنا بالصواب: القول الذي ذكرناه عن الحسن وعكرمة، من أن معنى ذلك: تنظر إلى خالقها، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ: **«إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألفي سنة**، قال: **وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه الله كل يوم مرتين**، قال: ثم تلا ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: بالبياض والصفاء، قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: **تنظر كل يوم في وجه الله عز وجل**»[1].

وقد ذكر ابن كثير أن من تأول ناظرة إلى انتظار الثواب، كأبي صالح ومجاهد، أنه «قد أبعد النجعة، وأبطل فيما ذهب إليه، وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ قال الشافعي رحمه الله

(١) تفسير ابن جرير ٢٩/ ١٩٣.

تعالى: ما حجب الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه عز وجل»[1].

أما وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، فقد فسر رسول الله ﷺ هذه الزيادة بوقوع رؤية المؤمنين لربهم تعالى في الجنة، وهذا هو تفسيرها الصحيح الذي جرى عليه السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم.

وإذا كانت هذه الرؤية خاصة بالمؤمنين في الجنة، فإن القصد من ذكرها هنا هو الاستدلال على إمكان وقوع رؤية الله تعالى.

ولكثرة ما ورد في تفسير هذه الزيادة بالنظر إلى الله عز وجل من أقوال رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة وعلماء السلف؛ فإننا سنكتفي بذكر ما أورده مسلم في صحيحه عن صهيب أنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: **إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون الله؛ فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة**»[2].

وقد أخرج أهل التفسير كابن جرير وابن كثير وغيرهما روايات كثيرة عن رسول الله ﷺ يفسر فيها الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى.

وذكر ابن جرير روايات عن السلف في تفسير هذه الزيادة بالنظر إلى

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٥٠.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٤٢٦، والترمذي في جامعه ٥/ ٢٨٦.

وجه الله تعالى، عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وأبي موسى الأشعري، وصهيب، وكذا عامر بن سعد، وأبي إسحاق، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، والحسن، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الرحمن بن سابط.

وزاد ابن كثير فذكر من السلف والخلف:

عبد الله بن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، والسدي، ومحمد بن إسحاق. قال: «وغيرهم من السلف والخلف»، ثم ذكر الأحاديث الواردة في ذلك.

وقد أورد ابن جرير، وابن كثير، وابن القيم، روايات عمن تقدم ذكرهم مما يطول استقصاؤها لو ذكرناها[1].

وقال الفخر الرازي: «إن حاصل ما قيل في تفسير هذه الزيادة يرجع إلى قولين:

١ - القول الأول: أن المراد منها رؤية الله سبحانه وتعالى، قالوا: والدليل عليه النقل والعقل، أما النقل؛ فالحديث الصحيح الوارد فيه، وهو أن الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما العقل: فهو أن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف؛ فانصرف إلى المعهود السابق، وهو دار السلام، والمعروف من المسلمين والمتقرر بين أهل الإسلام من هذه اللفظة هو الجنة وما فيها من المنافع والتعظيم.

---

(١) تفسير ابن جرير ١١/ ١٠٧، تفسير ابن كثير: ٢/ ٤١٤، حادي الأرواح: ١٩٩، ٢٠٠.

وإذا ثبت هذا؛ وجب أن يكون المراد من الزيادة أمراً مغايراً لكل ما في الجنة من المنافع والتعظيم وإلا لزم التكرار، وكل من قال بذلك قال: إنما هي رؤية الله تعالى؛ فدل ذلك على أن المراد من هذه الزيادة الرؤية، ومما يؤكد هذا وجهان:

الأول: أنه تعالى قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؛ فأثبت لأهل الجنة أمرين: أحدهما: نضرة الوجوه، والثاني: النظر إلى الله تعالى وآيات القرآن يفسر بعضها بعضاً؛ فوجب حمل الحسنى هاهنا على نضرة الوجوه، وحمل الزيادة على رؤية الله تعالى.

الثاني: أنه تعالى قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠]، أثبت له النعيم ورؤية الملك الكبير؛ فوجب هاهنا حمل الحسنى والزيادة على هذين الأمرين»[١].

على أن هناك أقوالاً أخرى في تفسير الزيادة، وهي في الواقع لا تخرج عن دلالة معنى الزيادة.

مثل ما فسرها علي بن أبي طالب من أنها: غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، أو ما فسرها به ابن عباس من أنها: التضعيف إلى تمام العشر، وكذا ما فسرها به الحسن من أنها: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكذا ما فسرها به مجاهد من أنها: زيادة مغفرة ورضوان، وكذا ما فسرها به ابن زيد من أنها: ما أعطاهم في الدنيا لا يحاسبهم به يوم القيامة.

وهذه الأقوال لا تنافي تفسير الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى،

---

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٧٧.

ولهذا يقول الطبري:

«وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى؛ أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة، وأن تبيض وجوههم، ووعدهم من الحسنى الزيادة عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة؛ أن يكرمهم بالنظر إليه؛ وأن يعطيهم غرفاً من لآلىء، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم عن الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته، وعم ربنا جل ثناؤه بقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ - الزيادات على الحسنى؛ فلم يخصص منها شيئاً دون شيء.

وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله، فأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يعم، كما عمه عز ذكره»[1].

وإذا كان واضحاً مما قدمنا أن الزيادة المذكورة في الآية هي النظر إلى الله تعالى، كما فسرها النبي ﷺ وفسرها الصحابة ومن بعدهم من السلف والخلف؛ فما موقف المعتزلة منها؟

والجواب ظاهر: وهو أن المعتزلة كما هو شأنهم في رد النصوص المثبتة لمثل هذا في حق الله تعالى، أو تأويلها والخروج بها عن معانيها؛ لابد وأن يقفوا من هذا التفسير الثابت لدى السلف موقف المؤول.

وقد ذكر الرازي موقفهم من معنى هذه الزيادة الواردة في الآية، والوجوه التي حملتهم على تأويلها، فقال: «القول الثاني: أنه لا يجوز

(١) جامع البيان ١١/ ١٠٨.

حمل هذه الزيادة على الرؤية، قالت المعتزلة: ويدل على ذلك وجوه:

الأول: أن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله تعالى ممتنعة.

والثاني: أن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه، ورؤية الله تعالى ليست من جنس نعيم الجنة.

والثالث: أن الخبر الذي تمسكتم به في هذا الباب هو ما روي أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا الخبر يوجب التشبيه؛ لأن النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جهة المرئي، وذلك يقتضي كون المرئي في الجهة؛ لأن الوجه اسم للعضو المخصوص؛ وذلك أيضاً يوجب التشبيه.

فثبت أن هذا اللفظ لا يمكن حمله على الرؤية؛ فوجب حمله على شيء آخر»[1].

ثم ذكروا ما جاء في القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ من أن هذه الزيادة: هي زيادة تفضل الله تعالى عليهم في الثواب.

ثم ذكروا كذلك ما جاء عن بعض السلف من تفسير الزيادة بأنها: غرفة من لؤلؤة واحدة، أو تضعيف الحسنات، أو أنها مغفرة الله ورضوانه، إلى غير ذلك مما تقدم ذكره عند الطبري من أقوال هي في الحقيقة غير متعارضة ولا متناقضة؛ كما رأينا في جمع الطبري رحمه الله بينها.

والجواب عن تلك المزاعم والمغالطات التي ساقها المعتزلة ـ لنفي وقوع رؤية الله تعالى ـ أن يقال لهم:

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٧٨.

١ - إن ما ادعيتم من أن الدلائل العقلية دلت على امتناع رؤية الله تعالى؛ فهو كذب على العقل؛ ورد للنصوص، فإن العقل لا يمنع رؤية الله تعالى، خصوصاً بعد أن أيده النقل الصحيح، ولهذا وصف الرازي دعواهم هذه بأنها «في غاية الضعف ونهاية السخافة»[1].

٢ - أما زعمهم بأن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه، والرؤية بخلاف ذلك.

فقال الرازي: «المزيد عليه: إذا كان مقدراً بمقدار معين؛ وجب أن تكون الزيادة عليه مخالفة له.

مثال الأول: قول الرجل لغيره:- أعطيتك عشرة أمداد من الحنطة وزيادة، فهاهنا يجب أن تكون الزيادة من الحنطة.

ومثال الثاني: قوله: أعطيتك الحنطة وزيادة، فهاهنا يجب أن تكون تلك الزيادة غير الحنطة.

والمذكور في هذه الآية لفظ الحسنى، وهي الجنة، وهي مطلقة غير مقدرة بقدر معين؛ فوجب أن تكون تلك الزيادة عليها شيئاً مغايراً لكل ما في الجنة»[2].

٣ - وأما ما زعموه من أن الأخبار التي جاءت بإثبات النظر إلى الله تعالى توجب التشبيه، فلا شك أن هذا قول خطير؛ لأنه رد للنصوص الصحيحة الثابتة عن المصطفى ﷺ.

---

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٧٨.

(٢) نفس المصدر السابق.

أما وجه الاستدلال بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فإن الكلام في ذلك يشتمل على ما يأتي:

١ ـ رأي أهل القول الحق في دلالة هذه الآية على وقوع رؤية الله تعالى، وتفسيرهم لمعنى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.

٢ ـ وذكر من خالف في معنى الآية، وقال: إنها لا تدل على جواز وقوع رؤية الله تعالى.

ثم ذكر شبههم وإبطالها.

١ ـ أما رأي أهل القول الحق في دلالة هذه الآية على جواز وقوع الرؤية، فهي مسألة معلومة في مذهب السلف؛ حيث ذهبوا إلى أنها تدل دلالة قاطعة على أن الله تعالى يرى بالأبصار في الآخرة، من غير إدراك ولا إحاطة.

وعلى هذا القول سار الأئمة في تفسير هذه الآية. وهو قول ابن عباس، وقتادة، وعطية، والإمام أحمد، وابن تيمية، وابن القيم، وهو كذلك ما قرره علماء التفسير كابن جرير الطبري، وابن كثير، والشوكاني، والفخر الرازي، وغير هؤلاء من أئمة التفسير.

٢ ـ أما معنى قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾: فقد اختلفت أقوال الناس في معناها.

فذهب بعضهم ـ وهو أرجح الأقوال ـ إلى أن معنى الآية: أن الله تعالى يرى، ولكن لا أحد يحيط به، ومثال هذا ـ ولله المثل الأعلى ـ الشمس والقمر، فإنهما يشاهدان ولكن لا أحد يحيط بأجزائهما ويدركها كاملة، ومن نصوصهم في هذا:

١ - قال ابن عباس: لا تدركه الأبصار: لا تحيط به الأبصار.

٢ - وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار.

٣ - وقال عطية العوفي: ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به؛ من عظمته، وبصره يحيط بهم[١].

وكذلك ما قاله شيخ الإسلام رحمه الله من أن الله تعالى: «إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قاله أكثر العلماء، ولم ينف مجرد الرؤية؛ لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدحاً، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رئي، كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علماً؛ فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية.

فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحاً وصفة كمال، وكان ذلك دليلاً على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها»[٢].

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله - في الاستدلال بهذه الآية على ثبوت الرؤية -: «والاستدلال بهذا أعجب؛ فإنه من أدلة النفاة، وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله؛ إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على

(١) حادي الأرواح ص: ٢٠٢.

(٢) الرسالة التدمرية ص: ٢٥.

نقيض قوله، فمنها هذه الآية: وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها؛ فإن الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به، وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمراً وجودياً، كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية . . . » إلى آخر ما ذكر من الأمثلة، وخلص إلى أن معنى الآية هو القول: «أن الله يرى ولا يدرك ولا يحاط به . . . وأنه لعظمته لايدرك بحيث يحاط به؛ فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد على الرؤية».

ثم قال: «وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية»[1].

١ - وذهب بعضهم إلى أن معنى الآية - لا تدركه الأبصار - أي «لا يراه شيء وهو يرى الخلائق».

وهذا هو رأي المعتزلة، وهو أن معنى الآية: أن الله تعالى لا يرى بتاتاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة[2].

٢ - وذهب آخرون إلى أن معنى الآية: أن الله تعالى « لا تدركه أبصار الخلائق في الدنيا، وأما في الآخرة فإنها تدركه من غير إحاطة، وهذا أيضاً ما قرره الإمام أحمد في كتابه (الرد على الزنادقة والجهمية)[3].

قال الطبري «وقال أهل هذه المقالة: الإدراك في هذا الموضع: الرؤية».

---

(١) حادي الأرواح ص: ٢٠٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٦١.

(٣) الرد على الزنادقة والجهمية ص: ١٦.

ثم قال أهل هذه المقالة ـ بعد اتفاقهم على أنها قائمة على الخصوص ـ: إلا أنه يجوز أن يكون معناها:

١ - لا تدركه أبصار الظالمين في الدنيا والآخرة، وتدركه أبصار المؤمنين وأولياء الله.

٢ - قالوا: وجائز أن يكون معناها: لا تدركه الأبصار بالنهاية والإحاطة، وأما بالرؤية فبلى.

٣ - قالوا: وجائز أن يكون معناها: لا تدركه الأبصار في الدنيا وتدركه في الآخرة.

٤ - وجائز أن يكون معناها: لا تدركه أبصار من يراه ـ بالمعنى الذي يدرك به القديم أبصار خلقه ـ فيكون الذي نفى عن خلقه من إدراك أبصارهم إياه، هو الذي أثبته لنفسه؛ إذ كانت أبصارهم ضعيفة لا تنفذ إلا فيما قواها جل ثناؤه على النفوذ فيه وكانت كلها متجلية لبصره لا يخفى عليه منها شيء.

قالوا: ولا شك في خصوص قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، وأن أولياء الله سيرونه يوم القيامة بأبصارهم، غير أنا لا ندري أي معاني الخصوص الأربعة أريد بالآية.

٥ - وذهب بعضهم ومنهم ضرار بن عمرو الكوفي ـ فيما يذكر الرازي[1] ـ إلى أن معنى الآية على العموم، ولن يدرك اللهَ بصرُ أحد في الدنيا والآخرة، ولكن الله يحدث لأوليائه يوم القيامة حاسة سادسة ـ سوى حواسهم الخمس

---

(١) التفسير الكبير ١٣/ ١٢٦.

- فيرونه بها، وذلك لعدم صلاحية الحواس الموجودة الآن لتلك الرؤية.

وتلك الأقوال الأربعة في معنى الآية ذكرها ابن جرير رحمه الله [١].

وقد زاد ابن كثير فذكر:

٦ - أن بعضهم ذهب إلى أن معنى الآية: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾: أي العقول، وينسب هذا القول إلى أبي الحصين يحيى بن الحصين قارئ أهل مكة، وقد علق عليه بقوله: «وهذا غريب جداً وخلاف ظاهر الآية».

٧ - وأن بعضهم ذهب إلى القول بما رواه الترمذي في جامعه: أن الحكم ابن أبان قال: «سمعت عكرمة يقول: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى، فقلت: أليس الله يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ الآية. فقال لي: ويحك ذاك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره»[٢].

وقد أورد ابن كثيربعض الآثار كشواهد لهذا القول من أن الله تعالى يرى دون أن يكون عليه نوره، وأما إذا كان عليه نوره؛ فهذا هو المنفي الذي لا يمكن رؤيته عليه والإحاطة به، وهذا بخلاف تجليه يوم القيامة كما يشاء، فإن هذا لابد وأن يحصل لإخباره جل وعلا بذلك[٣].

والواقع أن تلك الأقوال أكثرها لا دليل عليها، بل إن التكلف ظاهر فيها، ولم يؤيد النص منها جميعاً إلا ما جاء من أن الآية تثبت الرؤية دون

---

(١) جامع البيان ٧/ ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٣٩٥.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ١٦١، ١٦٢.

الإحاطة، وهو القول الذي أيده كثير من العلماء كما تقدم.

ولهذا فإن ابن جرير بعد أن ذكر الأقوال التي أوردها عقب عليها بقوله:

«والصواب من القول في ذلك عندنا: ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس ليس دونها سحاب**»، فالمؤمنون يرونه، والكافرون عنه يومئذ محجوبون، كما قال جل ثناؤه: ﴿**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: ١٥]»[1].

وقال الشوكاني في معنى قول الله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾:

«الأبصار: جمع بصر، وهو الحاسة، وإدراك الشيء: عبارة عن الإحاطة به.

قال الزجاج: لا تبلغ كنه حقيقته، فالمنفي هو هذا الإدراك لا مجرد الرؤية، فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتر لا شك فيه ولا شبهة ولا يجهله إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيماً»[2].

«رأي المعتزلة في الاستدلال بهذه الآية على عدم جواز وقوع رؤية الله تعالى...

ينفي المعتزلة ـ على ما عرف من مذهبهم ـ أن يرى الله تعالى، ومن شبههم النقلية هذه الآية الكريمة، وقد استدلوا بها على نفي الرؤية من وجهين:

---

(١) تفسير الطبري: ٧/ ٣٠٣.

(٢) فتح القدير: ٢/ ١٤٨.

الأول: أنهم قالوا: الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية «أي ولا فرق بينهما، بدليل أن قائلاً لو قال: أدركته ببصري وما رأيته، أو قال: رأيته وما أدركته ببصري؛ فإنه يكون كلامه متناقضاً؛ فثبت أن الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية».

الثاني: أنهم قالوا: إن ما قبل هذه الآية ـ إلى هذا الموضع ـ مشتمل على المدح والثناء[1]، وقوله بعد ذلك: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ أيضاً مدح وثناء؛ فوجب أن يكون قوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ مدحاً وثناءً، وإلا لزم أن يقال: إن ما ليس بمدح وثناء وقع في خلال ما هو مدح وثناء؛ وذلك يوجب الركاكة، وهي غير لائقة بكلام الله»[2].

وقال القاضي عبد الجبار في بيان وجه الاستدلال بالآية على نفي الرؤية ـ كما زعم ـ: «ووجه الدلالة في الآية هو ما قد ثبت من أن الإدراك، إذا قرن بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية، وثبت أنه تعالى نفى عن نفسه إدراك البصر، ونجد في ذلك تمدحاً راجعاً إلى ذاته، وما كان من نفيه تمدحا راجعا إلى ذاته؛ كان إثباته نقصاً، والنقائص غير جائزة على الله تعالى في حال من الأحوال».

ثم مثل لهذا بأنه: لا فرق بين قولهم: أدركت ببصري هذا الشخص،

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠١، ١٠٣].

(٢) التفسير الكبير ١٣/ ١٢٧.

وبين قولهم: رأيت ببصري هذا الشخص[١].

وللجواب عن تلك الشبه أن يقال:

«أما قولهم: إن الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية، فهذا قول غير مسلم لهم، والدليل عليه: أن لفظ الإدراك في أصل اللغة عبارة عن اللحوق والوصول.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] أي: للحقون، وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠] أي: لحقه، ويقال: أدرك فلان فلاناً، وأدرك الغلام: أي: بلغ الحلم، وأدركت الثمرة: أي نضجت، فثبت أن الإدراك هو الوصول إلى الشيء»[٢].

ومما يذكر الرازي إضافة إلى ما تقدم.

«أن المرئي إذا كان له حد ونهاية وأدركه البصر بجميع حدوده وجوانبه ونهاياته؛ صار كأن ذلك الإبصار أحاط به؛ فتسمى هذه الرؤية إدراكاً، أما إذا لم يحط البصر بجوانب المرئي؛ لم تسم تلك الرؤية إدراكاً، والمنفي في الآية إنما هو النوع الأول وهو الرؤية مع الإحاطة»[٣].

فالإدراك في الواقع أمر زائد على مجرد الرؤية، ولهذا فإن الناس يقولون: رأيت فلاناً ولكن ما تمكنت من رؤيته، أو قولهم: رأيته عرضاً، وهذا يعني أن القائل رأى الشخص ولكن لم يحط به تماماً بحيث يميزه، أولم

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٢٣٦.

(٢) التفسير الكبير ١٣/ ١٢٨، ١٢٩.

(٣) نفس المصدر.

يستطع أن يقرر ويحدق النظر إليه؛ إما لحياء أو لغير ذلك.

كما ورد عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لمن حضره عند مرضه: «ولو أردت أن أصف الرسول ﷺ لما استطعت» أي أنه كان لا يستطيع أن يحدق في شخص الرسول ﷺ ؛ إجلالاً له وحياء منه.

وعلى هذا فإن قول القاضي عبد الجبار: إنه لا فرق بين قول القائل: رأيت ببصري هذا الشخص، أو أدركت ببصري هذا الشخص؛ غير مسلّم، فلو كان هذا صحيحاً لكان قول القائل: رأيت الشمس أو أدركت الشمس على حقيقتها ـ صحيحاً.

والواقع أنه غير صحيح، إلا على مذهب المعتزلة الذين فسروا «الإدراك» في الآية بمجرد حصول النظر والرؤية.

قال البيجوري في جوابه عن معنى الآية: «وحاصل الجواب: أنا لا نسلم أن الإدراك بالبصر هو مطلق الرؤية، بل هو رؤية مخصوصة، وهي التي تكون على وجه الإحاطة، بحيث يكون المرئي منحصراً بحدود ونهايات، فالإدراك المنفي في الآية الكريمة أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم»[1].

ومن الأجوبة الأخرى عن الآية: أن يقال فيها ـ أيضاً كما مر ـ أنها إنما نفت أن تدركه الأبصار المعهودة في الدنيا وهي على حالتها دون أن يزيدها الله قوة ويؤهلها لكي تراه سبحانه وتعالى.

وللعلماء أجوبة عن هذا كثيرة كما سبق أن ذكرنا عن القرطبي وابن كثير

---

(٤) شرح جوهرة التوحيد ص: ١٦٦.

والرازي، ومنها القول بأن الله يرى بحاسة سادسة غير هذه الحاسة، كما قاله ضرار بن عمرو، وأن الله تعالى لا يدرك بهذه الحاسة مطلقاً كما أفادته الآية.

أو يقال كذلك: إن فيه بين الآيات الدالة على رؤية الله تعالى والآيات النافية عموماً وخصوصاً، فما ورد من نفي الرؤية يكون عاماً، وما ورد في إثباتها يكون خاصاً، والخاص مقدم على العام، كما أشار إلى ذلك الرازي، وهي أجوبة تقال في رد الخصم، غير أن الجواب الذي ارتضاه السلف هو الذي ينبغي التعويل عليه والاكتفاء به.

٢ - وأما ما زعموه من أن الله تعالى تمدح بعدم إمكان رؤيته؛ فهذا في الحقيقة قلب لصحة تأويل الآية، وقد سبق بيان استدلال السلف بهذا النفي في الآية، وأنه على سبيل المدح، مع إثبات الرؤية.

وذلك أنه لو كان سبحانه وتعالى لا يمكن رؤيته بحال؛ لما كان في ذلك تمدحاً بعدم إدراك الأبصار له، لأنه حينئذ يمدح نفسه بأمر عدمي، وهذا لا يليق، وليس فيه ثناء، بل كل نفي نفاه الله عن نفسه فإنه يراد إثبات الكمال فيه من طريق أخرى.

فحينما نفى أن تدركه الأبصار؛ أراد بيان عظمته، وحين نفى عن نفسه السنة والنوم؛ أراد بيان كمال حياته وقيوميته، وحين نفى عن نفسه الظلم؛ أراد بيان كمال عدله، وهكذا، كما أشار إلى ذلك كثير من العلماء.

ولقائل أن يقول للمعتزلي: حينما تنفي رؤية الله تعالى مستدلا بهذه الآية، هل تقر بقول الرسول ﷺ الثابت في الصحيحين وغيرهما: «**إنكم سترون ربكم**»؟ فإما أن يقر به أو يجحده:

فإن أقر به؛ ألزم نفسه القول بالرؤية، وألزم نفسه إيراداً آخر عليه، وهو أن يقال له: هل كان الرسول ﷺ حينما قال هذا القول يعرف معنى الآية: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ أم لا ؟ ذلك أن مقتضى القول بنفي الرؤية في الآية، أن الرسول ﷺ حينما قال هذا القول لم ينزه الله عما ينبغي أن ينزه عنه، بل نزهه الجهمية والمعتزلة أكثر منه، وهذا أمر في منتهى الخطأ.

وإن جحد الحديث - وهو ما سار عليه المعتزلة - لأن فيه القول بالتشبيه على حد زعمهم؛ فيبين له حينئذ صحة الحديث واتصال سنده إلى رسول الله ﷺ ، ثم يحكم عليه بعد ذلك بحسب احترامه وقبوله للحديث أو عدم قبوله.

وأما وجه الاستدلال بقوله تعالى في حق الكفار: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.

فهو: «أنه سبحانه وتعالى جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه؛ كانوا أيضاً محجوبين عنه»[1] .

وإذا كان الكافر يحجب عن الله ، والمؤمن يحجب عن الله ، فما فضل المؤمن على الكافر[2] ؟! وما فائدة هذا التخصيص أيضاً؟ !

وقد نقل أكثر من واحد عن الإمام الشافعي وغيره: أنهم استدلوا بهذه الآية على أن المؤمنين يرون ربهم، فقال المزني: «سمعت الشافعي يقول في

---

(١) حادي الأرواح ص: ٢٠١.

(٢) الرد على الزنادقة والجهمية ص: ٤٣.

قوله عز وجل: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾: فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة»[١].

وقال ابن كثير: « وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾، وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة، رؤية بالأبصار في عرصات القيامة وفي روضات الجنان الفاخرات»[٢].

وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال: «حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ماتقول في قول الله عز وجل: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى. قال الربيع فقلت: يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم، وبه أدين الله»[٣].

وعن الحسن في قول الله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قال: يكشف الحجاب فينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية. أو كلاماً هذا معناه[٤].

---

(١) حادي الأرواح ص: ٢٠١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٦.
(٣) حادي الأرواح ص: ٢٠١.
(٤) تفسير ابن جرير ٣٠/ ١٠٠.

وقال مقاتل: معنى الآية: إنهم بعد العرض والحساب لا يرون ربهم، والمؤمنون يرون ربهم.

وقال الكلبي: يقول: إنهم عن النظر إلى رؤية ربهم لمحجوبون، والمؤمن لا يحجب عن رؤية ربه.

وسئل مالك بن أنس عن هذه الآية فقال: «لما حجب أعداءه فلم يروه؛ لا بد وأن يتجلى لأوليائه حتى يروه»[1].

وكشأن المعتزلة في تأويل معاني آيات الرؤية إلى الثواب وغيره، فإن هذه الآية لم تنج من تحريفهم، حيث أولوا معنى حجب الكفار عن ربهم إلى معنى: عن ثواب ربهم، لدلالة العقل عليه كما يذكر القاضي عبد الجبار[2].

وقد نقل الرازي عن الجبائي - وهو من رءوس المعتزلة - أنه قال في تفسير الآية: أن المراد من معناها هو حجب الكفار عن رحمة ربهم.

ونقل كذلك عن أبي مسلم: أن معنى الآية أي غير مقربين ولا مقبولين عند الله.

وعن القاضي أن معناها: أي صار ممنوعاً عن وجدان رحمته تعالى.

وعن صاحب الكشاف أنه قال: «كونهم محجوبين عنه؛ تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم؛ لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم».

---

(١) التفسير الكبير ٣١/ ٩٦.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص: ٢٦٧.

وتلك الأقوال كلها تأويلات لا دليل عليها، وخروج عن الظاهر من معنى الآية إلى معاني لم تكن مرادة من الآية، وقد تقدم النقل عن علماء التفسير أنهم فسروا هذه الآية بحجب الكفار عن رؤية الله تعالى، لا حجبهم عن الرحمة أو الثواب كما قالت المعتزلة[1] .

ذلك أن حجب الكفار عن رحمة الله تعالى وثوابه أمر معلوم؛ فيكون تفسير الآية به وقصرها عليه من باب تحصيل الحاصل.

ومن العلماء من ذهب في تفسير الآية إلى أن معناها: أن الله يحجب الكفار عن كرامته، ولا شك أن النظر إليه جل وعلا من أعظم الكرامات.

قال ابن جرير ـ بعد أن ذكر قول من فسر الآية بحجب الكفار عن رؤية الله تعالى ـ: وقول من فسرها بحجبهم عن كرامته؛ رجح أن الآية محتملة لذلك كله، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم أنهم عن رؤيته محجوبون، ويحتمل أن يكون مراداً به الحجاب عن كرامته، وأن يكون مراداً به الحجاب عن ذلك كله، ولا دلالة في الآية تدل على أنه مراد بذلك الحجاب عن معنى منه دون معنى، ولا خبر به عن رسول الله ﷺ قامت حجته.

فالصواب أن يقال: هم محجوبون عن رؤيته وعن كرامته؛ إذ كان الخبر عاماً لا دلالة على خصوصه»[2] .

وهذا يدل على أن الآية تشمل ذلك كله، ولا محذور في ذلك إلا إذا

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٣١/ ٩٦.

(٢) تفسير ابن جرير ٣٠/ ١٠٠-١٠١.

اقتصر في معناها على واحد من المعاني التي قيلت دون ملاحظة إثباتها رؤية الله تعالى، فإن القائل بذلك يخرج حينئذ بدلالتها إلى رأي المعتزلة.

أما وجه الاستدلال بالآيات الأخرى التي فيها ذكر لقاء الله تعالى.

فقد فسر علماء التفسير هذا اللقاء المذكور في الآيات: بملاقاة الله تعالى عند الرجوع إليه في يوم القيامة[1]، ويستلزم ذلك رؤية الله تعالى.

قال الرازي: «استدل بعض الأصحاب بقوله: ﴿مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ على جواز رؤية الله تعالى»[2].

وقال أيضاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ الآية [الكهف: ١٠٥].

قال: «لقاء الله عبارة عن رؤيته بدليل أنه يقال لقيت فلاناً: أي رأيته، فإن قيل: اللقاء عبارة عن الوصول، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾، وذلك في حق الله تعالى محال؛ فوجب حمله على لقاء ثواب الله.

والجواب: أن لفظ اللقاء، وإن كان في الأصل عبارة عن الوصول والملاقاة، إلا أن استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور، والذي يقولونه من أن المراد منه لقاء ثواب الله فهو لا يتم إلا بالإضمار، ومن المعلوم أن حمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور أولى من حمله على ما يحتاج معه إلى الإضمار»[3].

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١/ ٢٦٤، ٢/ ٣٩٩، وانظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٨٨.

(٢) التفسير الكبير ٣/ ٥٠.

(٣) التفسير الكبير ٢١/ ١٧٤.

وذكر الخطابي فيما ينقله عنه ابن حجر أن: «المراد باللقاء: رؤية الله».

واللقاء الذي أشار إليه الخطابي: هو ما جاء في حديث جبريل حين سأل الرسول ﷺ ما الإيمان؟ فأجابه عليه السلام بقوله: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، وبلقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث**» الحديث[1].

وقد ذكر النووي رحمه الله اعتراضاً على من فسر لقاء الله برؤيته، حيث قال: «ليس المراد باللقاء رؤية الله تعالى، فإن أحداً لا يقطع لنفسه برؤية الله تعالى؛ لأن الرؤية مختصة بالمؤمنين، ولا يدري الإنسان بماذا يختم له»[2].

ولكن قد تعقبه ابن حجر وأجاب عن كلام النووي: «بأن المراد: الإيمان بأن ذلك حق في نفس الأمر، قال: وهذا من الأدلة القوية لأهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة؛ إذ جعلت من قواعد الإيمان»[3].

ومن المعلوم أن اللقاء والاجتماع يستلزم النظر والمشاهدة بإجماع أهل اللغة، إن لم يكن هناك مانع.

قال ابن القيم: «وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع؛ اقتضى المعاينة والرؤية»[4].

ويذكر شيخ الإسلام أن طائفة من أهل السنة منهم أبو عبد الله بن بطة فسروا اللقاء المذكور في كتاب الله بالرؤية والمعاينة، فقال:

«ومن أهل السنة من قال: اللقاء إذا قرن بالتحية فهو من الرؤية، وقال

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٢٤، ومسلم ١/ ١٣٧.
(٢) شرح النووي لمسلم ١/ ١٣٧.
(٣) فتح الباري ١/ ١١٨.
(٤) حادي الأرواح ص: ١٩٨.

ابن بطة: سمعت أبا العباس أحمد بن يحيى يقول في قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣، ٤٤]: أجمع أهل اللغة أن اللقاء هاهنا لا يكون إلا معاينة ونظرة بالأبصار»[1].

* * *

(١) الفتاوى ٦/ ٤٨٩.

موقف المعتزلة من دلالة تلك الآيات

أنكرت المعتزلة أن تكون الآيات التي فيها ذكر لقاء الله تعالى تفيد الرؤية، وقالوا: «لفظ اللقاء لا يفيد الرؤية، والدليل عليه: الآية، والخبر، والعرف.

١ - أما الآية : قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ والمنافق لا يرى ربه[١].

ويذكر القاضي عبد الجبار هنا أن مما يبطل تعلق المثبتين للرؤية بالآية السابقة؛ أنها لو كانت دالة على أن المؤمنين يرون الله تعالى؛ لوجب في قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أن يدل على أن المنافقين أيضاً يرونه، وهم لا يقولون بذلك[٢].

ثم استدلوا كذلك بقوله تعالى في معرض تهديده: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

قالوا: فهذا يتناول الكافر والمؤمن، والرؤية لا تثبت للكافر؛ فعلمنا أن اللقاء ليس عبارة عن الرؤية.

---

(١) التفسير الكبير ٣/ ٥١.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص: ٢٦٦.

٢ - وأما الخبر : فقوله عليه السلام : « **من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم؛ لقي الله وهو عليه غضبان**»[1] .

وليس المراد رأى الله تعالى؛ لأن ذلك وصف أهل النار .

٣ - وأما العرف : فهو قول المسلمين فيمن مات : لقي الله، ولا يعنون أنه رأى الله عز وجل»[2] .

وقد خالف القاضي عبد الجبار ما أجمع عليه أهل اللغة من أن اللقاء المذكور في قوله تعالى: ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ** ﴾ لقاء معاينة بالأبصار، خالف في هذا، وجاء بتأويل بعيد لمعنى الآية يدل عليه العقل - كما زعم - بحيث يكون معنى الآية: ﴿ **يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ** ﴾ أي يوم يلقون ملائكته، لأن اللقاء هنا - كما يذكر - ليس هو بمعنى الرؤية، وذلك لاستعمال أحدهما حيث لا يستعمل الآخر؛ لأن الأعمى يقول: لقيت فلاناً، وجلست بين يديه، وقرأت عليه، ولا يقول: رأيته.

وللجواب عن ذلك:

أما قولهم: إن لفظ اللقاء لا يفيد الرؤية، فهذا غير مسلم على عمومه، وذلك لأن من لوزام الملاقاة المشاهدة؛ إلا أن يحصل مانع منها، وقد قدمنا أدلة ذلك .

وأما إخبار الله تعالى عن المنافقين أنه أعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه، والمنافقون لا يرون الله تعالى ، فهذا كذلك غير مسلم؛ لأن هذه

(١) أخرجه البخاري جـ ١١ ص ٥٥٨.

(٢) التفسير الكبير ٣/ ٥١.

المسألة ليست من المسائل المتفق عليها، فقد حصل الخلاف في رؤية المنافق لربه.

وقد ذهب قسم من السلف إلى القول برؤية المنافقين لربهم (وسنخص هذه المسألة بمزيد من التفصيل)، وبهذا فإن إسناد القاضي عدم القول برؤية المنافقين لربهم إلى جميع المثبتين؛ غير دقيق، وليس له كذلك متمسك في الاستدلال بهذه الآية على أن اللقاء لا يكون بمعنى النظر، وهذا ما جعل الرازي يذهب إلى أن معنى الآية «أي إلى يوم يلقون حسابه وحكمه، وأن هذا الإضمار، وإن جاء على خلاف الدليل، ولكنا لما اضطررنا إليه اعتبرناه»[1].

وهذا الاضطرار الذي جعل الرازي يفسر الآية بالتفسير المذكور؛ إنما لجأ إليه بناء على أن المنافق تمتنع رؤيته لربه.

وأما الجواب عن الخبر الذي استندوا عليه في نفي أن اللقاء يراد به الرؤية، فإنه يمكن أن يقال في الجواب: إن اللقاء وإن كان يستلزم الرؤية إلا أنه يمكن أن يفهم منه الرؤية أو عدمها بحسب القرينة.

والقرينة في مثل قوله: **«لقي الله وهو عليه غضبان»** تفيد بيان عاقبة من اتصف بذلك، على أنه لا يمنع أن تكون الملاقاة هنا المراد بها الرؤية مع حصول الغضب من الله على من هذه صفته، خصوصاً عند القائلين برؤية الكفار ربهم.

---

(١) التفسير الكبير ٣/ ٥١.

قال الراغب في بيان اللقاء:

«اللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معاً، وقد يعبر به عن كل واحد منهما، يقال: لقيه يلقاه لقاء ولقياً ولقية، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة»[1].

أي إن القرائن هي التي تبين المقصود من اللقاء.

وأما قولهم في الذي يموت: «لقي الله»، فهذا ظاهر في أنهم يعنون بذلك أنه قد أفضى إلى ربه وانقطعت علائقه مع الناس، ثم بعد ذلك: هل يراه أو لا يراه؟ العبارة ليس فيها الجزم بأي وجه.

ولعل هذا مثل قولهم للمرسل: «اذهب إلى فلان، وقل له كذا وكذا»، لم يكن في حسبانهم النظر أو عدمه، ولكنهم يعلمون أنه متى حصل اللقاء فإن الرؤية ستحصل من باب أولى؛ إذا لم يكن هناك مانع منها.

قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «وملاقاة الله يعبر بها عن الموت، وعن يوم القيامة»[2].

وعلى هذا فإن قول القائل: «فلان لقي ربه»، يقصدون به أنه مات، وليس نفي الرؤية.

وأما ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار من تأويل الآية إلى معنى لقاء ملائكته، فهو ـ بالإضافة إلى مخالفته لما أجمع عليه أهل اللغة ـ ذهب في

(١) المفردات ص: ٤٥٣.
(٢) فتح الباري ١٣/ ٤٣٠.

تحريف الآية عن مدلولها إلى مدلول آخر لا صلة لها به؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أسند اللقاء في كل الآيات إليه جل وعلا، ولم يسنده إلى الملائكة.

وأما المثال الذي أورده ـ بعد تحريفه لمعنى الآية ـ فهو إنما ينطبق على الحالة التي ذكرها، وهي قول الأعمى: «لقيت فلاناً»، فالقرينة ظاهرة في أن ذلك كان مجرد لقاء، وهو يستلزم الرؤية، لولا حصول المانع وهو العمى؛ إذ لو كان مبصراً وقال: لقيت فلاناً لاستلزم ذلك اللقاء النظر من باب أولى.

ولهذا فإنه لم يثبت على أن لقاء الله هو لقاء الملائكة، بل فسر قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ [الكهف: ١١٠]؛ فسر اللقاء هنا بمعنى الثواب، أي فمن كان يرجو لقاء ثواب ربه.

والخلاصة: أن الأدلة الدالة على ثبوت رؤية الله تعالى هي:

١ - طلب موسى عليه السلام الرؤية من الله تعالى، وقد سبق تقرير هذه المسألة.

٢ - قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾.

٣ - قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

٤ - قوه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

٥ - قوله تعالى عن الكفار: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، مما يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك.

٦ - ما جاء من قول الله تعالى في إثبات لقائه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾

٧ - قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيراً ﴾.

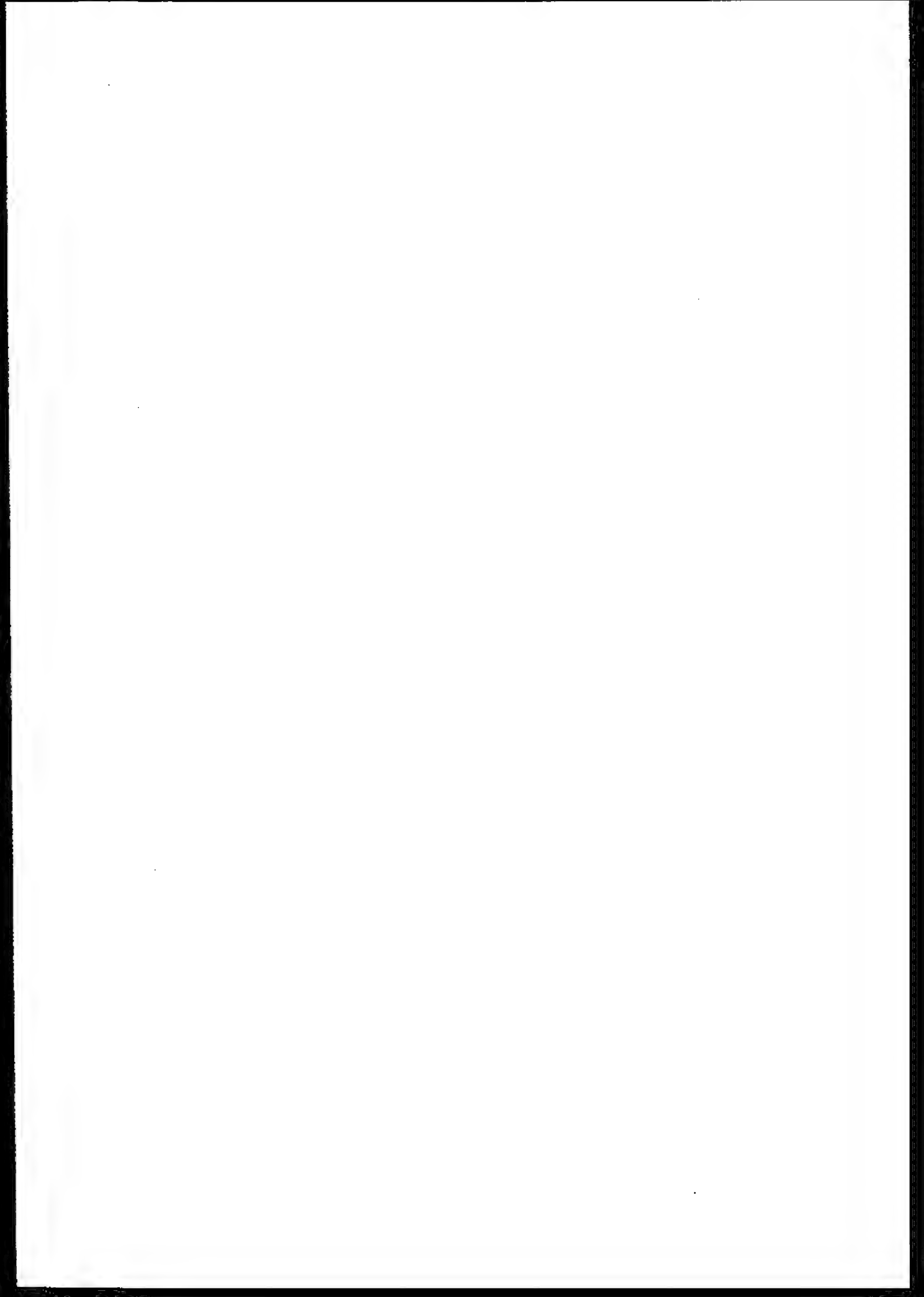
«فإن إحدى القراءات في هذه الآية «ملكاً» بفتح الميم وكسر اللام، وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى».

قال الرازي: «وعندي التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها»[1].

وبعد الانتهاء من ذكر الأدلة من القرآن الكريم نتبع ذلك بالأدلة من السنة على وقوع رؤية الباري عز وجل.

* * *

(١) التفسير الكبير ١٣/ ١٣١.



ب ـ الأدلة من السنة على إثبات وقوع رؤية الله تعالى وذكر شبه المخالفين والرد عليهم :

وكما ثبتت الرؤية في كتاب الله عز وجل؛ ثبتت كذلك في السنة النبوية بالأحاديث الصحيحة المشهورة المتواترة، كما ذكر شيخ الإسلام[١] .

ولو أردنا أن نستقصي كل ما جاء في إثبات وقوعها في السنة؛ لطال ذلك، غير أننا سنقتصر على بعض ما جاء فيها؛ وذلك لكثرة من رواها من الصحابة عن رسول الله ﷺ .

وقد ذكر العلماء عدداً كثيراً ممن رووا أحاديث الرؤية وذكروا المصنفات في ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

«إن الأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة، قد دون العلماء فيها كتباً، مثل كتاب الرؤية للدارقطني ولأبي نعيم وللآجري، وذكرها المصنفون في السنة كابن بطة، واللالكائي، وابن شاهين، وقبلهم عبد الله بن أحمد بن حنبل، وحنبل بن إسحاق، والخلال، والطبراني، وغيرهم، وخرجها أصحاب الصحيح والمساند والسنن وغيرهم»[٢] .

وقد ذكر ابن القيم عدداً من الصحابة الذين رووا أحاديث الرؤية عن رسول الله ﷺ ، فقال:

«رواها[٣] عنه أبو بكر الصديق، وأبو هريرة، وأبو سعيد الخدري،

---

(١) الأزهار المتناثرة ص: ١٤٧ .

(٢) الفتاوى ٦/ ٤٨٦ .

(٣) أي عن رسول الله ﷺ .

وجرير بن عبد الله البجلي، وصهيب بن سنان الرومي، وعبد الله بن مسعود الهذلي، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وعدي بن حاتم الطائي، وأنس بن مالك الأنصاري، وبريدة بن الحصيب الأسلمي، وأبو رزين العقيلي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبو أمامة الباهلي، وزيد بن ثابت، وعمار بن ياسر، وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر، وعمارة ابن رويبة، وسلمان الفارسي، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس، وعبدالله ابن عمرو بن العاص ـ وحديثه موقوف ـ وأبي بن كعب، وكعب بن عجرة، وفضالة بن عبيد ـ وحديثه موقوف ـ ورجل من أصحاب النبي ﷺ غير مسمى»[(١)] .

ثم استطرد الإمام ابن القيم في ذكر الروايات الثابتة عن الصحابة رضوان الله عليهم، الدالة على إثبات رؤية الله عز وجل.

وقال ابن أبي العز ـ بعد أن ذكر بعض الأدلة من السنة على إثباتها ـ :

«وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول ﷺ قالها، ولولا أني التزمت الاختصار؛ لسقت ما في الباب من الأحاديث»[(٢)] .

وبعد إيراد ما سبق عن العلماء في إخبارهم عن تواتر الأحاديث في إثبات الرؤية، نورد هنا بعض الأدلة كمثال على ثبوتها:

فمما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أناس:

---

(١) حادي الأرواح ص: ٢٠٥ ـ ٢٣٤ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص: ٢١٠ .

يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال : **«هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟»** قالوا: لا يا رسول الله . قال: **«هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟»** قالوا: لا يا رسول الله . قال : **«فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها**[١] **، فيأتيهم الله في غير الصورة**[٢] **التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه»**[٣] الحديث .

وهذه إحدى روايات البخاري ، وفي بعض الروايات **«هل تمارون»**[٤] .

وفي بعض الروايات للبخاري **«فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه؛ فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها-** شك إبراهيم **- فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم**

---

(١) قال النووي : «قال العلماء إنما بقوا في زمرة المؤمنين ؛ لأنهم كانوا في الدنيا متسترين بهم ؛ فيتسترون بهم أيضاً في الآخرة ، وسلكوا مسلكهم ودخلو في جملتهم وتبعوهم ومشوا في نورهم ، حتى ضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وذهب عنهم نور المؤمنين» .
شرح النووي لمسلم ١/ ٤٢٨ .

(٢) الكلام في إثبات الصورة لله تعالى مما كثر فيه الجدل بين العلماء ، وقد جاءت السنة بإثبات الصورة لله تعالى وأن إطلاق هذه اللفظة على الله ليس فيها محذور إلا عندما يتخيل الشخص فيها معنى التشبيه .

(٣) صحيح البخاري مع الفتح جـ١١ ص٤٤٥ .

(٤) المصدر السابق جـ٢ ص٢٩٢ .

. . . إلخ الحديث»[1] .

وأخرجه مسلم بلفظ «**هل تضارون**»[2] .

وعن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «**هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟** قلنا: لا . قال: **فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما**. ثم قال: **ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون؛ فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم، حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، وغبرات[3] من أهل الكتاب.**

ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله. فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا؛ فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا. فيقال: اشربوا؛ فيتساقطون.

حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم، وإنا سمعنا منادياً ينادي «ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون»، وإنما ننتظر ربنا. قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا. فلا يكلمه إلا الأنبياء. فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه؛

---

(١) البخاري مع الفتح ١٣/ ٤١٩ .

(٢) صحيح مسلم ١/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨ «النووي» .

(٣) وفي صحيح مسلم ١/ ٤٣٥ «وغبر» .

فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً»[١] .

وقدأخرج الإمام أبو داود عدة روايات في إثبات رؤية الله تعالى يوم القيامة عن جرير بن عبد الله وعن أبي هريرة وأبي رزين[٢] .

وقال أبو داود: حدثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد .ح وحدثنا عبيد الله معاذ ثنا أبي ثنا شعبة المعنى عن يعلى بن عطاء عن وكيع قال موسى ابن عدس عن أبي رزين قال موسى العقيلي قال: قلت: يا رسول الله ، أكلنا يرى ربه؟ قال ابن معاذ: مخلياً به يوم القيامة، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: **أبا رزين، أليس كلكم يرى القمر؟** قال ابن معاذ: ليلة البدر مخلياً به، ثم اتفقا، قلت: بلى، قال: **فالله أعظم،** قال ابن معاذ: قال: **فإنما هو خلق من خلق الله، فالله أجل وأعظم»**[٣] .

وأخرج كذلك الترمذي في سننه[٤] ـ وابن كثير ـ عدة أحاديث في ذلك[٥].

وفيما تقدم من الأحاديث بعض العبارات التي تحتاج إلى إيضاح وبيان:

ومن ذلك: قوله ﷺ: **«هل تضارون، أو تضامون، أو تمارون»** كما في بعض الألفاظ الواردة في نص الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري ١٣/ ٤٢١، ومسلم ١/ ٤٣٤ـ ٤٣٥.

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٥٣٥، ومعنى قوله: «قال موسى العقيلي» أي قال موسى العقيلي في روايته عن أبي رزين العقيلي» انظر عون المعبود جـ١ ص٣٤٥.

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٥٣٥.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٦٩١.

(٥) انظر: النهاية ٢/ ٧٣.

والجواب:

أما معنى «**تضارون**»: فقال النووي: هو بتشديد الراء، وبتخفيفها، والتاء مضمومة فيها.

١ ـ ومعنى المشدد: هل تضارون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية، أو غيرها لخفائه، كما تفعلون أول ليلة من الشهر؟

٢ ـ ومعنى المخفف: هل يلحقكم في رؤيته ضير؟ وهو الضرر.

وأما «**تضامون**»: فهو «بتشديد الميم وتخفيفها» فمن شددها: فتح التاء، ومن خففها: ضم التاء.

١ ـ ومعنى المشدد: هل تتضامون وتتلطفون في التوصل إلى رؤيته؟

٢ ـ ومعنى المخفف: هل يلحقكم ضيم؟، وهو المشقة والتعب»[١].

قال النووي: «قال القاضي عياض رحمه الله: وقال فيه بعض أهل اللغة: تضارون أو تضامون بفتح التاء وتشديد الراء والميم، وأشار القاضي بهذا إلى أن غير هذا القائل بقولهما بضم التاء ـ سواء شدد أو خفف ـ وكل هذا صحيح ظاهر المعنى[٢].

وأما ما جاء في رواية البخاري «لا تضامون أو لا تضارون على الشك»؛

فقال النووي: «معناه لا يشتبه عليكم وترتابون فيه؛ فيعارض بعضكم بعضاً في رؤيته»[٣].

وقال البيهقي ـ فيما ينقله عنه ابن حجر ـ: سمعت الشيخ أبا الطيب

(١) شرح النووي لمسلم ١/٤٢٧.

(٢) شرح النووي لمسلم ١/٤٢٨.

(٣) المصدر السابق. ونفس الصفحة.

الصعلوكي يقول: لا تضامون ـ بضم أوله وتشديد الميم ـ يريد لا تجتمعون لرؤيته في جهة، ولا ينضم بعضكم إلى بعض، فإنه لا يرى في جهة.

ومعناه ـ بفتح أوله ـ لا تتضامون في رؤيته بالاجتماع في جهة، وهو ـ بغير تشديد ـ من الضيم؛ معناه لا تظلمون فيه برؤية بعضكم دون بعض، فإنكم ترونه في جهاتكم كلها، وهو متعال عن الجهة»[١] .

وأما معنى: «**هل تمارون**» ـ التي أوردها البخاري في باب: فضل السجود ـ فهو كما قال ابن حجر: «بضم أوله وتخفيف الراء: أي تجادلون في ذلك، أو يدخلكم فيه شك، من المرية وهو الشك»[٢] .

٢ ـ معنى قوله ﷺ : «**فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم**» إلخ الحديث.

قال النووي في شرح هذه الجملة من الحديث:

«اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين:

أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها[٣]؛ بل يقولون: يجب علينا أن نؤمن بها، ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزه عن التجسيم والانتقال والتحيز في جهة، وعن سائر صفات المخلوق[٤] .

---

(١) فتح الباري ١١/ ٤٤٦ . وله سبحانه العلو المطلق والفوقية المطلقة.

(٢) المصدر السابق ١١/ ٤٤٧ .

(٣) ليس من مذهب السلف التفويض في إثبات معاني الصفات، وإنما التفويض في إثبات الكيفية فقط.

(٤) ليس التوقف عن بيان معاني آيات الصفات من مذهب السلف؛ ذلك أنه لا يجوز أن يكون =

وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين، واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم.

والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين، أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها، وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله؛ بأن يكون عارفاً بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع، ذا رياضة في العلم.

فعلى هذا المذهب: يقال في قوله ﷺ: **«فيأتيهم الله»**: أن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إياه؛ لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلا بالإتيان، فعبر بالإتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازاً.

وقيل: الإتيان فعل من أفعال الله تعالى سماه إتياناً.

وقيل: المراد بيأتيهم الله أن يأتيهم بعض ملائكة الله.

قال القاضي عياض رحمه الله: هذا الوجه أشبه عندي بالحديث، قال: ويكون هذا الملك الذي جاءهم في الصورة التي أنكروها من سمات الحدث الظاهرة على الملك والمخلوق، قال: أو يكون معناه: يأتيهم الله في صورة؛ أي يأتيهم في صورة، ويظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله؛ ليختبرهم.

= الله تعالى قد تكلم بكلام لا معنى له، فما من كلمة إلا ولها معنى تدل عليه في إثبات الصفة، ومعلوم عند عامة السلف أن إثبات معاني نصوص آيات الصفات على ظاهرها اللائق بالله تعالى لا يستلزم المشابهة بين الخالق والمخلوق، وما توقف عن معاني آيات الصفات إلا المتأخرون من الخلف لشبهة باطلة أوقعتهم في مثل هذا المسلك؛ كادعائهم تنزيه الله تعالى، وما تعلقوا به من تقديم العقل على النقل في مثل هذا الباب الذي طريقه النقل.

وهذا آخر امتحان المؤمنين، فإذا قال لهم هذا الملك ـ أو هذه الصورة ـ : أنا ربكم، رأوا عليه من علامات المخلوق ما ينكرونه، ويعلمون أنه ليس ربهم؛ فيستعيذون بالله منه.

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون**»، فمعناه قد أزال المانع لهم من رؤيته وتجلى لهم»[١].

قال: «والمراد بالصورة هنا الصفة، ومعناها: فيتجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونه بها، وإنما عرفوه بصفته ـ وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية الله سبحانه وتعالى ـ لأنهم يرونه لا يشبهه شيء من مخلوقاته، وقد علموا أنه لا يشبهه شيء من مخلوقاته؛ فيعلمون أنه ربهم، فيقولون: أنت ربنا. وإنما عبر بالصورة عن الصفة لمشابهتها إياها ولمجانسة الكلام».

ويذكر ابن حجر أن تعريف الله لهم نفسه: «أي يلقي في قلوبهم علماً قطعياً يعرفون به أنه ربهم سبحانه وتعالى»، ثم نقل عن الكلاباذي قوله: «عرفوه بأن أحدث فيهم لطائف عرفهم بها نفسه».

قال ابن حجر: «ووقع في رواية هشام بن سعد: «**ثم نرفع رؤوسنا ـ وقد عاد لنا في صورته التي رأيناه فيها أول مرة ـ فيقول: أنا ربكم، فنقول: نعم أنت ربنا**». وهذا فيه إشعار بأنهم رأوه في أول ما حشروا، والعلم عند الله»[٢].

٤ ـ وأما قولهم: «**نعوذ بالله منك**»؛ فقال الخطابي: يحتمل أن تكون هذه

---

(١) شرح النووي ١/ ٤٣٧.

(٢) فتح الباري ١١/ ٤٥١.

الاستعاذة من المنافقين خاصة. وأنكر القاضي عياض هذا وقال: لا يصح أن تكون من قول المنافقين، ولا يستقيم الكلام به.

وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب، ولفظ الحديث مصرح به، أو ظاهر فيه، وإنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا سمات المخلوق.

وقال ابن حجر: «قال ابن العربي: إنما استعاذوا منه أولاً لأنهم اعتقدوا أن ذلك الكلام استدراج؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء، ومن الفحشاء اتباع الباطل وأهله، ولهذا وقع في الصحيح: «**فيأتيهم الله في صورة**» - أي بصورة - لا يعرفونها؛ وهي الأمر باتباع أهل الباطل، فلذلك يقولون: «**إذا جاء ربنا عرفناه**» أي إذا جاءنا بما عهدناه منه من قول الحق».

قال: «وقال ابن الجوزي: معنى الخبر: يأتيهم الله بأهوال يوم القيامة ومن صور الملائكة[1] بما لم يعهدوا مثله في الدنيا؛ فيستعيذون من تلك الحال، ويقولون: إذا جاء ربنا عرفناه، أي إذا أتانا بما نعرفه من لطفه، وهي الصورة التي عبر عنها بقوله: ﴿ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾ - أي عن شدة.

وقال القرطبي: «هو مقام هائل يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب، وذلك أنه لما بقي المنافقون مختلطين بالمؤمنين، زاعمين أنهم منهم، ظانين أن ذلك يجوز في ذلك الوقت كما جاز في الدنيا؛ امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة، قالت للجميع: أنا ربكم، فأجابه المؤمنون بإنكار ذلك لما سبق لهم من معرفته سبحانه، وأنه منزه عن صفات هذه الصورة؛ فلهذا

---

(١) وهذا تأويل لمعنى الصورة الثابتة لله تعالى.

قالوا: **«نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئاً»**[١].

٥ ـ وأما قوله ﷺ: **«فيتبعونه»**. فمعناه: يتبعون أمره إياهم بذهابهم إلى الجنة، أو يتبعون ملائكته الذين يذهبون بهم إلى الجنة، والله أعلم[٢].

٦ ـ وأما ما جاء في الحديث من قوله ﷺ: **«وغبرات من أهل الكتاب»** فقد قال النووي في معناها:

«وأما غبر فبضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة المشددة: ومعناه: بقاياهم؛ جمع غابر»[٢]، وقد تقدم بيان معناها في مبحث الشفاعة.

٧ ـ وقوله في الحديث: **«فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم»**.

وفي رواية مسلم: **«قالوا: ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم»**.

قال النووي: «معنى قولهم: التضرع إلى الله تعالى في كشف هذه الشدة عنهم، وأنهم لزموا طاعته سبحانه وتعالى، وفارقوا في الدنيا الناس الذين زاغوا عن طاعته ـ سبحانه ـ، من قراباتهم وغيرهم، ممن كانوا يحتاجون في معايشهم ومصالح دنياهم إلى معاشرتهم، للارتفاق بهم.

وهذا كما جرى للصحابة المهاجرين وغيرهم، ومن أشبههم من المؤمنين في جميع الأزمان، فإنهم يقاطعون من حاد الله ورسوله ﷺ مع حاجتهم في معايشهم، إلى الارتفاق بهم والاعتضاد بمخالطتهم؛ فآثروا رضى الله تعالى على ذلك، وهذا معنى ظاهر في الحديث لا شك في حسنه».

---

(١) فتح الباري ١١/ ٤٥١.

(٢) شرح النووي لمسلم ١/ ٤٢٩.

(٣) شرح النووي لمسلم ١/ ٤٣٥.

قال النووي: «وقد أنكر القاضي عياض رحمه الله هذا الكلام الواقع في صحيح مسلم، وادعى أنه مغير، وليس كما قال؛ بل الصواب ما ذكرناه»[١].

٨ ـ وأما معنى ما ورد في الحديث من قوله ﷺ : «**فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟، فيقولون: الساق؟، فيكشف عن ساقه**. . . »الحديث.

فقال النووي: «ضبط «**يكشف**» بفتح الياء وضمها وهما صحيحان، وفسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث الساق هنا: بالشدة؛ أي يكشف عن شدة وأمر مهول، وهذا مثل تضربه العرب لشدة الأمر، ولهذا يقولون: قامت الحرب على ساق، وأصله: أن الإنسان إذا وقع في أمر شديد شمر ساعده، وكشف عن ساقه للاهتمام به.

قال القاضي عياض رحمه الله : وقيل: المراد بالساق هنا: نور عظيم، وورد ذلك في حديث عن النبي ﷺ ، قال ابن فورك: ومعنى ذلك: ما يتجدد للمؤمنين عند رؤية الله تعالى من الفوائد والألطاف.

قال القاضي عياض: وقيل: قد يكون الساق علامة بينه وبين المؤمنين، من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة؛ لأنه يقال: ساق من الناس، كما يقال: رجل من جراد، وقيل: قد يكون «ساق» مخلوقاً جعله الله تعالى علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة.

وقيل معناه: كشف الخوف وإزالة الرعب عنهم وما كان غلب على قلوبهم من الأهوال؛ فتطمئن حينئذ نفوسهم عند ذلك، ويتجلى لهم؛

---

(١) شرح النووي لمسلم ١/ ٤٣٦.

فيخرون سجداً.

قال الخطابي رحمه الله: وهذه الرؤية - التي في هذا المقام يوم القيامة - غير الرؤية التي في الجنة لكرامة أولياء الله تعالى، وإنما هذه للامتحان»[١].

وقد ذكر النووي فيما مضى أقوالاً في معنى إتيان الله تعالى، وكذا في معنى الساق؛ هي في الواقع تأويلات لمعاني نصوص الأسماء والصفات، على طريقة أهل الكلام في عدم إثبات صفات الله تعالى، على ضوء ما جاءت به النصوص.

وقد تقدم بحث إتيان الله تعالى ومجيئه. وفيه بيان مذهب السلف، وبيان مذهب المؤولين، وذكر النصوص في ذلك. ويمكن أن يفهم منها، الرد على ما قاله النووي هنا، حينما ذهب في شرح تلك العبارات إلى الخروج عن مذهب السلف؛ ذلك أن إتيان الله تعالى هو إتيان حقيقي مضاف إلى الله تعالى وليس إلى أمره أو ملائكته، أو غير ذلك من أقوال أهل التأويل، بل ينزل سبحانه وتعالى ليحكم بين العباد، ويقرب من خلقه كيف شاء.

وأما بالنسبة للساق؛ فإن السلف لا يمنعون إطلاقها عليه جل وعلا، على صفة لا نعلمها ولا نكيفها، وإطلاقها على الله تعالى لا يستلزم التشبيه إلا في أذهان أهل التأويل.

فإن إثبات الساق والرجل والقدم، أمور ثابتة عند السلف، على ما جاءت به النصوص، يصفون الله تعالى بها على وفق ما وصف بها نفسه عز وجل.

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم جـ١ ص٤٣٦.

وقال الهراس في تعليقه على حديث أبي سعيد ـ حينما أورده ابن خزيمة ـ: «والحديث صريح في إثبات الساق، وأن الله عز وجل جعلها علامة بينه وبين المؤمنين، فإذا كشف عنها عرفوه؛ فخروا سجداً، كما صرح به في بعض الروايات»[1] .

وقد ذكر علماء التفسير في معنى الآية ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[2]، أقوالاً كثيرة في معنى الساق، وهي كما ذكرها الطبري:

١ ـ قال جماعة من الصحابة والتابعين من أهل التأويل: يبدو عن أمر شديد.

٢ ـ عن ابن عباس قال: هو يوم حرب وشدة.

٣ ـ وذكر الطبري رواية أخرى عنه قال: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾، قال: عن أمر عظيم.

٤ ـ وفي أخرى عنه ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾، قال: حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال، وكشفه دخول الآخرة وكشف الأمر عنه.

٥ ـ وعنه أيضاً: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾؛ هو الأمر الشديد المفظع من هول يوم القيامة. هي أشد ساعة يوم القيامة. هي أول ساعة تكون في يوم القيامة.

---

(١) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ص١٧٢ .

(٢) انظر: تفسير ابن جرير ٢٩/ ٣٨ ـ ٤٣ .

٦ ـ وعن مجاهد: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، قال: شدة الأمر وجده.

٧ ـ وعن سعيد بن جبير قال: عن شدة الأمر.

٨ ـ وعن قتادة قال: عن أمر فظيع جليل، وعن شدة الأمر.

وإضافة إلى تلك الأقوال في معنى كشف الساق ـ فقد ذكر الطبري بعض الروايات مفادها: أن الله تعالى يتجلى في أي صورة شاء للمؤمنين؛ فيقعون ساجدين، ما عدا المنافقين؛ فإن ظهورهم تبقى طبقة واحدة لا يستطيعون الانحناء للسجود[1].

ويستخلص من كل ما تقدم أن هذه الصفة ـ كشف الساق ـ ثابتة بنص كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ؛ فنثبتها كما جاءت بها النصوص على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته.

ورغم ما ذكرناه من الآيات والأحاديث وإجماع الصحابة، فإن المعتزلة قد أنكروا رؤية الله تعالى ـ كما هو مذهبهم ـ.

فالقاضي عبد الجبار ينفي إجماع الصحابة على جواز وقوع رؤية الله تعالى مدعياً أن ذلك لا يمكن[2]، وهذا إنكار غريب ليس له ما يؤيده.

ثم نسب إلى بعض الصحابة أيضاً نفي القول برؤية الله تعالى، وهذا غاية في التلبيس والمغالطات، وقد ذهب يستدل على هذا الزعم بما روي عن عائشة أنها قالت ـ لما سمعت قائلاً يقول: إن محمداً ﷺ رأى ربه ـ فقالت: لقد قُفَّ شعري مما قلت ـ ثلاثاً ـ، مَن زعم أن محمداً رأى ربه، فقد أعظم

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٢٩/٣٨ـ٤٣.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص: ٢٦٧.

الفرية على الله تعالى، ثم تلت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[1] [الشورى: ٥١].

وهذا الاستدلال من القاضي - على نفي الرؤية عن الله تعالى مطلقاً - غير مسلم له، بل هو خطأ ظاهر؛ وذلك لأن الحديث ليس وارداً في محل النزاع، وهو ثبوت رؤية الله تعالى أو عدمها مطلقاً، بل هو وارد على نفي حالة واحدة وهي نفي رؤية الله تعالى في الدنيا، وإن كان في هذه خلاف بين العلماء، وأن الصحيح من ذلك هو عدم وقوع رؤية الرسول ﷺ لربه تعالى في الدنيا كما سيأتي.

واستناد القاضي إلى هذا الحديث لدعواه بأنه لا يمكن إجماع الصحابة على القول برؤية الله تعالى، دعوى تحتاج إلى إثبات؛ لأن عائشة لم يكن من رأيها القول بنفي الرؤية مطلقاً؛ حتى يتم للقاضي الاستدلال بحديثها، وإنما هي تريد نفي الرؤية في الدنيا لا في الآخرة، كما قرره العلماء، وكما هو ظاهر الحديث.

وأما ما نسبه القاضي إلى بعض الصحابة، فهو كنسبة القول إلى الخليفة الراشد علي بن أبي طالب وكبار الصحابة: أنهم كانوا ينفون الرؤية عن الله تعالى، وقوله: «وأنت إذا نظرت في خطب أمير المؤمنين وجدتها مشحونة بنفي الرؤية عن الله تعالى»[2].

فهذه دعوى تحتاج إلى إثبات؛ إذ لم ينقل عن أحد من الصحابة

---

(١) أخرجه الترمذي ٥/ ٣٨٥.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص: ٢٦٨.

رضوان الله عليهم نقلاً صحيحاً ـ فيما رأيت ـ إنكار رؤية الله تعالى، بل ولا تأويل ما جاء في الرؤية، إلى المعاني التي ذكرها المعتزلة لنفي رؤية الله تعالى، في يوم القيامة أو في الجنة، وإنما الذي نفاها هم أهل البدع، وحاشا أن يتصف الصحابة بمثل هذا القول المبتدع.

ولكن لأن المعتزلة ينفرون عن سماع أحاديث الرؤية؛ لأنها عليهم كالصواعق؛ لم يتورعوا عن رد النصوص المثبتة لها، ولهذا نجد القاضي عبد الجبار لم يتورع عن الطعن في أحاديث ثابتة في الصحيحين، ويصفها بأنها كذب على الرسول ﷺ ، وأنها تتضمن الخبر والتشبيه؛ فيجب نفيها ـ بزعمه ـ.

فهو يقول في رده على المثبتين لها: «ومما يتعلقون به أخبار مروية عن النبي ﷺ ، وأكثرها يتضمن الخبر والتشبيه؛ فيجب القطع على أنه ﷺ لم يقله، وإن قال، فإنه قاله حكاية عن قوم، والراوي حذف الحكاية ونقل الخبر».

قال: «ومن جملتها ـ وهو أشف ما يتعلقون به ـ ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: **«سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»**.

وسنرى إلى أي مدى وصل الحال بالقاضي في رده لهذا الحديث الصحيح الثابت وما جاء في معناه مما يثبت الرؤية، فهو يقول: «ولنا في الجواب عن هذا طرق:

أحدها: هو أن هذا الخبر يتضمن الخبر والتشبيه؛ لأنا لا نرى القمر إلا مدوراً عالياً منوراً، ومعلوم أنه لا يجوز أن يرى القديم ـ تعالى ـ على هذا الحد؛ فيجب أن نقطع على أنه كذب على النبي ﷺ ، وأنه لم يقله، وإن

قاله؛ فإنه قاله حكاية عن قوم».

ولقد قطع القاضي بوجوب تكذيبه لهذا الحديث، ثم نفذ ما أوجبه على نفسه، فكذب به.

والواقع أنه أخطأ خطأ فاحشاً للأمور الآتية:

١ ـ أنه ظن أن الرسول ﷺ يقصد تشبيه المرئي بالمرئي، وهذا خطأ؛ فإن الرسول ﷺ يريد تشبيه الرؤية بالرؤية في تمام الوضوح والظهور، لا تشبيه المرئي بالمرئي.

٢ ـ أن قوله عن الحديث «أنه كذب على الرسول ﷺ» كذب منه، فإن الحديث صحيح، وقد رواه الشيخان في صحيحيهما كما قدمنا.

٣ ـ قوله: «أنه على فرض صحة الحديث، فإن الرسول ﷺ قاله على سبيل الحكاية عن قوم» غير صحيح؛ لأن الرسول ﷺ قاله ابتداء وبشارة لأصحابه، ولم يقل إنه حكاية، ثم إن الحال الذي أخبر الرسول ﷺ بهذا الحديث فيه ـ ليس فيه ما يدل على الحكاية ولا ما يقتضيها.

هذا بالنسبة لما يتعلق بالطريق الأول الذي سلكه القاضي في رد الحديث.

أما الطريق الثاني، فهو أن هذا الخبر يروى عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله البجلي عن النبي ﷺ، قال: «وقيس هذا مطعون فيه من وجهين:

أحدهما: أنه كان يرى رأي الخوارج؛ يروى أنه قال: منذ سمعت علياً

على منبر الكوفة يقول: انفروا إلى بقية الأحزاب - يعني أهل النهروان - دخل بغضه قلبي، ومن دخل بغض أمير المؤمنين قلبه، فأقل أحواله أن لا يعتمد على قوله ولا يحتج بخبره.

والثاني: قيل: إنه خولط في عقله آخر عمره، والكتبة يكتبون عنه على عادتهم في حال عدم التمييز، ولا ندري أن هذا الخبر رواه وهو صحيح العقل أو مختلط العقل.

قال: ويحكى عنه أنه قال لبعض أصحابه: أعطني درهماً أشترى به عصاً أضرب بها الكلاب؛ وهذا من أفعال المجانين. ويقال أيضاً إنه كان محبوساً في بيت، فكان يضرب على الباب، فكلما اصطفق الباب ضحك؛ فلا يمكن الاحتجاج بقوله: لأن هذا دلالة الجنون عليه».

هذه مطاعنه لرد الحديث.

والواقع أن هذه الطريق لا تقل سوءاً وخطأً عن سابقتها؛ وذلك لأن هذه الرواية التي ذكرها القاضي عبد الجبار هي ما ذكرها البخاري في عدة مواضع من صحيحه - كما أسلفنا - .

والقاضي يشير إلى الرواية التي أخرجها الإمام أبو داود في سننه عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله، ولفظها: «قال: كنا مع رسول الله ﷺ جلوساً، فنظر إلى القمر ليلة البدر ليلة أربع عشرة، فقال: **«إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته»**[1] الحديث.

---

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٣٥.

وهذا القدح الذي ذكره القاضي في قيس بن أبي حازم لا يتم له؛ وذلك لأن تلقي العلماء لحديث قيس هذا وروايتهم عنه، يوجب القطع بأنهم أخذوا عنه هذا الحديث وهم لا يشكون في عقله وورعه؛ إذ لو كان مجنوناً - كما ذكر القاضي - لما أقدم أحد من الأئمة على الرواية عنه، فكيف يروي عنه البخاري في عدة مواضع من صحيحه[1] وغيره من أئمة العلم، وهو بهذا الوصف الذي ذكره القاضي؟!.

فالقدح بعد هذا في روايته هذه، قدح في جميع الأئمة الذين أخذوها عنه، كالبخاري وأبو داود وغيرهما.

ثم إن روايته هذه لها ما يشهد لها ويقويها، من الروايات المتعددة الواردة في معناها، مما يجعل لها من القوة ووجوب التصديق بها ما لا يبلغه نقد القاضي عبد الجبار.

وأول ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، بهذا اللفظ الذي ذكره أبو داود عن قيس بن أبي حازم - تماماً كما قدمنا ذكر ذلك في رواية الشيخين لحديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

وأما الطريق الثالث، فهو «أن يقال: إن صح هذا الخبر وسلم؛ فأكبر ما فيه أن يكون خبراً من أخبار الآحاد، وخبر الواحد مما لا يقتضي العلم، ومسألتنا طريقها القطع والثبات، وإذا صحت هذه الجملة بطل ما يتعلقون به.

ثم إن هذا الخبر معارض بأخبار رويت، منها:

---

(١) انظر: ٢/ ٣٣، ٥٢، ٨/ ٥٩٧، ١٣/ ٤١٩.

١ ـ ما روى أبو قلابة عن أبي ذر أنه قال: قلت للنبي: هل رأيت ربك؟، فقال: «نور هو، أنَّى أراه؟»[1]، أي: أنور هو؟ كيف أراه؟ فحذف همزة الاستفهام جرياً على عادتهم في الاختصار.

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لن يرى الله أحد في الدنيا ولا في الآخرة».

٣ ـ وقد قيل لعلي عليه السلام[2]: هل رأيت ربك؟ فقال: ما كنت لأعبد شيئاً لم أره. فقيل: كيف رأيت؟ فقال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، موصوف بالدلالات، معروف بالآيات، هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم».

وهذه الطريق الثالثة لا تقل سوءاً عن سابقتيها أيضاً، فقد رد فيها الحديث لأنه:

١ ـ من أخبار الآحاد.

٢ ـ لأنه معارض بأخبار رويت تدل على منع الرؤية.

أما نفيه للحديث بحجة أنه من أخبار الآحاد، فهو جار على طريقة المعتزلة في ردهم لأخبار الآحاد.

وأخبار الآحاد ـ كما قرره العلماء ـ حجة يجب العمل بها، وردها بالكلية خطأ ظاهر، ورد لمئات النصوص.

والمقصود من قبول أخبار الآحاد ـ كما هو معلوم ـ ما نقل نقلاً صحيحاً

(١) أخرجه مسلم ١/ ٤٢٢.

(٢) الأولى أن يقال: رضي الله عنه.

إلى النبي ﷺ ، وغلب على الظن صدق مخبره، بأن كان ثقة، ثم احتفت به قرائن أخرى تدل على صدقه، فهذا لا ينبغي لأحد أن يتوقف عن قبوله والعمل به.

ومن رد أحاديث الآحاد مطلقاً فلا شك أنه قد ارتكب أمراً عظيما؛ لأن هذه قضية خطيرة، والقول بها مرفوض تمام الرفض؛ لأنه قول مبتدع لم يقل به أحد من سلف هذه الأمة، ولم يخطر لأحدهم على بال، ويلزم من هذا القول الخاطئ، رد مئات الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ، لمجرد أنها لم تتواتر.

والتواتر ليس شرطاً لصحة الاستدلال بالحديث، بل المهم صحة ثبوته عن رسول الله ﷺ ، وإذا صح، وجب علينا العمل به اعتقاداً أو تشريعاً[1] .

قال ابن القيم رحمه الله :

«وأما المقام الثامن: وهو انعقاد الإجماع المعلوم المتيقن على قبول هذه الأحاديث ـ الأحاديث عموماً ـ، وإثبات صفات الرب تعالى بها، فهذا لا يشك فيه من له أقل خبرة بالمنقول، فإن الصحابة هم الذين رووا هذه الأحاديث، وتلقاها بعضهم عن بعض بالقبول، ولم ينكرها أحد منهم على من رواها، ثم تلقاها عنهم جميع التابعين من أولهم إلى آخرهم، ومن سمعها منهم تلقاها بالقبول والتصديق لهم، ومن لم يسمعها منهم تلقاها عن التابعين كذلك، وكذلك تابع التابعين مع التابعين»[2] .

(١) انظر: البيهقي وموقفه من الإلهيات ص: ٢٦٩.

(٢) مختصر الصواعق ص: ٥٢٤.

وقال في بيانه لأقسام الطوائف بالنسبة لتلقيهم خبر الآحاد: «وطائفة ثالثة قالت: نقبل من الأخبار عن رسول الله ﷺ متواترها ونرد آحادها؛ سواء كان مما يقتضي علماً أو عملاً، وقد ناظر الشافعي بعض أهل زمانه في ذلك، فأبطل الشافعي قوله، وأقام عليه الحجة، وعقد في «الرسالة» باباً أطال فيه الكلام في تثبيت خبر الواحد، ولزوم الحجة به، وخروج من رده عن طاعة الله ورسوله.

ولم يفرق ـ هو ولا أحد من أهل الحديث ألبتة ـ بين أحاديث الأحكام وأحاديث الصفات، ولا يعرف هذا الفرق عن أحد من الصحابة، ولا عن أحد من التابعين، ولا من تابعيهم، ولا عن أحد من أئمة الإسلام، وإنما يعرف عن رؤوس أهل البدع ومن تبعهم»[1].

ثم قال: «وطائفة أخرى ردت أحاديث رسول الله ﷺ إذا كانت في باب الصفات، وقبلتها إذا كانت في باب الأحكام والزهد والرقائق ونحوها، وهؤلاء طوائف من أهل الكلام المبتدع المذموم، وجعلوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ مستنداً لهم في رد الأحاديث الصحيحة؛ تلبيساً على من هو أعمى قلباً منهم، وتحريفاً لمعنى الآي عن موضعه.

ففهموا به من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله، ولا فهمه أحد من أهل الإسلام، أنها تقتضي إثباتها على وجه التمثيل بما للمخلوقين»[2].

وقد وقع خلاف طويل بين علماء الأصول في خبر الواحد؛ هل يفيد الظن أو يفيد اليقين؟ وسنذكر فيما يلي مذاهب أهل الأصول في أخبار

---

(١) مختصر الصواعق ص: ٥٢٥.

(٢) المصدر السابق ص: ٥٣١.

الآحاد، وهل هي تفيد اليقين أو الظن، وما مدى قبولها في باب الاعتقاد، ونذكر أدلة القائلين بلزوم التعبد بخبر الواحد شرعاً، وأدلة المانعين من ذلك.

مختصراً ذلك من مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر، تحقيق الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى.

أما المسألة الأولى: وهي مذاهب أهل الأصول في أخبار الآحاد، فإن حاصل الكلام فيها من ثلاثة أوجه:

الأول: وهو مذهب جماهير الأصوليين: أن أخبار الآحاد إنما تفيد الظن فقط ولا تفيد اليقين[1].

الثاني: أنه يفيد اليقين إن كان الرواة عدولاً ضابطين.

الثالث: هو التفصيل بأنه: إن احتفت به قرائن دالة على صدقه أفاد اليقين، وإلا أفاد الظن.

أما المذهب الأول: وهو نفي إفادة أخبار الآحاد اليقين: فإنهم يحتجون بقولهم: «لو سئلت عن أعدل رواة خبر الآحاد، أيجوز في حقه الكذب والغلط؟ لاضطررت أن تقول: نعم. فيقال: قطعك إذن بصدقه مع تجويزك عليه الكذب والغلط لا معنى له».

أما المذهب الثاني: فإنهم يقولون: «بأن العمل بخبر الآحاد واجب، والظن ليس من العلم حتى يجب العمل به؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ **وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾.

---

(١) أي العلم: والعلم بمعنى اليقين في الاصطلاح.

والنبي ﷺ يقول: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث».

وأما أهل المذهب الثالث: وهم القائلون بالتفصيل فهم يقولون: ما احتفت به قرائن أفاد اليقين، ويمثلون له بما إذا أخبر رجل بموت ولده المشرف على الموت، مع قرينة البكاء وإحضار الكفن والنعش.

ويمثلون له كذلك بأحاديث الشيخين البخاري ومسلم، فإن القرائن قد دلت على صدقهما، ولهذا فقد تلقى العلماء كتابيهما بالقبول.

أما العمل بالآحاد في العقائد: فقد قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله تعالى: «اعلم أن التحقيق الذي لا يجوز العدول عنه؛ أن أخبار الآحاد الصحيحة كما تقبل في الفروع تقبل في الأصول، فما ثبت عن النبي ﷺ بأسانيد صحيحة من صفات الله؛ يجب إثباته واعتقاده على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله، على نحو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾».

قال: «وبهذا تعلم أن ما أطبق عليه أهل الكلام ومن تبعهم من أن أخبار الآحاد لا تقبل في العقائد، ولا يثبت بها شيء من صفات الله، زاعمين أن أخبار الآحاد لا تفيد اليقين، وأن العقائد لابد فيها من اليقين. باطل لا يعول عليه.

ويكفي من ظهور بطلانه أنه يستلزم رد الروايات الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ بمجرد تحكيم العقل».

وقال أيضاً: «وعلى كل حال: فإثبات صفات الله بأخبار الآحاد الصحيحة واعتقاد تلك الصفات، كالعمل بما دلت عليه من أوامر الله ونواهيه، كما أنها تثبت بها أوامره ونواهيه فكذلك تثبت بها صفاته».

وأما الخلاف في أن العقل هل يوجب التعبد بخبر الواحد أو لا يوجبه؟ فقد قال عنه: «والتحقيق: أن العقل بالنظر إليه وحده لا يمنع التعبد بخبر الواحد، ولا يوجبه، فكلا القولين المتقدمين باطل بلا شك، أعني قول من قال: يمنعه العقل، كالأصم والجبائي، وقول من قال: يوجبه، وهو أبو الخطاب.

فالعقل يجيز التعبد به، ولا يمنعه ولا يوجبه، وهذا هو الحق إن شاء الله تعالى».

وقد ذهب الجمهور إلى القول بالتعبد بخبر الواحد شرعاً، مستدلين بدليلين:

١ - الأول: إجماع الصحابة رضي الله عنهم في وقائع لا تنحصر على قبوله.

كرجوع أبي بكر لقول المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة في ميراث الجدة، لما أخبراه أنه ﷺ أعطاها السدس.

ومنها رجوع عمر رضي الله عنه إلى قول المذكورين في دية الجنين: أنه ﷺ قضى فيها بغرة: عبد أو وليدة.

ومنها رجوع عمر إلى قول الضحاك بن سفيان: أن رسول الله ﷺ كتب إليه أن يورث امرأة أشيم الضبابي من دية زوجها.

وكرجوعه إلى قول عبد الرحمن بن عوف: أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر.

ومنها رجوع عثمان رضي الله عنه إلى قول فريعة بنت مالك - أخت أبي

سعيد الخدري ـ: أن النبي ﷺ أمرها بالسكنى في دار زوجها لما قتل حتى تنقضي عدتها.

إلى غير ذلك من الوقائع التي لا تنحصر.

هذه بعض أدلة من يقول بقبول خبر الآحاد.

أما الذين يردونه فمن أدلتهم:

١ ـ عدم قبوله ﷺ لخبر ذي اليدين لما قال له: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ وأخبره أنه سلم من اثنتين.

٢ ـ أن أبا بكر لم يقبل خبر المغيرة بن شعبة في ميراث الجدة حتى شهد معه محمد بن مسلمة.

٣ ـ ولم يقبل عمر خبر أبي موسى في الاستئذان ثلاثاً حتى شهد معه أبو سعيد الخدري.

٤ ـ ولم تقبل عائشة خبر ابن عمر في حديثه: إن الميت يعذب ببكاء أهله.

وقد أجاب الشيخ محمد الأمين عن ذلك من وجهين:

الأول: أن هذا اعتراف من المخالف بقبول خبر الآحاد، وإذاً فهو إقرار منه بمحل النزاع؛ لأن شهادة محمد بن مسلمة مع المغيرة، وأبي سعيد مع أبي موسى، لا تنقل الخبر من كونه آحاداً؛ لأن خبر الاثنين خبر آحاد كما ترى.

الثاني: أن تلك الوقائع ليس فيها ما يدل على عدم قبول خبر الآحاد؛ لأن عدم تصديق النبي ﷺ لذي اليدين لأنه كان يظن خلاف ما أخبر به،

ولذا قال له: «**كل ذلك لم يكن**»، أي: لم أنس ولم تقصر الصلاة، أي في ظني، ولا يكلف الإنسان بقبول خبر هو يظن عدم صدقه، ولما أخبره الصحابة بصدق ذي اليدين، أتم صلاته وسجد للسهو، وهذا هو الصواب في الجواب عن هذا.

وأما أبو بكر رضي الله عنه؛ فلم يرد قول المغيرة، وإنما طلب الاستظهار بشهادة آخر معه، ولو لم يجد غيره لقبله منفرداً، كقول إبراهيم: ﴿بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

وأما عمر رضي الله عنه: فإنه قال لأبي موسى سداً للذريعة؛ لئلا يكون الناس كلما توجه إلى أحد منهم لوم وضع حديثاً عن النبي ﷺ يرفع به عنه ذلك اللوم، وقد ثبت عن عمر رضي الله عنه أنه غير مكذب ولا متهم لأبي موسى، ولكنه خشي أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ.

وأما عائشة: فلم تكذب ابن عمر، بل قالت: إنكم لتحدثون عن غير كاذبين ولا مكذبين، ولكن السمع يخطئ، كما ثبت عنها رضي الله عنها في الصحيح.

وفي رواية عنها في الصحيح أيضاً أنها قالت: رحم الله أبا عبد الرحمن، تعني ابن عمر، سمع شيئاً فلم يحفظه... إلخ، ولكنها ظنت أنه غلط؛ لاعتقادها أن ما أخبر به مخالف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ لأن بكاء أهل الميت ليس من فعله، فلو عذب به لكان من مؤاخذته بعمل غيره... وليس الأمر كما ظنت عائشة رضي الله عنها.

الدليل الثاني: ما تواتر من إنفاذ رسول الله ﷺ أمراءه ورسله وقضاته

وسعاته إلى الأطراف لتبليغ الأحكام والقضاء، وتبليغ الرسالة، ومن المعلوم أنه كان يجب عليهم تلقي ذلك بالقبول ليكون مفيداً، والنبي ﷺ مأمور بتبليغهم الرسالة، ولم يكن ليبلغها بمن لا يكتفى به، وهذا دليل قاطع على قبول أخبار الآحاد.

وهناك دليل ثالث أيضاً: وهو أن الإجماع انعقد على قبول قول المفتي فيما يخبر به عن ظنه، فما يخبر به عن السماع الذي لا يشك فيه أولى(١).

ونعود للرد على القاضي عبد الجبار فنقول: إن معارضة الحديث بتلك الأخبار التي أوردها فهو باطل، لما يأتي:

١ - أن الرؤية التي ذكرت في حديث أبي ذر لم تدل على أن ذلك النفي الذي قاله رسول الله ﷺ يشمل الرؤية في الآخرة، وإنما نفى أن يكون رآه وهو في هذه الدار.

وأما تحريفه لمعنى الحديث إلى أنه وارد على سبيل الاستفهام؛ فهو خلاف ما قاله العلماء.

قال النووي عن لفظة الحديث:

«أما قوله ﷺ: **«نور، أنى أراه؟»** - فهو بتنوين **«نور»**، وبفتح الهمزة في **«أنى»**، وتشديد النون وفتحها، و**«أراه»** بفتح الهمزة - هكذا رواه جميع الرواة في جميع الأصول والروايات، ومعناه: حجابه نور، فكيف أراه؟

قال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله: الضمير في **«أراه»** عائد على الله

---

(١) مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر ص: ١٠٣ إلى ص: ١١١.

سبحانه وتعالى، ومعناه أن النور منعني من الرؤية، كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه»[١] .

وقال الشيخ شمس الدين ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام أحمد بن تيمية يقول في قوله ﷺ: «**نور أنى أراه؟**»: معناه كان ثَم نور، وحال دون رؤيته نور، فأنى أراه؟ قال: ويدل عليه أن في بعض ألفاظ الصحيح «هل رأيت ربك؟ فقال: **رأيت نوراً**»[٢] .

فثبت أن ما قاله القاضي في معناه غير صواب، ولا يدل على ما ذهب إليه من نفي الرؤية.

وهذه المسألة ـ أي رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا ـ مما وقع فيها الخلاف بين العلماء، وحاصل الكلام فيها كما أفاده القاضي عياض في كتابه الشفاء، أن السلف قد اختلفوا فيها إلى الأقوال الآتية:

أ ـ ذهب فريق من السلف إلى نفيها.

ومن هؤلاء أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كما روى ذلك مسروق عنها حين قال لها: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثلاث من حدثك بهن فقد كذب، من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ .

وقد قال بقول عائشة جماعة من الصحابة أيضاً، منهم ابن مسعود، وأبو هريرة، وغير هؤلاء من السلف والخلف.

---

(١) شرح النووي ١/ ٤٢٢ .

(٢) الفتاوى ٦/ ٥٠٧ .

قال القاضي عياض: «وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين».

ب ـ وذهب فريق آخر من السلف إلى القول بأن الرسول ﷺ رأى ربه بعينه؛ وينسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: إن الرسول ﷺ رأى ربه بعينه.

وذكر ابن إسحاق أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم. وحجته قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾.

ولكن النقل عن ابن عباس لم يكن على رأي واحد؛ فقد روى عطاء عنه أنه قال: رآه بقلبه، وعن أبي العالية عنه: رآه بفؤاده مرتين.

وينسب إلى كعب ـ أيضاً ـ القول برؤية الرسول ﷺ ربه، وقال الماوردي: «قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد ﷺ، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين»، وقد روي هذا الكلام لكعب.

وتحديد تكليم الله تعالى لموسى بمرتين، ورؤية الرسول ﷺ لربه بمرتين، كذلك مما يحتاج إلى دليل.

وينسب كذلك إلى أبي ذر أنه قال برؤية محمد ﷺ لربه، فقد روى شريك عن أبي ذر رضي الله عنه في تفسير الآية من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: رأى النبي ﷺ ربه.

ولكن هذه الرواية تخالف ما تقدم في الصحيح من إخبار الرسول ﷺ له بأنه لم ير ربه، وهذه الرواية لا تقاوم تلك.

وينسب هذا الرأي كذلك إلى الحسن، وعكرمة، وابن مسعود، وأبو هريرة، ومعاذ. ومن علماء السلف الإمام أحمد بن حنبل في رواية النقاش عنه، وابن عطاء، والأشعري، فيما ذكر القاضي عياض بقوله:

«وحكى عبد الرزاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربه، وحكاه أبو عمر الطلمنكي عن عكرمة، وحكى بعض المتكلمين هذا المذهب عن ابن مسعود، وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة: هل رأى محمد ربه؟ فقال: نعم.

وروى مالك بن يخامر عن معاذ عن النبي ﷺ قال: «**رأيت ربي** - وذكر كلمة - فقال: **يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى**. . . » الحديث.

وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال: أنا أقول بحديث ابن عباس بعينه رآه رآه. حتى انقطع نفسه». يعني نفس أحمد.

وقال ابن الخطيب: «وروى الخلال في كتاب السنة عن المروزي: قلت لأحمد: إنهم يقولون: إن عائشة قالت: «من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية»، فبأي معنى يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: «**رأيت ربي**». فقول النبي أكبر من قولها»[1].

ومن الذين قالوا بثبوت الرؤية أيضاً: ابن عطاء، قال القاضي: «وعن ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال: شرح صدره للرؤية، وشرح صدر موسى للكلام».

وقال أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رضي الله عنه، وجماعة من

---

(١) المواهب اللدنية ٢/ ٣٨.

أصحابه: أنه رأى الله تعالى ببصره وعيني رأسه، وقال: كل آية أوتيها نبي من الأنبياء عليهم السلام فقد أوتي مثلها نبينا ﷺ، وخص من بينهم بتفضيل الرؤية.

جـ- وذهب فريق آخر من السلف إلى القول بأن الرسول ﷺ رأى ربه بفؤاده، وقد تقدم النقل عن ابن عباس قوله بهذا، وممن ينسب إليه هذا القول كذلك: محمد بن كعب القرظي، وربيع بن أنس، ورواية عن أحمد.

فقد «حكى السمرقندي عن محمد بن كعب القرظي، وربيع بن أنس، أن النبي ﷺ سئل: هل رأيت ربك؟ قال: **رأيته بفؤادي، ولم أره بعيني**».

قال ابن الخطيب العسقلاني - في بيان قول من قال: إن الرسول ﷺ رأى ربه -: «ثم إن المراد برؤية الفؤاد: رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم؛ لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه: أن الرؤية التي حصلت له خلقت له في قلبه، كما تخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين»[1].

وقد أعاد الأستاذ عبد العزيز المهدوي سبب ورود هذا الاختلاف - بالنسبة للرؤية وغيره مما جاء في أخبار الإسراء والمعراج - إلى أن ذلك يعود إلى إخبار الرسول ﷺ الناس بتلك الوقائع حسب مراتبهم.

وينبغي أن يفهم أن قصة الإسراء والمعراج قد دخلها الكثير من الأخبار التي لم تثبت، بل كانت تلك الحادثة مرتعاً خصباً لكثير من أهل القصص

---

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ٢/ ٣٩، دار الكتب العلمية.

الذين يطلبون إقبال الناس عليهم بالأخبار التي ترقق القلوب، وفيها من المبالغات ما يتفق وميول أهل البدع والخرافات.

وقد نسب إلى الإمام أحمد القول بأن الرسول ﷺ رأى ربه بفؤاده، ولم يجزم بالقول أنه رآه ببصره، قال القاضي:

«وقال أبو عمر: قال أحمد بن حنبل: رآه بقلبه، وجبن عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار»[١].

وقال ابن الخطيب: «وقد أنكر صاحب الهدي على من زعم أن أحمد قال رأى ربه بعيني رأسه، قال: وإنما قال مرة: رأى محمد ربه، وقال مرة: بفؤاده، وحكى عن بعض المتأخرين: رأى بعيني رأسه، وهذا من تصرف الحاكي، فإن نصوصه موجودة»[٢].

والواقع أن النقل عن الإمام أحمد لم يكن دقيقاً، فقد تصرف بعض الرواة في كلامه حسبما فهمه من عبارات الإمام أحمد، والتي هي أيضاً قابلة للاحتمال، ولهذا فإن شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر أن النقل عن الإمام أحمد جاء على طريقين:

«تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول: رآه بفؤاده».

قال ابن تيمية: «ولم يقل أحد أنه سمع أحمد يقول رآه بعينه، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ففهموا منه رؤية العين»[٣].

د ـ وبعض السلف قد توقف في هذه المسألة، ومن هؤلاء:

---

(١) الشفاء ص: ١٢١.

(٢) المواهب اللدنية ٢/ ٣٨.

(٣) مجموع الفتاوى ٦/ ٥٠٩.

سعيد بن جبير، فقد قال: «لا أقول: رآه، ولا لم يره».

وذكر القاضي عياض أن بعض مشائخه قد توقفوا في هذه المسألة؛ فلم يجزموا فيها بحكم، لعدم وضوح الدليل عليها، وقد توقف هو أيضاً فيما يبدو من كلامه، وذكر بأنها ـ وإن كانت جائزة الحصول ـ لكنها تحتاج إلى دليل تطمئن إليه النفس.

ومن كلامه رحمه الله قوله: «ووقف بعض مشايخنا في هذا وقال: ليس عليه دليل واضح، ولكنه جائز أن يكون».

وبعد أن ذكر بعض نصوص الأئمة في جواز وقوع رؤية الله تعالى في الدنيا، وأن ذلك ليس بمستحيل الوقوع، قال: «وقد وقع لبعض المفسرين في الجبل: أنه رآه، وبرؤية الجبل له استدل من قال برؤية محمد نبينا له؛ إذ جعله دليلاً على الجواز، ولا مرية في الجواز؛ إذ ليس في الآيات نص في المنع، وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضاً ولا نص، إذ المعول فيه على آيتي النجم، والتنازع فيهما مأثور، والاحتمال لهما ممكن، ولا أثر قاطع متواتر عن النبي ﷺ بذلك.

ثم أخذ في نقض أدلة من يقول بوقوع رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا، فقال:

«وحديث ابن عباس خبر عن اعتقاده، لم يسنده إلى النبي ﷺ ؛ فيجب العمل باعتقاد مضمّنه.

ومثله حديث أبي ذر في تفسير الآية، وحديث معاذ محتمل للتأويل،

وهو مضطرب الإسناد والمتن، وحديث أبي ذر الآخر مختلف محتمل مشكل، فروي «نور أنى أراه» وحكى بعض شيوخنا أنه روي «نوراني أراه»، وفي حديثه الآخر، سألته فقال: «رأيت نوراً» وليس يمكن الاحتجاج بواحد منها على صحة الرؤية.

فإن كان الصحيح «رأيت نوراً» فهو قد أخبر أنه لم ير الله تعالى، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى، وإلى هذا يرجع قوله «نوراً أنى أراه»؛ أي: كيف أراه مع حجاب النور المغشي للبصر، وهذا مثل ما في الحديث الآخر: «حجابه النور» وفي الحديث الآخر: «لم أره بعيني ولكن رأيته بقلبي مرتين» وتلا: «ثم دنا فتدلى».

والله تعالى قادر على خلق الإدراك الذي في البصر في القلب أو كيف شاء - لا إله غيره - فإن ورد حديث نص بين في الباب؛ اعتقد ووجب المصير إليه»[١].

ولكن شيخ الإسلام قد جزم بالقول بأن الرسول ﷺ لم ير ربه بعيني رأسه، فقال: «وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة، ولا في الكتاب أو السنة ما يدل على ذلك؛ بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل»[٢].

وخلاصة هذه المسألة، أن الراجح هو عدم رؤية الرسول ﷺ لربه، لا في ليلة الإسراء ولا في غيرها، وأن أحداً لم يره قبل يوم القيامة، وهذا هو

---

(١) انظر: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ص١١٩ - ١٢٤ ط ١٣٦٩هـ، ١٩٥٠م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٢) الفتاوي ٦/ ٥١٠.

القول الذي أيدته النصوص .

٢ ـ أما الرواية المنسوبة إلى جابر ـ التي ذكرها القاضي عبد الجبار ـ فلم أجدها ـ فيما تيسر لي الاطلاع عليه ـ بسند صحيح إلى جابر رضي الله عنه ، وعدم صحتها ظاهر عليها ؛ إذ لا يتصور أن ينفي الصحابي الجليل الرؤية المتواترة المعلومة لدى جميعهم ـ رضي الله عنهم ـ وهم يقرءون الآيات ويتداولون الأحاديث التي تثبت ذلك .

وتلك الرواية غير مذكورة في الصحيح ، غير أنه قد ورد في صحيح مسلم : قال ابن شهاب : وأخبرني عمر بن ثابت الأنصاري أنه أخبره بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال يوم حذر الناس الدجال : **«تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت»**[١] .

وهذه الرواية ليس فيها نفي رؤية الله تعالى مطلقاً ، وإنما فيها نفي الرؤية في الحياة ، كما أفاده الحديث .

أما الكلام المنسوب إلى الإمام علي رضي الله عنه ، فإنه يحتاج إلى إثبات نسبته إليه ، ثم إنه على فرض صحة نسبته إليه ـ ولا أعتقد أن ذلك يقع ـ فليس فيه دليل على نفي رؤية الله تعالى في الآخرة ، وإنما فيه إخبار أن قلوباً صفت فعرفت الله تعالى ، واستيقنت به ، دون أن تراه .

كما جاء في حديث جبريل المشهور حين سأل الرسول ﷺ عن الإحسان ، فقال له ﷺ : **«أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[٢] .

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٤٥ .

(٢) أخرجه البخاري ١/ ١١٤ ، ومسلم ١/ ١٣٣ .

وكيف يتأتى من صحابي جليل مثل علي بن أبي طالب أن ينكر رؤية الله تعالى، وهو يتلو القرآن ويروي السنة، ويسمع بما بشره به نبيه ﷺ من إكرام الله لأوليائه بالنظر إليه جل وعلا في الجنة.

على أن هذا الكلام المنسوب للإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من المستبعد أن يثبت النقل إليه؛ نظراً لركاكته، وظهور الصنعة عليه، وهو أشبه بكلام الصوفية.

٣ - وإذا كنا قد قدمنا إثبات وقوع رؤية الله، وأنها جائزة عليه سبحانه، كما اتضح دليل ذلك من كتاب الله تعالي ومن سنة نبيه ﷺ ومن أقوال سلف الأمة وعلمائها الأجلاء - كما سنذكر ذلك عنهم، فإن مما يذكر هنا: أن العقل لا ينافي وقوع رؤية الله تعالى؛ بل يجيزها، ويدل على إمكان وقوعها في دار الدنيا وفي دار الآخرة، غير أنه قد ثبت عدم جواز وقوعها في الدنيا شرعاً لأحد من البشر، اللهم إلا ما ورد به الخلاف في وقوعها لنبينا محمد ﷺ، كما ذكر أهل العلم فيما أسلفنا.

أما إثبات وقوعها في الدار الآخرة فهو ما جاءت به النصوص، ودليل جواز وقوعها عقلاً هو أن الله سبحانه وتعالى موجود، وهو أمر قد أطبق على القول به واعتقاده كل منتسب إلى الدين، ومن المعلوم أن كل موجود يصح أن يرى، والله سبحانه وتعالى له كمال الوجود، فكيف يصح نفي رؤيته تعالى؟![١].

ومع وضوح هذا الدليل، نجد القاضي عبد الجبار يرد هذا، ويزعم أنه

---

(١) انظر: شرح جوهرة التوحيد ص ١١٤.

من المعلوم أن «كثيراً من الموجودات لا ترى، كالإرادات والكراهات وغير ذلك»[1].

ويجاب عن هذا، بأن هذه الأمور التي ذكرها، ليس بابها النظر والمشاهدة، مهما قيل من أدلة، ومهما قيل من احتجاج، فإن نفاة الرؤية ينفرون عن سماعها أشد النفور مهما كانت قوة أدلتها، وقد وصلوا في الطعن على المثبتين لصفات الله جل وعلا إلى حد السباب، كما في القول الذي يرويه الزمخشري لبعض العدلية ـ كما زعم ـ ومستشهداً به على صحة وصف السلف (الذين سماهم أهل البلكفة) باستحقاق السباب؛ لإثباتهم صفات الله تعالى بلا كيف، فقال:

لجماعة سموا هواهم سنة ... لجماعة حمر لعمري موكفة

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة

وقد شنع العلماء على الزمخشري هذه الفرية الباطلة، وردوا عليه بمختلف الردود، كما في قول القاضي أبي بكر بن أحمد بن خليل.

شبهت جهلاً صدر أمة أحمد ... وذوي البصائر بالحمير الموكفة

وزعمت أن قد شبهوا معبودهم ... وتخوفوا فتستروا بالبلكفة

وجب الخسار عليك فانظر منصفاً ... في آية الأعراف فهي المنصفة

أترى الكليم أتى بجهل ما أتى ... وأتى شيوخك ما أتوا عن معرفة[2]

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص: ٢٧٤.

(٢) جلاء العينين ص: ١٣٠ ـ ١٣١.

وقول السيد البليدي:

هل نحن من أهل الهوى أو أنتم ... ومن الذي منا حمير موكفة

اعكس تصب؛ فالوصف فيكم ظاهر ... كالشمس فارجع عن مقال الزخرفة

يكفيك في ردي عليك بأننا ... نحتج بالآيات لا بالسفسفة

وبنفي رؤيته فأنت حرمتها ... إن لم تقل بكلام أهل المعرفة

فنراه في الأخرى بلا كيفية ... وكذاك من غير ارتسام للصفة[1]

وغيرهما من أقوال العلماء في الرد على هذه الفرية.

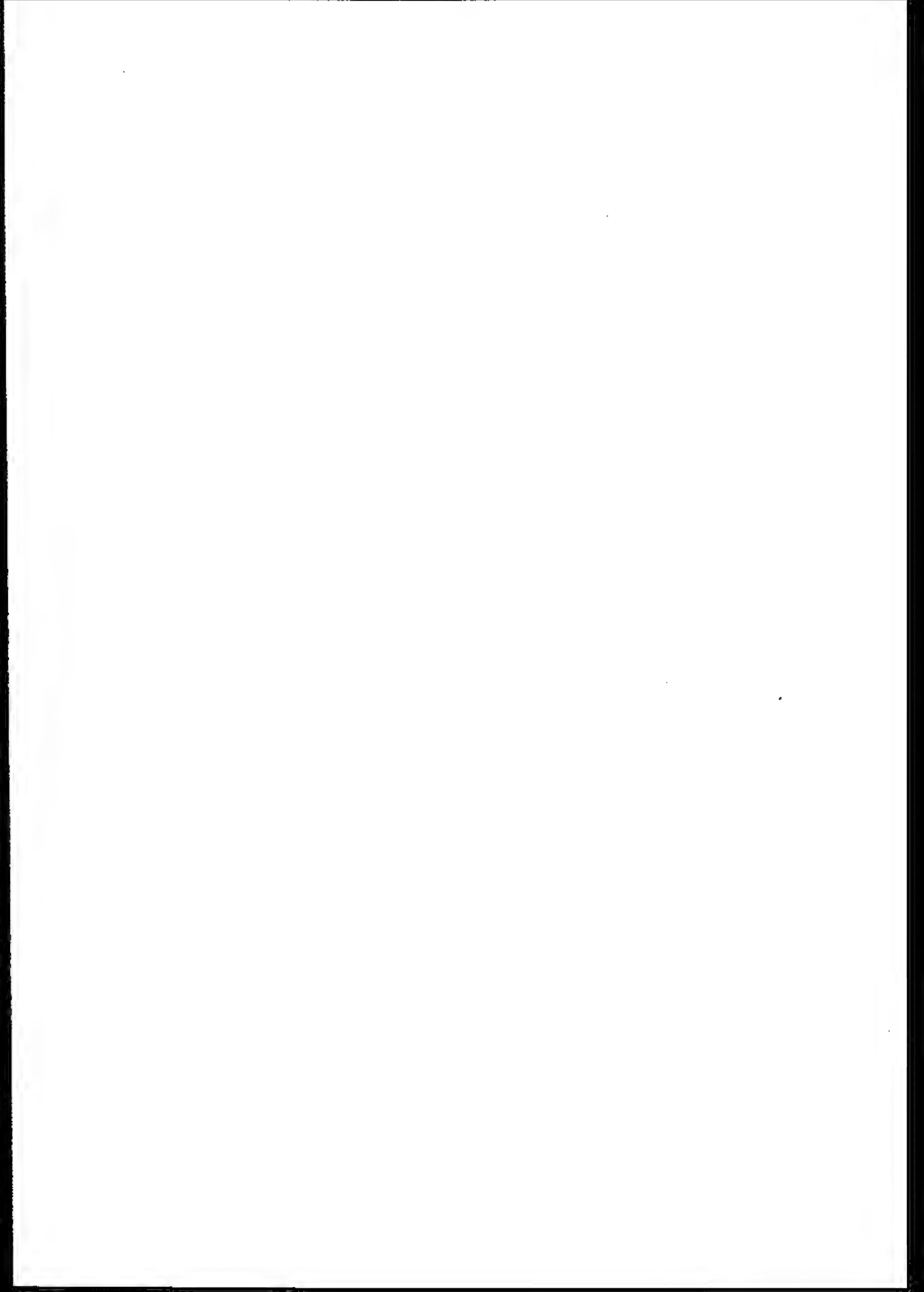
* * *

(١) شرح جوهرة التوحيد ص١١٥ للباجوري.



الفصل الثاني

آراء الفرق في إمكان وقوع رؤية الله تعالى



الفصل الثاني

آراء الفرق في إمكان وقوع رؤية الله تعالى

وعلى ضوء مما قدمنا ذكره من الأدلة من كتاب الله تعالى ومن أقوال نبيه ﷺ، ظهر أن المخالف في الرؤية هم:

١ ـ المعتزلة[١] :

وقد بينا رأيهم في كل آية أو حديث مما سبق ذكره من الأدلة على وقوع رؤية الله تعالى، وأن موقفهم كان الرد الصريح لمدلول النصوص، والخروج بها إلي معان أخرى بعيدة، بتأويلاتهم الفاسدة وآرائهم القاصرة.

وأكثر مَن قرر نفي الرؤية في كتبه من المعتزلة هو القاضي عبد الجبار، الذي يحاول دائماً إقناع مَن يقرأ كتبه بأن الرؤية مستحيلة، ويجب اليأس من ذلك، مكرراً هذا في كل مناسبة، سواء أكان ذلك في كتابه «شرح الأصول الخمسة»، أم في كتابه «المغني في أبواب التوحيد والعدل»؛ حيث ركب كل صعب وذلول في سبيل دفع القول برؤية الله وجوازها عليه سبحانه.

وقد رأينا جوانب كثيرة من شبههم، التي تمسكوا بها لإبطال القول

---

(١) المعتزلة ـ على القول الصحيح فيهم ـ: هم الذين اعتزلوا الحسن البصري بزعامة واصل بن عطاء، وذلك حينما سأل سائل الحسن البصري عن حكم مرتكب الكبيرة، والتي صارت تسمى فيما بعد بالمنزلة بين المنزلتين، وهي من المسائل المشهورة في مذهب المعتزلة.

انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٤٦، وانظر: تاريخ المذاهب الإسلامية ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩.

برؤية الله، وهي في الواقع شبهات باطلة، وحجج داحضة، وأقوال متكلفة، قد بنوها على التأويلات البعيدة، مستندين فيها إلى الرأي دون دليل صريح.

وقد أشبعنا الكلام في الرد عليهم، نا الحق الذي ينبغي للمسلم أن يعتقده ويدين الله به.

ونضيف إلى ما تقدم - من إنكار المعتزلة للرؤية - طوائف قد سلكوا هذا المسلك أيضاً، فنفوا الرؤية وقالوا باستحالتها، وهؤلاء هم:

٢ - الجهمية[(١)]:

وقد نفت رؤية الله تعالى مطلقاً، كنفيهم لكثير من الصفات، وهذا ما يقرره عنهم شمس الدين بن القيم في معرض أمثلته لخطأ من يرد المحكم بالمتشابه؛ حيث قال:

«المثال السادس: رد الجهمية النصوص المحكمة - التي قد بلغت في صراحتها وصحتها إلى أعلى الدرجات - في رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى في عرصات القيامة وفي الجنة، بالمتشابه من قوله: ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾، وقوله لموسى: ﴿**لَن تَرَانِي**﴾، وقوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ**﴾ [الشورى: ٥١]، ونحوها، ثم أحالوا المحكم متشابهاً وردوا الجميع»[(٢)].

---

(١) الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي، وكانت له آراء ضالة، ظهرت بدعته بترمذ بمرو، قتله سلم بن أحوز المازني في آخر ملك بني أمية، وهو من الجبرية الخالصة.
انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ٨٦. وانظر: المقالات ١/ ٣٣٨.

(٢) أعلام الموقعين ٢/ ٢٩٥.

وبما أن حججهم لا تخرج عن حجج المعتزلة؛ فقد كان الرد السابق على المعتزلة يصلح للرد عليهم.

٣ـ الرافضة[1] :

وهذه الفرقة الضالة تنكر وقوع رؤية الله تعالى، كما تنكرها المعتزلة وغيرهم من أهل البدع.

وفيهم وفي من سار على طريقتهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رده عليهم:

«وأما قوله: «وأنه تعالى غير مرئي ولا مدرك بشيء من الحواس، لقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، لأنه ليس في جهة» فيقال: أولاً: النزاع في هذه المسألة بين طوائف الإمامية كالنزاع فيها بين غير الإمامية، فالجهمية والمعتزلة والخوارج وطائفة من غير الإمامية تنكرها، والإمامية لهم فيها قولان، فجمهور قدمائهم يثبتون الرؤية، وجمهور متأخريهم ينفونها»[2] .

ويقول الإمام ابن القيم:

«وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة

---

(٢) الرافضة: هم من فرق الشيعة، وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر وسائر الصحابة، ولرفضهم زيد بن علي بن الحسين، وتفرقهم عنه حينما أبى أن يتبرأ من الشيخين، ويسمون الإمامية لقولهم بالنص في إمامة علي رضي الله عنه وبطلان خلافة من عداه وذريته، من غير أهل البيت.

انظر: المقالات للأشعري ١/ ٨٩، والملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٦٢.

(٢) منهاج السنة ١/ ٢٨٨.

الذين هم بحبائل الشيطان متمسكون»[١] .

ويقول ابن أبي العز :

«المخالف في الرؤية : الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية»[٢] .

ولما كانت حجج هؤلاء لم تخرج عن حجج المعتزلة ؛ كان الرد عليهم جميعاً واحداً .

٤ـ الخوارج[٣] :

والخوارج تنكر الرؤية وتقول باستحالتها على الله ، وقد قدمنا من النصوص ما يثبت إنكارهم لها .

وإذا كان من قدمنا ذكرهم ، ينفون الرؤية عن الله تعالى مطلقاً ، فإنه لا يفوت التنبيه إلى أن هناك في مقابلهم من يثبت الرؤية ثبوتاً يصل بها إلى الحد المذموم والتشبيه الصريح .

وقد أشار العلامة ابن القيم إلى فريقي أهل البدع هؤلاء ، فقسمهم إلى قمسين :

---

(١) حادي الأرواح ص : ١٩٦ .

(٢) شرح الطحاوية ص : ٢٠٤ .

(٣) الخوارج ـ على الصحيح من الأقوال ـ : هم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بقيادة زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وحاربوه في النهروان .
انظر : الخوارج تاريخهم وآراؤهم الاعتقادية وموقف الإسلام منهم ص : ٦ ـ ٨ . بحثي عن الخوارج للماجستير .

أحدهما: من يزعم أنه يرى في الدنيا ويحاضر ويسامر.

والثاني: من يزعم أنه لا يرى في الآخرة ألبتة ولا يكلم عباده[١].

قال ابن القيم:

«وما أخبر الله به ورسوله وأجمع عليه الصحابة والأئمة يكذب الفريقين»[٢].

ومن الذين أشرنا إليهم أنهم قد غلوا في إثبات الرؤية إلى الحد المذموم: فرقة تسمى السالمية، تنسب - فيما يذكر الجيلاني - إلى رجل يسمى ابن سالم، شذت هذه الفرقة فقالت: «إن الله سبحانه يرى يوم القيامة في صورة آدمي محمدي، وأنه عز وجل يتجلى لسائر الخلق يوم القيامة من الجن والإنس والملائكة والحيوان أجمع، لكل واحد في معناه»[٣] تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ولا شك في أنهم بقولهم هذا قد استوجبوا نقمة جميع الفرق عليهم، فلا هم نفوها كغيرهم من الفرق المبتدعة، ولا هم أثبتوها على الوجه الصحيح، كإثبات أهل الحق لها؛ بل ذهبوا في إثباتها إلى ما لم يسبقوا إليه من الكذب على الله ورسوله والقول بغير علم.

أما المذهب الحق من تلك المذاهب - وهو القول بوقوع رؤية الله تعالى في عرصات القيامة وفي الجنة، الذي اعتمد على الكتاب والسنة والعقل الصحيح - فهو ما عبر عنه أهله في أقوالهم الآتية:

---

(١) حادي الأرواح ص: ٢٤١.

(٢) حادي الأرواح: ص: ٢٤١.

(٣) الغنية ١/ ٩٤.

١ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى :

«وقد دخل أيضاً فيما ذكرناه من الإيمان به وبكتبه وبرسله : الإيمان بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة عياناً بأبصارهم ، كما يرون الشمس صحواً ليس دونها سحاب ، وكما يرون القمر ليلة البدر ـ لا يضامون في رؤيته سبحانه ـ يرونه سبحانه وهم في عرصات القيامة ، ثم يرونه بعد دخولهم الجنة كما يشاء سبحانه وتعالى»[١] .

وذكر ـ رحمه الله ـ نقولاً كثيرة عن مذهب السلف ، في إثبات رؤية الله تعالى ، في أجزاء متفرقة من مجموع الفتاوى[٢] .

ويقول ابن القيم عن إثبات السلف للرؤية :

«وأما التابعون ونزل الإسلام وعصابة الإيمان من أئمة الحديث والفقه والتفسير وأئمة التصوف فأقوالهم أكثر من أن يحيط بها إلا الله عز وجل» .

ثم نقل بعضاً من أقوالهم عن : سعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعامر بن سعد البجلي ، وعبد الرحمن بن سابط ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك ، وكعب ، وكذا عمر بن عبد العزيز ، والأعمش ، وسعيد بن جبير ، وكعب الأحبار ، وهشام ابن حسان ، وطاوس ، وأبي اسحاق السبيعي ، وعبد الله بن المبارك ، وشريك بن عبد الله[٣] ، وغيرهم من العلماء .

---

(١) الفتاوى ٣/ ١٤٤ .

(٢) انظر : ٦/ ٥٠٠ـ٥٠٢ .

(٣) انظر : حادي الأرواح ص : ٢٣٤ .

ونقل كذلك عن الأئمة الأربعة، ونظرائهم، وشيوخهم، وأتباعهم، ما يدل على إثباتهم للرؤية، كمالك بن أنس، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، والأوزاعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وجرير بن عبد الحميد، ووكيع بن الجراح، وقتيبة بن سعيد، وأبي عبيد القاسم ابن سلام، وأسود بن سالم شيخ الإمام أحمد، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، وإمام السنة أحمد بن حنبل[1]، وسرد أقوال هؤلاء العلماء ـ وهي نصوص كثيرة ـ يطول استقصاء ذكرها.

وقال: «اتفق عليها ـ على الرؤية ـ الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون».

ثم نقل عن إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة: «أن المؤمنين لم يختلفوا أن المؤمنين يرون خالقهم يوم المعاد، ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين»[2].

وذكر أنه قد أجمع جميع أهل اللغة على أن اللقاء المذكور في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ لا يكون إلا معاينة ونظراً بالأبصار... واللقاء ثابت بنص القرآن، وبالتواتر عن النبي ﷺ، وكل أحاديث اللقاء صحيحة[3].

ويقول ابن أبي العز ـ بعد أن ذكر خلاف الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية ـ: «وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة، وقد قال بثبوت الرؤية: الصحابة، والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في

---

(١)، (٢) حادي الأرواح ص: ٢٣٥/ ٢٤٠.

(٣) المصدر السابق ص: ١٩٦.

الدين، وأهل الحديث، وسائر طوائف أهل الكتاب المنسوبون إلى السنة والجماعة[١].

ويقول الأشعري - في نقله لمذهب أصحاب الحديث وأهل السنة -: «ويقولون: إن الله سبحانه يرى بالأبصار يوم القيامة، كما يرى القمر ليلة البدر؛ يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون؛ لأنهم عن الله محجوبون، قال الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

ومعلوم أن قوله ﷺ: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»**

وليس المقصود به تشبيه المرئي بالمرئي كما قد يتوهم، وإنما المقصود به تشبيه الرؤية بالرؤية في عدم الشك والخطأ، بما يحصل للناس من وضوح مشاهدة القمر ليلة البدر ليس دونه مانع.

بل كفَّر هؤلاء - وهم علماء السلف - كل من اعتقد نفي رؤية الله تعالى في الآخرة فقال شيخ الإسلام في الحكم عليهم:

«والذي عليه جمهور السلف: أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك، عُرِّف ذلك كما يعَرَّف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له؛ فهو كافر»[٢].

وفي مقابل قول أهل السنة - بتكفير من ينفي الرؤية - نجد أن القاضي عبد الجبار - كما هو مذهب المعتزلة - يكفر من يثبت الرؤية؛ بدعوى أنه إثبات لكيفية تستلزم التجسيم، إلا أنه لم يكفر من ذهب إلى إثباتها بلا كيف، كما

---

(١) شرح الطحاوية ص: ٢٠٤.

(٢) المقالات ١/٣٤٦.

في قوله الآتي:

«اعلم أن من خالفنا في هذه المسألة لا يخلو حاله من أحد أمرين:

إما أن يحقق الرؤية فيقول: إن الله تعالى يرى مقابلاً لنا، أو حالاً في المقابل، أو في حكم المقابل.

أو لا يحقق فيقول: إنه تعالى يرى بلا كيف.

فمن ذهب إلى المذهب الأول: فإنه يكون كافراً؛ لأنه جاهل بالله تعالى، والجهل بالله كفر، والدليل على ذلك إجماع الأمة، وإجماع الأمة حجة.

ومن قال: إنه تعالى يرى بلا كيف فلا يكفر؛ لأن التكفير إنما يعرف شرعاً، ولا دلالة من جهة الشرع يدل على ذلك»[1].

وهذا التفصيل فيه مغالطات كثيرة؛ ذلك أن من أثبت الرؤية من السلف لا يقول بأن الله تعالى جسم[2] يرى في جهة تحويه وتحيط به، وإنما يثبت أهل السنة الرؤية بلا تكييف، وهم يعلمون أنه لا تعقل رؤية بلا مقابلة، لكن حقيقة ذلك علمه عند الله تعالى.

والقول بأن الله يرى في جهة مقابلاً للرائي على صفة من الصفات التي تستلزم التشبيه برؤية المخلوقات؛ ليس قوله صواباً، وإنما السلف يشبهون وضوح الرؤية إليه تعالى بوضوح الرؤية إلى الشمس والقمر ليس دونها مانع.

---

(١) شرح الأصول ص: ٢٧٦.

(٢) للسلف تفصيل في إطلاق كلمة جسم على الله أو عدم إطلاقها؛ فإن أريد بالجسمية مشابهته للأجسام فهذا باطل، وإن أريد إثبات الذات لله تعالى فهو حق ونفيها عنه باطل.

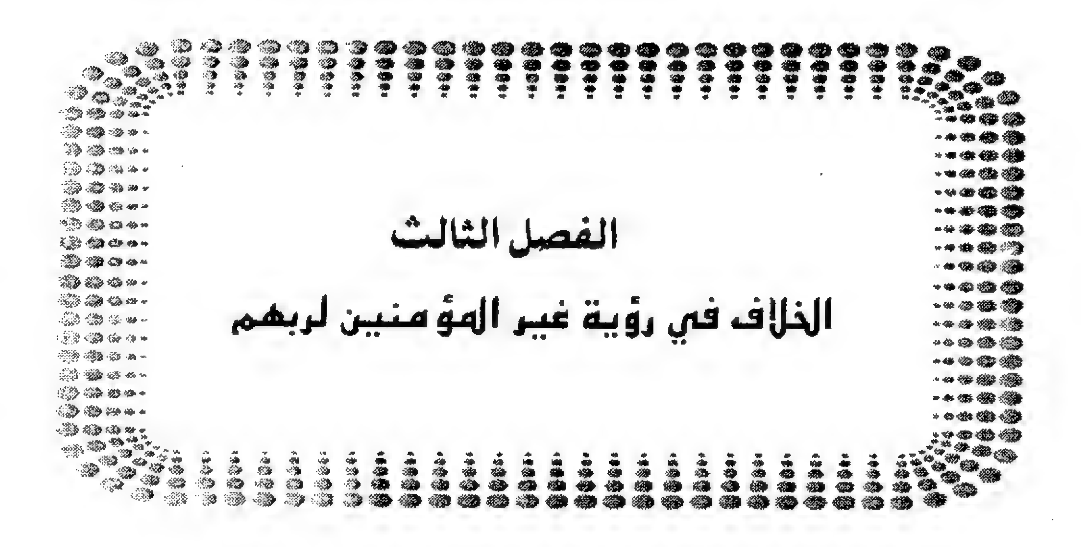
وأما قوله عن اعتقاد أهل القول الحق في أن رؤية الله من أعظم الثواب؛ فلا شك في هذا، وقد أطبق علماء السلف على تفسير قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ على أن تلك الزيادة هي النظر إليه جل وعلا - كما تقدم - .

وليس في هذا ما يدل على أن الله يجوز أن يكون مشتهى معشوقاً - كما يذكر القاضي - وليس من لوازم لذة النظر إلى جلاله تعالى أن يكون نظرهم إليه نظر شهوة وعشق - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فليس كل نظر يستلزم الشهوة والعشق.

ومثال هذا معروف بين البشر، فإن الرجل حين ينظر إلى والده أو أمه بحب وشوق لا يفهم منه أنه ينظر إليهما نظر شهوة وعشق، ولله المثل الأعلى.

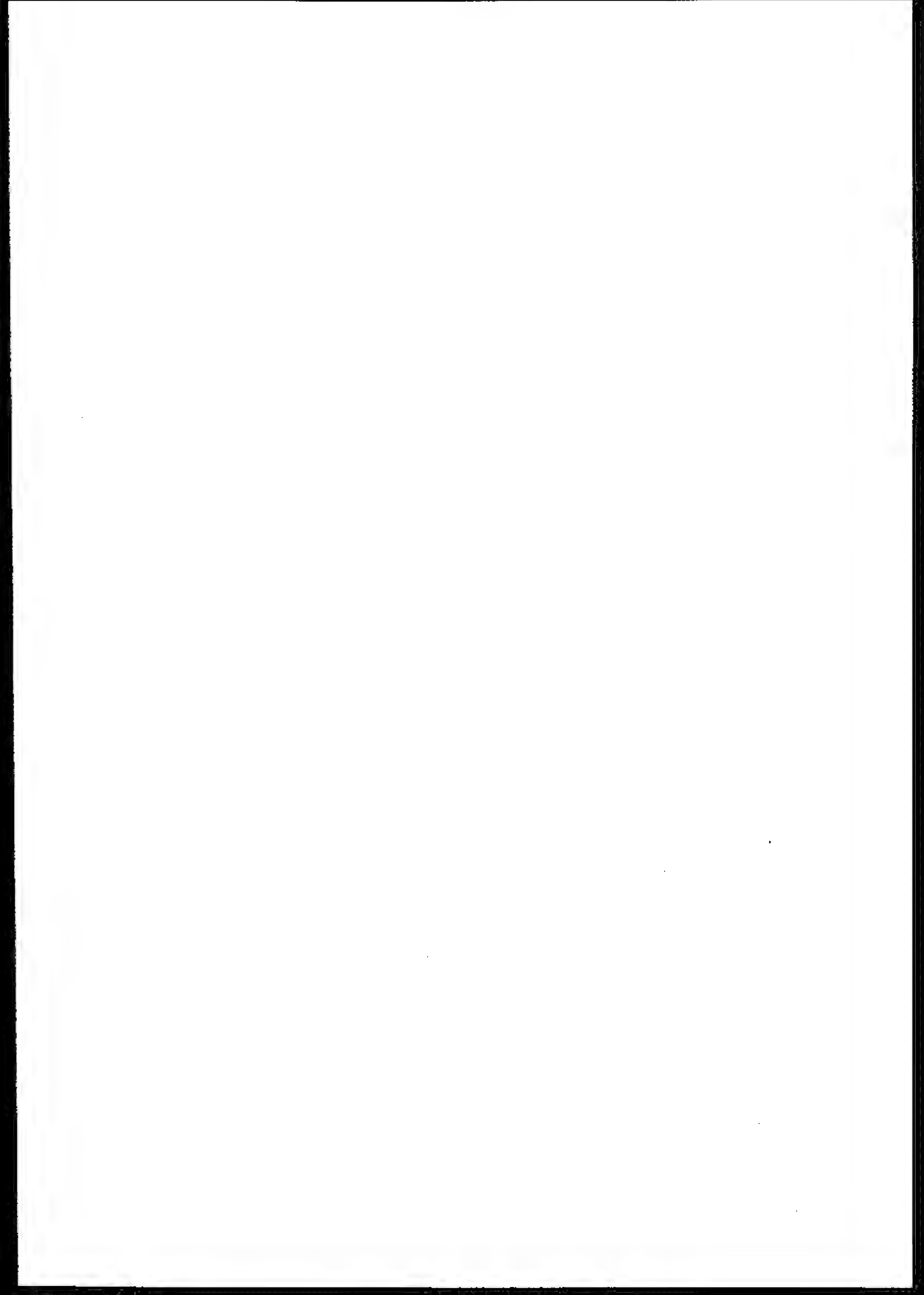
ولا يخفى لذي فهم وذوق أن هذا الكلام - الذي صدر عن القاضي - بلغ من ضحالة الفكر بحيث يغنينا عن الرد عليه.

* * *



الفصل الثالث

الخلاف في رؤية غير المؤمنين لربهم



الفصل الثالث

الخلاف في رؤية غير المؤمنين لربهم

هذه المسألة مما اشتد فيها الخلاف بين العلماء من أهل السنة، بل وصل ذلك الخلاف إلى قريب المقاتلة، كما نتبين ذلك من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته إلى أهل البحرين، حيث قال لهم في تلك الرسالة:

«والذي أوجب هذا: أن وفدكم حدثونا بأشياء من الفرقة والاختلاف بينكم، حتى ذكروا أن الأمر آل إلى قريب المقاتلة، وذكروا أن سبب ذلك الاختلاف في رؤية الكفار ربهم»[(١)].

والواقع أن دفعهم الأمر إلى هذا الحد مما لا ينبغي، وذلك أن هذه المسألة لا تستحق أن تصل إلى تلك الدرجة، ولا إلى درجة التهاجر والتباغض؛ لأن الخلاف فيها مما لا خطورة وراءه؛ إذ هي من المسائل المسكوت عنا التي لا يصل إثباتها أو إنكارها إلى حد التكفير، ولهذا قال لهم شيخ الإسلام في إجابته:

«وما كنا نظن أن الأمر يبلغ بهذه المسألة إلى هذا الحد، فالأمر في ذلك خفيف»[(٢)].

لأن هذه المسألة كانت من المسائل المسكوت عنها بين السلف الأوائل، وإنما حصل الخلاف فيها بعدهم بزمن طويل، وقد حدده شيخ الإسلام بما

(١)، (٢) الفتاوى ٦/ ٤٨٥.

يقارب ثلاثمائة سنة بعد الهجرة، فقال:

«فأما مسألة رؤية الكفار ربهم: فأول ماانتشر الكلام فيها وتنازع الناس فيها - فيما بلغنا - بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة، وأمسك عن الكلام في هذا قوم من العلماء، وتكلم فيها آخرون»[١].

وحاصل الخلاف في ذلك يرجع إلى ثلاثة أقوال: وهي كما ذكرها شيخ الإسلام:

أحدها: أن الكفار لا يرون ربهم بحال، لا المظهر للكفر ولا المسر له.

وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين، وعليه يدل عموم كلام المتقدمين، وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

الثاني: أنه يراه من أظهر التوحيد من مؤمني هذه الأمة ومنافقيها وغبرات من أهل الكتاب، وذلك في عرصة القيامة، ثم يحتجب عن المنافقين فلا يرونه بعد ذلك.

وهذا قول أبي بكر بن خزيمة من أئمة أهل السنة، وقد ذكر القاضي أبو يعلى نحوه في حديث إتيانه سبحانه وتعالى لهم في الموقف، الحديث المشهور.

الثالث: أن الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب، كاللص إذا رأى السلطان، ثم يحتجب عنهم؛ ليعظم عذابهم ويشتد عقابهم.

وهذا قول أبي الحسن بن سالم وأصحابه، وقول غيرهم. وهم في

---

(١) الفتاوى ٦/ ٤٨٦.

الأصول منتسبون إلى الإمام أحمد بن حنبل، وأبي سهل بن عبد الله التستري»[١].

وقد ذكر العلامة ابن القيم تلك الأقوال الثلاثة، ثم رجح القول بأن الكفار والمنافقين يرون ربهم في عرصات القيامة بقوله: «فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة؛ بل والكفار أيضاً، كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة»[٢].

وقد تقدم ذكره في الاستدلال من السنة.

وأما النووي رحمه الله، فإنه ذهب إلى أن المنافقين لا يرون ربهم، وقد قال عند شرحه لحديث أبي سعيد في قوله ﷺ: **«ولا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة»**.

قال: «اعلم أن هذا الحديث قد يتوهم منه أن المنافقين يرون الله تعالى مع المؤمنين، وقد ذهب إلى ذلك طائفة، حكاه ابن فورك؛ لقوله ﷺ: **«وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تعالى»**، وهذا الذي قالوه باطل، بل لا يراه المنافقون بإجماع من يعتد به من علماء المسلمين.

وليس في هذا الحديث تصريح برؤيتهم الله تعالى، وإنما فيه أن الجمع الذي فيه المؤمنون والمنافقون يرون الصورة، ثم بعد ذلك يرون الله تعالى، وهذا لا يقتضي أن يراه جميعهم، وقد قامت دلائل الكتاب والسنة على أن

---

(١) الفتاوى ٦/ ٤٨٨.

(٢) حادي الأرواح ص: ١٩٨.

المنافق لا يراه سبحانه وتعالى»[1] .

وقد تقدم رأي من يقول من علماء المسلمين برؤية المنافقين لربهم .

أما بالنسبة للأدلة على الأقوال المتقدمة فهي :

١ ـ أما بالنسبة للقول الأول ـ وهو رؤية جميع البشر له سبحانه ـ فقد استدل القائلون به بما تفيده ظواهر الأحاديث ؛ حيث إنها جاءت عامة ؛ فلم تفرق بين نظر المؤمن ولا الكافر ؛ بل ورد الكلام على عمومه ، كما تقدم في أحاديث الصحيحين «**إنكم ترون ربكم**» .

وكقوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو رزين العقيلي ـ وهو حديث طويل ـ[2] وفيه : «**فتخرجون من الأصوى**[3] **ومن مصارعكم، فتنظرون إليه وينظر إليكم**» قال : قلت : يا رسول الله ، كيف وهو شخص واحد ونحن ملأ الأرض ، ننظر إليه وينظر إلينا؟ قال : «**أنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، الشمس والقمر آية منه صغيرة، ترونها في ساعة واحدة ويريانكم، ولا تضامون في رؤيتهما، ولعمر إلهك لهو على أن يراكم وترونه أقدر منهما على أن يرياكم وتروهما**»[4] الحديث .

فقوله : «**تنظرون إليه وينظر إليكم**» عموم لجميع الخلق كما دل

---

(١) شرح النووي لمسلم ١/ ٤٣٧ .

(٢) قال ابن تيمية في الفتاوى ٦/ ٤٩٧ : «وقد رواه جماعة من العلماء وتلقاه أكثر المحدثين بالقبول» .

(٣) الأصوا : هي القبور ، وأصلها من الصوى : الأعلام ، فشبه القبور بها .

(٤) أخرجه أبو داود ٢/ ٥٢٥ ، وأخرج ابن خزيمة طرفاً منه ص : ١٧٨ ـ ١٧٩ . في كتابه «التوحيد» .

عليه سياقه[١] .

ومن أدلتهم كذلك : ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه قال : **«والله ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به، كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ـ أو قال: ليلة ـ يقول: ابن آدم، ما غرك بي؟ ابن آدم، ما عملت فيما علمت؟ ابن آدم، ماذا أجبت المرسلين؟»**[٢] .

هذه بعض حجج من يعمم القول بالرؤية لجميع البشر ؛ لعموم النص .

٢ ـ أما الذين قصروا حصول الرؤية على أهل التوحيد من المؤمنين ، ومن اتصف بذلك في الظاهر من المنافقين ، فقد استدلوا ـ كما ذكر شيخ الإسلام في الفتاوى[٣] ـ بما ثبت في الصحيحن من حديث أبي هريرة وحديث أبي سعيد ، الدالين على حصول الرؤية لهم في الموقف .

وقال شيخ الإسلام ـ بعد أن ذكر استدلال أهل هذا القول بهذين الحديثين ـ إن «هؤلاء الذين يثبتون رؤيته لكافر ومنافق ؛ إنما يثبتونها مرة واحدة أو مرتين ـ للمنافق رؤية تعريف ـ ثم يحتجب عنهم بعد ذلك في العرصة»[٤] .

ولعل الرؤية الثانية هي حينما يتجلى الله للمؤمنين ؛ فيسجدون ، ويبقى المنافقون لا يستطيعون السجود ، كما أفاده لفظ الحديث المروي عن أبي سعيد الخدري الثابت في الصحيحين ، وفيه : **«فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها؟**

---

(١) الفتاوى ٦/ ٤٩٨ .

(٢) رواه ابن خزيمة ص: ١٧١ ، قال الهراس : «هذا حديث موقوف على ابن مسعود ، وهو في حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأي» .

(٣) مجموع الفتاوى ٦/ ٤٩٨ .

(٤) الفتاوى ٦/ ٤٩٨ .

فيقـولون: نعم؛ فيكشف عن ساق؛ فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد نفاقاً ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خر على قفاه» الحديث .

٣ ـ وأما الذين نفوا الرؤية مطلقاً، فإنهم استندوا إلى قول الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ .

واستدلوا بمفهوم الآية ـ من حجب الله الكفار ـ على وقوعها للمؤمنين خاصة، إذ أنه لو لم ير المؤمنون ربهم، بل احتجب عنهم، لما كان لهم على الكفار مزية بالنسبة للنظر إلى الله تعالى، أي ولو كان الكفار يرون ربهم؛ لما كانت للمؤمنين مزية عليهم بالنسبة للنظر إليه سبحانه وتعالى .

وقد نقل شيخ الإسلام كثيراً من أقوال الذين ذهبوا إلى هذا القول، ومن ذلك قوله : «وروى ابن بطة بإسناده عن أشهب قال : قال رجل لمالك : يا أبا عبد الله ، هل يرى المؤمنون ربهم يوم القيامة؟ فقال مالك : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة؛ لم يعير الله الكفار بالحجاب»[1] .

وقد تقدم قول الشافعي في هذه الآية الكريمة .

وعن حنبل بن إسحاق قال : سمعت أبا عبد الله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ يقول : «أدركت الناس وما ينكرون من هذه الأحاديث شيئاً ـ أحاديث الرؤية ـ وكانوا يحدثون بها على الجملة، يمرونها على حالها، غير منكرين لذلك ولا مرتابين .

---

(١) نقله عنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٦/ ٤٩٩ .

قال أبو عبد الله : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فلا يكون حجاب إلا لرؤية ، فأخبر الله أن من شاء الله ومن أراد فإنه يراه ، والكفار لا يرونه ، وقال : قال الله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[١] .

«وقال القاضي أبو يعلى وغيره : كانت الأمة ـ في رؤية الله بالأبصار ـ على قولين :

منهم المحيل للرؤية عليه ، وهم المعتزلة والنّجارية وغيرهم من الموافقين لهم على ذلك .

والفريق الآخر أهل الحق والسلف من هذه الأمة : متفقون على أن المؤمنين يرون الله في المعاد وأن الكافرين لا يرونه .

فثبت بهذا إجماع الأمة ـ ممن يقول بجواز الرؤية وممن ينكرها ـ على منع رؤية الكافرين لله ، وكل قول حادث بعد الإجماع فهو باطل مردود»[٢] .

«وقال ـ هو وغيره أيضاً ـ : الأخبار الواردة في رؤية المؤمنين لله إنما هي على طريق البشارة ، فلو شاركهم الكفار في ذلك ؛ بطلت البشارة ، ولا خلاف بين القائلين بالرؤية في أن رؤيته من أعظم كرامات أهل الجنة»[٣] .

ويرى شيخ الإسلام بالنسبة لقضية إطلاق القول بأن الكفار يرون ربهم أم لا؟ إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يطلق القول بأن الكفار يرون ربهم من غير تقييد ؛ لوجهين :

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦/ ٤٩٩ .

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٦/ ٥٠١ .

(٣) نفس المصدر ونفس الصفحة .

أحدهما: أن الرؤية المطلقة قد صار يفهم منها الكرامة والثواب، ففي إطلاق ذلك إيهام وإيحاش، وليس لأحد أن يطلق لفظاً يوهم خلاف الحق، إلا أن يكون مأثوراً عن السلف، وهذا اللفظ ليس مأثوراً.

الثاني: أن الحكم إذا كان عاماً؛ في تخَصيص بعضه باللفظ خروج عن القول الجميل، فإنه يمنع من التخصيص، فإن الله خالق كل شيء، ومريد لكل حادث، ومع هذا يمنع الإنسان أن يخص ما يستقذر من المخلوقات وما يستقبحه الشرع من الحوادث بأن يقول على الانفراد: يا خالق الكلاب، ويا مريد الزنا، ونحو ذلك.

بخلاف ما لو قال: يا خالق كل شيء، ويا من كل شيء يجري بمشيئته، فكذلك هاهنا؛ لو قال: ما من أحد إلا سيخلو به ربه، وليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان، أو قال: إن الناس كلهم يحشرون إلى الله، فينظر إليهم وينظرون إليه؛ كان هذا اللفظ مخالفاً في الإيهام للفظ الأول[١].

* * *

(١) مجموع الفتاوى ٦/ ٥٠٤.

بيان الخلاف بين المثبتين للرؤية والنافين لها وهل هو خلاف حقيقي أم هو خلاف لفظي؟

في عرض ما تقدم من أقوال المثبتين لرؤية الله تعالى والمانعين منها، يتضح أن كلا الفريقين كان يهدف إلى المعتقد السليم في حق الله تعالى، حسب اجتهاده وفهمه للنصوص.

فالنفاة إنما طلبوا تنزيه الله تعالى حين ردوا القول بإثبات الرؤية؛ لئلا يكون مماثلاً للمخلوقات؛ لأن مقتضى الرؤية - كما فهموا - يستلزم المقابلة وكونه في حيز من الرائي، أو تستلزم كذلك اتصال شعاع العين بالمرئي، أو انطباع صورة المرئي في حدقة الرائي، وما إلى ذلك من أدلتهم العقلية.

وإضافة إلى ذلك ما فهموه - كذلك - من الأدلة السمعية:

١ - قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

٢ - وقوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾.

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

إلى غير ذلك من احتجاجهم على نفي رؤية الله تعالى.

ومن حيث الحكم عليهم: فإن مثل هؤلاء المؤولين لا يحكم عليهم بالكفر والخروج عن الإسلام.

ويحمل ما ورد من تكفير السلف ـ لمن قال بكفرهم ـ: على من بين له الحق من تلك النصوص ثم ردها استكباراً واستهتاراً بالحق، كما ذهب إليه بعضهم، كما نبينه فيما يأتي.

وإذا نظرنا إلى الجانب المقابل، وهم القائلون بإثبات الرؤية: فإنهم لم يريدوا من إثباتهم لرؤية الله تعالى ما ذكره أولئك من النقائص التي تلحق القائل بإثباتها، من مشابهة رؤية الحوادث وما يستلزم ذلك، مما يتنزه الله عنه.

ويتحصل من ذلك كله: أن الخلاف بين الفريقين لم يكن في أمر واحد.

فإن الرؤية التي نفاها المانعون: هي الرؤية التي تلزمها المقابلة، وانطباع الصورة في الحدقة، والإحاطة بجوانب المرئي.

وأما التي أثبتها المجوزون للرؤية: فهي التي لا تستلزم شيئاً مما ذكر.

هذا ما قرره أبو دقيقة رحمه الله، وقد خلص من ذلك إلى القول إن الخلاف بين الفريقين يعد خلافاً لفظياً، فقد قال بعد ما ذكره سابقاً: «وحينئذ يكون الخلاف لفظياً»[1].

ثم نقل عن الأستاذ محمد عبده ـ بعد أن أشار إلى الخلاف بين الفريقين ـ قوله: «فعلمنا من ذلك أن ليس النزاع بينهم حقيقياً؛ فإن المثبت ينفي جميع لوازم الرؤية ما عدا الانكشاف، والنافي للرؤية إنما ينفي لوازم هذه الرؤية المألوفة»[2].

---

(١) كتاب التوحيد ص: ١٩٤، وأبو دقيقة هو محمود أبو دقيقة، وكتابه «التوحيد» مطبوع طبعة قديمة في سنة ١٣٥٦هـ.

(٢) المصدر السابق ص: ١٩٥.

قال: «وكذلك حقق شيخنا الأستاذ الكبير محمد بخيت ـ في كتابه «القول المفيد في علم التوحيد» ـ أن الخلاف بين المانعين والمجوزين للرؤية لفظي، وأنه لا خلاف بين الفريقين إلا في تسمية ما يخلقه الله تعالى في الجنة للمؤمنين من الانكشاف التام، فالمانعون يسمونه علماً ضرورياً، والمجوزون يسمونه إبصاراً أو رؤية»[١] .

وقد خالف الشيخ عبد الحكيم ما تقدم، وقال: إن الخلاف بين الفريقين معنوي، فقال ـ ما معناه ـ : «إن نقطة النزاع هي أنه: هل يحصل الانكشاف التام البصري بدون الشروط المذكورة؟[٢] .

فالمانعون للرؤية قالوا: لا يحصل[٣] ، والمثبتون للرؤية قالوا: يحصل[٤]؛ فالنزاع إذاً معنوي»[٥] .

قال أبو دقيقة: «وعلى تسليم ما قاله عبد الحكيم، فالحق مع مثبتي الرؤية؛ لأن اللوازم من المقابلة والانطباع والإحاطة بالمرئي: لم تلزم الرؤية لذاتها؛ بل لكون المرئي جسماً، ومع ذلك فقد رأى النبي ﷺ من كان خلفه في الصلاة، ونرى السماء من غير إحاطة بجوانبها، والله يرانا بدون مقابلة؛ فيعلم من هذا أن الشروط واللوازم المعروفة عادية؛ فيجوز تخلفها»[٦] .

* * *

(١) كتاب التوحيد ص: ١٩٥ .

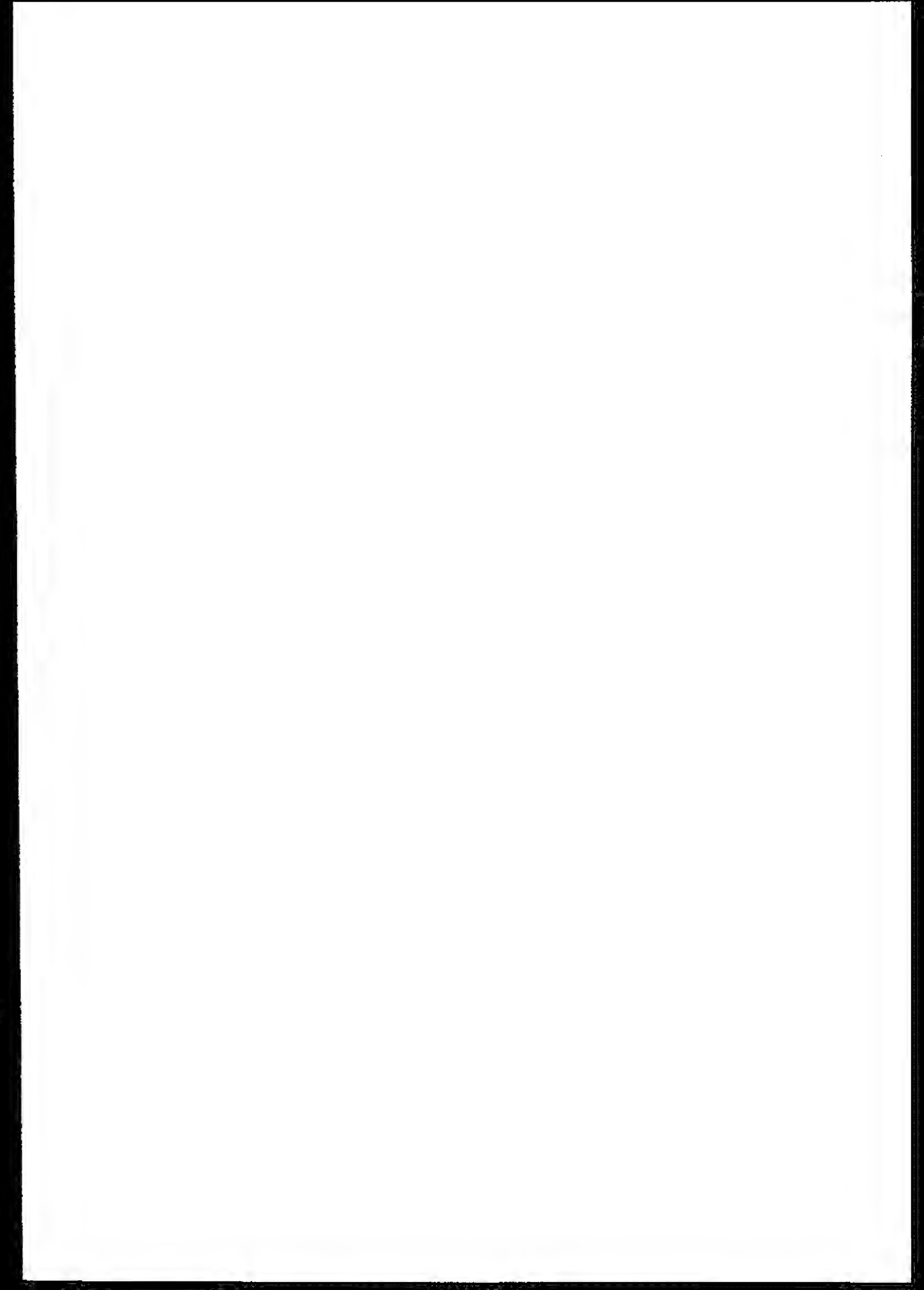
(٢) وقد ذكرها الأستاذ أبو دقيقة وهي ثمانية شروط ص: ١٨٨ . ولم أذكرها لضعفها.

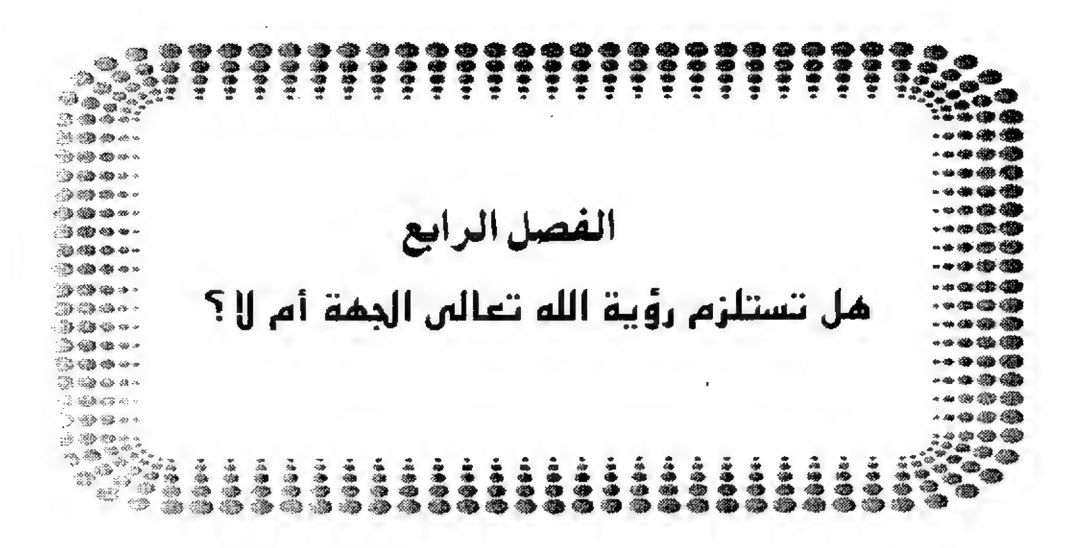
(٣) أي إلا بتلك الشروط.

(٤) أي من دون تلك الشروط.

(٥) المصدر السابق ص: ١٩٥ .

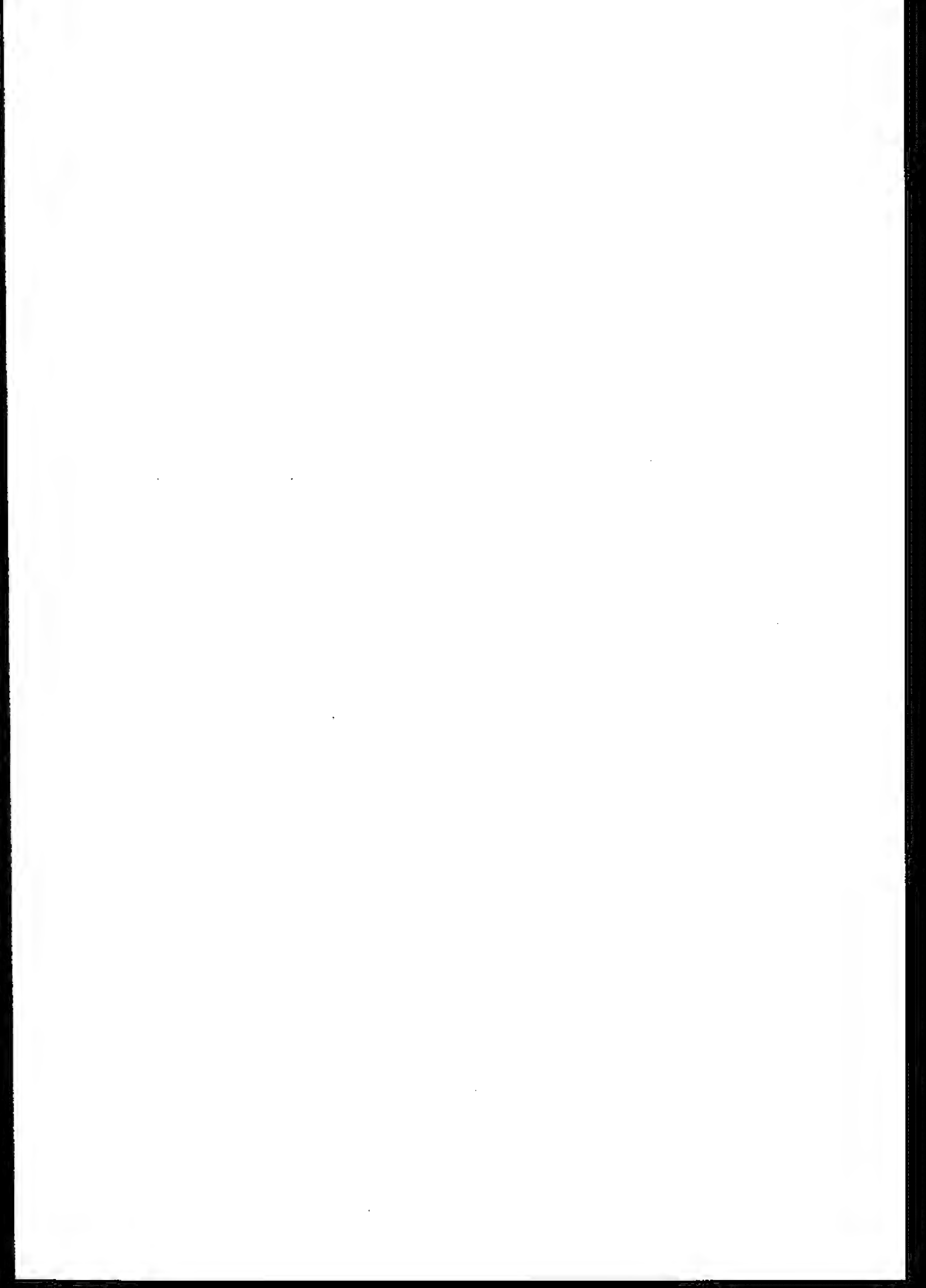
(٦) كتاب التوحيد ص: ١٩٦ .





الفصل الرابع

هل تستلزم رؤية الله تعالى الجهة أم لا ؟



الفصل الرابع

هل تستلزم رؤية الله تعالى الجهة أم لا ؟

بعد أن أوردنا النصوص التي تدل على أن الله تعالى يرى في الآخرة، فإننا سنتمم الكلام في مبحث الرؤية بمسألة هامة، وهي: هل تلك الرؤية ـ التي أثبتها السلف كما جاء بها القرآن والسنة ـ تستلزم كون الله تعالى يرى في جهة أم ليس ذلك من مستلزماتها؟

والواقع أن هذه المسألة هي محل الخصومة والجدال بين المثبتين للرؤية على اختلافهم.

ويمكن أن يرجع حاصل الخلاف في ذلك إلى الأقوال الآتية:

١ ـ أن الله تعالى يرى في جهة من الرائي.

٢ ـ أن الله تعالى يرى ولكن لا يصح إطلاق الجهة عليه.

٣ ـ أن الله تعالى لا يرى لا في جهة ولا في غيرها، نفياً مطلقاً، وقد سبق بيان هذا الرأي وإبطاله.

فيبقى مجال الخلاف منحصراً في الأمرين الأولين لأهل إثبات الرؤية، وهو جواز القول بإطلاق الجهة على الله، أو عدم جواز ذلك.

ونبين فيما يلي هذين المذهبين، مع بيان القول الحق من ذلك.

١ـ **أما المذهب الأول**: وهو جواز إطلاق القول بأن الله تعالى في جهة هي العلو، فهو ما صرح به القرآن الكريم والسنة النبوية، وثبت كذلك بالفطرة المستقيمة والعقل السليم.

أما ثبوته في كتاب الله تعالى: فقد ورد في آيات كثيرة، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿**تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**﴾ [المعارج: ٤]، ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك: ١٦]، ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ [النحل: ٥٠].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تدل على أن الله تعالى في جهة هي العلو، وأنه محيط بكل شيء، ولا يحويه شيء تبارك وتعالى.

وأما في السنة النبوية فقد ورد التصريح أيضاً بذلك في أحاديث كثيرة، ومن ذلك ما أخرج الإمام مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي، الذي جاء إلى الرسول ﷺ مبدياً أسفه على ما صنع بجاريته التي كانت ترعى غنمه، حيث لطمها؛ لأن الذئب قد ذهب بشاة من الغنم؛ فتأسف لذلك.

قال: فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: «**ائتني بها**» فأتيته بها، فقال لها: «**أين الله؟**» قالت: في السماء. قال: «**من أنا؟**» قالت: أنت رسول الله. قال: «**أعتقها؛ فإنها مؤمنة**»[(١)].

فهذا الحديث دليل قوي في غاية الوضوح لمن قال إن الله تعالى في جهة

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٨٢ «كتاب المساجد».

العلو، وفي جواز الإشارة إليه سبحانه وتعالى بـ(أين).

وقد ثبت في قصة الإسراء والمعراج أن الرسول ﷺ حينما فرض الله عليه الصلاة خمسين، كان يتردد عليه الصلاة والسلام بين موسى عليه السلام وبين ربه لأجل تخفيف الصلاة.

وإذا كان ذلك ثابتاً بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ - وكفى بذلك - فإن قبول اعتقاده هو أيضاً ما توحي به الفطرة المستقيمة، كما ذكرنا سابقاً.

فما من إنسان يدعو ربه إلا ويجد ضرورة التوجه إلى جهة العلو، لا ينكس رأسه في دعائه، ولا يلتفت يميناً ولا يساراً، وفي هذا يقول ابن أبي العز رحمه الله:

«وأما ثبوته بالفطرة: فإن الخلق جميعاً - بطباعهم وقلوبهم السليمة - يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى.

وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني - المعروف بإمام الحرمين - وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش، وهو الآن على ما كان.

فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا؟ فإنه ما قال عارف قط: «يا الله» إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع بهذه الضرورة من أنفسنا؟

(١) شرح الطحاوية ص: ٣٢٥.

قال: فلطم أبو المعالي على رأسه، ونزل ـ وأظنه قال: وبكى ـ وقال: حيرني الهمداني، حيرني.

أراد الشيخ: أن هذا أمر فطر الله عليه عباده، من غير أن يتلقوه من المرسلين، يجدون في قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو»[1].

وأما ثبوته بالعقل: فإضافة إلى ما تقدم من ذكر الأدلة، فإن العقل يثبت ذلك أيضاً من وجوه:

أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين إما أن يكون أحدهما سارياً في الآخر قائماً به (كالصفات)، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر.

الثاني: أنه لما خلق العالم: فإما أن يكون خلقه في ذاته، أو خارجاً عن ذاته.

والأول باطل، إما أولاً: بالاتفاق، وإما ثانياً: فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقذورات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

والثاني: يقتضي كون العالم واقعاً خارج ذاته؛ فيكون منفصلاً؛ فتعينت المباينة؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه: يقتضي نفي وجوده

(١) شرح الطحاوية ص: ٣٢٥.

بالكلية؛ لأنه غير معقول، فيكون موجوداً إما داخله وإما خارجه، والأول: باطل، فتعين الثاني، فلزمت المباينة»[١].

وإذا لم يكن بد من إثبات جهة الفوقية لله تعالى، فلا شك أن إثبات الرؤية يقتضي أن يكون المرئي في جهة من الرائي، بغض النظر عن إحاطة الرائي أو عدم إحاطته. ومن المعلوم أن الله لا يحيط به شيء.

إذاً: أن من أثبت الرؤية، لابد وأن يثبت الجهة، وإلا لحصل التناقض في رأيه، إذ كيف يثبت شيئاً وينفي لازمه؟!

ولهذا كان نفاة الرؤية والجهة منطقيين مع أنفسهم، فقد حذروا أن يقعوا في التناقض الذي وقع فيه من يثبت الرؤية وينفي الجهة، رغم تواتر الأخبار بذلك.

ذلك «أن كون الرؤية مستلزمة لأن يكون الله بجهة من الرائي؛ أمر ثبت بالنصوص المتواترة»[٢] كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية.

ودليل ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه الثابت في الصحيحين، وكذا حديث أبي سعيد رضي الله عنه: **«هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً؟»** قلنا: لا. قال: **«فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما»**[٣].

فإن هذين الحديثين يدلان دلالة صريحة على إثبات رؤية الله تعالى في جهة من الرائي، وهو ما تقتضيه لغة العرب، وبيان ذلك في الوجوه الآتية:

---

(١) شرح الطحاوية ص: ٣٢٥.

(٢) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٤٠٩.

(٣) تقدم تخريجهما.

أحدها: أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون بجهة منهم، فأما رؤية ما ليس في الجهة فهذا لم يكونوا يتصورونه.

الوجه الثاني: أنه قال: «**فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحواً، وكما ترون القمر صحواً**» فشبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر، وليس ذلك تشبيهاً للمرئي بالمرئي.

ومن المعلوم أنه إذا كانت رؤيته مثل رؤية الشمس والقمر؛ وجب أن يرى في جهة من الرائي، كما أن رؤية الشمس والقمر كذلك، فإنه لو لم يكن كذلك؛ لأخبرهم برؤية مطلقة، نتأولها على ما يتأول من يقول بالرؤية في غير جهة.

الوجه الثالث: أنه قال: «**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ وهل تضارون في القمر ليس دونه سحاب؟**»[1].

فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات، إذا لم يكن ثَم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين المرئي، ومن يقول إنه يرى في غير جهة؛ يمتنع عنده أن يكون بينه وبين العباد حجاب منفصل عنهم... إلخ.

الوجه الرابع: أنه أخبر أنهم لا يضارون في رؤيته، وفي حديث آخر «**لا يضامون**»، ونفي الضير والغيم لا يكون، إنما يكون لإمكان لحوقه للرائي، ومعلوم أن ما يسمونه رؤية ـ وهو رؤية ما ليس بجهة من الرائي، لا فوقه ولا شيء من جهاته ـ لا يتصور فيها ضير ولا غيم حتى ينفي ذلك، بخلاف رؤية ما يواجه الرائي ويكون فوقه، فإنه قد يلحقه منه ضيم وغيم، إما بالازدحام عليه، أو كلال البصر لخفائه كالهلال، وإما لجلائه كالشمس

---

(١) وهو نص حديث أبي هريرة، كما تقدم تخريجه.

والقمر.

الوجه الخامس: أن يكون الله يرى بجهة من الرائي ثبت بإجماع السلف والأئمة، وقد ذكر ابن تيمية نصوصاً كثيرة في ذلك عن السلف مثل: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل.

ومن الأئمة: مالك بن أنس، والأوزاعي، والشافعي، وعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل.

وذكر أئمة كثيرين غير هؤلاء كلهم على إثبات الرؤية، وبجهة من الرائي[1].

وقد كان أعلم الخلق بربه يشير بيده في حجة الوداع قائلاً: «اللهم اشهد».

فكيف يكون نفاة الجهة عن الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ.

هذا ما يتعلق بالنسبة للمذهب الأول، وهم القائلون بإثبات الرؤية والجهة لله تعالى.

٢ ـ أما أهل المذهب الثاني: وهم القائلون بإثبات الرؤية ونفي الجهة عن الله تعالى: فهم الأشاعرة، وقد ذهب هؤلاء إلى عدم جواز القول بأن الله تعالى يرى في جهة، وأن من واجب التنزيه لله تعالى عدم إطلاق هذا اللفظ في حق الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا يشعر بالمكان والتحيز، وهو شأن الأجسام، والله منزه عن ذلك.

وقد أكثر البيهقي رحمه الله في كتابه «الاعتقاد» في نفي أن يتصف الله

---

(١) انظر: تلبيس الجهمية ٢/ ٤١٥.

تعالى بالجهة، وهو ما قرره الإمام فخر الدين الرازي في أكثر من مناسبة في كتبه، وكثير من علماء الأشاعرة ورؤسائهم يقررون ذلك، غير أن ابن تيمية يذكر أن نفي الفوقية مع إثبات الرؤية إنما يعرف عن شرذمة من الأشعرية لا عن أئمتهم، فهو يقول ما نصه:

«ولا يعرف القول بإثبات الرؤية مع نفي كون الله تعالى فوق العالم إلا عن هذه الشرذمة، وهم بعض أتباع الأشعري ومن وافقهم، وليس ذلك قول أئمتهم»[١].

فالبيهقي يقرر في شرح حديث: «**لا تضامون في رؤيته**»: «أن الله تعالى لا يرى في جهة كما يرى المخلوق في جهة»[٢]. وأنه «يتعالى عن جهة»[٣].

وأما الإمام الرازي فقد بين السبب في نفي أن يكون الله في السماء: بأن إثبات ذلك يقتضي أن الله متحيز في السماء، وأنها تحيط به؛ فيكون على هذا القياس أصغر من السماء، والسماء أصغر من العرش والنتيجة أن الله تعالى يكون شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش.

وهذا في نص كلامه عند شرحه لقوله تعالى: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ [الملك: ١٦] قال:

«واعلم أن المشبهة احتجوا على إثبات المكان لله تعالى بقوله: ﴿**أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾ والجواب عنه: أن هذه الآية الكريمة لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين؛ لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطاً به من جميع الجوانب، فيكون أصغر من السماء، والسماء أصغر من العرش

(١) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ٣٩٦.

(٢)، (٣) الاعتقاد ص: ٨٠.

بكثير؛ فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش»[1] .

والواقع أن تقرير الرازي لمعنى الآية واستنتاجه من ذلك أن الآية لو أجريت على ظاهرها للزم أن تكون السماء محيطة بالله عز وجل ظرفاً له من جميع الجوانب، وأنه يلزم آخر الأمر أن يكون الله شيئاً حقيراً، والواقع أن الأمر ليس كذلك، ولم يقل أحد ممن يعتد بقوله ورأيه أن إثبات كون الله في السماء ـ جهة العلو ـ يقتضي أن يكون أصغر من السماء ـ تعالى وتقدس عن ذلك ـ.

فإن كان هؤلاء المشبهة الذين ذكرهم هم القائلين بأن الله في حيز ضيق من السماء وهي تحيط به من كل الجوانب؛ فلا شك أن الله منزه عن ذلك.

وإن أراد بالمشبهة الذين يثبتون لله جهة العلو؛ فإنه يكون قد خالف الحقيقة، إذ لم يقل أحد من أهل السنة أن السماء تحيط بالله تعالى من كل الجوانب، وأنه يكون أصغر من السماء.

«ولو سئل سائر المسلمين: هل يفهمون من قول الله ورسوله «أن الله في السماء» أن السماء تحويه؟ لبادر كل واحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا.

وإذا كان الأمر هكذا؛ فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله.

بل عند المسلمين أن الله في السماء وهو على العرش واحد؛ إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى أن الله في العلو لا في السفل، وقد علم المسلمون أن

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٣٠/ ٧٠ـ ٧١.

كرسيه سبحانه وتعالى وسع السموات والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله ، لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته ، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه»[١] .

* * *

(١) الفتوى الحموية الكبرى ص: ٦٢ .

ورود النفي والإثبات في جهة العلو

وإذا كانت الجهة ثابتة لله تعالى؛ فإن مما ينبغي ملاحظته: أن لفظ الجهة يطلق ويراد به أمراً مقبولاً وأمراً مردوداً، أي نثبت الجهة لله تعالى من وجه، وننفيها عنه من وجه آخر.

١ ـ فإن أريد بنفي الجهة: أن الله تعالى ليس موجوداً في داخل هذا العالم ولا حالاً فيه؛ فهذا هو الأمر المقبول والذي يجب تنزيه الله عنه.

٢ ـ وأما إذا كان المقصود بنفي الجهة: نفي مطلق الجهة؛ فهذا هو المردود؛ لما ثبت من أن الله تعالى في جهة العلو، فوق عرشه، بائن من خلقه، لا يشبهه شيء تعالى وتقدس، وهذا النفي ليس مذهب السلف.

قال شيخ الإسلام في بيان لفظة الجهة وما في معناها كالحيز، وبيان أنها ألفاظ مجملة تشتمل على حق وباطل.

قال: «فإن القائل: «ليس في جهة ولا حيز» يتضمن نفيه أنه ليس داخل العالم ولا في أجواف الحيوانات ولا الحشوش القذرة؛ وهذا كله حق، ويتضمن أنه ليس على العرش ولا فوق العالم؛ وهذا باطل، وكان في نفيه نفي الحق والباطل»[1].

بل بالغ الذين نفوا القول بأن الله في جهة، فأوهموا الناس أنهم نفوا عن

(١) بيان تلبيس الجهمية ص: ١٣.

الله تعالى ما يتصف به بعض خلقه، من إحاطة بعض المخلوقات به، وتحيزه فيها، وكذبوا على الذين أثبتوا له الجهة، فزعموا أنهم يجعلون الجهة أكبر منه، وأنه في حيز منها، «وربما صغروا الحيز حتى يقولوا إن الله في هذه البقعة، أو هذا الموضع، أو نحو ذلك من الأكاذيب المفتراة»[1] .

فاتضح أن هذه الألفاظ المجملة تحتاج إلى تفصيل، «فيقال لمن نفى: أتريد بالجهة شيء موجود مخلوق؟ فالله ليس داخلاً في المخلوقات، أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن الله فوق العالم مباين للمخلوقات.

وكذلك يقال لمن قال: الله في جهة: أتريد بذلك أن الله فوق العالم، أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات؟ فإن أردت الأول؛ فهو حق، وإن أردت الثاني؛ فهو باطل».

«وكذلك لفظ التحيز: إن أراد به أن الله تحوزه المخلوقات؛ فالله أعظم وأكبر؛ بل قد وسع كرسيه السموات والأرض، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾ .

وقد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقبض الله الأرض، ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**» .

وفي حديث آخر: «**وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة**» .

وفي حديث ابن عباس: «**ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**» .

---

(١) بيان تلبيس الجهمية ص: ١٣ .

وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات، أي مباين لها، منفصل عنها، ليس حالاً فيها، فهو سبحانه ـ كما قال أئمة السنة ـ: فوق سمواته، على عرشه، بائن من خلقه»[١].

وقال ابن أبي العز ـ في رده على من يثبت الرؤية دون الجهة ـ:

«هل تعقل رؤية بلا مقابلة؟، ومن قال يرى لا في جهة؛ فليراجع عقله، فإما أن يكون مكابراً لعقله، أو في عقله شيء، وإلا فإذا قال: يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته؛ رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة»[٢].

وفي الختام، فإن مما يجدر بالذكر: أن المثبتين للجهة والنافين لها، كل منهم يطلب ما يرى أنه الحق، وقد خفي على كل فريق ما يهدف إليه الفريق الآخر، ودخلت مع ذلك البغضاء والعداوة، وخرجوا إلى السباب وافتعال التهم إلى القتال أحياناً، وظلم كل فريق الفريق الآخر.

والسبب في ذلك: هو ما تقدم ذكره، مما حصل في بعض الأسماء من اشتراك وإجمال، نفياً أو إثباتاً، فاختلفت كلمتهم حول المعنى المراد من ذلك، وخرجوا عن حد الواجب، وقد نعى عليهم الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الموقف بسبب ذلك فقال:

«تجد طوائف من المسلمين يتباغضون ويتعادون أو يختصمون أو يقتتلون على إثبات لفظ أو نفيه، والمثبتة يصفون النفاة بما لم يريدوه، والنفاة يصفون المثبتة بما لم يريدوه؛ لأن اللفظ فيه إجمال واشتراك يحتمل

---

(١) الرسالة التدمرية ص: ٢٢.

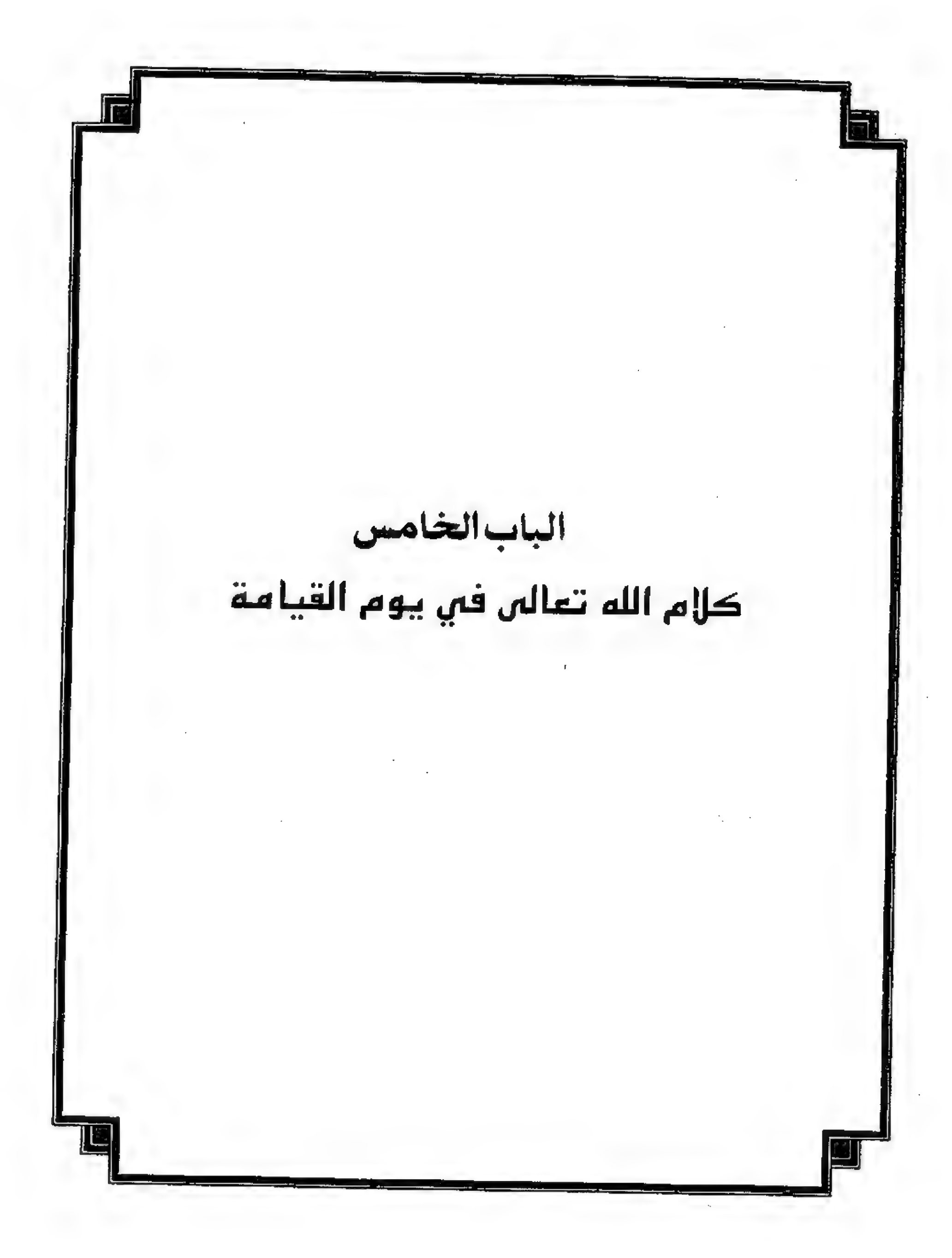
(٢) شرح الطحاوية ص: ٢١١.

معنى حقاً ومعنى باطلاً.

فالمثبت يفسره بالمعنى الحق، والنافي يفسره بالمعنى الباطل، ثم المثبت ينكر على النافي بأنه جحد من الحق، والنافي ينكر على المثبت أنه قال على الله الباطل، وقد يكون أحدهما أو كلاهما مخطئين في حق الآخر، وسبب ذلك ـ مع اشتراك اللفظ ـ نوع جهل، ونوع ظلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

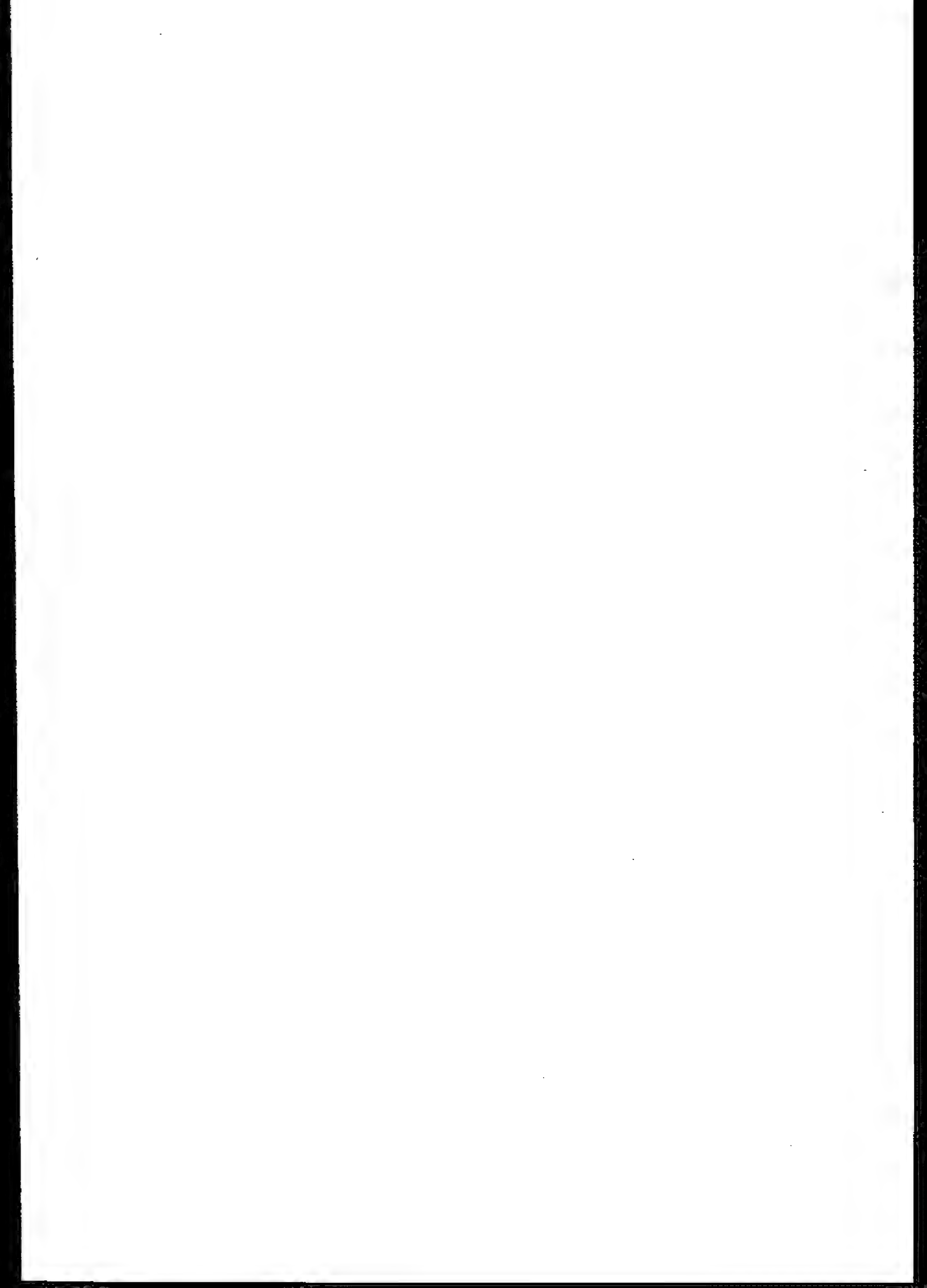
* * *

(١) بيان تلبيس الجهمية ٢/ ١٤.



الباب الخامس

كلام الله تعالى في يوم القيامة



الباب الخامس

كلام الله تعالى في يوم القيامة

كلامه في الموقف

ويشمل الفصول الآتية :

تمهيد :

الفصل الأول : إثبات صفة الكلام لله تعالى .

١ ـ من القرآن الكريم .

٢ ـ من السنة النبوية .

٣ـ الإجماع .

الفصل الثاني : إثبات صفة كلام الله تعالى للخلق في يوم القيامة في موقف فصل القضاء .

١ ـ من كتاب الله تعالى .

٢ ـ من السنة النبوية .

الفصل الثالث : إثبات أن الله تعالى لا يكلم بعض خلقه في يوم القيامة .

١ ـ أدلة ذلك من القرآن الكريم .

٢ ـ أدلة ذلك من السنة النبوية .

٣ـ الجمع بين ما ورد من إثبات عدم كلام الله لبعض خلقه، وبين ما ورد من ثبوت ذلك.

الفصل الرابع: بيان أقوال أهم المذاهب في كلام الله تعالى.

١ ـ مذهب أهل السنة والجماعة.

٢ ـ مذهب الأشاعرة.

٣ ـ مذهب الجهمية والمعتزلة.

مسألة:

بأي لغة يخاطب الله عز وجل الخلق في يوم القيامة؟

* * *

١ ـ كلام الله تعالى في يوم القيامة
٢ ـ كلامه في الموقف

تمهيد :

وبعد عرض ما تقدم بحثه في باب الرؤية، وبيان ما يتعلق منهابرؤية الله تعالى في موقف فصل القضاء، وإثبات ذلك والرد على المخالفين؛ فإن مسألة كلام الله تعالى في الموقف يوم القيامة، والرد على من خالف في ذلك؛ هي أيضاً من الأهمية بمكان.

وحيث إنها من المسائل المطولة، والتي كانت مسرحاً لأقلام العلماء من السلف وغيرهم، وحيث إن الغرض لم يتعلق ببحث كل ما جاء فيها؛ فإننا سنقتصر على ما ذكرنا، تاركين تفصيل بعض المسائل مثل القول بخلق القرآن، وما تفرع عن ذلك من مسائل فرعية بين الفرق الإسلامية، إلا ما يتعلق منها بإثبات صفة الكلام لله تعالى؛ لإثبات كلامه عز وجل في يوم القيامة.

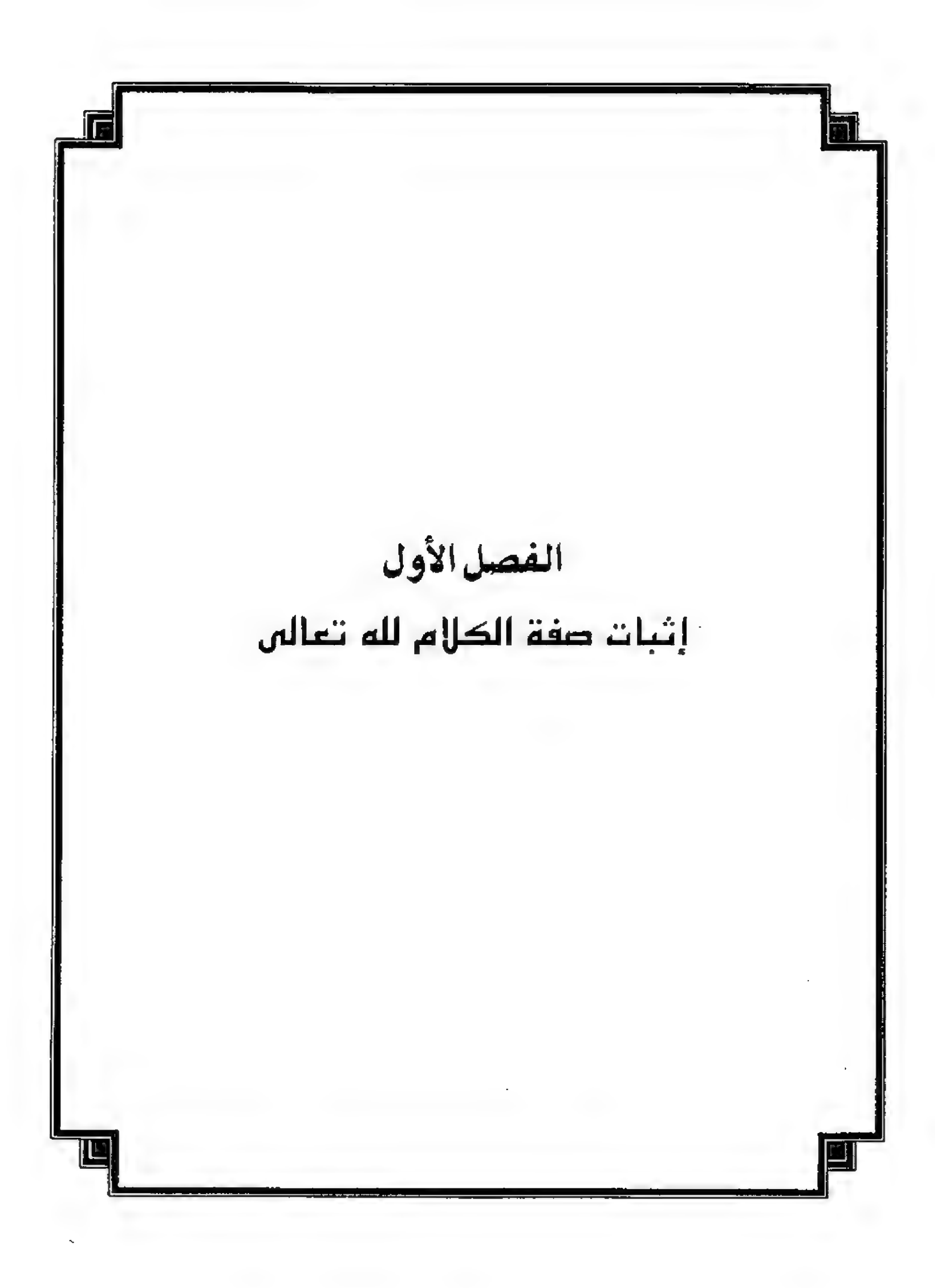
ثم نتمم الكلام بالإشارة إلى آراء أهم الفرق الإسلامية حول هذه الصفة.

ولعظم هذه المسألة فقد اعتنى بذكرها العلماء أيما عناية، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الباع الطويل في بحثها وبيان تفاصيلها، وقد بلغ كلامه

فيها مجلداً ضخماً[١] ضمن مجموع فتاواه، بعنوان: «القرآن كلام الله»، بين فيه مسائل عديدة وآراء كثيرة مما لا يتعلق بغرضنا، وأبرز الرأي الحق الواجب اعتقاده نحو إثبات هذه الصفة لله تعالى.

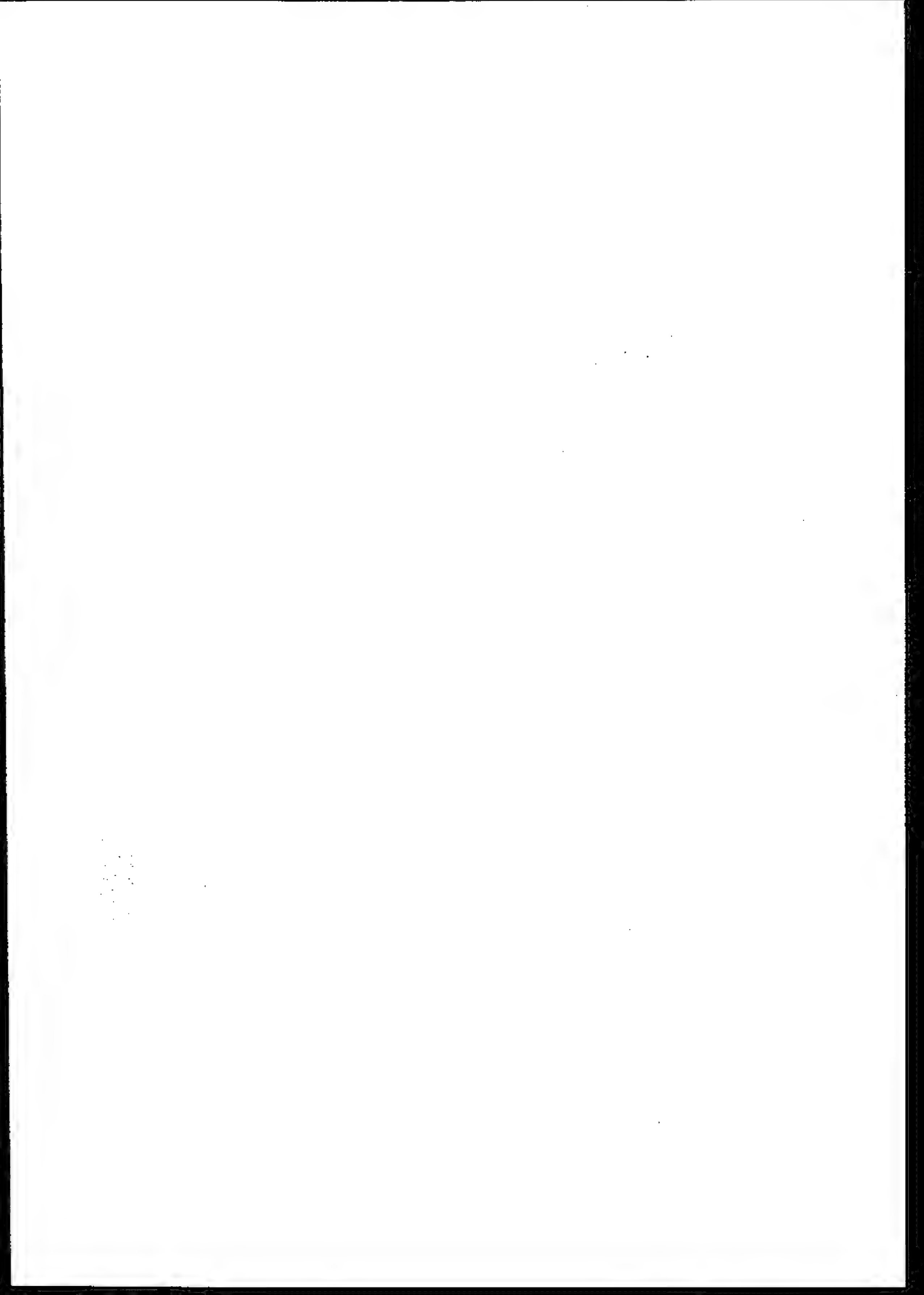
* * *

(١) هو الجزء الثاني عشر.



الفصل الأول

إثبات صفة الكلام لله تعالى



الفصل الأول

إثبات صفة الكلام لله تعالى

ثبت بنص كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ وفي إجماع عامة أهل الملل: أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفة الكلام، يكلم من شاء من عباده، متى شاء، وكيف شاء.

وسوف نعرض فيما يلي أدلة إثبات ذلك.

* * *

إثبات صفة الكلام من القرآن الكريم

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم كثيراً من الآيات البينات للدلالة على اتصافه عز وجل بصفة الكلام.

ومن أمثلة ذلك الآيات الآتية:

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ [النساء: ١٦٤].

٢ - وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ .

[الأعراف: ١٤٣].

٣ - وقال تعالى في خطابه لموسى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

[الأعراف: ١٤٤].

٤ - وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

[الشعراء: ١٠].

٥ - ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ .

[البقرة: ٢٥٣].

٦ - ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١].

٧ - ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦].

٨ - ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢].

٩ - ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ [البقرة: ٧٥].

وقد أخبر سبحانه وتعالى أن كلامه لا ينفد، ولو كان شجر الأرض أقلاماً، والبحار مداداً لها، ولو كان كل بحر يمده سبعة أبحر، كما قال عز وجل.

١٠ - ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩].

١١ - ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧].

* * *

إثبات صفة الكلام من السنة النبوية

وكما وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى لإثبات هذه الصفة؛ فإنه قد وردت كذلك أحاديث كثيرة عن المصطفى ﷺ يخبر فيها عن ربه، ويصفه فيها بالكلام والقول، ويتوسل إليه بكلامه، في مناسبات عديدة.

ومن تلك الأحاديث نأخذ ما يلي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان**».

قال علي وقال غيره: صفوان ينفذهم ذلك، ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**﴾[1]. إلى آخر الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً؛ نادى جبريلَ: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه؛ فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه؛ فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض**»[2].

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون،**

(١) أخرجه البخاري ٨/ ٣٨٠.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ١٣/ ٤٦١.

وأتيناهم وهم يصلون»[١] .

وجاء من حديث قدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : **«قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»**[٢] .

وعنه، عن النبي ﷺ قال: **«يقول الله عز وجل: الصوم لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وأكله وشربه من أجلي، والصوم جنة، وللصائم فرحتان: فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»**[٣] .

وعنه، عن النبي ﷺ قال: **«يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»**[٤] .

وعنه، عن النبي ﷺ قال: **«قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**[٥] .

- وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: **«يقول الله: إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة »**[٦] .

وعنه، رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم، فقال: مه. قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال: ألا**

---

(١) صحيح البخاري ١٣/ ٤٦١ .

(٢) ـ (٦) هذه الأحاديث مأخوذة عن صحيح البخاري ١٣/ ٤٦٤ ـ ٤٦٦ . «مع الفتح» .

ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى يا رب. قال: فذلك لك»[١] .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : «**قال الله: إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه**»[٢] .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ـ في شأن الإفك ـ: «ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ**﴾العشر الآيات[٣] .

والغرض من إثبات هذه الأحاديث ؛ هوالاستدلال بها على صحة وصف الله تعالى بصفة الكلام والقول ، وأن الله تعالى متكلم إذا شاء، وفي أي وقت شاء .

وبالإضافة إلى ذلك : فقد عنون البخاري لهذا الموضوع بعناوين مختلفة مثل قوله : «باب : كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة»[٤] .

وقوله : «باب : كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم»[٥] .

وقوله : «باب : كلام الرب مع أهل الجنة»[٦] .

---

(١)ـ(٣) هذه الأحاديث مأخوذة عن صحيح البخاري ١٣/ ٤٦٤ـ٤٦٦ . مع الفتح .

(٤) صحيح البخاري ١٣/ ٤٦٠ .

(٥) المصدر السابق ص: ٤٧٣ .

(٦) فتح الباري ١٣/ ٤٨٧ .

وقوله: «باب: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾»[١].

وغير ذلك من الأبواب.

وهذا هو ما سار عليه كثير من العلماء.

* * *

(١) فتح الباري ٨/ ٣٠٢.

إجماع المسلمين على أن الله تعالى متكلم

وبعد عرض الأدلة السابقة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، نذكر أن عامة أهل الملل قد أجمعوا على وصف الله تعالى بصفة الكلام، وأن هذا الوصف من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص.

وما حصل من أقوال بعض الفرق المنسوبة إلى الإسلام، ونزاعهم حول مسائل في كلام الله تعالى؛ فإنها نزغة من نزغات الشيطان.

«ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة؛ لم يكن بينهم نزاع، ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه فرق بها بينهم»[1].

ومسألة صفة الكلام لله تعالى تكاد أن تكون معلومة لكل من له أدنى إلمام بمعرفة التوحيد، وما جاء على ألسنة رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

قال الأستاذ أبو دقيقة رحمه الله في تقرير أدلة إثبات صفة الكلام لله تعالى :

«أما الدليل : فهو إجماع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أنه تعالى متكلم، فقد نقل عنهم - تواتراً - أنهم كانوا يقولون لقومهم : أمر الله بكذا، ونهى عن كذا، وأخبر بكذا، والأمر والنهي والإخبار من أقسام الكلام، فثبوت أي واحد منها يستلزم ثبوت الكلام».

(١) شرح الطحاوية ص: ١٨٩.

وقال أيضاً: «كذلك نقل إجماع المليين وعلماء الكلام على أنه تعالى متكلم»[١].

قال الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي في «باب: الإيمان بكلام الله تبارك وتعالى»:

«فالله المتكلم أولاً وآخراً، لم يزل له الكلام؛ إذ لا متكلم غيره، ولا يزال له الكلام؛ إذ لا يبقى متكلم غيره، فيقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، أنا الملك، أين ملوك الأرض؟

وكيف يعجز عن الكلام من علّم العباد الكلام وأنطق الأنام؟ قال الله في كتابه ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. فهذا لا يحتمل تأويلاً غير نفس الكلام».

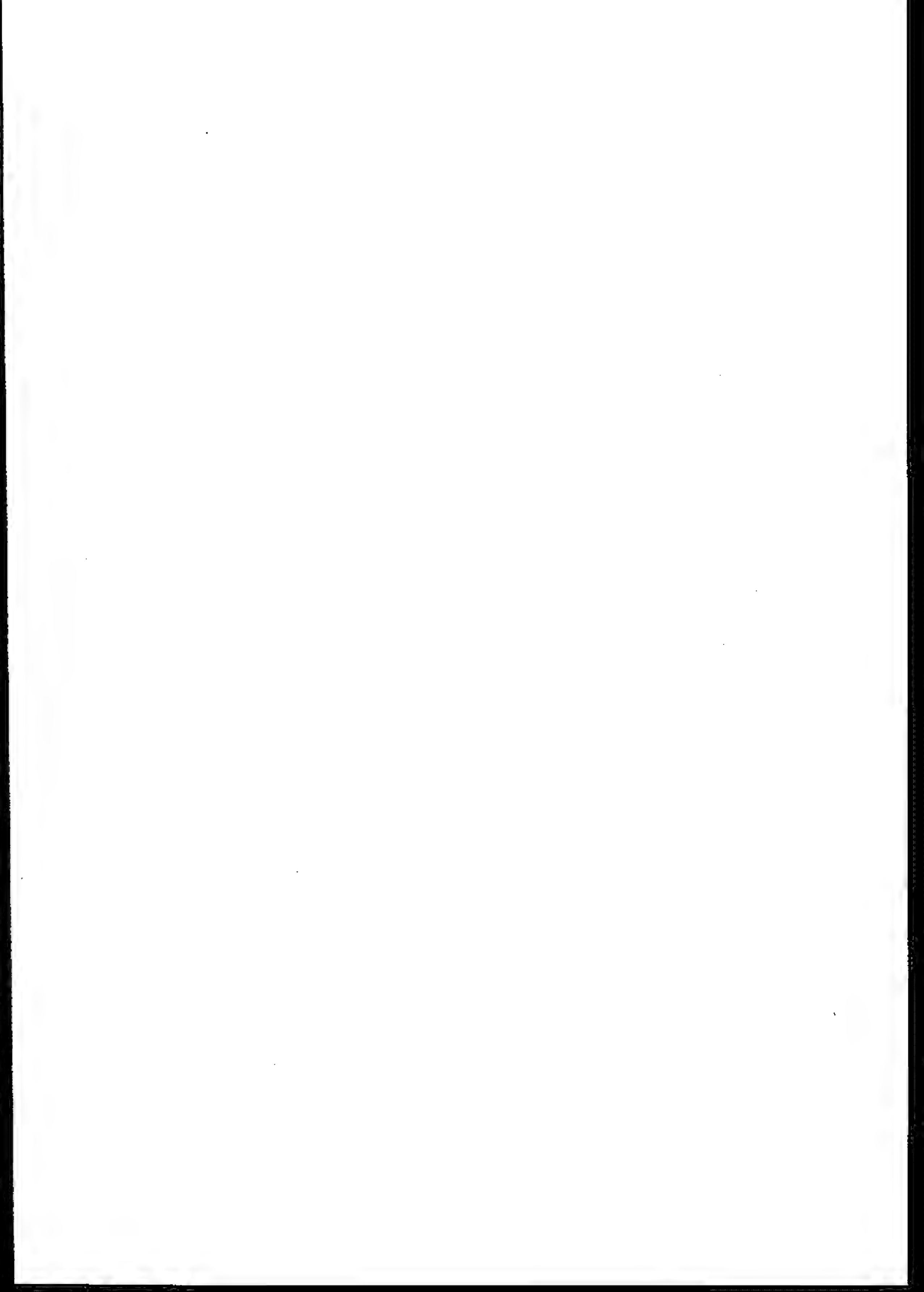
إلى أن يقول: «وقال لقوم موسى - حين اتخذوا العجل فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]. وقال: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

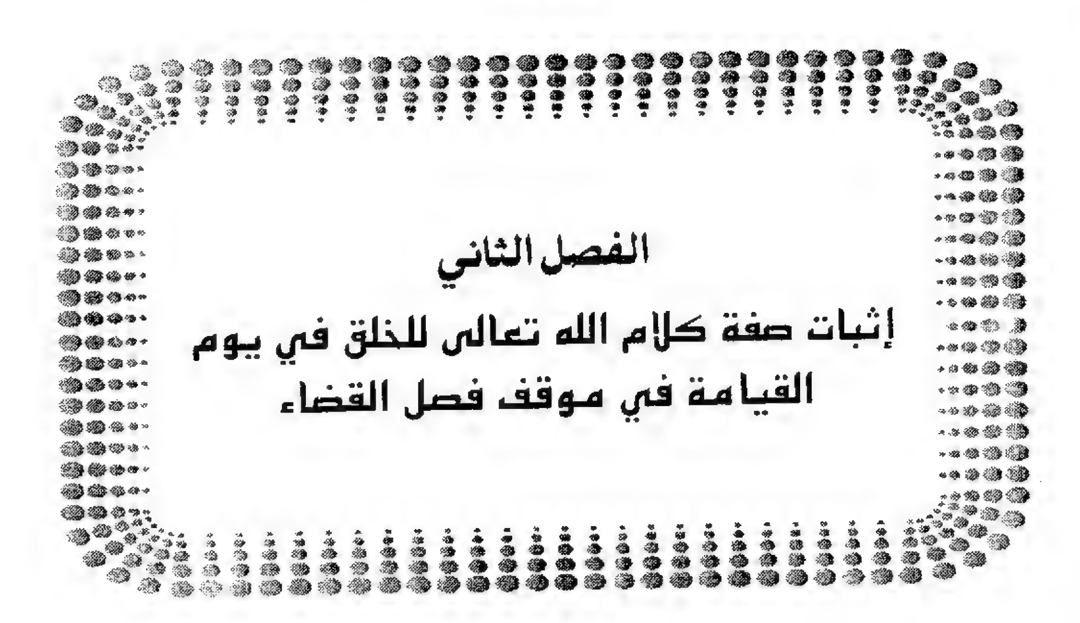
قال أبو سعيد: «ففي كل ما ذكرنا تحقيق كلام الله وتثبيته نصاً بلا تأويل، ففيما عاب الله به العجل في عجزه عن القول والكلام؛ بيان بيِّن أن الله عز وجل غير عاجز عنه، وأنه متكلم وقائل؛ لأنه لم يكن يعيب العجل بشيء هو موجود فيه»[٢].

* * *

(١) القول السديد في علم التوحيد ص: ١٢١، ١٢٢.

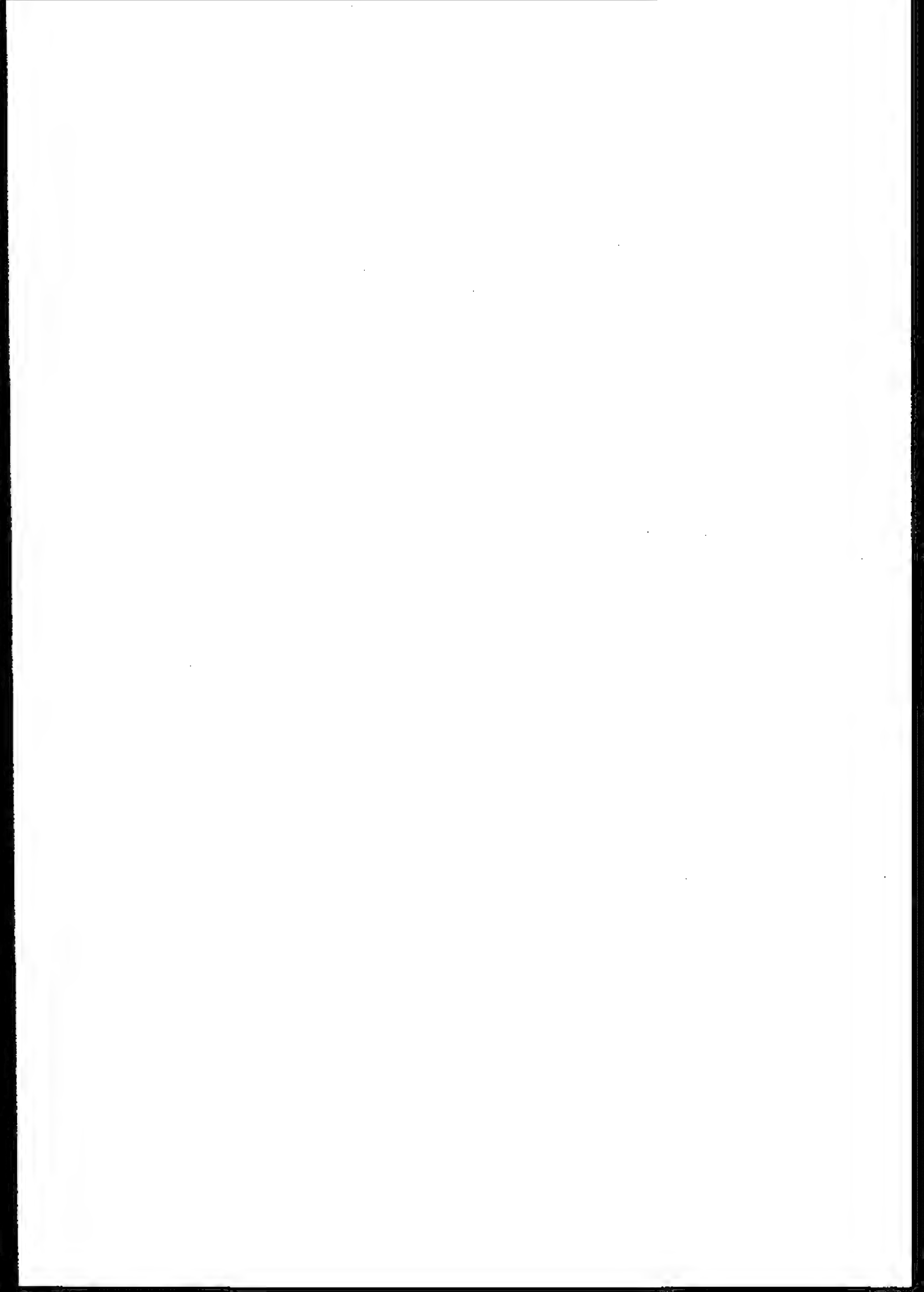
(٢) انظر: الرد على الجهمية ص٨٣، ٨٤ للدارمي.





الفصل الثاني

إثبات صفة كلام الله تعالى للخلق في يوم القيامة في موقف فصل القضاء



الفصل الثاني

إثبات صفة كلام الله تعالى للخلق في يوم القيامة في موقف فصل القضاء

وكما ثبتت صفة الكلام لله تبارك وتعالى كما رأينا مما تقدم عرضه، وأن الله تعالى متكلم بإرادته ومشيئته.

ومن ذلك كلامه عز وجل في يوم القيامة.

وسنذكر فيما يلي الأدلة على إثبات أن الله تعالى يكلم الخلق في يوم القيامة في موقف فصل القضاء:

١ ـ من كتاب الله تعالى.

٢ ـ ومن سنة نبيه ﷺ.

* * *

الأدلة من القرآن الكريم لإثبات كلام الله تعالى لخلقه يوم القيامة

ومن تلك الأدلة: ما جاء في كتاب الله تعالى من مساءلته لخلقه في عرصات القيامة، والمساءلة كما هو معلوم لا تكون إلا بالكلام.

قال الله تعالى:

١ ـ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

٢ ـ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

٣ ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢].

قال الطبري عن معنى الآية الأولى، وكيفية مساءلة الله تعالى للرسل وللمرسل إليهم: « يقول تعالى ذكره: لنسألن الأمم الذين أرسلت إليهم رسلي، ماذا عملت فيما جاءتهم به الرسل من عندي من أمري ونهيي؟ هل عملوا بما أمرتهم به وانتهوا عما نهيتهم عنه وأطاعوا أمري؟ أم عصوني فخالفوا ذلك؟

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾: يقول: ولنسألن الرسل الذين أرسلتهم إلى الأمم: هل بلغتهم رسالاتي وأدت إليهم ما أمرتهم بأدائه إليهم؟ أم قصروا في

ذلك ففرطوا ولم يبلغوهم؟». قال: «وكذلك كان أهل التأويل يتأولونه».

وعلى هذا التفسير ابن عباس والسدي ومجاهد[1].

وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ إلخ الآية الكريمة؛ فقد أخبر سبحانه وتعالى أنه يكلم الرسل قائلاً لهم: ماذا أجبتم؟ وهذه المساءلة - كما هو معلوم - تكون بالكلام معهم، ودلالتها على الكلام مثل دلالة الآية السابقة.

قال ابن كثير عن معنى الآية:

«هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية؛ فإن دلالتها على كلام الله ظاهر، فهي تتفق مع ما أفادته الآيات السابقة من كلام الله مع الخلق ومساءلته لهم، بصرف النظر عن مضمون تلك المساءلة؛ إذ لم يتعلق به ههنا غرض، بل إن موضع بيان هذا هو مبحث الحساب، كما سيأتي.

وإذا كانت تلك المساءلة قد وجهت إلى الأمم، فإنها ستوجه كذلك إلى الملائكة، تبكيتاً وتقريعاً لمن كان يعبدهم من البشر ممن أشركوهم مع الله عز

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٢٠، وانظر تفسير الرازي ١٤/ ٢٢-٢٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١١٤.

وجل؛ لتتبرأ الملائكة منهم على مسمع ومرأى.

فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

وبهذا فإنهم يبرئون ساحتهم من ظلم الظالمين وجهل الجاهلين، وإن كان الله تعالى قد علم عدم رضاهم عن فعل أولئك المشركين، لكن تلك المساءلة كأنها موجهة إلى المشركين فوراً.

وهذه المساءلة والتبرؤ هو ما سيقع مع عيسى عليه السلام على مرأى ومسمع ممن اتخذه إلهاً من النصارى؛ لزيادة تبكيتهم، ولتوبيخهم أمام الله تعالى، وأمام عيسى. كما حكى الله ذلك بقوله:

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) قَالَ

اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

[المائدة: ١١٦ - ١١٩].

* * *

الأدلة من السنة لإثبات كلام الله تعالى لخلقه يوم القيامة

وأما الأدلة من السنة النبوية في إثبات كلام الله تعالى في يوم القيامة فهي كثيرة، وقد وردت على أنواع مختلفة فمنها:

١ - كلامه تعالى عند حشر العباد.

٢ - كلامه تعالى مع سائر الخلق في عرصات القيامة.

٣ - كلامه تعالى مع بعض الخلق بخصوصهم تشريفاً لهم.

ويشمل هذا:

١ - كلامه مع آدم عليه السلام.

٢ - كلامه مع نبينا محمد ﷺ.

٣ - كلامه مع نوح عليه السلام.

٤ - كلامه تعالى مع المؤمنين.

٥ - كلامه تعالى مع أهل الجنة.

٦ - كلامه تعالى لجهنم.

٧ - كلامه تعالى مع الجنة والنار.

١ ـ فمما ورد في كلامه سبحانه وتعالى عند حشره العباد:

ما أخرج البخاري عن عبد الله بن أنيس أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«يحشر الله العباد، فيناديهم بصوت يسمعه مَن بعُد كما يسمعه مَن قرُب: أنا الملك، أنا الديان»**[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من اليهود فقال: إنه إذا كان يوم القيامة جعل الله السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك أنا الملك، فلقد رأيت النبي ﷺ يضحك حتى بدت نواجذه تعجباً وتصديقاً لقوله، ثم قال النبي ﷺ: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[٢].

٢ ـ وأما ما ورد من كلامه سبحانه وتعالى مع سائر الخلق:

فهو ما أخرج البخاري عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه؛ فاتقوا النار ولو بشق تمرة»**.

قال الأعمش: وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة مثله، وزاد فيه: **«ولو بكلمة طيبة»**[٣].

---

(١) صحيح البخاري ١٣/ ٤٥٣.

(٢) صحيح البخاري ص: ٤٧٤ الجزء (١٣)، ومسلم ٥/ ٦٥٥ من صحيحه.

(٣) البخاري ٨/ ٢٠٢، ٧/ ١٩٨، ١٣/ ٤٧٤، ٣/ ٢٨١.

وأخرجه كذلك الترمذي ثم قال: «قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

حدثنا أبو السائب: حدثنا وكيع يوماً بهذا الحديث عن الأعمش، فلما فرغ وكيع من هذا الحديث قال: من كان ها هنا من أهل خراسان فليحتسب في إظهار هذا الحديث بخراسان؛ لأن الجهمية ينكرون هذا»[١].

وقد أورد ابن خزيمةهذا الحديث مترجماً له بقوله: «باب: إن الله جل وعلا يكلم عباده يوم القيامة من غير ترجمان يكون بين الله عز وجل وبين عباده، بذكر لفظ عام مراده خاص»[٢].

وعن أبي ذر من حديث قدسي: عن رسول الله ﷺ: **«أن الله تعالى يقول: يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»**[٣].

وعن صفوان بن محرز أن رجلاً سأل ابن عمر: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: قال: **«يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: عملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم. فيقرره، ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»**[٤].

ومعنى قوله ﷺ: **«يدنو أحدكم من ربه»** قال ابن التين: يعني يقرب من رحمته، وهو سائغ في اللغة، يقال: فلان قريب من فلان، ويراد الرتبة. ومثله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦١١.

(٢) توحيد ابن خزيمة ص: ١٤٩.

(٣) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٩٥.

(٤) صحيح البخاري ١٣/ ٤٧٥.

وهذا المعنى هو ما يقوله أهل الكلام الذين ينفون الصفات بزعم التنزيه، وأما مذهب السلف فهو إثبات قرب الله تعالى من عبده كيفما يشاء جل وعلا.

ومعنى قوله ﷺ: «**حتى يضع كنفه عليه**»، «كنفه: بفتح الكاف والنون بعدها فاء؛ المراد بالكنف: الستر، وقد جاء مفسراً بذلك في رواية عبد الله بن المبارك، عن محمد بن سواء، عن قتادة، فقال في آخر الحديث: قال عبد الله ابن المبارك: كنفه: ستره... والمعنى أنه تحيط به عنايته التامة»[1].

والحديث دليل على الفرق بين كلام الله جل وعلا للمؤمن ـ الذي يريد أن يستر عليه ذنوبه في الدنيا، وأراد مغفرتها له في الآخرة ـ وبين كلام الله للكافر ـ الذي كان في الدنيا غير مؤمن بالله العظيم ولا مصدق بالآخرة.

وفي حديث الصور الطويل: «**إن الله ينادي العباد يوم القيامة فيقول: إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أرى أعمالكم، وأسمع أقوالكم، فأنصتوا إليّ فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»[2].

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أنه اشترى راحلة، فسار إلى عبد الله بن أنيس شهراً ليسمع منه حديثاً بلغه عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة ـ** أو قال: **العباد ـ عراة غرلاً بهماً**، قلنا: وما بهماً؟ قال: **ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه مَن قرُب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق إلا قضيته له منه؛ حتى اللطمة**، قال: قلنا: وكيف،

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٤٧٧.

(٢) النهاية ١/ ٣٧٧.

وإننا إنما نأتي الله بهمًا؟ **قال: بالحسنات والسيئات**»[١] .

٣ـ وأما ما جاء في كلام الله تعالى مع بعض خلقه بخصوصهم، تشريفاً لهم وإظهاراً لمكانتهم:

فهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وأولهم آدم عليه السلام:

ومما ورد في كلام الله تعالى له عليه السلام، ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «قال النبي ﷺ : **يقول الله: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك. فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار**»[٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله: يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث جهنم**»[٣] .

وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باباً خاصاً في إثبات كلام الله تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، قال فيه: «باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم». أورد فيه بعض الأحاديث الدالة على كلام الله مع الأنبياء ومع غيرهم، وقد أورد الأحاديث التي تدل على كلام الله تعالى مع غير الأنبياء أكثر من الأحاديث التي تدل على كلامه مع الأنبياء.

---

(١) المسند ٣/ ٤٩٥ .

(٢) البخاري ١٣/ ٤٥٣ ، والمراد من إخراج آدم بعث النار: أي يميزهم عن غيرهم. انظر: شرح النووي لمسلم جـ١ ص٤٩٨ .

(٣) صحيح البخاري ١٣/ ٤٥٣ .

وقد قال ابن حجر عن فائدة هذا الصنيع من البخاري: «ليس في أحاديث الباب كلام الرب مع الأنبياء إلا في حديث أنس، وسائر أحاديث الباب في كلام الرب مع غير الأنبياء، وإذا ثبت كلامه مع غير الأنبياء فوقوعه للأنبياء بطريق الأولى»[١] .

وحديث أنس الذي أشار إليه ابن حجر هو ماأورده البخاري في الباب المذكور، جاء فيه قوله ﷺ : «**فيقال- وفي رواية فيقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل**»[٢] إلى آخر الحديث، وهو حديث طويل تقدم في مبحث الشفاعة.

وأخرج الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أول من يدعى يوم القيامة آدم، فيقال: هذا أبوكم آدم. فيقول: رب لبيك وسعديك. فيقول له ربنا: أخرج نصيب جهنم من ذريتك. فيقول: يا رب وكم؟ فيقول: من كل مائة تسعة وتسعين.** فقلنا: يا رسول الله، أرأيت إذا أخذ من كل مائة تسعة وتسعين فماذا يبقى منا؟ قال: **إن أمتي في الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود**»[٣] .

٤ ـ أما كلام الله تعالى مع نبينا محمد ﷺ :

فإن النصوص فيه كثيرة، وقد تقدم بعض الأحاديث في ذلك، وقد تقدم أيضاً في باب الشفاعة ذكر أحاديث تشتمل على إثبات ذلك[٤] مما لا

(١) صحيح البخاري ١٣/ ٤٧٧ .
(٢) صحيح البخاري ١٣/ ٤٧٣ .
(٣) المسند ٢/ ٣٧٨ .
(٤) انظر: صحيح البخاري ١٣/ ٤٧٣ ـ ٤٧٤ مع الفتح .

نطول بإعادته.

٥ ـ وأما كلامه تعالى مع نوح عليه السلام:

فقد جاء عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجاء بنوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يارب. فتسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير. فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته. فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله** ﷺ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾، قال: **عدولاً** ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]»[١].

وقال ابن كثير: «والوسط: العدل»[٢].

وقد قدمنا الاستدلال على كلام الله تعالى مع عيسى عليه السلام ومع الملائكة عليهم السلام.

٦ ـ أما كلامه تعالى مع المؤمنين:

فقد قال أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الله بن المبارك، وساق بسنده إلى معاذ بن جبل، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن شئتم أنبأتكم بأول ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة، وبأول ما تقولون له،** قالوا: نعم يا رسول الله، قال: **فإن الله تعالى يقول للمؤمنين: هل أحببتم لقائي؟ فيقولون: نعم يا ربنا. فيقول: وما حملكم على ذلك؟ فيقولون: عفوك ورحمتك ورضوانك. فيقول: فإني قد أوجبت لكم رحمتي»**[٣].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن آخر أهل الجنة**

(١) البخاري ١٣/ ٣١٦ من صحيحه وأحمد ٢/ ٣٢.

(٢) النهاية ٢/ ١٠.

(٣) ذكره ابن كثير في النهاية ٢/ ١٥، وعزاه إلى أبي داود الطيالسي.

دخولاً الجنة وآخر أهل النار خروجاً من النار: رجل يخرج حبواً، فيقول له ربه: ادخل الجنة. فيقول: رب، الجنة ملأى. فيقول له ذلك ثلاث مرات، فكل ذلك يعيد عليه :الجنة ملأى. فيقول: إن لك مثل الدنيا عشر مرات»[1] .

٧ ـ أما كلام الله تعالى لأهل الجنة :

فهو ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ : **«إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟. فيقولون: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»**[2] .

وعن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ كان يوماً يحدث ـ وعنده رجل من أهل البادية ـ **أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال: أو لست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع، فأسرع وبذر، فتبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاؤه وتكويره أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء**، فقال الأعرابي: يا رسول الله ، لا تجد هذا إلا قرشياً أو أنصارياً فإنهم أصحاب زرع ، فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك رسول الله »[3] .

وفي حديث أبي هريرة الأول يرد إشكال وهو في قوله: **«أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»**؛ لأنه يوهم أن له أن يسخط على أهل الجنة، وهو خلاف ظواهر القرآن، كقوله تعالى: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [البينة : ٨].

---

(١) صحيح البخاري ١٣/ ٤٧٤ .

(٢) ، (٣) صحيح البخاري ١٣/ ٤٨٧ .

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقد اختلفت إجابات العلماء حول معنى هذا الإشكال:

١ ـ فقال ابن بطال في جوابه عن ذلك: «بأن إخراج العباد من العدم إلى الوجود من تفضله وإحسانه، وكذلك تنجيز ما وعدهم به من الجنة والنعيم من تفضله وإحسانه، وأما دوام ذلك فزيادة من فضله على المجازاة ـ لو كانت لازمة ـ ومعاذ الله أن يجب عليه شيء، فلما كانت المجازاة لا تزيد في العادة على المدة، ومدة الدنيا متناهية؛ جاز أن تتناهى مدة المجازاة، فتفضل عليهم بالدوام، فارتفع الإشكال جملة».

٢ ـ وقال غيره: «ظاهر الحديث: أن الرضا أفضل من اللقاء، وهو مشكل.

وأجيب: بأنه ليس في الخبر أن الرضا أفضل من كل شيء، وإنما فيه أن الرضا أفضل من العطاء، وعلى تقدير التسليم فاللقاء مستلزم للرضا، فهو من إطلاق اللازم وإرادة الملزوم، كذا نقل الكرماني».

٣ ـ «ويحتمل أن يقال: المراد حصول أنواع الرضوان، ومن جملتها اللقاء، فلا إشكال»[1].

والذي يظهر: أن هذا القول هوالأرجح، ذلك أن المتبادر من ظاهر الحديث هو إخبار الله لأهل الجنة أنهم مع ما هم فيه من أنواع النعيم والرضا الكامل من الله تعالى عنهم، فإنه أراد أن يطمئنهم إلى أن ما هم فيه لا نهاية

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٤٨٨.

له، وأن ذلك بسبب رضاه عنه، ثم أخبرهم أن رضاه أيضاً دائم، فلا سخط يقع عليهم، وبالتالي؛ فإن اللقاء وجميع ما هم فيه من النعيم يكون من ضمن رضاه عنهم.

وهذا زيادة في لطف الله بهم وإكرامهم، فإن المضيف ـ ولله المثل الأعلى ـ ينبغي له أن يفرح ضيفه ويسره بما عنده من الكلام والفعال.

وفي قوله عز وجل لابن آدم وهو في الجنة: «**لا يشبعك شيء**» إشكال أيضاً، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن صفة الجنة بأنه لا جوع فيها ولا عري، ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ**﴾ [طه: ١١٨].

وفيها كذلك ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فلا أحد يخاف من فوات بعض نعيمها، وإذا كان ذلك ثابتاً فما معنى قوله: «**ولا يشبعك شيء**»؟

والجواب عن هذا هو أن يقال:

«بأن نفي الشبع لا يوجب الجوع؛ لأن بينهما واسطة وهي الكفاية، وأكل أهل الجنة للتنعم والاستلذاذ لا عن الجوع»[1].

ثم إن «المراد بقوله: «**لا يشبعك شيء**» جنس الآدمي وما طبع عليه، فهو في طلب الازدياد، إلا من شاء الله تعالى»[2].

وهل يشبع أهل الجنة؟ فيه خلاف: «والصواب أن لا شبع فيها، إذ لو كان؛ لمنع دوام أكل المستلذ»[3].

---

(١)ـ(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٨٨.

٦ ـ أما كلام الله تعالى لجهنم:

فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق: ٣٠].

وهذا الكلام مع جهنم يقوله تعالى لتظهر جهنم جوابها بطلب الزيادة أو عدمها، لا أحد يشك أن الله عالم بذلك، ولكن اقتضت حكمته هذا السؤال، وأكثر العلماء على أن هذا الخطاب يقوله تعالى قبل أن يضع الجبار قدمه فيها، كما أفادته النصوص الصحيحة.

قال ابن كثير عن معنى الآية:

«يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك لأنه تبارك وتعالى وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ويلقى، وهي تقول: هل من مزيد؟ أي هل بقي شيء تزيدوني، هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث»[١].

واستدل لهذا بما أخرجه البخاري عند تفسير هذه الآية من سورة «ق»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**يلقى في النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط**»[٢].

وأخرج كذلك عن أبي هريرة مرفوعاً، قال ابن كثير: «وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان ـ يعني أحد الرواة ـ، **يقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها، فتقول: قط قط**»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٢٦.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ٥٩٤.

(٣) المصدر السابق ٨/ ٥٩٥.

وأخرج مسلم عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه؛ فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط بعزتك وكرمك، ولا زال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر، فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة»**[1].

٧ـ أما كلام الله تعالى مع الجنة والنار:

فهو ما ورد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يارب، مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ وقالت النار: ـ يعني ـ أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثاً، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ، ويرد بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط قط»**[2].

وهذا الاختصام بين الجنة والنار هل هو حقيقة أم لا؟

وقول النار: هل من مزيد؟ وقولها: قط، هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال؟

يقول ابن بطال عن المهلب: «يجوز أن يكون هذا الخصام حقيقة: بأن يخلق الله فيهما حياة وفهما وكلاماً، والله قادر على كل شيء، ويجوز أن يكون هذا مجازاً، كقولهم: امتلأ الحوض وقال: قطني، والحوض لا يتكلم، وإنما ذلك عبارة عن امتلائه وأنه لو كان ممن ينطق لقال ذلك.

---

(١) البخاري ١٣/ ٣٦٩، مسلم ٥/ ٧٠٤.

(٢) صحيح البخاري ١٣/ ٤٣٤، ومعنى قط: أي يكفيني.

وكذا في قول النار: هل من مزيد؟ قال: وحاصل اختصامهما افتخار إحداهما على الأخرى بمن يسكنها، فتظن النار أنها بمن ألقي فيها من عظماء الدنيا أبر عند الله من الجنة، وتظن الجنة أنها بمن أسكنها من أولياء الله تعالى أبر عند الله، فأجيبتا بأنه لا فضل لإحداهما على الأخرى من طريق من يسكنهما.

وفي كلاهما شائبة شكاية إلى ربهما، إذ لم تذكر كل واحدة منهما إلا ما اختصت به، وقد رد الله الأمر في ذلك إلى مشيئته»[١].

ثم نقل ابن حجر عن صاحب المفهم[٢] قوله:

«يجوز أن يخلق الله ذلك القول فيما شاء من أجزاء الجنة والنار؛ لأنه لا يشترط عقلاً في الأصوات أن يكون محلها حياً على الراجح، ولو سلمنا الشرط؛ لجاز أن يخلق الله في بعض أجزائهما الجمادية حياة، لا سيما وقد قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أن كل ما في الجنة حي، ويحتمل أن يكون ذلك بلسان الحال، والأول أولى»[٣].

وقد وقع إشكال في قوله في الحديث: «**فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار من يشاء، فيلقون فيها**». كيف يلقي الله بهؤلاء الخلق في النار ولم يتقدم لهم ذنب في مقابل ذلك؟

وقد أجاب أبو الحسن القابسي عن ذلك بقوله:

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٤٣٦.

(٢) يعني به القرطبي.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٣٦.

«المعروف في هذا الموضع أن الله ينشئ للجنة خلقاً، وأما النار فيضع فيها قدمه، قال: ولا أعلم في شيء من الأحاديث أنه ينشئ للنار خلقاً إلا هذا»[١].

وفي حديث أنس رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك. ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة**»[٢].

فهذه الرواية صريحة في أن الإنشاء إنما يقع للجنة لا للنار.

وقد كانت رواية «**إن الله ينشئ للنار أقواماً**» مثار جدل بين العلماء، قال ابن حجر:

«وقد قال جماعة من الأئمة: أن هذا الموضع مقلوب، وجزم ابن القيم بأنه غلط، واحتج بأن الله تعالى أخبر بأن جهنم تمتلئ من إبليس وأتباعه، وكذا أنكر الرواية شيخنا البلقيني، واحتج بقوله: ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾»[٣].

وقال محب الدين الخطيب في إيضاح هذا الإشكال: «جزم ابن القيم بأن هذا غلط من الراوي، صوابه «ينشئ للجنة» كما تقدم برقم ٤٨٥٠ من طريق عبد الرزاق عن همام عن أبي هريرة، وكما في رقم ٧٣٨٤ من طريق

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٤٣٦.

(٢) صحيح البخاري ١٣/ ٣٦٩ «الفتح»، وأخرج البخاري كذلك حديثاً بمعنى هذا في كتاب التفسير من صحيحه ٨/ ٥٩٥.

(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٣٧.

قتادة عن أنس، فتبين منهما: أن الراوي هنا سبق لفظه من الجنة إلى النار، ويسمونه في مصطلح الحديث (المنقلب)»[١] .

ثم ذكر ابن حجر من أقوال العلماء واستنباطاتهم عدة احتمالات لتصحيح هذا المعنى، وكلها تفتقر إلى نص يثبتها[٢] .

وأما معنى «القَدَم» الوارد في النصوص، فقد كثر الجدل والخلاف في معناه بين العلماء، وقد ذكر ابن حجر ما يقارب خمسة عشر قولاً في معنى القدم عند شرحه لهذه الآية: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

ورجح من بين تلك الأقوال: القول بأن هذا النص وغيره طريقة السلف في ذلك - كما ذهب إليه هو - «أن تمر كما جاءت، ولا يتعرض لتأويله، بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله»[٣] .

والأولى - وهوالقول الحق - أن يقال: إن السلف يثبتون هذه الصفة لله تعالى - صفة القدم - كما ثبت به النص، دون تشبيه، فلا يلزم من إثبات القدم إثبات التشبيه لله تعالى.

وهذا هو الذي يغني عن تكلف تلك الأقوال الكثيرة التي ذكرها ابن حجر نقلاً عن بعض العلماء في معنى القدم، والتكلف ظاهر فيها. مثل قول من يقول: إن القدم الواردة في الحديث: هي قدم إبليس؛ لأن إبليس أول من تكبر فاستحق أن يسمى متجبراً وجباراً[٤] .

---

(١) المصدر السابق ص٤٣٤ ذكره محب الدين في تعليقه على هامش هذه الصفحة.

(٢) المصدر السابق ص: ٤٣٧.

(٣)، (٤) انظر: فتح الباري ٨/ ٥٩٦.

وهذا كله فرار من إثبات هذه الصفة لله تعالى.

وقد أورد الإمام الحافظ السلفي ابن منده في كتابه «الرد على الجهمية»[١] عدة أحاديث ثابتة يستدل بها على إثبات هذه الصفة لله تعالى، وأن الكرسي موضع القدمين، ذكر ذلك مترجماً له بقوله: «باب: في قوله عز وجل ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾» [ق: ٣٠]. وذكر قول النبي ﷺ: **«إن الله عز وجل يضع رجله في النار فتقول: قط قط»**[٢].

وأما إمام الأئمة ابن خزيمة رحمه الله فقد قال في إثبات صفة الرجل والقدم لله تعالى: «باب: ذكر إثبات الرجل لله عز وجل، وإن رغمت أنوف المعطلة الجهمية الذين يكفرون بصفات خالقنا عز وجل، التي أثبتها الله لنفسه في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه المصطفى ﷺ»[٣].

ثم استطرد في ذكر عدة نصوص ثابتة يستدل بها على إثبات هذه الصفة لله عز وجل، وأن الله تعالى له الرجل والقدم، كما له سائر الصفات، وإثباتهما على نحو ما ثبتت به الصفات.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تحاجت النار والجنة، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزهم؟ فقال الله للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي، أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ، فيضع قدمه عليها،**

---

(١) تحقيق الدكتور/ علي محمد ناصر فقيهي.

(٢) الرد على الجهمية ص: ٤١-٤٦.

(٣) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ص: ٩٠-١٠٠.

فتقول: قط قط؛ فهنالك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض»[١] .

وأخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يارب يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف، وقالت الجنة: أي رب يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين، فيقول الله تبارك وتعالى للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، وقال للجنة: أنت رحمتي وسعت كل شيء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى في النار أهلها؛ فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها عز وجل فيضع قدمه عليها؛ فتنزوي وتقول: قدني قدني، وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله تعالى أن يبقى؛ فينشئ الله سبحانه وتعالى لها خلقاً ما يشاء»**[٢] .

وهذه الأحاديث تدل على أن جهنم تطلب المزيد حتى يضع الجبار قدمه فيها؛ فينزوي بعضها إلى بعض وتمتلئ؛ فلا تطلب الزيادة بعد ذلك.

وهناك من ذهب من العلماء إلى عكس هذا القول؛ حيث قالوا: إن سؤال الله تعالى لها إنما هو بعد أن يضع قدمه فيها، فحينئذ يسألها: هل تريد زيادة، فتقول: **«هل من مزيد؟»** أي يكفيني لا أتحمل زيادة بعد هذا.

قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة»[٣] .

وممن ذهب إلى هذا القول: ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٥/ ٧٠٢.

(٢) المسند ٣/ ١٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٨.

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كماذكر عنهم ابن كثير»[١] .

لكن يرد هذا القول حديث أبي هريرة : «**فيلقون فيها؛ فتقول: هل من مزيد؟** ثلاثاً، **حتى يضع فيها قدمه؛ فتمتلئ، ويرد بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط قط**»[٢] .

قال ابن حجر عن معنى هذا الحديث :

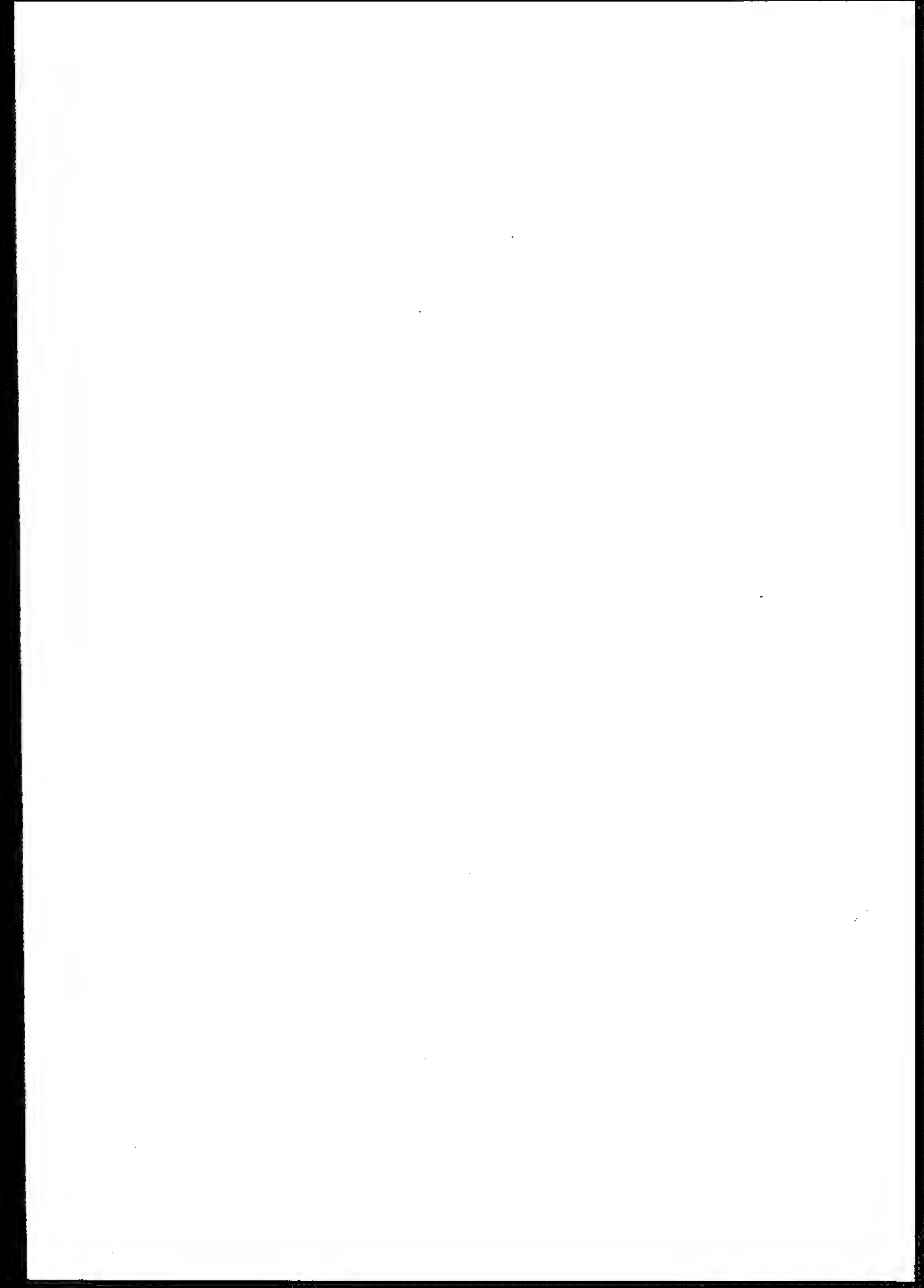
« وفيه رد على من حمل قول النار : «**هل من مزيد؟**» على أنه استفهام إنكار، وأنها لا تحتاج إلى زيادة»[٣] .

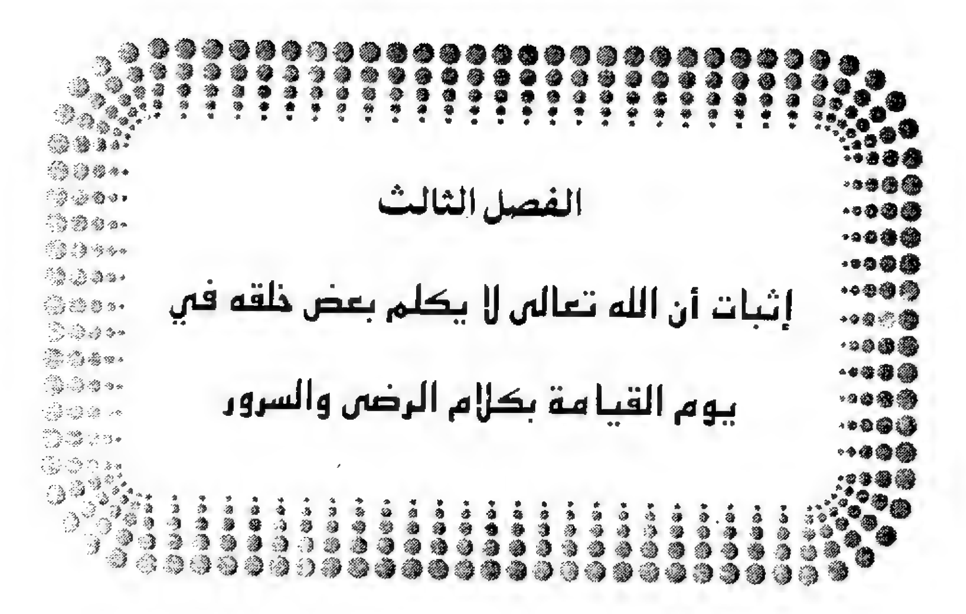
* * *

(١) في تفسيره ٤/٢٢٨ .

(٢) صحيح البخاري ١٣/ ٤٣٤ .

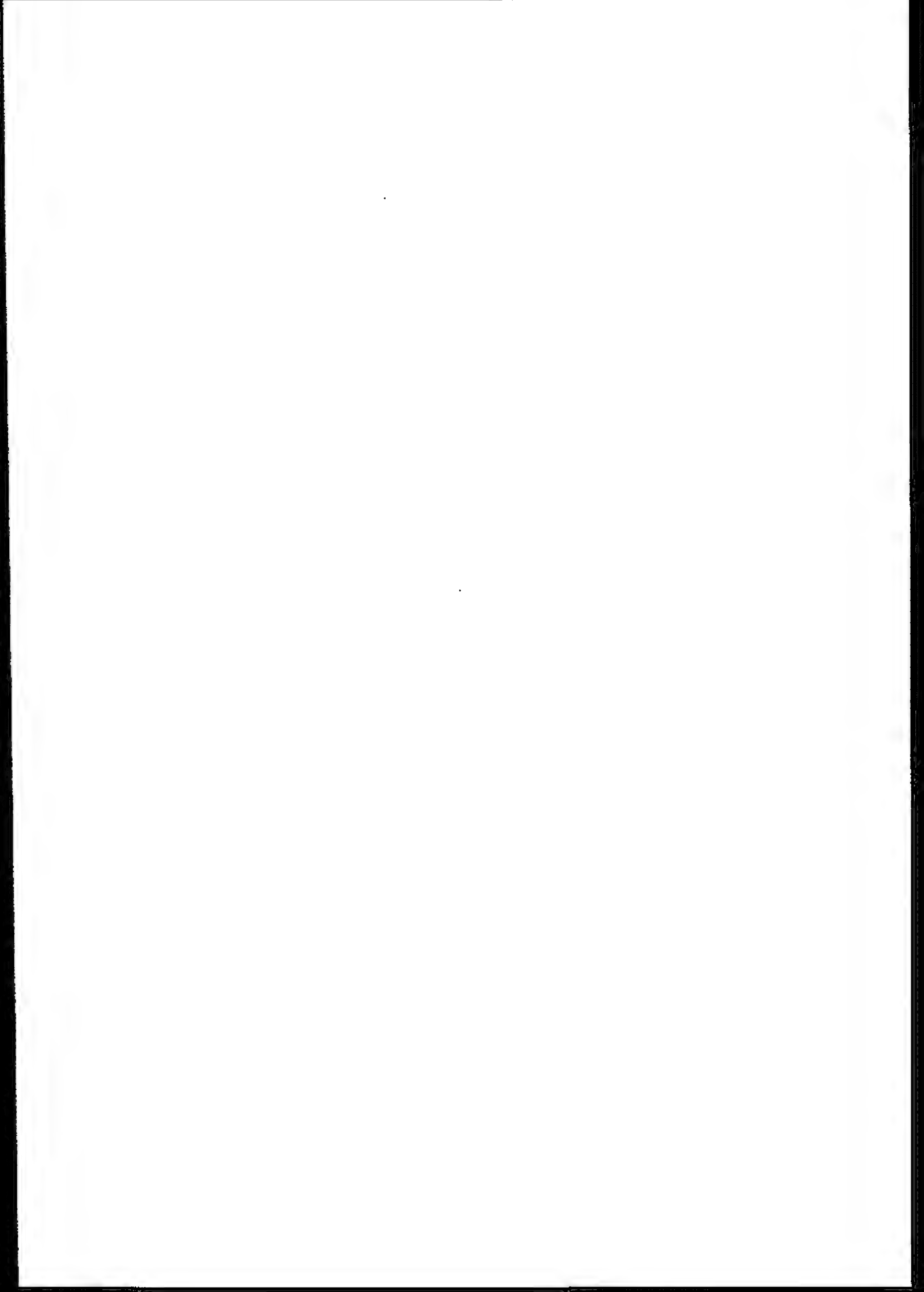
(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٣٧ .





الفصل الثالث

إثبات أن الله تعالى لا يكلم بعض خلقه في يوم القيامة بكلام الرضى والسرور



الفصل الثالث

إثبات أن الله تعالى لا يكلم بعض خلقه في يوم القيامة بكلام الرضى والسرور

١ـ أدلة ذلك من القرآن :

وإذا كان ما قدمنا من النصوص فيها إثبات كلام الله تعالى مع من شاء من خلقه، فقد وردت نصوص أخرى تفيد أن الله تعالى يمتنع عن كلام بعض خلقه بكلام الرضى والسرور غضبًا وسخطًا عليهم؛ بسبب ما قدموا من أعمال أوجبت عقوبتهم بذلك.

وهذا هو الذي يميز أولياء الله تعالى عن أعدائه؛ فلا يجعلهم بمثابة أعدائه في عدم تكليمهم بما يحبون. وهذا هو ثمرة تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم، كما ذكر الله تعالى ذلك في آيات كثيرة من كتابه الكريم، مثل قوله عز وجل في شأن اليهود:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

فهذا إخبار من الله تعالى أنه لا يكلم هؤلاء الذين كتموا ما أنزل الله، وأخذوا عليه رشوة في مقابل إنكار محمد ﷺ ونبوته، هؤلاء لا يكلمهم الله يوم القيامة بما يحبون ويشتهون؛ بل يكلمهم بما يسوءهم ويكرهون، قائلاً

لهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقد ذكر الرازي ـ رحمه الله ـ ثلاثة أوجه للإجابة عن معنى الآية، فقال:

«قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ ظاهره أنه لا يكلمهم أصلاً، لكنه لما أورده مورد الوعيد، فهم منه ما يجري مجرى العقوبة لهم، وذكروا فيه ثلاثة أوجه:

الأول: أنه قد دلت الدلائل على أنه سبحانه وتعالى يكلمهم، وذلك قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] فعرفنا أنه يسأل كل واحد من المكلفين، والسؤال لا يكون إلا بكلام؛ فقالوا: وجب أن يكون المراد من الآية أنه تعالى لا يكلمهم بتحية وسلام، وإنما يكلمهم بما يعظم عندهم من الغم والحسرة، من المناقشة والمساءلة، وبقوله: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

الثاني: أنه تعالى لا يكلمهم، وأما قوله تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ فالسؤال إنما يكون من الملائكة بأمره تعالى، وإنما كان عدم تكليمهم يوم القيامة مذكوراً في معرض التهديد؛ لأن يوم القيامة هو اليوم الذي يكلم الله تعالى فيه كل الخلائق بلا واسطة؛ فيظهر عند كلامه السرور في أوليائه، وضده في أعدائه، ويتميز أهل الجنة بذلك من أهل النار، فلا جرم أن كان ذلك من أعظم الوعيد.

الثالث: أن قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ استعارة عن الغضب؛ لأن عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن المغضوب عليه ولا يكلمونه، كما إنهم

---

(١) جامع البيان ٢/ ٩٠.

عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث»[١] .

وقال ابن كثير عن معنى امتناع الله تعالى عن كلام هؤلاء: «والمراد من هذا أنه لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم، كلامًا ونظرًا يرحمهم به، كما إنهم عن ربهم يومئذ محجوبون بقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥][٢] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وفي هذه الآية إخبار من الله تعالى في ذم من اتصف بأنه يشتري بعهد الله وأيمانه ثمنًا قليلاً؛ سواء كان من اليهود ـ كما قيل في سبب النزول ـ أو في غيرهم ـ كما وقع في قصة الأشعث بن قيس وخصمه ـ[٣] .

فقد أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين ينطبق عليهم هذا الوصف، يكون جزاؤهم ما ذكره الله من عدم تكليمه لهم بما يسرهم ويشرح صدورهم في يوم القيامة، من الكلام اللطيف والنظر بعين الرحمة[٤] .

وهذا جواب لبعض أهل التفسير.

«ومنهم من قال: لا يبعد أن يكون إسماع الله جل جلاله أولياءه كلامه بغير سفير تشريفًا عاليًا يختص به أولياؤه، ولا يكلم هؤلاء الكفرة والفساق»[٥] .

---

(١) التفسير الكبير ٥/ ٢٧.

(٢) النهاية ٢/ ١٦.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٣/ ٣٢٠، تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٥.

(٤) المصدر السابق.

(٥) التفسير الكبير ٨/ ١٠٥.

٢ ـ أدلة ذلك من السنة النبوية :

ومما جاء في السنة النبوية في ذلك، ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي ﷺ قال : **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل ماء؛ فيقول الله يوم القيامة: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»**[١] .

وأخرج مسلم وغيره من أهل السنن عن أبي ذر : عن النبي ﷺ أنه قال : **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛** قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر : خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: **المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»**[٢] .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ـ** قال أبو معاوية : **ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم ـ شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»**[٣] .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وبكذا فصدقه وهو على غير ذلك، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدنيا؛ فإن أعطاه منها وفى**

(١) صحيح البخاري ١٣/ ٤٢٣ .

(٢) رواه مسلم ١/ ٣٠٣، وابن ماجه ٢/ ٧٤٥، والترمذي ٣/ ٥٠٧، والنسائي ٥/ ٨١، ٧/ ٢٤٥ .

(٣) مسلم ١/ ٣٠٤، وبنحوه عند النسائي ٥/ ٨٦ .

وإن لم يعطه منها لم يف»[١] .

٣ ـ الجمع بين ما ورد من إثبات عدم كلام الله تعالى لبعض خلقه وبين ما ورد من ثبوت ذلك :

على أنه قد جاءت آيات أخرى تفيد أن الله تعالى يكلم سائر الخلق، بما فيهم أيضًا بعض أعدائه، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال تعالى مخبرًا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة؛ يناديهم فيقول[٢] : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ ﴾.

[القصص: ٦٢ ـ ٦٦].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص: ٧٤، ٧٥].

وفي هذا يقول ابن خزيمة: «إن الله جل وعلا يكلم الكافر والمنافق يوم

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ٣٠٤ وابن ماجه ٢/ ٧٤٤، والنسائي ٧/ ٢٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٩٧.

القيامة تقريراً وتوبيخاً، وذكر إقرار الكافر في ذلك الوقت بكفره في الدنيا؛ وهو إقراره أنه لم يكن ينتظر في الدنيا أنه ملاق ربه يوم القيامة، فمن كان غير مؤمن في الدنيا، غير مصدق بأنه ملاق ربه يوم القيامة فكافر غير مؤمن، وذكر دعوى المنافق في ذلك الوقت أنه كان مؤمنًا بربه عز وجل ونبيه وبكتابه صائمًا ومصليًا مزكيًا في الدنيا، وإنطاق الله عز وجل فخذ المنافق ولحمه وعظامه بما كان يعمل في الدنيا؛ تكذيبًا لدعواه بلسانه»[1].

ثم أورد حديث أبي هريرة حين سأل الناسُ رسولَ الله ﷺ عن رؤية ربهم؛ فأجابهم بقوله: **«هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر»** الحديث، وحديث أبي سعيد الخدري، والأحاديث الأخرى الواردة في إثبات رؤية الله تعالى وكلامه لعباده.

وبهذا يتضح الجواب عما ظاهره التعارض، فيما ورد من الآيات والأحاديث.

والخلاصة: أن يقال: إن كلام الله تعالى محمول على من ارتضى من عباده، وعدم كلامه محمول على من غضب عليه من عباده.

أو أن كلام الله تعالى يوم القيامة يكون في مكان دون مكان، وعدم كلامه يكون في مكان دون مكان أيضًا.

أو يحمل كلام الله تعالى للكافرين على إنه للتوبيخ والتقريع وعدم الرضى، وعدم كلامه لهم هو ما كان على سبيل الرضى والرحمة.

* * *

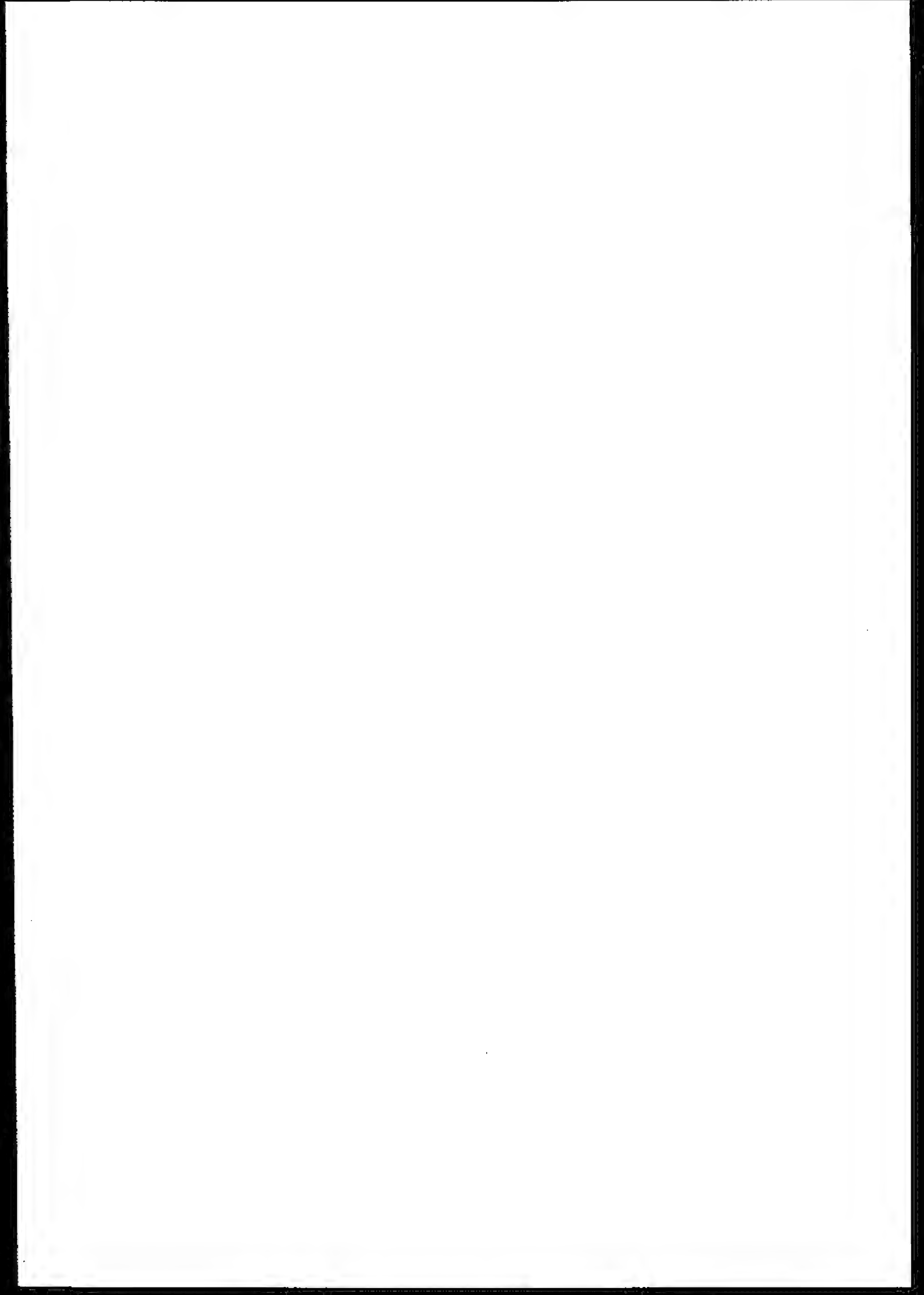
---

(١) توحيد ابن خزيمة ص: ١٥٢.



الفصل الرابع

بيان أقوال أهم المذاهب في كلام الله تعالى



الفصل الرابع
بيان أقوال أهم المذاهب في كلام الله تعالى

ذكرنا فيما مضى أن الله تبارك وتعالى متكلم وموصوف بالكلام، وأثبتنا ذلك بما أوردناه من الآيات والأحاديث، التي تدل على أن الله تعالى متصف بهذه الصفة.

وغرضنا الآن أن نذكر آراء أهم الفرق الإسلامية في هذا الموضوع وهم:

١ - **المذهب الأول**: وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهم أصحاب القول الحق، الذين قالوا: إن الله تعالى يتكلم متى شاء، وإن كلام الله صفة من صفاته، وهي صفة مدح له جل وعلا، تمدح بها كثيراً في كتابه الكريم، وعلى ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين كما سبق.

ومن كلامه: القرآن الكريم، ومنه بدأ[١]، وإليه يعود[٢]، تكلم به سبحانه غير منفصل عنه، ولا مخلوق في شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى، ولا يشبه كلام المخلوقين، تكلم به بكلام لا يعرف كيفيته إلا هو جل وعلا.

«وإنه تعالى لم يزل متكلماً، إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً»[٣].

---

(١) أي هو الذي تكلم به.

(٢) أي في يوم القيامة.

(٣) شرح الطحاوية ص: ١٨٠.

وهو معنى قول السلف ـ بعد ظهور كلام أهل البدع، لأن هذا الكلام ما كان معروفًا في عصر الصحابة ومن تبعهم بإحسان من الصدر الأول ـ قديم النوع: أي إن اتصاف الله به قديم، حادث الآحاد؛ أي متجدده في القضايا التي ينزل فيها، وهذا القول هو الذي تؤيده النصوص من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه ﷺ وأقوال علماء الإسلام، وتؤيده العقول السليمة والفطر المستقيمة التي لم تصبها شكوك المشككين ولا شبه المبطلين.

وفيما يلي نذكر بعض نصوص السلف، وآراء علماء الإسلام، في إثبات ما تقدم؛ لإبراز ما سار عليه السلف الصالح بالنسبة لاعتقاد هذا الأمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في معرض بيانه لآراء الناس في صفة كلام الله تعالى:

«القول السادس: قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم، أن الله تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء، وأنه يتكلم بصوت، كما جاءت به الآثار والقرآن وغيره من الكتب الإلهية، وكلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته، ليس ببائن عنه مخلوقًا، ولا يقولون إنه صار متكلمًا بعد أن لم يكن متكلمًا، ولا أن كلام الله تعالى من حيث هو[1] هو حادث؛ بل ما زال متكلمًا إذا شاء، وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته؛ فكلامه لا ينفد؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

ويقولون: ما جاءت به النصوص النبوية الصحيحة، ودلت عليه العقول

---

(١) أي لم يسبق على الله عدم الكلام ثم حدث له الكلام بعد ذلك فتكلم؛ بل الله متصف بالكلام على الدوام.

الزكية الصريحة، فلا ينفون عن الله تعالى صفات الكمال سبحانه وتعالى؛ فيجعلونه كالجمادات التي لا تتكلم ولا تسمع ولا تبصر، فلا تكلم عابديها ولا تهديهم سبيلاً ولا ترجع إليهم قولاً ولا تملك لهم ضراً ولا نفعًا»[١] .

وقال أيضًا في بيان مذهب السلف :

«وأما السلف والأئمة فقالوا: إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وإن كان مع ذلك قديم النوع - بمعنى أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء - فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلمًا بمشيئته وقدرته، ومن لا يزال متكلمًا بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنًا له بعد أن يكون ممتنعًا منه»[٢] .

وقال العلامة الطحاوي في إثبات كلام الله تعالى - ومنه القرآن الكريم :

«القرآن كلام الله، منه بدأ - بلا كيفية - قولاً، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر؛ حيث قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦] فلما أوعد الله بسقر لمن قال[٣] : ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر».

وقال ابن أبي العز رحمه الله في تعليقه على قول الطحاوي السابق: «هذه

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ١٢/ ٣٧٢ .

(٣) يشير إلى قصة الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش. انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٢-٤٤٣ وغيره من كتب التفسير عند شرح هذه الآية.

قاعدة شريفة، وأصل كبير من أصول الدين؛ ضل فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله، هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة؛ لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة، التي لم تغير بالشبهات والشكوك، والآراء الباطلة»(١) .

وقال الهراس عن صفة كلام الله تعالى وحدوثه حينما يريد الله ذلك:

«وقال سلف هذه الأمة: إن كلامه تعالى صفة فعل، يتكلم بها متى شاء، وكيف شاء وإن كلامه حروف وأصوات، يسمعها من يشاء من خلقه، وإن صوته سبحانه بالكلام ليس كصوت المخلوقين، وإن كلامه بالفعل حادث؛ لأنه متعلق بمشيئته واختياره»(٢) .

ويقول السلمان في بيان الإيمان بصفة الكلام لله:

يقول: «هو الاعتقاد الجازم بأن الله متكلم بكلام (قديم النوع، حادث الآحاد) وأنه لم يزل يتكلم بحرف وصوت، بكلام يسمعه من شاء من خلقه، سمعه موسى عليه السلام من غير واسطة، ومن أذن له من ملائكته ورسله، وأنه سبحانه يكلم المؤمنين في الآخرة ويكلمونه»(٣) .

وقال العتمي: (ويقال له المعلمي أيضًا):

«العقول الفطرية قاضية بأن لله تعالى الكمال المطلق والقدرة التامة، وأنه متى شاء أن يتكلم الكلام الحقيقي المعروف ـ بعبارة وحرف وصوت ـ تكلم كيف شاء، ثم جاءت كتب الله تعالى ورسله بإثبات أنه سبحانه تكلم ويتكلم، وكلم

(١) شرح الطحاوية ص: ١٧٩ .

(٢) توحيد ابن خزيمة ص: ١٣٨ .

(٣) مختصر الأسئلة والأجوبة على العقيدة الواسطية ص: ٩٣ .

ويكلم، وقال ويقول ونادى وينادي، وأن القرآن ـ هذا المعروف ـ كلام الله على الحقيقة الحقة»[١].

وقال الإيجي: «المقصد السابع: في أنه تعالى متكلم، والدليل عليه إجماع الأنبياء عليهم السلام، تواتر أنهم كانوا يثبتون له الكلام»[٢].

ويقول الآلوسي في إثبات كلام الله تعالى ـ ومنه كلامه عز وجل لموسى عليه السلام ـ: «الذي انتهى إليه كلام أئمة الدين، كالماتريدي والأشعري وغيرهما من المحققين، أن موسى عليه السلام سمع كلام الله تعالى بحرف وصوت، كما تدل عليه النصوص التي بلغت في الكثرة مبلغًا لا ينبغي معه تأويل، ولا يناسب في مقابلته قال وقيل»[٣].

ثم قال عن معنى ما ورد في القرآن، من أن الله ينادي بصوت يسمع، قال:

واللائق بمقتضى اللغة والأحاديث أن يفسر النداء بالصوت؛ بل قد ورد إثبات الصوت لله تعالى شأنه، في أحاديث لا تحصى وأخبار لا تستقصى»[٤].

٢ ـ **أما مذهب الأشاعرة**: وهو في الأصل مذهب عبد الله بن كلاب، ثم صار عليه الأشعري ومن اتبعه، فإنهم يثبتون صفة الكلام لله تعالى، لكنهم يقولون: إن كلامه تعالى معنى نفسي قديم، لا بصوت ولا حرف، قائم بذاته سبحانه[٥] وتعالى، لازم له لزوم الحياة، ولا يوصف بالكثرة، وهو معنى

---

(١) القائد إلى تصحيح العقائد ص: ١٨٩.
(٢) المواقف ص: ٢٩٣.
(٣) روح المعاني ١/ ١٥.
(٤) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٥) انظر: مجموع الفتاوى ١٢/ ١٧٨.

واحد لا يتقسم ولا يتبعض ولا يتعدد، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراةً، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً.

وإنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته[1]، وإنما يتقسم بحسب التعلق؛ فإن تعلق بالفعل على جهة الطلب كان أمرًا، وإن تعلق به على جهة طلب الترك كان نهيًا، وهكذا.

وقالوا: إن ما جاء في القرآن الكريم من الألفاظ والحروف التي في المصحف فهي مخلوقة[2]، وهي عبارة أو دلالة على كلام الله النفسي القديم.

قال الإيجي: «تنبيه: كلامه واحد عندنا؛ لما مر في القدرة، وانقسامه إلى الأمر والنهي والاستفهام والخبر والنداء بحسب التعلق»[3].

وقال الأستاذ أبو دقيقة - في تقرير وبيان مذهب الأشاعرة -: «مذهب الأشاعرة هو: أن لله كلامًا نفسيًا، ليس بحرف ولا صوت، قائمًا بذاته تعالى».

وقال أيضًا: «وقالت الأشاعرة: كلام الله تعالى صفة أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت، منزهة عن التقدم والتأخر ولوازم الكلام اللفظي، ومنزهة عن السكوت النفسي، وعن الآفة الباطنية؛ والسكوت النفسي: عدم إرادة الكلام مع القدرة عليه، والآفة الباطنية حالة تمنعه عن الكلام، وتسلب عنه القدرة عليه كالخرس، وكلام الله بهذا المعنى يسمى كلامًا نفسيًا، ويدل عليه الكلام اللفظي دلالة التزامية عرفًا؛ فإن من أضيف له كلام

(١) انظر: مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص: ٩٩.

(٢) المصدر السابق ص: ٩٩.

(٣) المواقف ص: ٢٩٥.

لفظ دل عرفًا على أن له كلامًا نفسيًا، وقد أضيف لله تعالى كلام لفظي كالقرآن، فيدل التزامًا عرفًا على كلام نفسي لله تعالى.

أما المدلول الوضعي للقرآن المقروء الملفوظ به، فبعضه حادث كطلب إقامة الصلاة، وبعضه قديم كوحدانية الله تعالى»[١].

وفي بيان الفرق بين القرآن بمعنى الكلام النفسي، وبين القرآن بمعنى اللفظ المقروء، يقول البيجوري:

«ومذهب أهل السنة[٢] أن القرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق» قال:

«لكن يمتنع أن يقال القرآن مخلوق ويراد به اللفظ الذي نقرؤه؛ إلا في مقام التعليم، لأنه ربما أوهم أن القرآن ـ بمعنى كلامه تعالى ـ مخلوق»[٣].

وقال: «ولما كان الأكثر إطلاق القرآن على اللفظ المقروء؛ دفع توهم ذلك بتفسيره بكلامه تعالى، فالقرآن يطلق على كل من النفسي واللفظي، والأكثر إطلاقه على اللفظي، وأما كلام الله فيطلق أيضًا على كل من النفسي واللفظي، والأكثر إطلاقه على النفسي»[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في تقريره لمذهب ابن كلاب، والأشعري ومن تبعهم أنهم يقولون: «إن كلام الله معنى قائم بذات الله، هو الأمر بكل مأمور أمر الله به، والخبر عن كل مخبر أخبر الله عنه، إن عبر عنه بالعربية كان

---

(١) القول السديد في علم التوحيد ص: ١٢٨.
(٢) يعني الأشاعرة.
(٣) شرح جوهرة التوحيد ص: ٩٤.
(٤) المصدر السابق.

قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراةً، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً.

والأمر والنهي والخبر ليست أنواعًا له ينقسم الكلام إليها، وإنما كلها صفات له إضافية، كما يوصف الشخص الواحد بأنه ابن لزيد، وعم لعمرو، وخال لبكر».

وقد اختلف أصحاب هذا القول إلى فرق:

١ - منهم من يقول: إنه معنى واحد في الأزل، وإنه في الأزل أمر ونهي وخبر، كما يقوله الأشعري.

٢ - ومنهم من قال: بل يصير أمرًا ونهيًا عند وجود المأمور والمنهي.

٣ - ومنهم من يقول: هو عدة معان: الأمر، والنهي، والخبر، والاستخبار[١].

وقال الهراس عن مذهب الأشعرية:

«وقالت الكلابية والأشعرية: إن كلامه معان قديمة قائمة بذاته، ليست بحرف ولا صوت، وابتدعوا الكلام النفسي»[٢].

أما أدلة الأشاعرة لمذهبهم بأن كلام الله معنى نفسي، فهي - بإيجاز:

١ - أن المتكلم إما أن يكون معناه من قام به الكلام، وإما أن يكون معناه من أوجد الكلام، ولا يحتمل لفظ متكلم معنى ثالثًا.

وغير جائز أن يراد بالمتكلم المعنى الثاني؛ إذ لو جاز ذلك لوصف الله تعالى بأنه مصوت؛ لأنه موجد الأصوات، ولجاز كذلك أن توصف حركة الأجسام

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ١٦٥.

(٢) توحيد ابن خزيمة ص: ١٣٨.

الجامدة عند تحركها بأنها متحركة .

وحيث إنه قد اتفقت كلمة المعتزلة والأشاعرة على أن الكلام اللفظي حادث، وعلى أن الحادث لا يقوم بذاته تعالى، فيتعين أن يكون الكلام القائم بذات الباري المدلول للمتكلم ليس حادثًا؛ فيكون قديمًا، وليس لنا إلا كلام لفظي وكلام نفسي، فإذا انتفى قيام الأول ـ وهو اللفظي ـ بذات الباري لحدوثه، تعين قيام الثاني بذاته تعالى؛ وهو النفسي» .

٢ ـ الدليل الثاني: المتكلم بصيغة أمر مثل قوله: تعلم العلم، أو نهي مثل قوله: لا تكسل، أو نداء مثل قوله: يا محمد، أو إخبار مثل قوله: اجتهد محمد فنجح، يجد في نفسه قبل النطق معاني، ثم يعبر عنها بالألفاظ التي نسميها كلامًا لفظيًا أو حسيًا .

٣ ـ الدليل الثالث: إنه شاع وذاع بين أهل اللسان إطلاق اسم الكلام والقول على المعنى القائم بالنفس، فيقولون: في نفسي كلام، وقال سيدنا عمر: كنت زورت في نفسي مقالة، وقال الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

٤ ـ الدليل الرابع: قول النبي ﷺ: **«القرآن كلام الله غير مخلوق»** ووجه الاستدلال به أنه أخبر عن القرآن بأنه كلام الله، ووصفه بأنه غير مخلوق، ولا يكون الكلام غير مخلوق إلا إذا كان كلامًا نفسيًا»[1] .

والواقع أن السلف لم يوافقوا الأشاعرة على أن كلام الله تعالى هو الكلام النفسي أي كونه معاني قائمة بنفسه عز وجل، ليست بحرف ولا صوت .

ولا نريد التطويل في مسألة حقيقة الكلام، أهُوَ المعاني القائمة بالنفس،

---

(١) انظر: القول السديد ص: ١٣٠ ـ ١٣٤ .

وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً؟ أم إن حقيقة الكلام هو ما يسمع من المتكلم إما مباشرة أو من وراء حجاب؟

وقد اعتبر السلف أن عدم إطلاق الكلام الحقيقي على الله تعالى، والقول بأن كلام الله هو معنى نفسي، من العيب الذي يتنزه الله عنه كما ذكر الإمام الدارمي[١]؛ لأن هذه الحال تشبه حال الأخرس الذي يريد أن يعبر عما في نفسه فلا يستطيع التكلم، فإذا كانت هذه الحال نقصاً في المخلوق فكيف الحال بالخالق الذي له الكمال المطلق في كل شيء.

بل ذهب بعض العلماء - في رده على القائلين بحمل كلام الله على أنه كلام نفسي؛ ليس بعبارة ولا حرف ولا صوت - إلى أنه نوع من التلبيس على الناس[٢]، وذلك إنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به أن هذا كلام حقيقة، وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلماً، ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه، ليست هي كلام الله.

كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد أخرس.

لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً؛ بل فهم معنى مجرداً ثم عبر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه

---

(١) تقدم في أول الباب.

(٢) انظر: القائد إلى تصحيح العقائد ص: ١٨٩.

العربي، وأن الله خلق في بعض الأجسام كالهواء الذي هو دون الملك هذه العبارة»[١].

كذلك فإن مما يبطل القول بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس ما ورد في السنة النبوية من عدم اعتبار حديث النفس كلامًا، فأخبر ﷺ في نصوص كثيرة أنه لا يتعلق بحديث النفس حكم شرعي، إلا بعد التكلم.

ومن تلك النصوص ما جاء:

١ ـ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به ما لم تعمل به أو تتكلم»**[٢].

٢ ـ وكذلك قوله ﷺ: **«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»** الحديث[٣].

٣ ـ وقوله ﷺ: **«إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء، وإنه قد أحدث من أمره أن لا يتكلم في الصلاة»**[٤].

فهذه النصوص ظاهرة الدلالة، أنه لا يسمى الكلام كلامًا إلا إذا نطق به الإنسان، وأما إذا لم ينطق به فإنه لا يسمى كلامًا؛ فلم يترتب عليه شيء.

ويقال لمن قال إنه معنى واحد:

١ ـ «هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟، فإن قال: سمعه

---

(١) شرح الطحاوية ص: ١٩٧.

(٢) أخرجه البخاري ١١١/٤؛ ٥٤، ومسلم ١١٦/١.

(٣) أخرجه مسلم ٢/ ١٧١.

(٤) أخرجه النسـ ـي ٣/ ٩ عن ابن مسعود.

كله فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله؛ وفساد هذا ظاهر[١]، وإن قال: بعضه فقد فقال: يتبعض، وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئًا من كلامه.

٢ ـ ولما قال تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ولما قال لهم: ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] وأمثال ذلك، هل هذا جميع كلامه أو بعضه؟ فإن قال إنه جميعه فهذا مكابرة، وإن قال بعضه فقد اعترف بتعدده[٢].

ثم إن القول بأن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى، وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله تعالى، وهو مخلوق، قول بخلق القرآن، ومن قال ذلك فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر.

فإن الله يقول: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨].

أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه أو إلى المتلو المسموع؟.

ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع؛ إذ ما في ذات الله غير مشار إليه، ولا منزل، ولا متلو، ولا مسموع، وقوله: ﴿لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أفتراه سبحانه يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه؟، وما في نفس الله عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ولا إلى الوقوف عليه»[٣].

هذا ما يتعلق بمذهب الأشاعرة.

---

(١) قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩].

(٢) شرح الطحاوية ص: ١٩٧.

(٣) شرح الطحاوية ص: ٢٠٠.

٣ ـ أما مذهب الجهمية والمعتزلة: فهو: القول بأن الله تعالى غير متكلم حقيقة، وأن كلامه مخلوق منفصل عنه، وما ورد من وصفه تعالى بأنه متكلم فهو بمعنى خالق الكلام، ولهذا فهم يقولون: إن المتكلم هو من أوجد الكلام في غيره لا من قام به الكلام.

وفساد هذا لا يخفى، ومن آرائهم أن ما جاء من كلام الله تعالى: فإنه حروف وأصوات يخلقها في غيره جل وعلا؛ إما في جبريل، وإما في الشجرة كما حصل لموسى، أو الهواء، أو أي شيء آخر.

وإن القرآن الكريم ليس كلامه ولا منه بدأ؛ بل خلقه الله في غيره وأضيف إليه سبحانه وتعالى إضافة تشريف، كما تضاف إليه الأعيان مثل: بيت الله، وناقة الله.

فساووا بين إضافة الأعيان إلى الله، كبيت الله وناقة الله، وبين إضافة المعاني التي اتصف الله بها، كعلم الله وقدرة الله وعزته وجلاله وكلامه وحياته وعلوه، وما إلى ذلك من صفات المعاني التي لا يمكن أن يستقيم القول فيها بأنها مخلوقة لله جل وعلا.

قال شيخ الإسلام في معرض بيانه لأقوال أهل القبلة في مسألة كلام الله تعالى:

«والقول الثاني: قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم؛ الذين يقولون: كلام الله مخلوق، يخلقه في بعض الأجسام، فمن ذلك الجسم ابتدأ، لا من الله، ولا يقوم عندهم بالله كلام ولا إرادة، وأول هؤلاء الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري، لما خطب الناس يوم عيد النحر وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم

خليلاً، ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه»[١] .

وهذا هو ما صرح به القاضي عبد الجبار حين قال: «وأما مذهبنا في ذلك فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه، وهو مخلوق محدث»[٢] .

وقد اتفقت الفرق على أن الله تعالى متصف بصفة الكلام، ثم اختلفوا بعد ذلك اختلافًا كثيراً، وهذا ما عناه الهراس رحمه الله بقوله:

«اتفق القوم على أنه تعالى متكلم، ولكنهم اختلفوا؛ فقالت المعتزلة: معنى كونه متكلمًا أنه خالقَ للكلام في غيره، فخالفوا اللغة والعقل»[٣] .

ثم ذكر رأي الكلابية والأشعرية وسلف هذه الأمة، والذي يعنينا هنا بيان رأي المعتزلة.

وقد أوضح هذه المسألة أيضًا الأستاذ أبو دقيقة في بيانه لمفهوم الكلام عند الفرق في قوله: «فقالت المعتزلة: إنه حادث، وقائم بغير ذاته تعالى، ومعنى كونه متكلمًا أنه موجد لذلك الكلام المؤلف من الكلمات المرتبة في أجسام مخصوصة، مثل اللوح المحفوظ»[٤] .

* * *

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ١٦٣ .

(٢) شرح الأصول الخمسة ص: ٥٢٨ .

(٣) توحيد ابن خزيمة ص: ١٣٨ .

(٤) القول السديد في علم التوحيد ص: ١٢٢ .

شبه المعتزلة في نفيهم لكلام الله تعالى

ذهب المعتزلة في نفيهم لصفة الكلام إلى شبه اختلقوها من وحي عقولهم، وجعلوها في مقابل النصوص الصحيحة الصريحة، الدالة على إثبات أن الله يتكلم ويقول متى شاء.

ولما كان الغرض هو إثبات أن الله تعالى يتكلم ويقول، كان البحث في حقيقة القرآن هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ وهي المسألة العظيمة التي شغلت أذهان الناس ردحًا من الزمن مما لا يتطلب المقام بسط الكلام فيه، ولكننا سنأخذ بعض الأمثلة التي استند إليها المعتزلة لنفي الكلام عن الله، وبالتالي القول بخلق القرآن، فمن ذلك:

١ ـ غاية شبهتهم أنهم يقولون: «يلزم منه التشبيه والتجسيم»[١].

٢ ـ تمسكوا بأدلة سمعية؛ مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. والقرآن شيء فيكون داخل في عموم «كل» فيكون مخلوقًا.

٣ ـ قوله تعالى في شأن وحيه إلى نبيه موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] باعتبار أن الله خلق الكلام في الشجرة فكلمت موسى وليس الله هو المتكلم.

وقال القاضي عبد الجبار في تقرير مذهبهم، في نفي الكلام عن الله تعالى، وإثبات أن القرآن محدث مخلوق، قال: «وقد دل الله على ذلك ـ يعني أن

---

(١) شرح الطحاوية ص: ١٨١.

القرآن محدث - في محكم كتابه فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

والذكر هو القرآن بدليل قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩][1].

إلى غير ذلك من الآيات التي يستدل بها المعتزلة على هذه المسألة التي ابتلي بها المسلمون وفرقتهم ردحًا من الزمن.

* * *

(١) شرح الأصول الخمسة ص: ٥٣٢.

الرد على المعتزلة في نفيهم الكلام عن الله تعالى

لقد عرف كل إنسان سليم العقل أن التكلم صفة محمودة، فإذا انضاف إليها الفصاحة وقوة البيان كان أكمل وأعظم.

وأن من اتصف بعدم القدرة على الكلام إما لخرس ونحوه، كان أقل ممن لم يتصف بذلك.

وإذا تأملنا كذلك النصوص التي جاءت في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وجدنا أنها تؤيد مذهب السلف تمام التأييد، وذلك أن صفة التكلم من صفات الكمال، وقد عاب الله تعالى قوم موسى بعبادتهم عجلاً جسدًا له خوار، لا يستطيع أن يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

فأخبر تعالى أن عدم التكلم نقص يستدل به على عدم ألوهية العجل.

قال ابن أبي العز:

«فكان عباد العجل - مع كفرهم - أعرف بالله من المعتزلة؛ فإنهم لم يقولوا لموسى وربك لا يتكلم أيضًا»[١].

وللجواب عن شبههم يقال:

---

(١) شرح الطحاوية ص: ١٨١.

١ ـ إن ما ذهبوا إليه من أن إثبات الكلام لله تعالى يلزم منه التشبيه والتجسيم؛ حجة باطلة؛ لأنها:

أولاً: في مقابلة النصوص.

وثانيًا: لأنها حجة مفترضة؛ ذلك أنه لا يلزم من إثبات الكلام لله تعالى على صفة تليق بجلاله أن يكون كلامه مشابهًا لكلام خلقه.

وثالثًا: أنه لا يلزم من صدور الكلام أن يكون بفم ولسان وشفتين، ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت: ٢١].

فأخبر تعالى أن هذه الأعضاء تتكلم، ونحن نؤمن بذلك لكن كيفية تكلمها هو الذي لا نعلمه.

ونؤمن كذلك بما جاء من تسبيح الحصى والطعام وسلام الحجر على رسول الله ﷺ، وغير ذلك مما جاء من كلام بعض الجمادات، دون أن يتوقف ذلك على الفم واللسان والشفتين ومخارج الحروف، وما إلى ذلك من الأسباب العادية.

قال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي العتمي:

«وقد أخبر الله تعالى أن الجمادات قد تتكلم كلامًا حقيقيًا، وأن أعضاء الإنسان تنطق يوم القيامة فتشهد عليه، وأخبر النبي ﷺ أنه كان يسمع تسليم الحجر والشجر عليه، وأسمع أصحابه تسبيح الحصى، فكان من المعلوم عند الناس، أن التكلم بالعبارة والحروف والصوت، ليس موقوفًا على الآلات التي

يتكلم بها الإنسان؛ بل قد يتكلم المخلوق بغيرها، فكيف الخالق عز وجل!؟ فلم يلزم من تكلم الله عز وجل أن يكون له جوف أو غير ذلك مما هو منزه عنه»[١].

٢ ـ أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على أن القرآن مخلوق وليس بكلام الله، فلا شك أنها حجة باطلة، وقد تناقضوا فيها مع أنفسهم، وخلطوا بين صدور الخلق والأمر من الله، وذلك أن من مذهب المعتزلة «أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله، فأخرجوها من عموم «كل»، وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته به تكون الأشياء؛ إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقًا للزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له؛ فيلزم التسلسل وهو باطل.

وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر؛ فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم «كل» فيكون مخلوقًا بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا»[٢].

أما دعواهم أن «كل» لفظة تفيد عموم جميع الموجودات؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، والقرآن شيء، فيدخل في عموم المخلوقات، فيكون

---

(١) القائد إلى تصحيح العقائد ص: ١٨٩.

(٢) شرح الطحاوية ص: ١٨٣.

مخلوقًا وليس كلامًا لله تعالى، فإن بطلان هذه الدعوى واضح، وذلك أن الله تعالى قد أخبرنا بأمور فيها هذه الأداة، وعلم منها أنها لا تفيد عموم جميع الأشياء التي ذكرت فيها.

ومن أمثلة ذلك قول الله تعالى:

١ ـ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾.

[الأحقاف: ٢٥].

٢ ـ ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣].

وليس من عاقل يدعي أن الريح دمرت كل شيء بالنسبة لهم، وإنما هي دمرت كل شيء يستحق التدمير بأمر ربها، أو كل شيء مما يقبل أن تدمره الريح.

وكذلك قوله تعالى عن بلقيس ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فليس المراد من هذا أنها أوتيت من كل شيء على وجه الأرض؛ إذ امتناع ذلك أمر معلوم، وإنما المراد أنها أوتيت من كل شيء يصلح للملك ويليق بها؛ ففهم من هذا أن عموم «كل» في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن.

فقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي كل شيء من المخلوقات والموجودات، غيره سبحانه وتعالى، وغير صفاته، ومنها كلامه تعالى.

وأما قول المعتزلة بأن الله خلق الكلام في غيره ثم نسب إليه باعتبار خلقه له؛ فقد شنع السلف على المعتزلة في هذا المسلك المعوج والذي لم يستند لا إلى النص ولا إلى العقل أيضًا؛ وذلك أن الله تعالى ينطق ما يشاء من مخلوقاته، بأصوات تسمع في الجمادات وفي الحيوانات، كما عرف ذلك، فهل ذلك النطق هو نطق الله تعالى؟

وقد أخبر الله عن الجلود أنهم قالوا: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾، فلو كان أنطق ونطق بمعنى واحد؛ لقالوا: نطق الله، ولما كان فيه فرق بين نطق وأنطق، وبطلان هذا لا يخفى، ولو صح أن يقال: إن كل كلام في الوجود هو كلام الله؛ لصح أن يوصف الكلام الكاذب والزور والفحش والبذاءة بأنها كلام الله، لأنه هو الذي خلقها، تعالى الله عن ذلك.

٣ ـ وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، بأن القرآن مخلوق، وليس كلام الله؛ لأن النداء إنما سمعه موسى من الشجرة ـ كما هو ظاهر الآية ـ لا من الله.

فإن هذا الاستدلال لما زعموه من نفي الكلام عن الله تعالى باطل، وذلك:

١ ـ أن الناس يعرفون من تخاطبهم فيما بينهم أن قول القائل مثلاً: سمعت الأذان من المسجد، أو سمعت كلام زيد من الجبل، ونحو ذلك؛ ليس المقصود منه أن المسجد هو الذي رفع الأذان، ولا أن الجبل هو المتكلم؛ بل معنى ذلك أنني سمعت الأذان من عند المسجد، وسمعت كلام زيد من عند الجبل، أو في جهة الجبل، ومن فهم غير ذلك فهو إما غير مميز لصغره أو في عقله شيء.

٢ ـ أن الله تعالى حين خاطب موسى قال له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، فهل يستحل مخلوق لنفسه كائنًا ما كان أن يتكلم بمثل هذا الكلام، وهل يصل أحد من المخلوقات إلى أن يقول: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ويكون صادقًا في هذا؟ لا يمكن ذلك أبدًا، ولو أمكن ذلك باعتبار أن الكلام مخلوق لله وقد خلقه في الشجرة؛ لأمكن أن يكون قول فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] صدقًا؛ لأن ذلك

الكلام من الشجرة ومن فرعون ليس إلا كلام الله، خلقه الله في غيره، فكما أن ذاك مخلوق في الشجرة، فهذا مخلوق في فرعون!!

والتفرقة بينهما بأن كلام الشجرة خلقه الله، وكلام فرعون هو الذي خلقه من تلقاء نفسه؛ تحريف وتبديل وتفريق لا مستند له، إضافة إلى ما فيه من إثبات خالقين غير الله تعالى[١].

وأما قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] على أن القرآن مخلوق محدث؛ فهو استدلال غير صحيح.

ذلك أن معنى «محدث» أي منزل من الله، تكلم به سبحانه وتعالى شيئًا بعد شيء؛ بحيث أن الله تعالى يحدث في كل قضية كلامًا منه جل وعلا لبيانها؛ فيكون متجددًا في كل مناسبة، وهذا هو رأي السلف وما ذكره أهل التفسير.

قال الطبري في تفسير معنى الآية: أي «ما يحدث الله من تنزيل شيء من هذا القرآن للناس ويذكرهم به ويعظهم؛ إلا استمعوه وهم يلعبون»[٢].

وقال ابن كثير: أي «جديد إنزاله»[٣].

قال ابن تيمية: «فمن قال إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء؛ فهو مفتر على الله، مكذب لكتاب الله، متبع لغير سبيل المؤمنين»[٤]. فهو ينفي أن يكون القرآن الكريم كان خطابًا من اللوح أو الهواء وما إلى ذلك.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص: ١٨٦-١٨٧.

(٢) جامع البيان ٢/ ١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٧٣.

(٤) مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٢٠.

وقال ابن تيمية في رده احتجاج الجهمية والمعتزلة بهذه الآية، وما جاء في معناها، مما استدلوا به على خلق القرآن ونفي كلام الله تعالى قال: «وإن احتج بقوله ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ قيل له: هذه الآية حجة عليك؛ فإنه لما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾؛ علم أن الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث؛ لأن النكرة إذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره، كما لو قال: ما يأتيني من رجل مسلم إلا أكرمته، وما أكل إلا طعامًا حلالاً، ونحو ذلك.

ويعلم أن المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديدًا؛ فإن الله كان ينزل القرآن شيئًا بعد شيء، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل الآخر، وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب، كما قال: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

وقال: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥].

وقال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ﴾[1].

[الشعراء: ٧٥، ٧٦].

وقال أيضًا مبطلاً استدلال الجهمية والمعتزلة بالآية الأخرى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ قال:

«وكذلك قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ لم يقل: جعلناه فقط حتى يظن أنه بمعنى خلقناه، ولكن قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي صيرناه عربيًا لأنه

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٢١.

قد كان قادراً على أن ينزله عجميًا» قال: «وهذه المسألة من أصول أهل الإيمان والسنة، التي فارقوا بها الجهمية والمعتزلة والفلاسفة ونحوهم»[١].

والواقع أن أدلة المعتزلة والأشاعرة على ما ذهبوا إليه في صفة الكلام غير مجدية، ولهذا فإننا نجد الأستاذ أبو دقيقة حينما استعرض أدلة الفريقين - أدلة الأشاعرة وأدلة المعتزلة على ما قالوه في صفة كلام الله - عقب عليها بما يدل على أنه لم يطمئن إلى قول أي فريق منهما، وذلك لعدم امتناع تلك الأدلة عن القوادح.

ثم خلص إلى القول - تبعًا للبيضاوي - بأن التعمق في بحث هذه المسألة لا طائل وراءه؛ لعدم تثبتنا من حقيقة ذلك، ويكفي في ذلك أن نعتقد أن الله تعالى يتكلم فحسب، وهذا ما قرره في قوله الآتي:

«وأنت إذا تأملت في الأدلة المذكورة من الجانبين[٢] - ما عدا الدليل القائل بأن العرف واللغة يساعدان على مدعى كل منهما - ترى أن الأدلة من الجانبين لم تسلم من القدح، ولا تصلح لإثبات المدعي على القطع، ودعوى أن العرف واللغة يشهدان للأشعري - كما يدعي -، أو للمعتزلي - على ما يدعي - لا يفيد؛ فإن المسألة ليست من المسائل التي يعتمد في إثباتها على أن اللغة كذا دون كذا، إنما المسألة دائرة وراء البرهان والأدلة القطعية، فمن ساعده البرهان على دعواه؛ فالحق معه».

ثم نقل عن القاضي البيضاوي قوله: «إن الإطناب في مسألة الكلام قليل

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٢١.

(٢) يعني المعتزلة والأشاعرة.

الجدوى، فإن كنه ذاته وصفاته محجوب عن العقل».

قال أبو دقيقة: «وحينئذ فيكفي المكلف في الخروج عن العهدة أن يعتقد أن الله تعالى متكلم»[1].

وخلاصة القول فيما سبق أن النصوص صحيحة صريحة في أن الله تبارك وتعالى متكلم، وأنه يكلم عباده يوم القيامة، ويناديهم ويناجيهم، وأنه يصح وصفه بالقول والكلام، كلامًا حقيقيًا بصوت يليق به تعالى.

وأن تأويل ذلك إلى معاني لم تدل عليها النصوص؛ يكون خروجًا عن الواجب نحو تقبل النصوص والتسليم بما جاءت به عن الشارع، وليس من طريقة السلف تلك التأويلات التي يقتحمها بعض الناس فرارًا من إثبات صفة الكلام لله تعالى؛ لئلا يشبه بخلقه حسب زعمهم، فإن هذا من الجهل بحقيقة تنزيه الله تعالى.

ذلك أن السلف حينما يقولون: إن الله تعالى يتكلم وبصوت يليق به لا يشبه أصوات خلقه، كما أن ذاته لا تشبه ذوات خلقه؛ لا يلزم من قولهم ذلك نسبة النقص إلى الله تعالى، أو تشبيهه بخلقه؛ بل إن هذا الإثبات هو ما دلت عليه النصوص المتكاثرة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مقررًا رأي السلف في قضية كلام الله تعالى: «إن الله تعالى يتكلم بصوت، كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك كأصوات العباد، لا صوت القارئ ولا غيره، وأن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته؛ فكذلك لا يشبه كلامه كلام المخلوق،

---

(١) القول السديد: ص١٣٥ ـ ١٣٦.

ولا معانيه تشبه معانيه، ولا حروفه تشبه حروفه، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته»[1] .

وهذا هو ما قرره البخاري رحمه الله من قبل، حيث قال في كتابه «خلق أفعال العباد»:

«وأن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، فليس هذا لغير الله جل ذكره. قال أبو عبد الله: وفي هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله جل ذكره يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، فإذا تنادى الملائكة لم يصعقوا.

وقال عز وجل: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فليس لصفة الله ند ولا مثل، ولا يوجد شيء من صفاته في المخلوقين»[2] .

فهذا هو رأي السلف، وهو القول الحق الذي ينبغي للمسلم أن يعتقده، وأن يدين الله به، دون أن يتوقف في إثبات هذه الصفة لله، أو يتأولها، وهذا المسلك هو الذي يبعد صاحبه عن تناقضات الفرق واختلاف آرائهم.

والله وحده هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* * *

(١) مجموع الفتاوى ١٢/ ٢٤٤.

(٢) خلق أفعال العباد: ص: ٥٩.

مسألة
بأي لغة يخاطب الله عز وجل الخلق يوم القيامة ؟

هذه المسألة من المسائل التي لا ينبغي تكلف القول فيها، وذلك أنها مسألة مسكوت عنها، فلم يرد فيها نص يوضح ذلك، ولا كانت من المسائل الخلافية بين الصحابة، ولهذا فإنه يسعنا السكوت عنها.

فقد يكون الكلام في الموقف بين الله وبين خلقه بلغة واحدة على اختلاف ألسنتهم، حيث يعطيهم الله القدرة على التخاطب بها، ويحتمل بعد ذلك أن تكون العربية، أو أن تكون السريانية كما قيل، أو الفارسية.

كما أنه يحتمل أن يخاطب الله كل أمة بما كانت تتكلم به في الدنيا، وكل ذلك مجرد احتمال، والله وحده هو الذي يعلم ذلك، وقد استراح السلف من الخوض فيها، وتولى الخوض فيها الخلف، وقد سأل سائل شيخ الإسلام عن ذلك قائلاً له: «بماذا يخاطب الله الناس يوم البعث؟ وهل يخاطبهم الله تعالى بلسان العربية؟ وهل صح أن لسان أهل النار الفارسية وأن لسان أهل الجنة العربية؟».

قال: «فأجبته بعد حمد الله رب العالمين، لا يعلم بأي لغة يتكلم الناس يومئذ، ولا بأي لغة يسمعون خطاب الرب جل وعلا؛ لأن الله تعالى لم يخبرنا بشيء من ذلك ولا رسوله ﷺ، ولم يصح أن الفارسية لغة الجهنميين، ولا أن العربية لغة أهل النعيم الأبدي، ولا نعلم نزاعًا في ذلك بين الصحابة

رضي الله عنهم؛ بل كلهم يكفون عن ذلك؛ لأن الكلام في مثل هذا من فضول القول.

ولكن حدث في ذلك خلاف بين المتأخرين، فقال ناس: يتخاطبون بالعربية، وقال آخرون: إلا أهل النار فإنهم يجيبون بالفارسية؛ وهي لغتهم في النار، وقال آخرون: يتخاطبون بالسريانية لأنها لغة آدم وعنها تفرعت اللغات، وقال آخرون: إلا أهل الجنة فإنهم يتكلمون بالعربية.

وكل هذه الأقوال لا حجة لأربابها، لا من طريق عقل ولا نقل؛ بل هي دعاوى عارية عن الأدلة»[1].

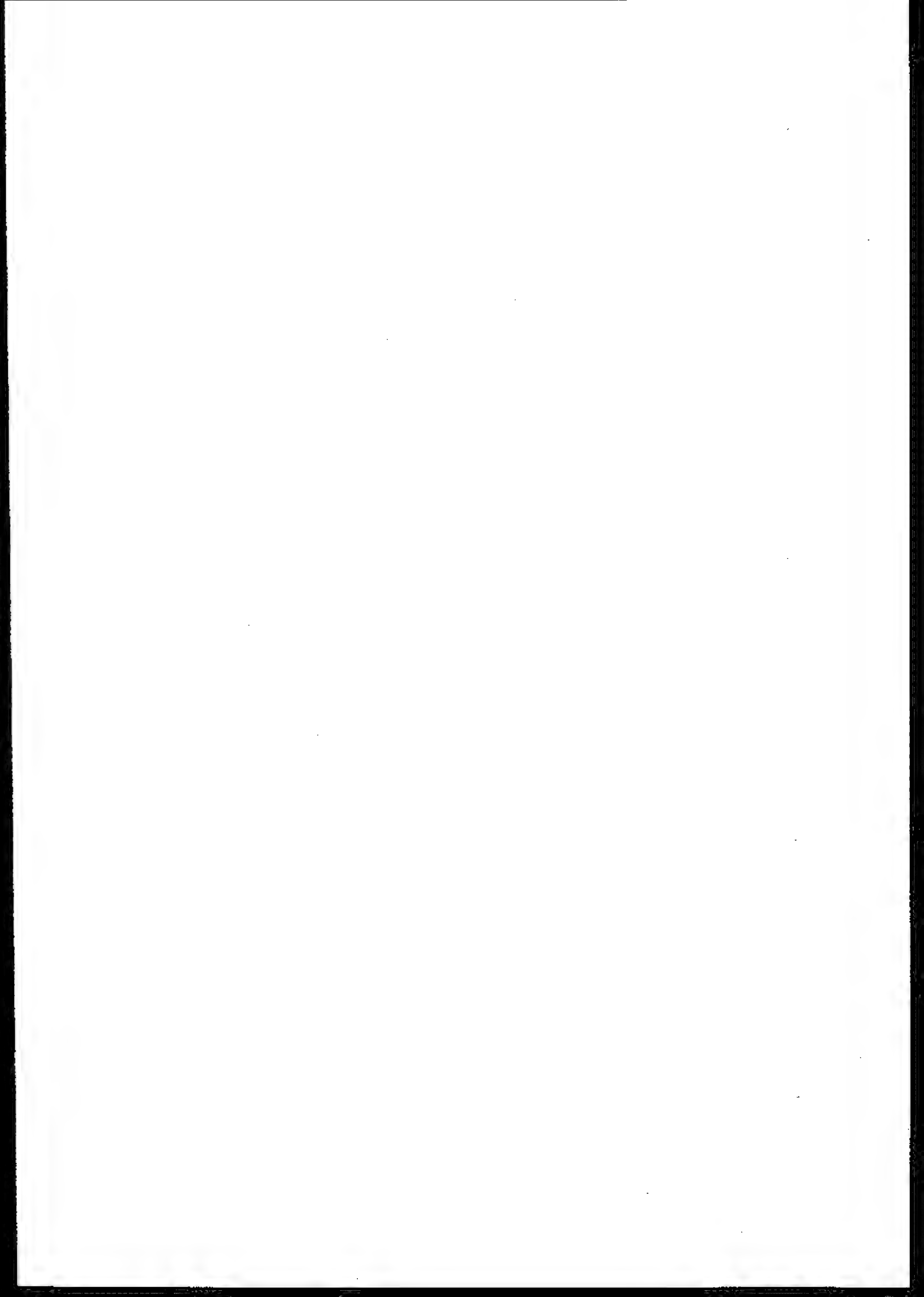
* * *

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٠٠-٣٠١.

الباب السادس

العرض على الله جل وعلا في موقف فصل القضاء

ويشتمل على الفصول الآتية :



العرض على الله جل وعلا في موقف فصل القضاء

تمهيد :

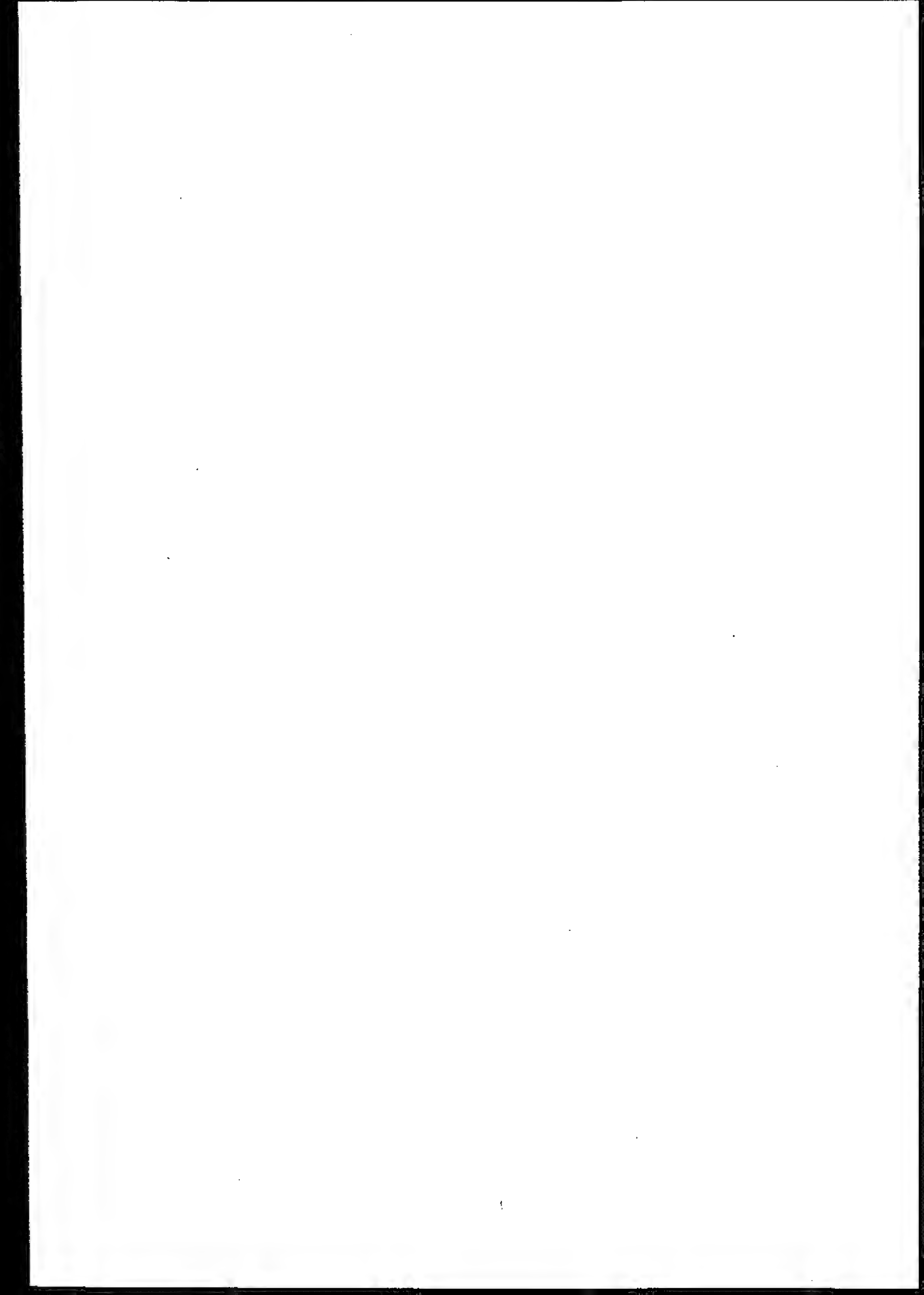
ثبت مما سبقت دراسته أن الله تبارك وتعالى ينزل لفصل القضاء بين عباده، نزولاً يليق بجلاله وعظمته، ثم بعد نزوله جل وعلا - كما أخبر بذلك - تعرض الخلائق على ربها، كيفما يشاء سبحانه وتعالى؛ لأجل حسابهم.

فما أحرى بالمؤمن أن يستعد لمثل هذا اليوم ويحذره؛ فيستعد له بالعمل الصالح، ويحاسب نفسه ليزينها في ذلك العرض الأكبر، كما قال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر»[١] .

وقد ثبتت هذه المسألة بنص كتاب الله عز وجل؛ فنثبتها كما أثبتها الله تعالى، ونكل كيفيتها إليه عز وجل.

* * *

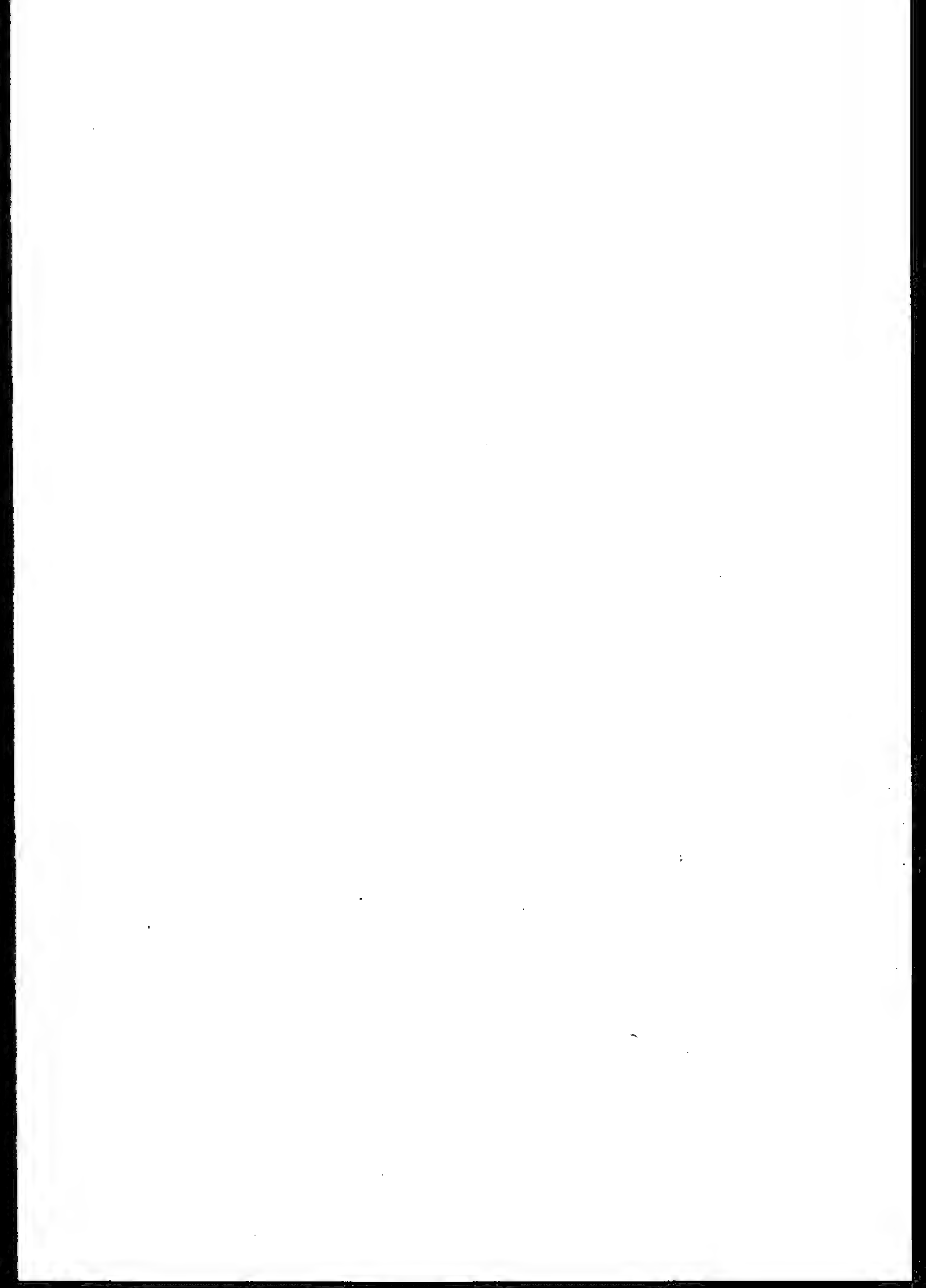
(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤١٤ .





الفصل الأول

معاني العرض لغةً واصطلاحًا



الفصل الأول

معاني العرض لغة واصطلاحًا

١ ـ معنى العرض في اللغة :

من معاني العرض: الإبراز والظهور، ويقال: عرض الجند: جعلهم يمرون عليه واحداً واحداً، وعرض له من حقه شيئًا: أعطاه إياه مكان حقه، وعرض القوم على النار: أحرقهم بها[1] .

٢ ـ أما معناه في الاصطلاح :

فإن المراد بالعرض على الله عند الإطلاق: هو بروز الخلائق وعرضهم على ربهم سبحانه وتعالى في الموقف، عندما يتجلى تبارك وتعالى لهم لحسابهم وفصل القضاء بينهم، وهو كذلك عرض أعمال العباد عليهم، وعرض بعض الأشخاص عليه عرضًا خاصاً بعد خروجهم من النار.

وهذا المعنى الخاص للعرض الاصطلاحي هو أخص من العرض اللغوي العام، كما أفادته النصوص الشريفة من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ .

وقد قسم الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله معاني العرض إلى معنيين، فقال: «العرض له معنيان: معنى عام، وهو عرض الخلائق كلهم على ربهم

---

(١) انظر: كتب اللغة مادة (عرض)، المفردات للراغب ص: ٣٣٠، أساس البلاغة ص: ٢٩٨، ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية ص: ٣٣٧.

عز وجل، بادية له صفحاتهم، لا تخفى عليه منهم خافية، وهذا يدخل فيه من يناقش الحساب ومن لا يحاسب.

والمعنى الثاني: عرض معاصي المؤمنين عليهم، وتقريرهم بها، وسترها عليهم، ومغفرتها لهم»[١].

والمقصود هنا هو ذكر عرض الخلائق جميعهم على ربهم.

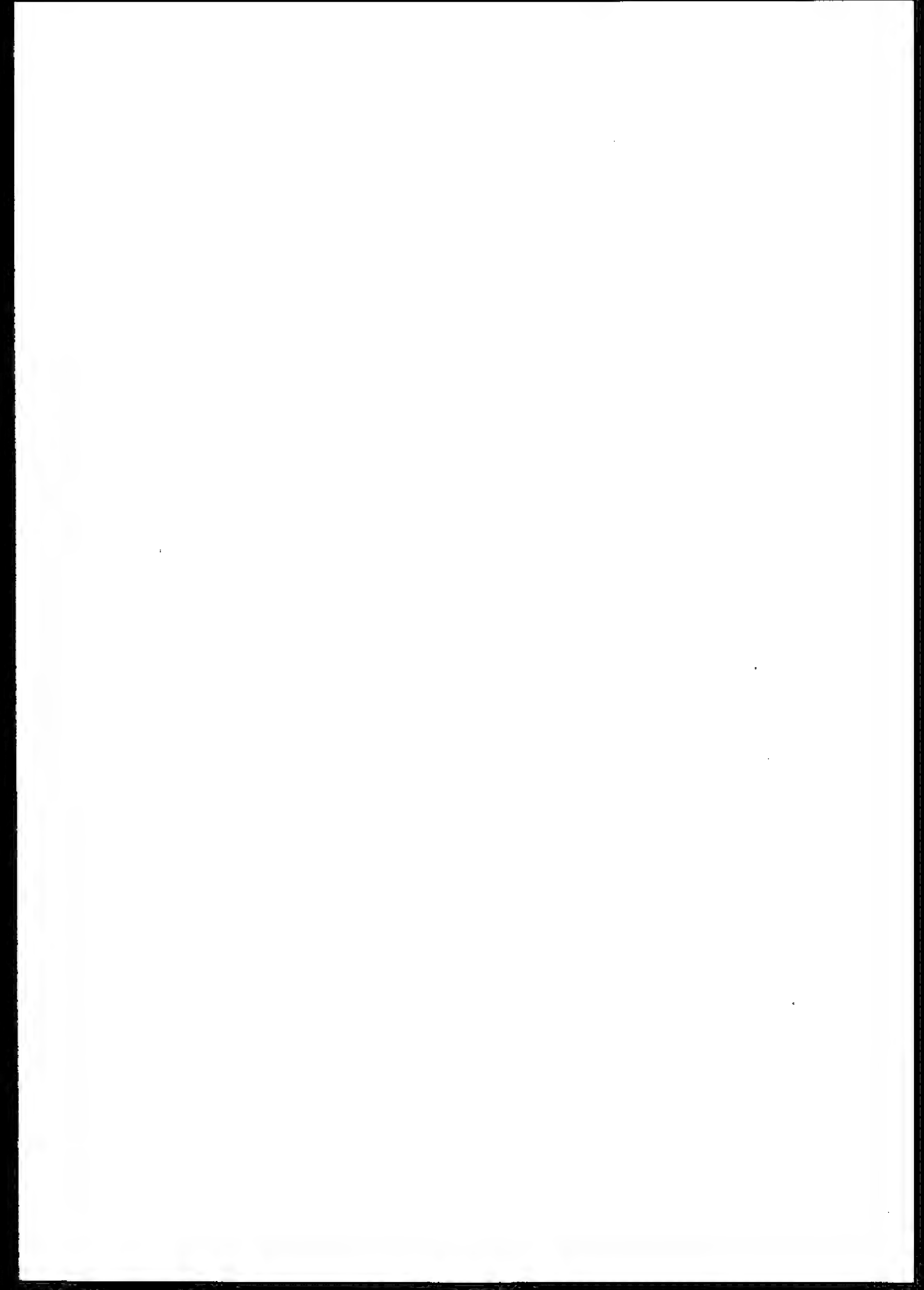
أما العرض الثاني، وهو عرض الحساب والمناقشة، فإنه سيذكر بالتفصيل في مبحث الحساب كما سيأتي.

* * *

(١) معارج القبول ٢/ ٢٤٧.

الفصل الثاني

الأدلة على حصول العرض على الله



الفصل الثاني

الأدلة على حصول العرض على الله

١ ـ الأدلة من القرآن الكريم :

والعرض على الله تعالى هو ما عبرت عنه الآيات الكريمة، التي تبين حالة عرض الخلائق على ربهم للحساب والجزاء، وهي :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨].

٢ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف : ٤٨].

٣ ـ وقوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود : ١٨].

٤ ـ وقوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١].

٥ ـ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨].

٦ ـ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦].

٧ـ وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧].

ولا شك أن هذا العرض إنما يكون لأجل الحساب والجزاء.

٢ـ الأدلة من السنة على وقوع العرض على الله:

وبعد عرض الأدلة من القرآن الكريم، نبين الأدلة من السنة النبوية المطهرة على ثبوت عرض الخلائق على ربهم.

ومن تلك الأدلة ما أخرج الإمام مسلم عن جرير بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: **«أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر»**(١).

وأخرج الترمذي في جامعه، في باب ما جاء في العرض، وابن ماجه والإمام أحمد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة: فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله»**(٢).

وقد أخرج ابن جرير هذا الحديث عن مجاهد بن موسى قال: ثنا يزيد قال: ثنا سليمان بن حيان عن مروان الأصفر عن أبي وائل عن عبد الله قال: **«يعرض**

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٢٧٩.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٦١٧ ثم قال الترمذي: قال أبو عيسى: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه بعضهم عن علي الرفاعي عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ، قال أبو عيسى: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى. سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٣٠، ثم قال محمد فؤاد في الزوائد: رجال الإسناد ثقات، إلا أنه منقطع، والحسن لم يسمع من أبي موسى، قاله علي بن المديني وأبو حاتم وأبو زرعة، وأخرج الحديث أحمد في المسند ٤/ ٤١٤.

الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، عرضتان معاذير وخصومات، والعرضة الثالثة تطير الصحف في الأيدي»[١] .

وأخرجه كذلك عن قتادة بلفظ: حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: سعيد عن قتادة: قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: **«يعرض الناس ثلاث عرضات يوم القيامة، فأما عرضتان ففيهما خصومات ومعاذير وجدال، وأما العرضة الثالثة فتطير الصحف في الأيدي»**[٢] .

قال ابن كثير: إن الحديث مرسل[٣] .

وأخرج الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: ما أتيتك حتى حلفت عدد أصابعي هذه أن لا آتيك - أرانا عفان وطبق كفيه -، فبالذي بعثك بالحق، ما الذي بعثك به؟ قال: الإسلام، قال: وما الإسلام؟ قال: **أن تسلم قلبك لله تعالى، وأن توجه وجهك إلى الله تعالى، وتصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، أخوان نصيران لا يقبل الله عز وجل من أحد توبة أشرك بعد إسلامه**، قلت: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: **تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت.** قال: **تحشرون هاهنا** - وأومأ بيده إلى نحو الشام - **مشاة وركبانًا وعلى وجوهكم، تعرضون على الله تعالى، وعلى أفواهكم الفدام**[٤] ، **وأول ما يعرب عن أحدكم فخذه،**

---

(١) أخرجه ابن جرير ٢٩/ ٥٩، وذكر ابن كثير أنه أخرجه البيهقي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود.

(٢) تفسير ابن جرير ٢٩/ ٦٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٤.

(٤) الفدام: هو ما يشد على فم الأبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم، فشبه ذلك بالفدام. النهاية لابن الأثير ٣/ ٤٢١.

وقال: **«ما من مولى يأتي مولى له، فيسأله من فضل عنده، فيمنعه؛ إلا جعل الله تعالى عليه شجاعًا ينهشه قبل القضاء»**[١] .

وهذه الأحاديث تدل على حصول عرض العباد على ربهم، وقد جاء في عرض أعمال العباد: أن المؤمن تعرض أعماله بكل يسر وسهولة دون مناقشة واستقصاء، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«من نوقش الحساب عذب»، قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ذلك العرض»**[٢] .

وجاء عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل، قال: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعته يقول: **«إن الله عز وجل يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك؛ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾**[٣] » الآية. [هود: ١٨].

وهذا دليل كذلك على ثبوت عرض الخلائق على ربهم للحساب[٤] .

ومما جاء في العرض الخاص أن أناسًا يخرجون من النار فيعرضون على

---

(١) المسند ٥/ ٣.

(٢) البخاري ١١/ ٤٠٠، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن رواه أيوب أيضًا عن ابن أبي مليكة». سنن الترمذي ٤/ ٦١٧.

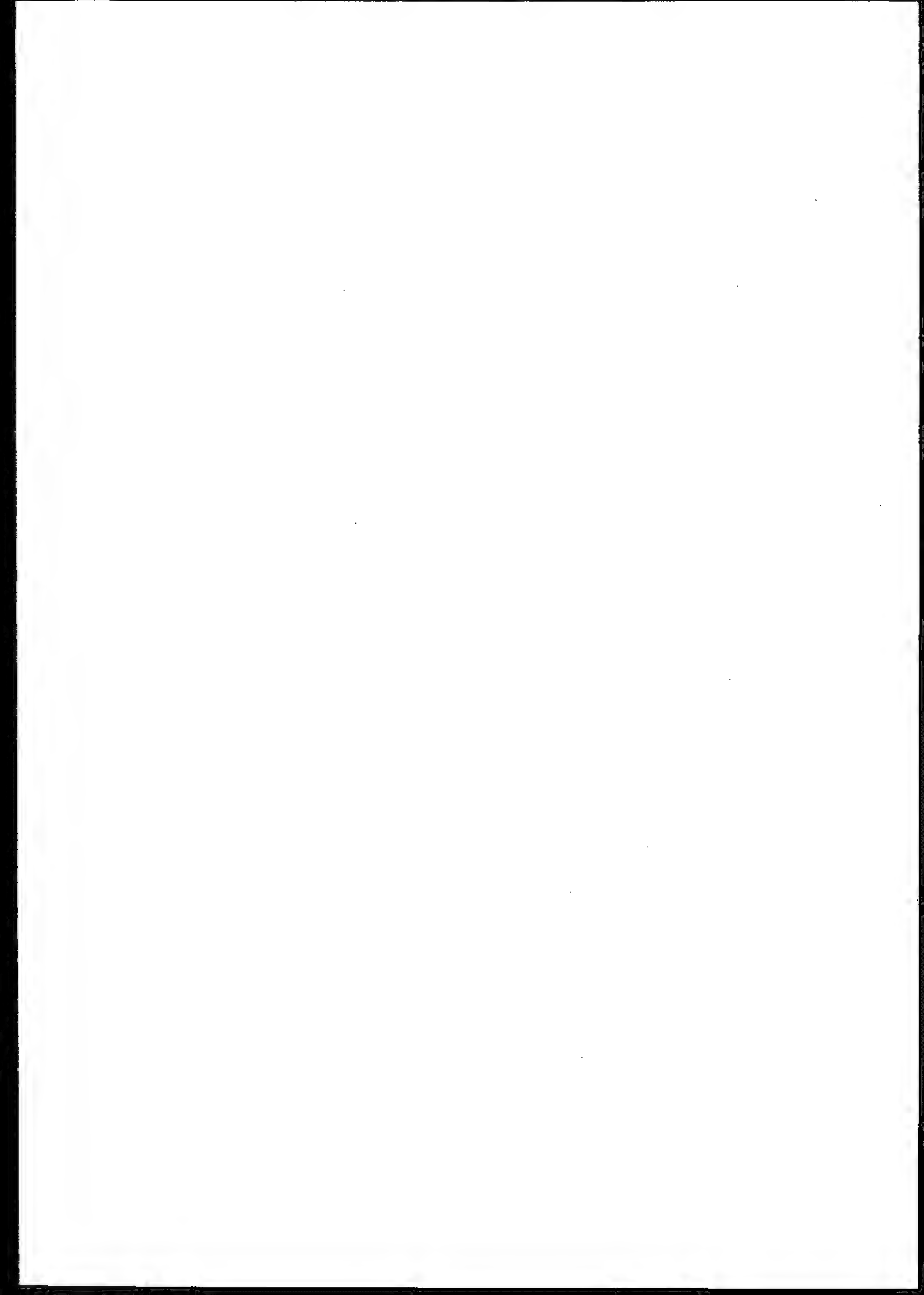
(٣) البخاري ٥/ ١٦، أحمد ٢/ ٧٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤١، فتح القدير ٢/ ٤٩٠.

ربهم، كما أخرج مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج من النار أربعة فيعرضون على الله، فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب إذا خرجتني منها فلا تعدني فيها؛ فينجيه الله منها**»[1] .

* * *

(١) صحيح مسلم ١/٤٥٨.

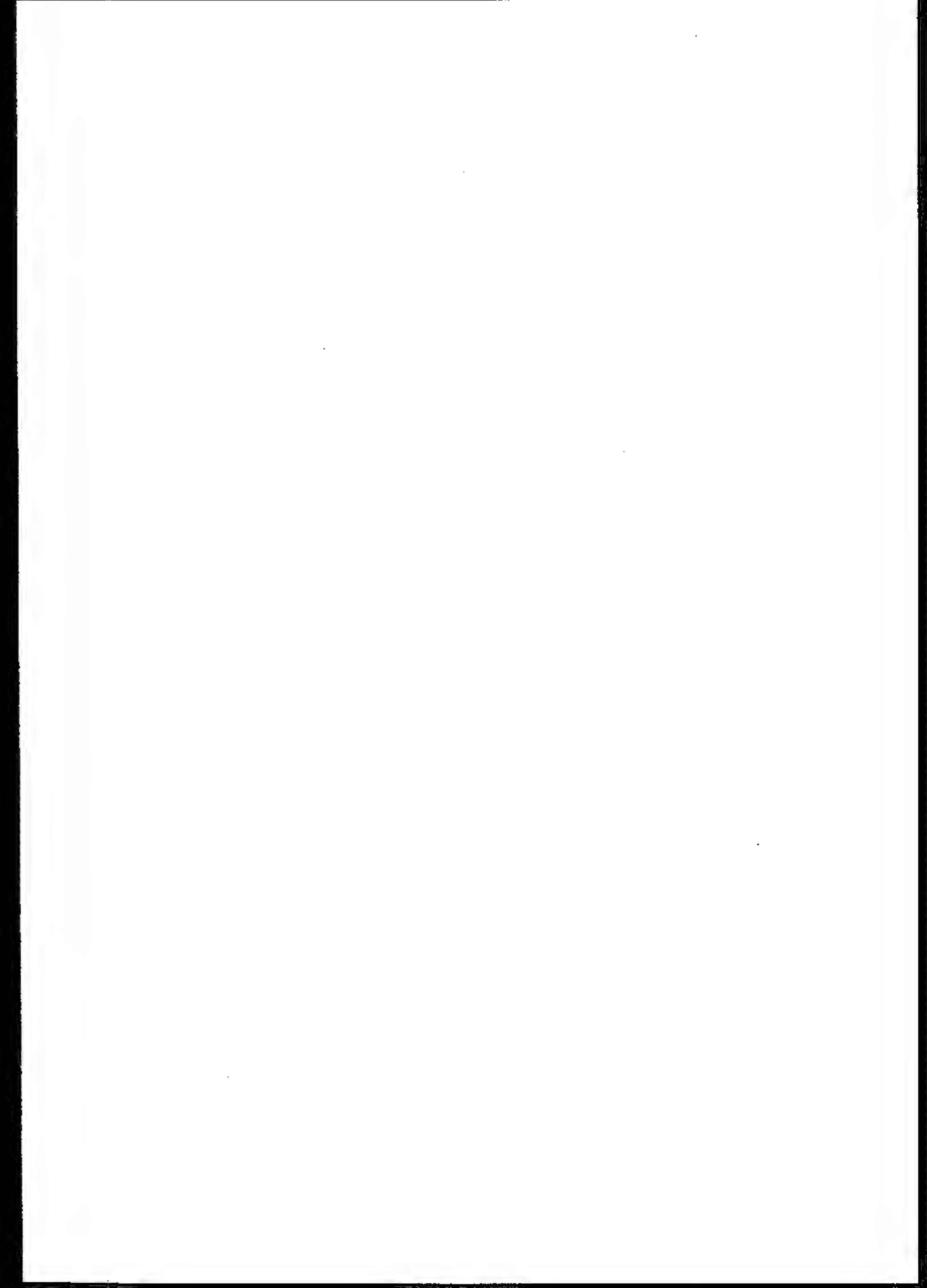




الفصل الثالث

بيان دلالة تلك النصوص

على كيفية العرض على الله



الفصل الثالث

بيان دلالة تلك النصوص على كيفية العرض على الله

أخبر الله عز وجل في كتابه الكريم أن الخلق يعرضون عليه تبارك وتعالى كيفما يشاء، وهل يعرضون صفاً واحداً أم صفوفًا متعددة؟ الله أعلم بذلك، والذي يهمنا من ذلك هو إثبات العرض على الله كما جاءت به النصوص.

وهناك من خالف في هذا وأوّل معنى العرض المذكور إلى ما سنذكره:

١ ـ أما الذين ذهبوا إلى القول بالعرض على الله تعالى كما أفادته ظواهر النصوص فمن أقوالهم في معنى الآية الأولى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾.

ما قاله ابن جرير في معناها: أي: «وعرض الخلق على ربك يا محمد صفاً»[1].

وقد عبر سبحانه وتعالى عن هذا العرض بلفظ الماضي لتحقق وقوعه لا محالة.

وقال ابن كثير: «يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [عم: ٣٨].

ويحتمل أنهم يقومون صفوفًا كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا

---

(١) جامع البيان ١٥/ ٢٥٧.

صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]»[1] .

وفي المنتخب في تفسير القرآن الكريم أن معنى الآية «ويعرض الناس في هذا اليوم على الله في جموع مصفوفة للحساب، ويقول الله تعالى: لقد بعثناكم بعد الموت كما أحييناكم أول مرة، وجئتمونا فرادى بلا مال ولا بنين، وكنتم في الدنيا تكذبون بالبعث والحساب»[2] .

وفي معنى قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ يقول السعدي-رحمه الله-: «ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحدًا؛ بل يجمع الأولين والآخرين من بطون الفلوات وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعدما تمزقوا، خلقًا جديدًا، فيعرضون عليه صفاً ليستعرضهم، وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل الذي لا جور فيه ولا ظلم»[3] .

وقال محمد محمود حجازي في تفسيره المسمى «التفسير الواضح»:

«وعرضوا على ربك صفاً واحداً بلا تفرق واختلاف، وقد شبهوا بالجند حيث يعرضهم القائد وهم وقوف منتظرون الأمر»[4] .

وزاد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي فذكر عن بعض العلماء قولهم إن المراد بقوله: ﴿صَفًّا﴾ أي جميعًا»[5] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٨٧.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص: ٤٣٤، تأليف «لجنة القرآن والسنة» مجموعة من العلماء.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥/ ٢٤ المطبعة السلفية.

(٤) التفسير الواضح ١٥/ ٦١.

(٥) أضواء البيان ٤/ ١١٣.

وقال الفخر الرازي: «في تفسير «الصف» وجوه:

أحدها: أنه تعرض الخلق كلهم على الله صفاً واحداً ظاهرين، بحيث لا يحجب بعضهم بعضاً.

وثانيها: لا يبعد أن يكون الخلق صفوفًا، يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي يكون بعضها خلف بعض، وعلى هذا التقدير فالمراد من قوله: ﴿صَفًّا﴾ صفوفًا، كقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي أطفالاً.

وثالثها: صفاً أي قيامًا، كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ قالوا: قيامًا»[1].

وقال الشوكاني في معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ الآية «أي تعرض العباد على الله لحسابهم، ومثله ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، وليس ذلك العرض عليه سبحانه ليعلم به ما لم يكن عالمًا به، وإنما هو عرض الاختبار والتوبيخ بالأعمال»[2].

ويقول محمد رشيد رضا في معنى الآية ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يقول: «أي يوم القيامة لمحاسبتهم، وتعرض عليه أعمالهم وأقوالهم»[3].

ويتضح مما تقدم عرضه من أقوال العلماء أن وقوع العرض على الله أمر واقع على ضوء ما صرحت به النصوص.

ثم بعد إثبات ذلك وقع الخلاف في صفة العرض وحالة الخلق في

---

(١) التفسير الكبير ٢١/ ١٣٣، وانظر: فتح القدير ٣/ ٢٩٢.

(٢) فتح القدير ٥/ ٢٨٢.

(٣) تفسير المنار ١٢/ ٥٤.

عرضهم، هل يعرضون صفاً أو صفوفًا؟ والظاهر أن النصوص قابلة لكلا القولين، وإن كان بعض العلماء قد رجح القول بأنهم يعرضون صفوفًا، مستندين إلى ما أخرج الحافظ ابن منده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع: يا عبادي، أنا الله لا إله إلا أنا، أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين: يا عبادي، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، أحضروا حجتكم ويسروا جوابًا، فإنكم مسئولون محاسبون، يا ملائكتي، أقيموا عبادي صفوفًا، على أطراف أنامل أقدامهم للحساب»**[1] .

قال القرطبي في تعليقه على هذا الحديث: «قلت: هذا الحديث غاية في البيان في تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه في كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله»[2] .

وإذا كان المراد بالعرض هو عرض الخلائق على ربهم تعالى، فإن مما ينبغي التنبيه إليه أن الخلق يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا في عرضهم، قربًا وبعدًا، إكرامًا وإهانة.

ذلك أن عرض المؤمن على ربه يكون في أحسن حال وألطفه، يقرره الله تعالى بذنبه، وييسر عليه حسابه، ويستره سبحانه.

أما عرض الكافر على ربه، فهذا يكون في أتعس حالة وأشقها، يناقشه في الحساب، ويعدد عليه جرائمه على رؤوس الأشهاد، وتلعنهم الملائكة في

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٥/ ٤٠٠ وعزاه إلى ابن منده وذكره، القرطبي أيضًا عند تفسيره للآية ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨].

(٢) تفسير القرطبي ١٠/ ٤١٧.

حالة عرضهم على ربهم، قائلين لهم: ﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله:

«فإذا علمت أن الله جل وعلا ذكر في هذه الآية الكريمة - يعني ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ - حالاً من أحوال عرض الخلائق عليه يوم القيامة، فاعلم أنه بين في مواضع أخر أشياء أخر من أحوال عرضهم عليه، كقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

وبين في مواضع أخر ما يلاقيه الكفار، وما يقال لهم عند ذلك العرض على ربهم، كقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[1] [هود: ١٨، ١٩].

٢ - وأما الذين ذهبوا إلى نفي العرض على الله تعالى حقيقة، وأولوا ما ورد من ظواهر النصوص الدالة على صفة العرض إلى تأويلات أخرى:

فالإمام الرازي يقول في معرض بيانه لمعنى الآية ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: ثم إنه تعالى بين وعيد هؤلاء - يعني الكفار - بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وما وصفهم بذلك لأنهم مختصون بذلك العرض، لأن العرض عام في كل العباد كما قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾، وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون، بأن يقول الأشهاد عند عرضهم: ﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا

(١) انظر: أضواء البيان ٤/ ١٢٤.

عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، فحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه».

وبعد أن ذكر هذا المعنى أورد استشكالاً على من يقول بإثبات العرض على الله تعالى وهو:

إذا لم يجز أن يكون الله تعالى في مكان، فكيف قال: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؟ ثم قال في جوابه عنه: «والجواب: أنهم يعرضون على الأماكن المعدة للحساب والسؤال، ويجوز أيضًا أن يكون ذلك عرضًا على من شاء الله من الخلق بأمر الله من الملائكة والأنبياء والمؤمنين»[١].

وهذا المعنى لا تفيده الآية، كما هو الظاهر من سياقها وسياق الآيات الأخر، وكذا أقوال أهل التفسير، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾.

ومعنى هذا أنهم لم يعرضوا على الأماكن، أو على من شاء الله من الخلق، وهذا التأويل السابق للآية هو أحد التأويلات المذكورة في معنى العرض على الله تعالى.

ذلك أن الرازي قد ذكر في معنى الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]: أن «العرض عبارة عن المحاسبة والمساءلة، شبه ذلك بعرض السلطان العسكر لتعرف أحواله».

ثم قال: «وروي أن في القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ، وأما الثالثة ففيها تنثر الكتب؛ فيأخذ السعيد كتابه بيمينه، والهالك كتابه بشماله»[٢].

فإذا كانت العرضتان الأوليان اعتذار واحتجاج وتوبيخ؛ فقد يقول

(١) التفسير الكبير ١٧/ ٢٠٤.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/ ١١٠.

السائل: أمام من يقع هذا الاعتذار والاحتجاج والتوبيخ إذا لم يكن العرض على الله حقيقة؟ إذًا فمن الواضح أن ذلك الاعتذار والاحتجاج والتوبيخ لا يكون إلا أمام الله سبحانه وتعالى حالة عرضهم عليه لمحاسبتهم.

وذكر الرازي كذلك في معنى قول الله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾[1] عن المشبهة قوله: «قالت المشبهة: قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان، وتعرض عليه أهل القيامة صفاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ يدل على أنه تعالى يحضر في ذلك المكان.

وأجيب عنه: بأنه تعالى جعل وقوفهم في الموضع الذي يسألهم فيه عن أعمالهم ويحاسبهم عليها عرضًا عليه، لا على أنه تعالى يحضر في مكان وعرضوا عليه ليراهم بعد أن لم يكن يراهم»[1].

وهذا المعتقد الذي ذكره عن المشبهة لاشك في خطئه وفحشه، فمن قال أن الله تعالى يحضر في مكان يحويه يتحيز فيه ويراهم بعد أن لم يكن يراهم من قبل؛ فهو على غير الصواب، وأهل السنة لا يقولون أنه تعالى يحضر في مكان يحويه، ويرى أهل الموقف بعد أن لم يكن يراهم، فإن هذا هو مذهب أهل التشبيه كما ذكر الرازي . . .

أما أهل السنة فإنهم يثبتون العرض والمجيء وغيرها من الصفات الواردة في يوم القيامة على أنها صفات تليق بجلال الله تعالى وعظمته، على كيفية لا يعرفها إلا هو.

---

(١) المصدر السابق: ٢١/١٣٣.

وهذا العرض على الله تبارك وتعالى يتقدمه بروز الخلائق كلهم من قبورهم على الأرض، كما في قول الله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

[إبراهيم: ٢١].

قال ابن جرير في معنى الآية: «وظهر هؤلاء الذين كفروا به يوم القيامة من قبورهم، فصاروا بالبراز من الأرض جميعًا يعني كلهم»[1] .

وقال ابن كثير في معناها: «أي برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها، لله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدًا»[2] .

ومعنى هذا البروز هو ظهور جميع الخلق لربهم تعالى: «وإنما قال: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ مع كونه سبحانه عالمًا بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا؛ لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي، ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه»[3] .

ويقول الرازي في بيان معنى البروز لله تعالى: «قد ذكرنا أن البروز في اللغة عبارة عن الظهور بعد الاستتار.

وهذا في حق الله تعالى محال، فلابد فيه من التأويل، وهو من وجوه:

الأول: أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش، ويظنون أن ذلك خاف على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله تعالى عند

(١) تفسير الطبري ١٣/١٩٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٥٢٨.

(٣) فتح القدير ٣/١٠٣.

أنفسهم، وعلموا أن الله لا يخفى عليه خافية.

الثاني: أنهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه.

الثالث: وهو تأويل الحكماء، أن النفس إذا فارقت الجسد فكأنه زال الغطاء والوطاء، وبقيت متجردة بذاتها عارية عن كل ما سواها، وذلك هو البروز لله»[1].

والمعنى الثاني: هو ما دلت عليه النصوص.

أما المعنى الثالث: وهو تأويل الحكماء فلا شك أنه بعيد جداً عن المقصود من الآية، وليس عليه دليل، وكذا القول بأن البروز انكشاف للخلق عند أنفسهم، بحيث أنهم يعلمون إحاطة الله بهم.

ويتبين مما سبق أن المراد بالعرض على الله تعالى: هو العرض الحقيقي، ولكن صفة ذلك العرض وكيفيته لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ويتبين كذلك أن ما ذهب إليه السلف هو المذهب الحق؛ إذ إنهم يثبتون العرض على الله عز وجل متبعين ما ورد من النص في ذلك في القرآن والسنة النبوية المطهرة.

وهل تعرض الأمم جميعهم؛ مسلمهم وكافرهم، جنهم وإنسهم، وحتى السبعين ألف الذين ورد النص بدخولهم الجنة بغير حساب ولا عقاب؟ أو عتاة الكفار كفرعون وأبي لهب وأبي جهل؟ أم أن العرض لا يختص إلا بمن يحاسب؟

الواقع أن هذه المسألة كما قال الفاكهي حين أشار إلى هذا الاستشكال:

(١) التفسير الكبير ١٩/ ١٠٧.

«لم أر في ذلك نصاً»[1] .

وحيث لم يوجد نص؛ فتكون المسألة قابلة للاحتمالات، فيمكن القول أن هؤلاء لا يعرضون بمعنى لا يعرضون عرض من يراد به الحساب لموازنة أعماله.

ويمكن أن يقال: إن بعض الخلق لا يعرض كمن يلتقطهم عنق من النار، أو من يدخل الجنة بغير حساب، وبعضهم يعرض للحساب وموازنة أعماله.

وإن كانت ظواهر النصوص من القرآن الكريم ومن السنة المطهرة تشير إلى أن كل المخلوقات المكلفة تعرض على ربها. والله أعلم.

* * *

(١) تكملة شرح الصدور ص: ١٣.

الباب السابع

الصحف

أو كتاب الأعمال

ويشمل الفصول الآتية :

تمهيد :

الفصل الأول : الأدلة على كتابة الملائكة لكل ما يصدر عن العباد.

١ ـ من القرآن الكريم.

٢ ـ من السنة النبوية.

الفصل الثاني : المنكرون كتابة الملائكة أعمال العباد.

الفصل الثالث : إثبات أن كل إنسان يقرأ كتابه في يوم القيامة، والأدلة على ذلك :

١ ـ من القرآن الكريم.

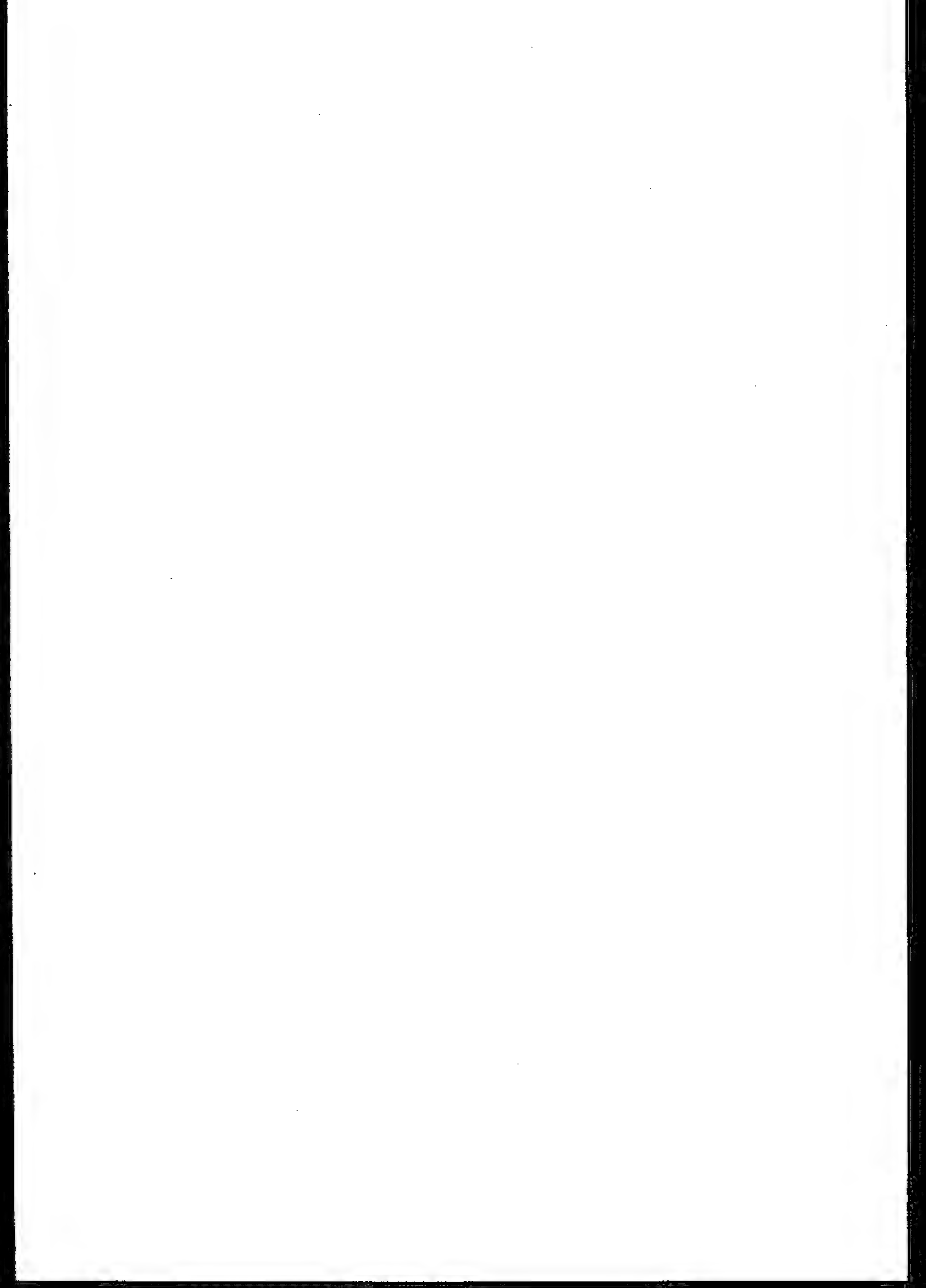
٢ ـ من السنة النبوية.

الفصل الرابع : كيفية أخذ الكتاب.

الفصل الخامس : وجوب الإيمان بالصحف وإبطال قول من أنكرها، وفيه ملاحظات.

الفصل السادس : ما قيل من الحكمة في إيتاء الصحف.

الفصل السابع : ما معنى تبديل الحسنات بالسيئات الواردة في الصحف ؟



تمهيد

ثبت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأجمع علماء الإسلام على: أن الله تعالى سيؤتي كل إنسان في يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا، يقال له: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾؛ فيقرأ في هذا الكتاب كل ما عمله في الدنيا من الخير والشر، قد سجلته الملائكة، لم يغادروا منه صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها، ويكون الشخص هو حسيب نفسه؛ كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

وقد وكل الله بالعبد كرامًا كاتبين، ملكان: أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره؛ الذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن يساره يكتب السيئات، يراقبانه في كل دقيقة وجليلة.

ومن رحمة الله بعباده أنه لا تكتب السيئة إلا بعد إصرار العبد عليها وعدم رجوعه بالاستغفار والتوبة، فيكتبها حينئذ الملك الموكل بكتابة السيئات؛ ليجدها العبد أمامه في يوم القيامة في سجل كامل لأعماله، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وللحسن البصري في هذه المسألة قول عظيم، وصفه ابن كثير بأنه: «من أحسن كلام الحسن رحمه الله».

«قال معمر: وتلا الحسن البصري: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾: يا

ابن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك؛ فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ الآية. فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك»[١].

وسنعرض فيما يلي أدلة إثبات كتابة الكرام الكاتبين لكل ما يصدر عن العبد، من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

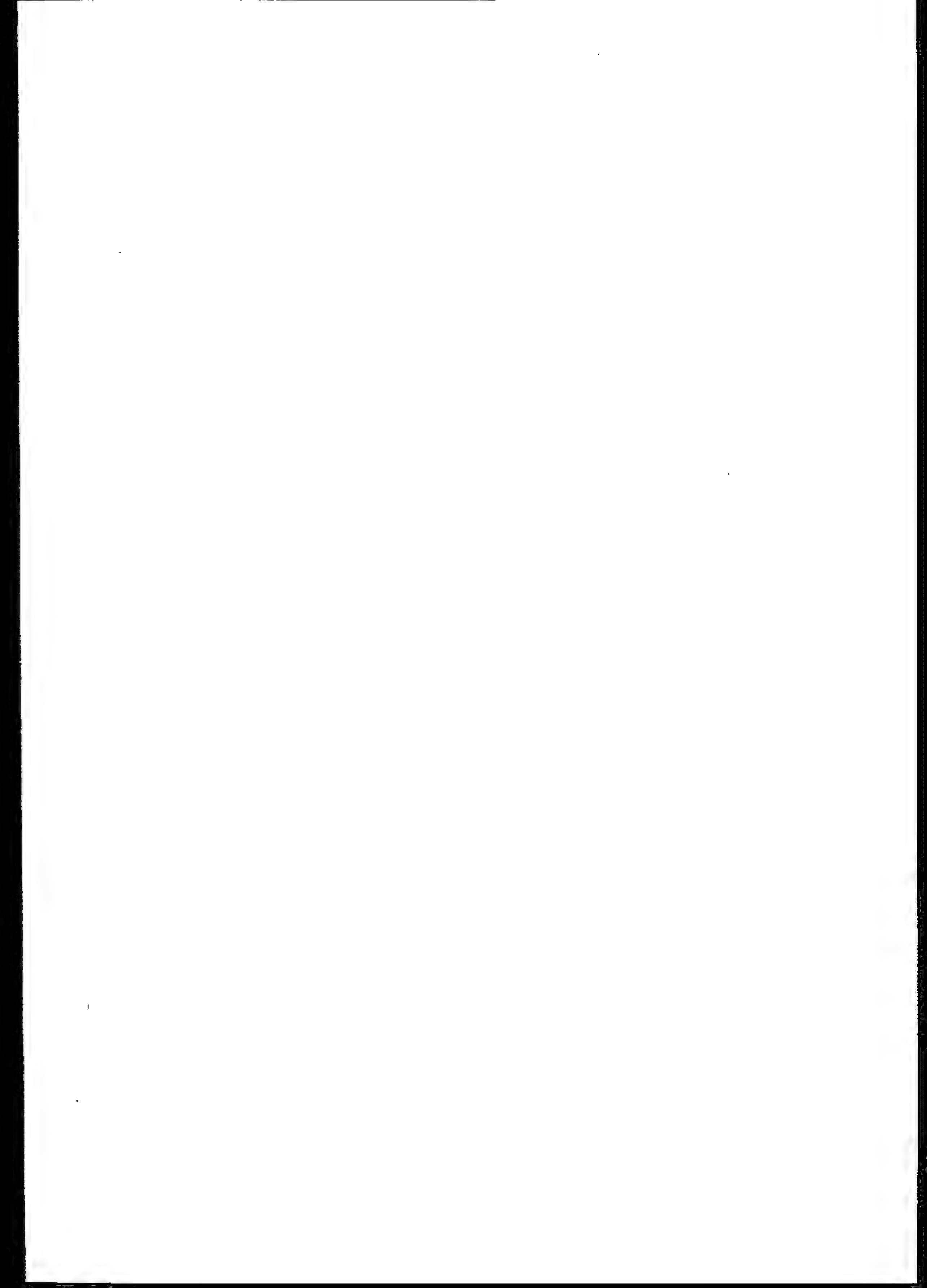
* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٨.



الفصل الأول

الأدلة على كتابة الملائكة لكل ما يصدر عن العباد



الفصل الأول

الأدلة على كتابة الملائكة لكل ما يصدر عن العباد

تمهيد :

أثبت الله تعالى في كتابه الكريم أنه ما من إنسان إلا وله سجل خاص به، فيه جميع ما عمله في الدنيا، كما أشرنا إليه.

ولشدة أهمية هذا الكتاب أو السجل ذكره الله عز وجل في القرآن الكريم في أكثر من آية؛ لتنبيه الناس إلى أهميته، والاستعداد له، والتحرز أن يكتب فيه غير ما لا يرضي الخالق سبحانه وتعالى، وقد أعذر الله إلى الناس بعدما أخبرهم بكل تفاصيل اليوم الآخر، بما فيه إحصاؤه تعالى لأعمالهم في الدنيا دقيقها وجليلها، ثم قراءتها في اليوم الآخر في موقف فصل القضاء.

* * *

١ـ الأدلة من القرآن الكريم

أما ثبوت إحصاء الكرام الكاتبين لكل ما يصدر عن العبد فهو ما تحدث عنه القرآن الكريم في آيات كثيرة .

وقد نوع الله تعالى في كتابه الكريم الأخبار عن كتابة الملائكة لأعمال البشر إلى أنواع كثيرة :

فتارة يسند الكتابة إلى الكرام الكاتبين ، وتارة يخبر عن شدة مراقبة الملائكة للعبد وتسجيل ما يلفظه من أقوال ، وتارة يسند الكتابة إليه جل وعلا ؛ تعظيمًا لذلك واهتمامًا بذكره ، وتارة يخبر تعالى عن كتابة أعمال العباد بإسنادها للمجهول ؛ تهويلاً لذكره أو تعظيمًا له ، وكل ذلك هو ما تحدثت عنه الآيات الآتية :

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٠ ـ ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ ـ ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

وقال تعالى في إسناد كتابة بعض الأمور إليه جل وعلا، ومعلوم أن الذي يتولى كتابتها هم الملائكة، ولكنه أسند عز وجل ذلك إليه مبالغة في الاهتمام بذلك - فقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

[آل عمران: ١٨١].

وفي هذا التعبير من التهديد والوعيد ما لا يخفى[١].

وسبب نزول هذه الآية كان في شأن اليهود، حينما قال قائلهم - وهو فنحاص - لأبي بكر: «والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير» تعالى عن قوله ذلك[٢].

قال الشوكاني عن معنى التعبير بقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾: أي: «سنكتبه في صحف الملائكة أو سنحفظه، والمراد الوعيد لهم، وأن ذلك لا يفوت على الله؛ بل هو معد لهم ليوم الجزاء»[٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٧-٧٩].

وقال تعالى عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٨١].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٤٣٤.

(٢) انظر: جامع البيان ٤/ ١٩٥.

(٣) فتح القدير ١/ ٤٠٦.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ [النبأ: ٢٩].

وقال تعالى مسندًا الكتابة إلى المجهول؛ تهويلاً لشأن المكتوب: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقال تعالى ترغيبًا وتعظيمًا لشأن المكتوب: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٠ـ١٢١].

وهذه الآيات دلالتها واضحة على أن كل ما يقوله أو يفعله الشخص يكون مسجلاً ومكتوبًا لا يضيع منه شيء.

وبعد أن عرضنا تلك الآيات التي تثبت تسجيل الملائكة لأعمال العباد في الدنيا، وأنهم موكلون بذلك، أمناء على ما يكتبون، لا يغيب عنهم من أعمال العباد شيء، وأننا نؤمن بذلك إيمانًا كاملاً لا ارتياب فيه ـ بعد عرض ذلك نذكر ما جاء في السنة النبوية من أحاديث تثبت كتابة وتسجيل الملائكة على الإنسان ما يعمله في الدنيا من خير أو شر.

* * *

٢ـ الأدلة من السنة على كتابة الملائكة لأعمال العباد

أخرج الشيخان وغيرهما في فضل الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثل المهجر كمثل الذي يهدي بدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر**»[1] .

وعن رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا يومًا نصلي وراء النبي ﷺ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: «**سمع الله لمن حمده**»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما انصرف قال: «**من المتكلم؟**» قال: أنا، قال: «**رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها؛ أيهم يكتبها أولاً**»[2] .

وأخبر رسول الله ﷺ عن فضل الله وكرمه: أن العبد إذا هم بحسنة فعملها تكتب له عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بها ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وبالعكس السيئة: فإن العبد إذا هم بها فعملها كتبت عليه سيئة واحدة، وإن هم بها ولم يعملها كتب له حسنة كاملة.

ومصداق هذا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ فيما

---

(١) البخاري جـ٢ ص٤٠٧، مسلم جـ١ ص٢٤٥ والنسائي، وابن ماجه، وأبو داود، وأحمد.

(٢) صحيح البخاري جـ٢ ص٢٨٤.

يرويه عن ربه عز وجل قال: قال الله: **«إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك؛ فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»**[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: **«إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة؛ فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها؛ فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة؛ فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها؛ فأنا أكتبها له بمثلها»**[2].

وقال رسول الله ﷺ: **«قالت الملائكة: رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة - وهو أبصر به - فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة؛ إنما تركها من جرائي»**.

وقال رسول الله ﷺ: **«إذا أحسن أحدكم إسلامه؛ فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها حتى يلقى الله عز وجل»**[3].

وقد أرشد ﷺ أمته إلى أمور إذا فعلها العبد كتب الله له بسببها الأجر العظيم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير،**

---

(١) صحيح البخاري جـ١١ ص٣٢٣، ومسلم جـ١ ص٣٣٧.

(٢) أخرجه مسلم جـ١ ص١١٧.

(٣) صحيح مسلم جـ١ ص٣٣٤.

في يوم مائة مرة؛ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة؛ حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر»[1] .

وعن مصعب بن سعد قال: حدثني أبي قال: كنا عند رسول الله ﷺ قال: **«أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟** فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: **يسبح مائة تسبيحة؛ فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة»**[2] .

وفي الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد أحاديث كثيرة، كلها تدل على كتابة الملائكة الحسنة بعشر أمثالها إلى ما يشاء الله من التضعيف، والسيئة بمثلها.

وهذا ما قرره القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وغيرها من الآيات: كالآيات التي ذكرها الله في مضاعفة ثواب الصدقات، وهي كثيرة في القرآن الكريم.

بل تكرم الله بما هو فوق هذا كله؛ حيث أنه يأمر باستمرار الكتابة في صحيفة حسنات العبد المؤمن الذي يشغله عن عبادته التي كان يعتادها سفر أو مرض أو أي شاغل آخر.

---

(١) (٢) صحيح البخاري جـ٦ ص٣٣٨، ومسلم جـ١ ص٥٤٦ وص٥٤٩.

كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا اشتكى العبد المسلم؛ قيل للكاتب الذي يكتب عمله: اكتب له مثل عمله إذ كان طليقًا، حتى أقبضه أو أطلقه»**[١].

وفي هذه الأحاديث التي عرضناها دلالة صريحة على كتابة كل ما يصدر عن العبد، وتسجيله في سجله الخاص خيرًا كان أم شرًا، فإذا جاء يوم القيامة ورأى ما لم يسره في كتابه؛ أخذ يجادل ويجحد وينكر ما كتبه الحفظة رادًا شهادتهم عليه.

كما جاء عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك وقال: **«هل تدرون مم أضحك؟** قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى**، قال: **فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني**، قال: **فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا**، قال: **فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي**، قال: **فتنطق بأعماله**، قال: **ثم يخلى بينه وبين الكلام**، قال: **فيقول: بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل»**[٢].

ولما كان الغرض هو إثبات كتابة الملائكة لأعمال البشر، في صحفهم التي سيجدونها أمامهم في يوم القيامة، فإننا نكتفي بما قدمنا من النصوص في الاستدلال على ثبوت هذا، فهل نفى أحد ممن ينتمي إلى الإسلام من أهل القبلة ذلك؟ هذا ما نبحثه فيما يلي.

* * *

---

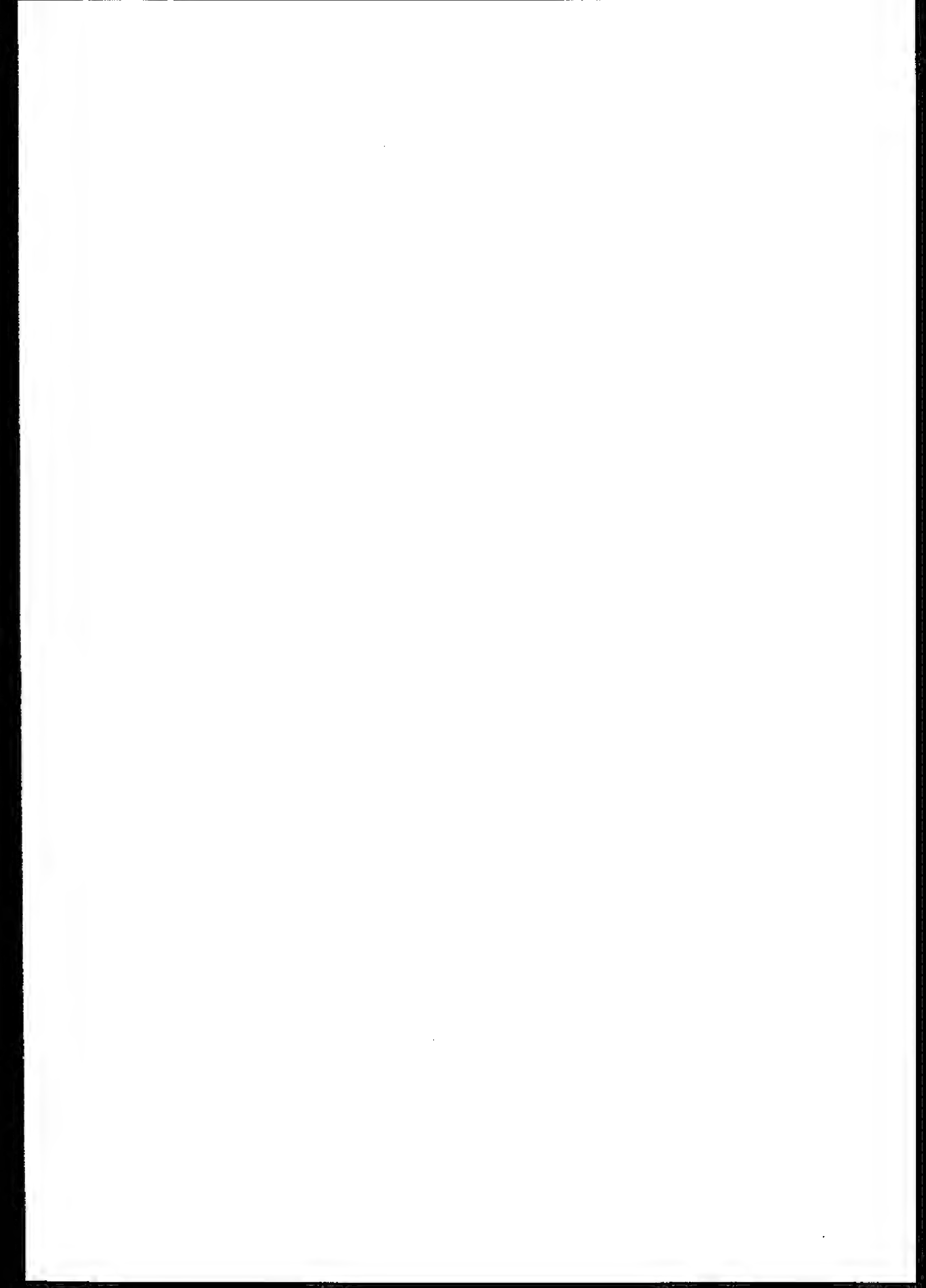
(١) المسند جـ٢ ص٢٠٥.

(٢) مسلم جـ٥ ص٨٢٥.



الفصل الثاني

المنكرون كتابة الملائكة أعمال العباد



الفصل الثاني
المنكرون كتابة الملائكة أعمال العباد

كتابة الملائكة لأعمال العباد ـ كما قدمنا ـ مسألة لها من الوضوح والثبوت ما لا يتصور معه أن يقدم أحد من أهل القبلة ممن ينتمي إلى الإسلام على إنكارها، وقد سبق أن رأينا مصداق ذلك من كتاب الله تعالى، ومن سنة نبيه ﷺ، ومع ذلك فقد وجد من ينفي كتابة الملائكة لأعمال البشر في الدنيا، وهذا هو ما ذهب إليه الجهم بن صفوان الترمذي، فقد نفى وجود الملائكة الكاتبين، الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١١].

ذكر ذلك عنه أبو الحسين الملطي حيث قال: وأنكر جهم ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾»[1].

وإذا كان جهم ينكر كتابة الملائكة لأعمال البشر؛ فما الذي حمله على قوله ذلك؟

وهنا نجد الشيخ خالد العلي في كتابه «جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي» يتلمس الحجج التي حملت جهماً على إنكاره ذلك فيقول:

«وقد يكون نفي جهم للرسل الكاتبين متأتيًا عن اعتقاده بأن الله يعلم ما تخفي النفوس، لذا فلا حاجة له أن يرسل لكل شخص عدداً من الملائكة

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص١١١.

ليكتبوا ما يعمل، أو ليحفظوا جوارحه من الشر، كما أن الإنسان مسير ومقدر عليه من الله أن يقوم بأعماله كافة، وذلك لأن جهمًا من الجبرية، فهو يعتقد أن الإنسان غير قادر على أفعاله وأعماله، أي أنه مسير وليس مخيرًا، ولما كان مسيرًا من قبل الله؛ فلا حاجة لهؤلاء الكتبة لأن يدونوا ما يقوم به من أفعال، لأن هذه الأفعال وضعت عليه مسبقًا من قبل الله الذي يعلم كل شيء».

وبعد هذه الاعتذارات، رد الشيخ خالد على الملطي أيضًا بالتشكيك فيما نسبه إلى جهم؛ بأن ذلك القول لعله «من جملة التشهير بجهم»[1] .

والواقع أنه لا يستبعد من جهم بن صفوان ـ وهو الجريء على إنكار كثير من أمور الدين ـ أن ينكر مثل هذا الأمر، وقد حدثتنا كتب المقالات والعقائد عن آراء جهم وفرقته بما لا يتسع المجال لذكره هنا.

أما بالنسبة لما أورده خالد عن الجهم فإن الرد عليه يمكن أن نوجزه فيما يلي:

(١) لقد شكك خالد العلي في نسبة هذا القول إلى الجهمية، وزعم أنه ربما كان ذلك تحاملاً من الملطي على جهم، ولكن كان ينبغي أن يكون هذا التشكيك مبنيًا على نقل صريح من أن الجهم لم يقل ذلك.

وحيث أنه لم يأت بنص على نفي هذه التهمة عن الجهمية؛ فإن ما نسبه الملطي يبقى صحيحًا إلى أن يثبت العكس، وقديمًا قالوا: الحافظ حجة على من لم يحفظ.

(٢) قد يكون ما اعتذر به خالد عن الجهمية بأنهم قالوا ما قالوه استنادًا إلى علم الله تعالى، وما دام الأمر كذلك فلا حاجة إلى كتابة الملائكة، وهذا أمر

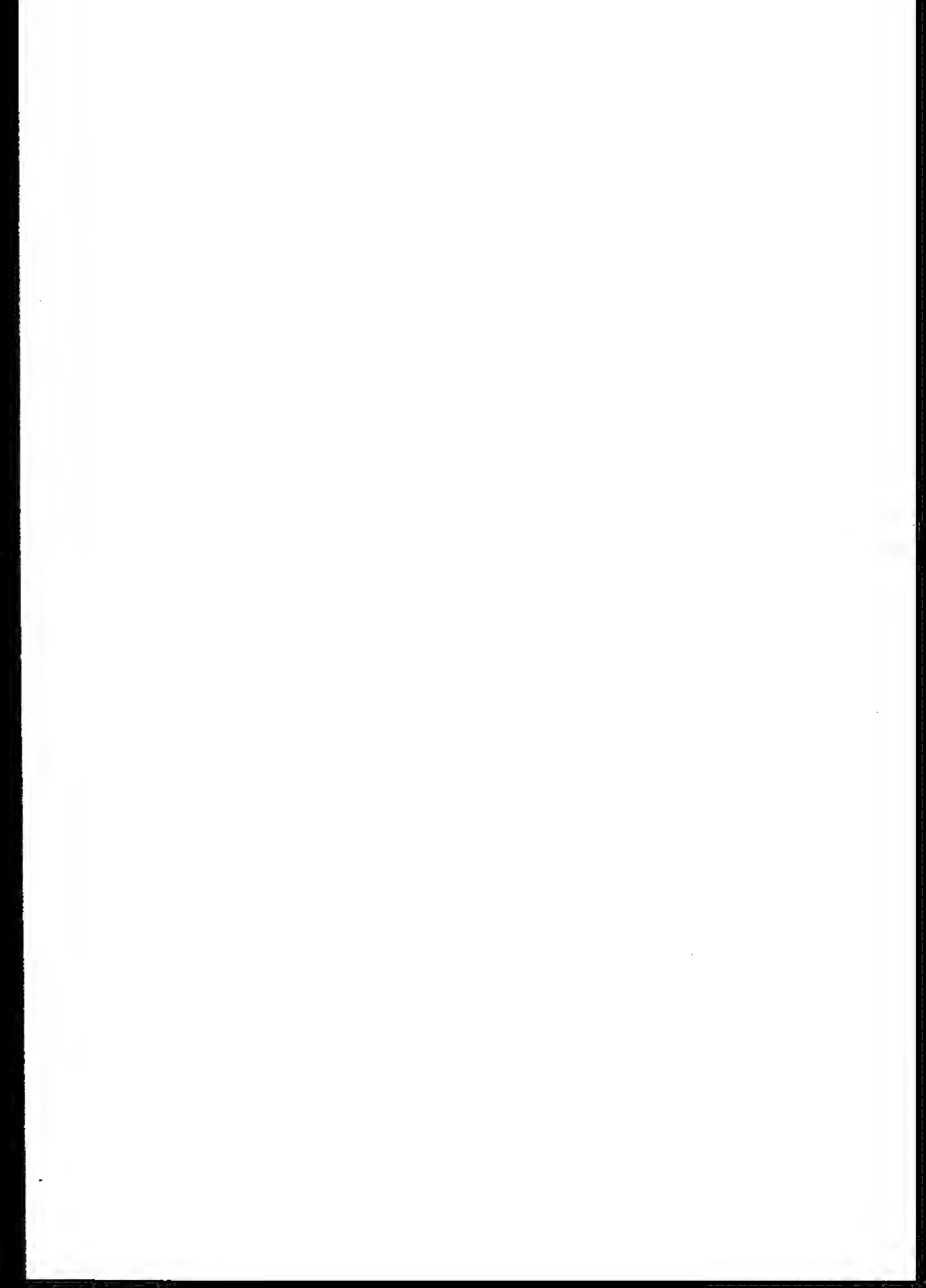
---

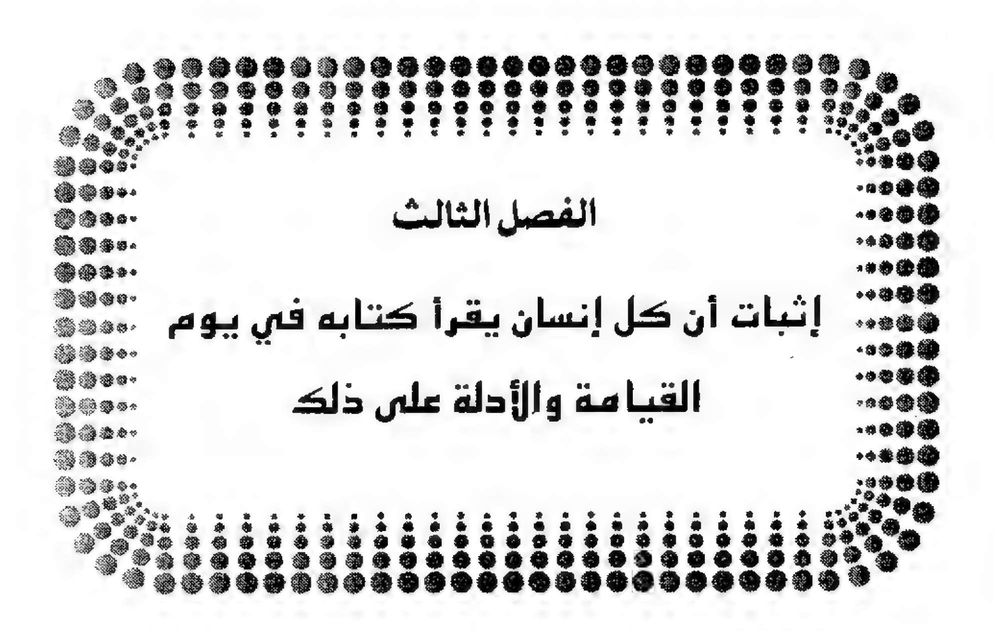
(١) جهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي ص١٢٧ .

صحيح لو لم ترد آيات وأحاديث تؤكد كتابة الملائكة، ومن الحكمة في ذلك حتى لا يبقى للعبد عذر يوم القيامة، وبدليل أن الإنسان يوم القيامة سوف يطعن في شهادة الملائكة وكتابتهم؛ فيقيم الله تعالى عليه شاهداً من نفسه؛ فتشهد أعضاؤه بما فعلت، وقد ورد في كل ذلك نصوص صحيحة صريحة؛ فبطل دليل الجهم، وما ادعاه خالد في الاعتذار عن الجهم في نفي كتابة الملائكة.

وعلى كل حال؛ فسواء صح هذا القول عن جهم أو لم يصح، فإنه قول مردود، وهو خطأ كبير، يؤدي بصاحبه إلى الكفر، لأنه ينكر ما ثبت في الشرع وأجمع عليه جميع أهل القبلة، ومنكر ذلك كافر.

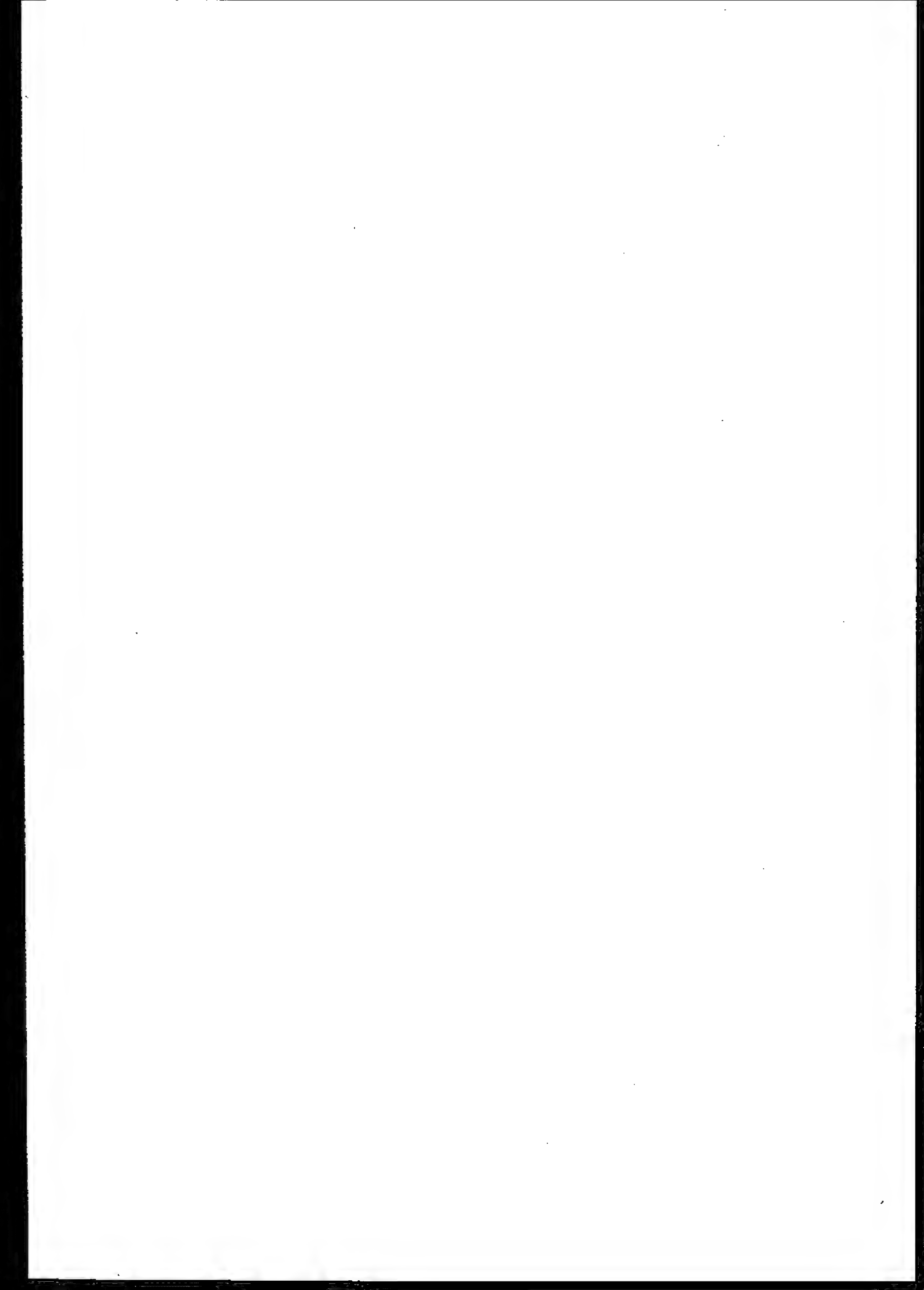
* * *





الفصل الثالث

إثبات أن كل إنسان يقرأ كتابه في يوم القيامة والأدلة على ذلك



الفصل الثالث
إثبات ان كل إنسان يقرأ كتابه في يوم القيامة والأدلة على ذلك

وبعد عرض ما تقدم من إثبات تسجيل الملائكة لكل ما يصدر عن الشخص من أقوال وأفعال، نورد هنا إثبات قراءة كتاب الأعمال في يوم القيامة، كما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية.

١ ـ الأدلة من القرآن الكريم على ذلك :

(١) قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣ ـ ١٤].

يخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما من إنسان إلا وسيجد كتاب أعماله ملازمًا له، ينشر عليه في يوم القيامة، ويقال له: اقرأ كتابك وأنت حسيب نفسك، بعد أن تقف على كل أعمالك التي عملتها في الدنيا، وهذا هو العدل التام والإنصاف الكامل.

«عن أنس رضي الله عنه في قوله: ﴿ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال: كتابه».

وعن السدي رضي الله عنه في الآية قال: الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب؛ فيقول: رب إنك قد قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني

أحاسب نفسي، فيقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

وفي قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه: (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه يقرؤه يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا).

وعن مجاهد رضي الله عنه أنه قرأ: (ويخرج له يوم القيامة كتابًا) بفتح الياء: يعني يخرج الطائر كتابًا.

وعن قتادة رضي الله عنه في قوله: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قال: «سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئًا في الدنيا»[1].

وقد عبر الله عن كتاب الأعمال بالطائر: «أي عمله الذي طار عنه من خير وشر»[2].

(٢) وقال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٩].

وهذا وصف من الله جل وعلا، وتقسيم كذلك لحال الناس بالنسبة لإيتائهم كتبهم:

---

(١) انظر: الدر المنثور جـ٥ ص٢٤٩-٢٥٠.

(٢) المفردات ص٣١٠.

ـ قسم يأخذه بيمينه، ثم يعبر عن سروره وغبطته وما يصير إليه حاله من النعيم العظيم والفوز الكبير.

وقسم آخر يأخذه بشماله، ثم يعبر عن حسرته وندامته وتمنيه أنه لم يكلف بقراءة كتاب ولم يوقف لحساب، أو تمنيه كذلك لأن تكون موتته التي ماتها هي القاضية فلا يبعث ولا يحاسب، ثم يتذكر بعض الأسباب التي كانت تحول بينه وبين السعادة في الآخرة، والتي منها اغتراره بالمال والسلطان، وهما آفة الكثير ممن يقع عليهم شدة الحساب ووقوع العذاب.

قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية:

«يقول تعالى ذكره: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه فيقول: تعالوا ﴿ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾، وأخرج عن ابن زيد في قول الله: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ . قال: تعالوا، وأخرج عن قتادة أنه قال: «كان بعض أهل العلم يقول: وجدت أكيس الناس من قال: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾.

ومعنى قوله: ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ يقول: إني علمت أني ملاق حسابيه إذا وردت يوم القيامة على ربي.

قال ابن عباس في معنى الظن المذكور في الآية: أي أيقنت، وقال قتادة: ظن ظنًا يقينًا فنفعه الله بظنه، وقال ابن زيد: إن الظن من المؤمن يقين. وعن مجاهد قال: كل ظن في القرآن ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ ﴾ يقول: أي علمت»[1].

وأما الكافر الذي أعطي كتابه بشماله فقال: ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥)

---

(١) انظر: جامع البيان جـ٢٩ ص٦٠.

ولَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ ، يقول: «ولم أدر أي شيء حسابيه».

﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يقول: «يا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت هي الفراغ من كل ما بعدها، ولم يكن بعدها حياة ولا بعث».

قال قتادة: «تمنى الموت ولم يكن في الدنيا شيء أكره عنده من الموت»[1].

(٣) وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف: ٤٩].

وهذا تصوير بديع لحالة وقوف الناس على كتبهم خائفين وجلين، وكأنهم قد اطلعوا على ما فيها من تسجيل كامل لجرائمهم التي كانوا يتفننون في ارتكابها، ومع هذا الخوف الشديد والرهبة الكاملة فهم لا يخفون انزعاجهم من دقة هذا الكتاب، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووضحها تمام الوضوح، ولكن هذا صنع من يريد العدل ـ سبحانه وتعالى ـ بعباده، فليس هناك خوف من الظلم؛ فليطمئن كل مخلوق إلى أنه سوف لا يقع عليه إلا ما قدم لنفسه.

قال ابن كثير عن معنى الآية: «﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة؛ لأن هذا الكتاب لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

قال سعد بن جنادة رضي الله عنه: «لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين؛

---

(١) انظر: جامع البيان جـ ٢٩ ص ٦٢.

نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ : **اجمعوا، من وجد عودًا فليأت به، ومن وجد حطبًا أو شيئًا فليأت به**، قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركامًا، فقال النبي ﷺ : **أترون هذا؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا، فليتق الله رجل ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها محصاة عليه»**[1] .

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول: «يا وليتنا: ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر»[2] .

(٤) وقال تعالى:

﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴾ [الإسراء: ٧١].

يخبر سبحانه وتعالى أنه في يوم القيامة، في موقف فصل القضاء، يدعو كل أمة بإمامهم، ثم يعطون كتب أعمالهم، على ما سبق وصفه، إما باليمين أو بالشمال، وأخبر سبحانه أنه لا يقع على أي مخلوق ظلم أو نقص من عمل، حتى وإن كان شيئًا تافهًا لا يسترعي الانتباه، كالفتيل ومثقال الذرة وما إلى ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ خلاف بين العلماء في المراد بالإمام المذكور هل هو:

أ ـ كتاب الأعمال.

ب ـ أو هو النبي في كل أمة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٨٧ ـ ٨٨.

(٢) التذكرة ص٢٥٩.

جـ- أو هو الكتاب الذي أنزل على كل أمة تشريعًا لهم.

د- أو المراد به من كان إمامًا لكل قوم.

هـ- أو المراد به الأمهات، أي ندعو كل إنسان بأمه؛ فيقال: يا فلان ابن فلانة.

أقوال لأهل العلم، أما القول الأول فهو لابن عباس واختاره ابن كثير، وأما الأقوال الأخرى: فإن أضعفها القول بأن الإمام المذكور الأمهات، وقد قال الشنقيطي عنه بأنه «باطل بلا شك»[1].

(٥) وقال تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

وفي هذه الآيات - إضافة إلى تقسيم من يؤتون كتبهم، وما يحصل لكل واحد منهم من نتيجة، خيرًا كانت أم شرًا - ، فيه إخبار كذلك عن حالة أخرى من حالات الكفار حينما يأخذون كتبهم، وهي أخذهم لها من وراء الظهر، فكيف يتم ذلك؟

هذا ما سنذكره بعد استكمال عرض الأدلة.

ونكتفي بما تقدم عرضه من الآيات البينات في إثبات كتاب الأعمال وقراءته في يوم القيامة، لنورد أيضًا بعض ما جاء في السنة النبوية من أحاديث إثبات ذلك.

---

(١) انظر: أضواء البيان جـ٣ ص٦١٦-٦١٧.

٢ ـ الأدلة من السنة النبوية :

أما ما جاء في السنة النبوية في إثبات ذلك، فقد تقدم حديث ابن عمر الثابت في الصحيحين حينما سئل عن النجوى وتقرير الله لعبده بذنوبه، وفيه :

«فيقول: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم تطوى صحيفة حسناته»، كما في لفظ البخاري، وفي لفظ مسلم **«فيعطى صحيفة حسناته»**[١] الحديث.

وكذلك الحديث المروي عن أبي هريرة وأبي موسى الأشعري وقتادة، وابن مسعود في باب العرض وفيه :

«وأما العرضة الثالثة: فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي؛ فآخذ بيمينه وآخذ بشماله»[٢] .

وكذلك ما سنذكره في مبحث الميزان من أحاديث، ومنها حديث البطاقة، وفيه : **«فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مثل مد البصر»**[٣] الحديث. وغيره من الأحاديث.

وعن أبي داود عن عائشة رضي الله عنها : «أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ : **ما يبكيك؟** قلت : ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ : **أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل، وعند الكتاب حين يقال: هاؤم اقرءوا كتابيه**

---

(١) البخاري جـ٨ ص٣٥٣، مسلم جـ٥ ص٦١٤ .

(٢) سنن الترمذي جـ٤ ص٦١٧، وقد تقدم ذكر درجة الحديث.

(٣) سيأتي تخريجه في مبحث الميزان.

حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم»[١] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، فيوضع ما أحصي عليه، فتمايل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار، قال: فإذا أدبر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن يقول: لا تعجلوا لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان»**[٢] . وهذه رواية الإمام أحمد.

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يحضر الناس يوم القيامة عراة حفاة»**، فقالت أم سلمة: فقلت: يا رسول الله، واسوأتاه ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: **«شغل الناس»**، قلت: ما شغلهم؟ قال: **«نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل»**[٣] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين، ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم**

---

(١) أخرجه أبو داود جـ٢ ص٥٤١، وقد وصف سند هذا الحديث في الفتح الرباني بأنه «سند صحيح» جـ٢٤ ص١٤٥، وأخرجه الأصفهاني في الحجة في بيان الحجة ص٤٨٠ تحقيق د. محمد ربيع.

(٢) رواه أحمد جـ٢ ص٢٢١، قال البنا في الفتح الرباني: جـ٢٤ ص١٤٥: «وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٣) قال المنذري جـ٤ ص٣٨٥: «رواه الطبري في الأوسط بإسناد صحيح». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد جـ١٠ ص٣٣٣: «رواه الطبراني في الأوسط والكبير ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن موسى وهو ثقة».

من الله عليه، فيقول الله عز وجل لأصغر نعمة. أحسبه قال : في ديوان النعم.: خذي ثمنك من عمله الصالح، فتستوعب عمله الصالح، ثم تنحى وتقول: وعزتك ما استوفيت، وتبقى الذنوب والنعم وقد ذهب العمل الصالح، فإذا أراد الله أن يرحم عبداً قال: يا عبدي، قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك. أحسبه قال : ووهبت لك نعمي.»[1] .

وروى الإمام أحمد والحاكم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئًا، وديوان لا يترك الله منه شيئًا، وديوان لا يغفره الله.

فأما الديوان الذي لا يغفره الله: فالشرك بالله. قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ .

وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئًا: فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء.

وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئًا: فظلم العباد بعضهم بعضًا، القصاص لا محالة»[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ قال : «يدعى أحدهم، فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، وينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم آتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا، لكل رجل منكم مثل هذا.

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب جـ٤ ص٣٩٧ وعزاه إلى البزار.

(٢) رواه أحمد جـ٦ ص٢٤٠.

قـال : **وأما الكافر، فيسود وجهه، ويمد له في جسمه ستون ذراعًا على صورة آدم، فيلبس تاجًا فيراه أصحابه، فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم، فيقولون: اللهم أخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا»**[١] .

وأخرج الإمام ابن ماجه بسنده إلى عبد الله بن بسر أنه قال: قال النبي ﷺ : **«طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا»**[٢] .

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : **«يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة، فتنصب بين يدي الله تبارك وتعالى، فيقول تبارك وتعالى: ألقوا هذه واقبلوا هذه، فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيرًا، فيقول الله عز وجل: إن هذا كان لغير وجهي، وإني لا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي»** .

وفي رواية : **«فتقول الملائكة: وعزتك ما كتبنا إلا ما عمل، قال: صدقتم، إن عمله كان لغير وجهي»**[٣] .

وثبت في صحيح مسلم ـ بمعنى هذا الحديث ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : **«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»**[٤] .

وأخرج العقيلي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : **«الكتب كلها**

---

(١) الترمذي جـ٥ ص٣٠٢، وقال: حديث حسن غريب .

(٢) سنن ابن ماجه جـ٢ ص١٢٥٤ ، قال محمد فؤاد في الزوائد : إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد جـ١٠ ص٣٥٠ ، وعزاه إلى الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح ، وعزاه كذلك إلى البزار .

(٤) صحيح مسلم ص٨٣٥ «النووي» .

تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة يبعث الله ريحًا فتطيرها بالأيمان والشمائل، أول خط فيها: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾»[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: **يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا؛ وأما عند تطاير الكتب فإما أن يعطي بيمينه أو يعطى بشماله فلا، وحين يخرج عنق من النار فينطوي عليهم ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلهًا آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد،** قال: **فينطوي عليهم، ويرمي بهم في غمرات جهنم. ولجهنم جسر. أدق من الشعرة وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك، يأخذون من شاء الله، والناس عليه كالطراف.**.» إلخ الحديث[2] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يحيى عن إسماعيل ثنا عامر، وحدثنا محمد بن عبيد ثنا إسماعيل بن أبي خالد عن رجل عن الشعبي قال: «مر عمر بطلحة (فذكر معناه)، قال: مر عمر بطلحة فرآه مهتمًا، قال: لعلك ساءك إمارة ابن عمك ـ قال: يعني أبا بكر رضي الله عنه ـ: فقال: لا، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إني لأعلم كلمة لا يقولها الرجل عند موته إلا كانت نوراً في صحيفته، أو وجد لها روحًا عند الموت**، قال عمر: أنا أخبرك بها، هي الكلمة التي أراد بها عمه: شهادة أن لا إله إلا الله، قال: فكأنما كشف عني غطاء، قال: صدقت، لو علم كلمة هي أفضل منها لأمره بها»[3] .

---

(١) ذكره السفاريني في لوامع الأنوار جـ٢ ص١٨٠، وعزاه إلى العقيلي.

(٢) رواه أحمد جـ٦ ص١١٠، قال الهيثمي في مجمع الزوائد جـ١٠ ص٣٥٩: «وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٣) المسند جـ١ ص٣٧.

وذكر ابن كثير ـ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يدني الله العبد يو م القيامة، فيضع كنفه ليستره من الخلائق كلها، ويدفع إليه كتابه في ذلك الستر، فيقول: اقرأ يا ابن آدم كتابك، فيمر بالحسنة فيبيض لها وجهه ويسر بها قلبه، قال: فيقول الله تعالى: أتعرف يا عبدي؟ فيقول: يا رب أعرف، فيقول: إني قد تقبلتها منك؛ فيخر ساجداً، فيقول: ارفع رأسك وخذ في كتابك، فيمر بالسيئة فيسود لها وجهه، ويوجل منها قلبه، وترعد منها فرائصه، ويأخذه من الحياء من ربه ما لا يعلمه غيره، فيقول الله: أتعرف يا عبدي؟ فيقول: نعم يا رب أعرف، فيقول: فإني قد غفرتها لك.

فلا يزال بين حسنة تقبل وسيئة تغفر فيسجد، لا يرى الخلائق منه إلا ذاك السجود، حتى ينادي الخلائق بعضها بعضاً: طوبى لهذا العبد الذي لم يعص الله قط، ولا يدرون ما لقي فيما بينه وبين الله تعالى مما قد وقفه عليه[1].

ونكتفي بإيراد ما تقدم من ذكر الأدلة من السنة النبوية على ثبوت الصحف، وإيتاء كل عبد صحيفة عمله التي قدمها لنفسه بما صدر عنه من أعمال وأفعال، سجلها عليه الكرام الكاتبون؛ ليجازى بما فيها يوم القيامة؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ومصداق هذه الأحاديث ما تقدم من الآيات حيث إن هذه الأحاديث تعتبر شرحاً لما ورد منها.

ومن تلك النصوص يتضح بثبوت إيتاء الله كل عبد صحيفة أعماله ـ يقرؤها ـ بيمينه أو بشماله، أعاذنا الله من كل سوء.

* * *

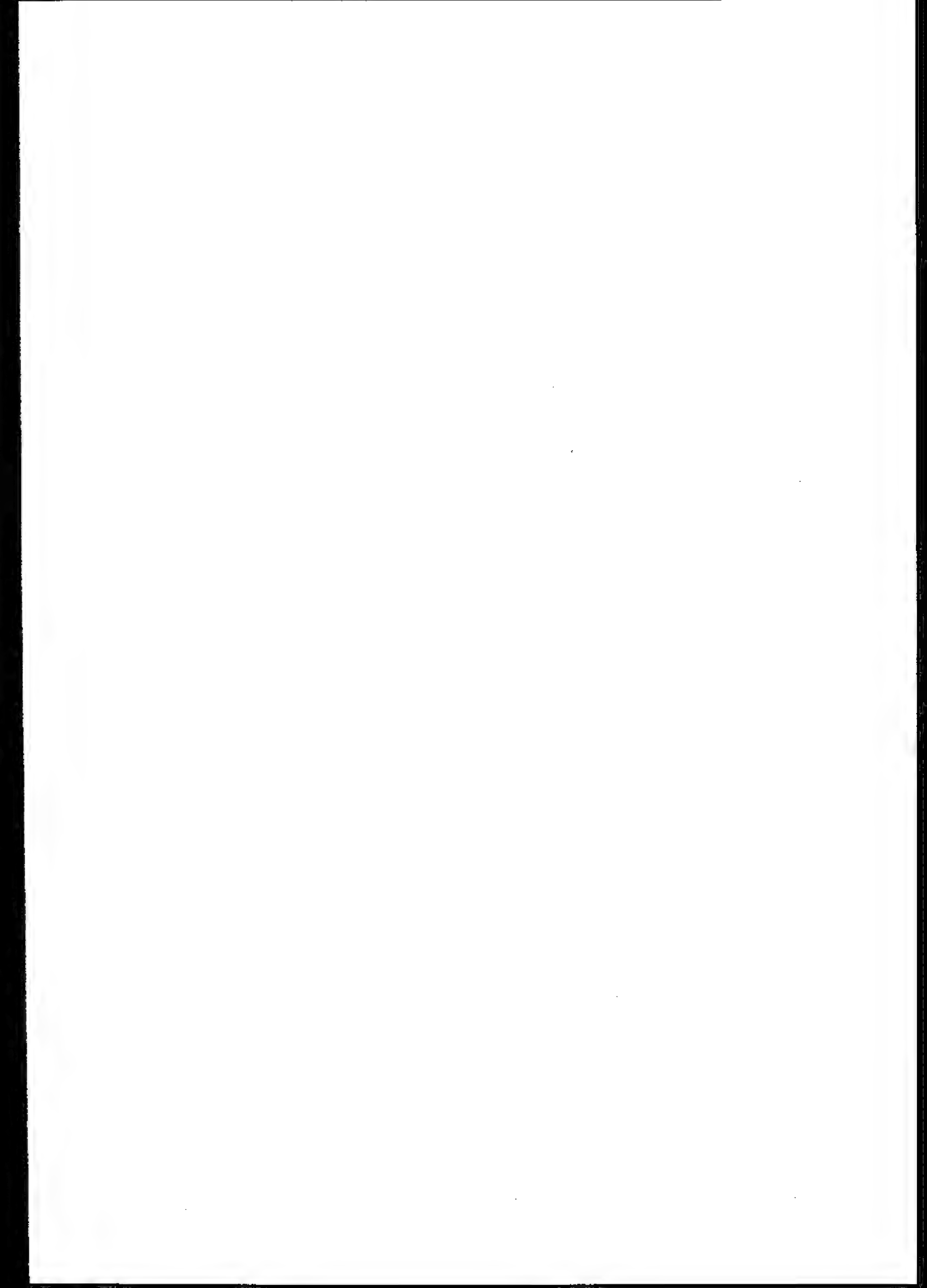
---

(١) ذكره ابن كثير في النهاية جـ٢ ص١٣٥ وعزاه إلى ابن أبي الدنيا.



الفصل الرابع

كيفية أخذ الكتاب



الفصل الرابع

كيفية أخذ الكتاب

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم الكيفيات التي تؤخذ بها الكتب ـ كما رأينا من عرض النصوص السابقة ـ وأنهم يأخذونها على هيئات مختلفة:

(١) فمنهم من يعطى كتابه بيمينه، وهو ما عبرت عنه الآية:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩].

(٢) ومنهم من يعطى كتابه بشماله، وهو ما عبرت عنه الآية:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾.

[الحاقة: ٢٥].

(٣) ومنهم من يعطى كتابه وراء ظهره، وهو ما عبرت عنه الآية:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾.

[الانشقاق: ١٠، ١١].

وليس في القرآن الكريم حالة غير تلك التي تقدمت.

وتلك الحالات التي تقدمت، وإن كانت تبدو في الظاهر أنها ثلاث، لكنها في الواقع حالتان فقط لا ثالث لهما: إما أن يأخذه بيمينه، أو يأخذه بشماله.

أما حالة إيتائه كتابه وراء ظهره، فهذه حالة لم تعهد مثلها في الدنيا،

ولهذا فقد اختلفت أقوال العلماء في كيفيتها، وإن كانت النتيجة واحدة: وهي أخذ الكافر كتابه بشماله ولكن من وراء ظهره.

ومن أقوال العلماء في ذلك ما يأتي:

«قال سعيد بن المسيب: الذي يأخذ كتابه بشماله تلوى يده خلف ظهره ثم يعطى كتابه. وقيل: تنزع من صدره إلى خلف ظهره.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ قال: تجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه»[١].

وفي التذكرة أن الذي يأخذ كتابه وراء ظهره: «تخلع كتفه اليسرى فتجعل يده خلفه، فيأخذ بها كتابه. وقال مجاهد: تحول وجهه في موضع قفاه، فيقرأ كتابه لذلك»[٢].

وقال الشنقيطي في الجمع بين تلك الحالات ـ التي تبدو أنها ثلاث ـ قال: «ولا منافاة بين أخذه بشماله، وإيتائه وراء ظهره، لأن الكافر تنقل يمناه إلى عنقه، وتجعل يسراه وراء ظهره، فيأخذ بها كتابه»[٣].

وقال البرديسي ـ وهو يشرح ما جاء من أخذ الكافر كتابه بشماله، وما جاء من أخذه له من وراء ظهره ـ قال في التوفيق بين ذلك:

«والجمع بينهما: أن الكافر يدخل يده اليسرى من صدره، ويخرجها من وراء ظهره، ثم يعطى كتابه بشماله»[٤].

---

(٢) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٨٢.

(٢) التذكرة ص٢٥٨.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص٣١٢ ضمن أضواء البيان جـ٩.

(٤) تكملة شرح الصدور ص١٥.

وتلك الكتب التي تعطى في ساحة فصل القضاء تعطى لأصحابها، يقرأ كل صاحب كتاب كتابه، سواء أكان قارئًا أم لم يكن قارئًا.

قال قتادة: «سيقرأ من لم يكن قارئًا في الدنيا»[١].

وقال الحسن: «يقرأ الإنسان كتابه؛ أميًا كان أو غير أمي»[٢].

وبقراءتها يتبين للإنسان نتيجة أعماله، ظاهرة أمامه، حسنة أم قبيحة، وإن كان بعض العلماء يذكر أن الله تعالى يخلق لكل إنسان ـ حينما يعطى كتابه ـ علمًا ضروريًا يفقه علمها، كما ذكر ذلك البرديسي في تكملة شرح الصدور[٣].

ونزيد هذا وضوحًا في مبحث الميزان.

أما بالنسبة للمؤمن العاصي: فهل يأخذ كتابه بشماله أو بيمينه؟

وسبب هذا الخلاف فيه: هو أنه لم يتبين أمره للعلماء، هل هو من أصحاب النعيم مباشرة؟ أو من أصحاب الجحيم مؤقتًا؟

والواقع أن أمره محتمل لكلا الحالين، وليس هناك نص ثابت يقطع هذا الاحتمال، غير ما ذكر الله من تقسيم الناس إلى فريقين: مؤمن يأخذ كتابه بيمينه، أو كافر يأخذه بيساره.

وقد ذكر السفاريني في بيان ذلك أنه:

«يعطى الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره، بأن تخلع يده أو يدخلها من صدره أو تلوى، ويعطى المؤمن العاصي كتابه بشماله من أمامه، ويعطى

(١) تفسير البغوي ٣/ ١٠٨.

(٢) التذكرة ص٢٥٥.

(٣) شرح الصدور ص١٦.

المؤمن الطائع كتابه بيمينه من أمامه، وقد جزم الماوردي بأن المشهور أن الفاسق الذي مات على فسقه دون توبة يأخذ كتابه بيمينه، ثم حكى قولاً بالوقوف».

وذكر السفاريني أيضًا عن يوسف بن عمر من المالكية أنه قال:

«اختلف في عصاة الموحدين، فقيل: يأخذون كتبهم بأيمانهم، وقيل: بشمائلهم. وعلى القول بأنهم يأخذونها بأيمانهم: قيل: يأخذونها قبل الدخول في النار، فيكون ذلك علامة على عدم خلودهم فيها، وقيل: يأخذونها بعد الخروج منها»[1].

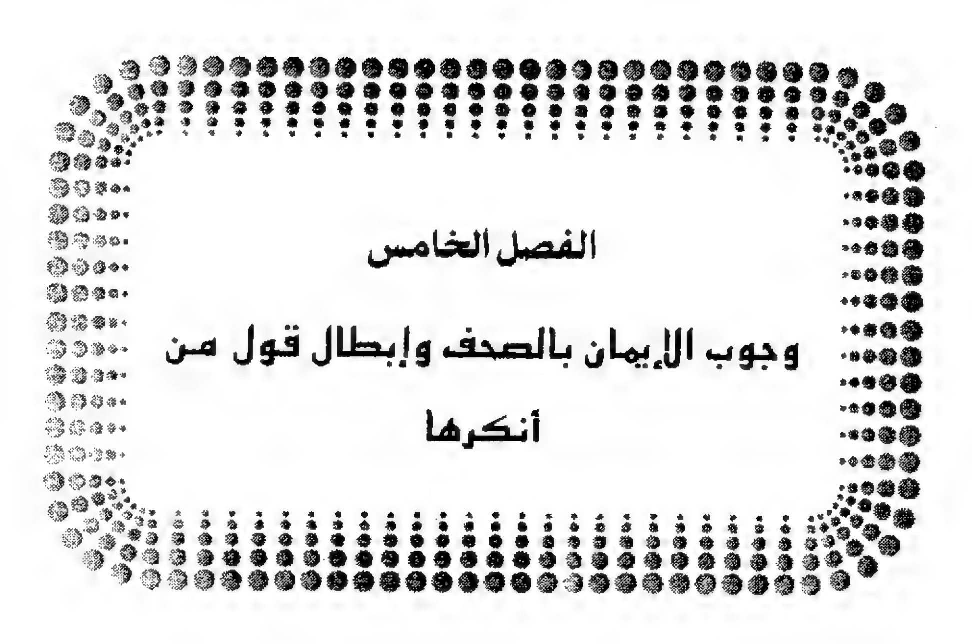
وقال البرديسي: «فمن أوتي كتابه بيمينه - وهو المؤمن الطائع والعاصي، على المشهور - يأخذه قبل دخوله النار، ويكون علامة على عدم خلوده»[2].

والواقع أن هذه المسائل الغيبية مما لا يعلمها إلا الله، وتحتاج في إثباتها - لاعتقادها والقول بها - إلى نص صحيح عن المصطفى ﷺ، وقد ذكر الله في القرآن الكريم حالتين من الحالات التي تؤخذ بها الكتب، فيجب اعتقاد ذلك والجزم به، وعدم الجزم بما وراء ذلك من الهيئات التي يذكرها العلماء، إلا بثبوت الدليل.

* * *

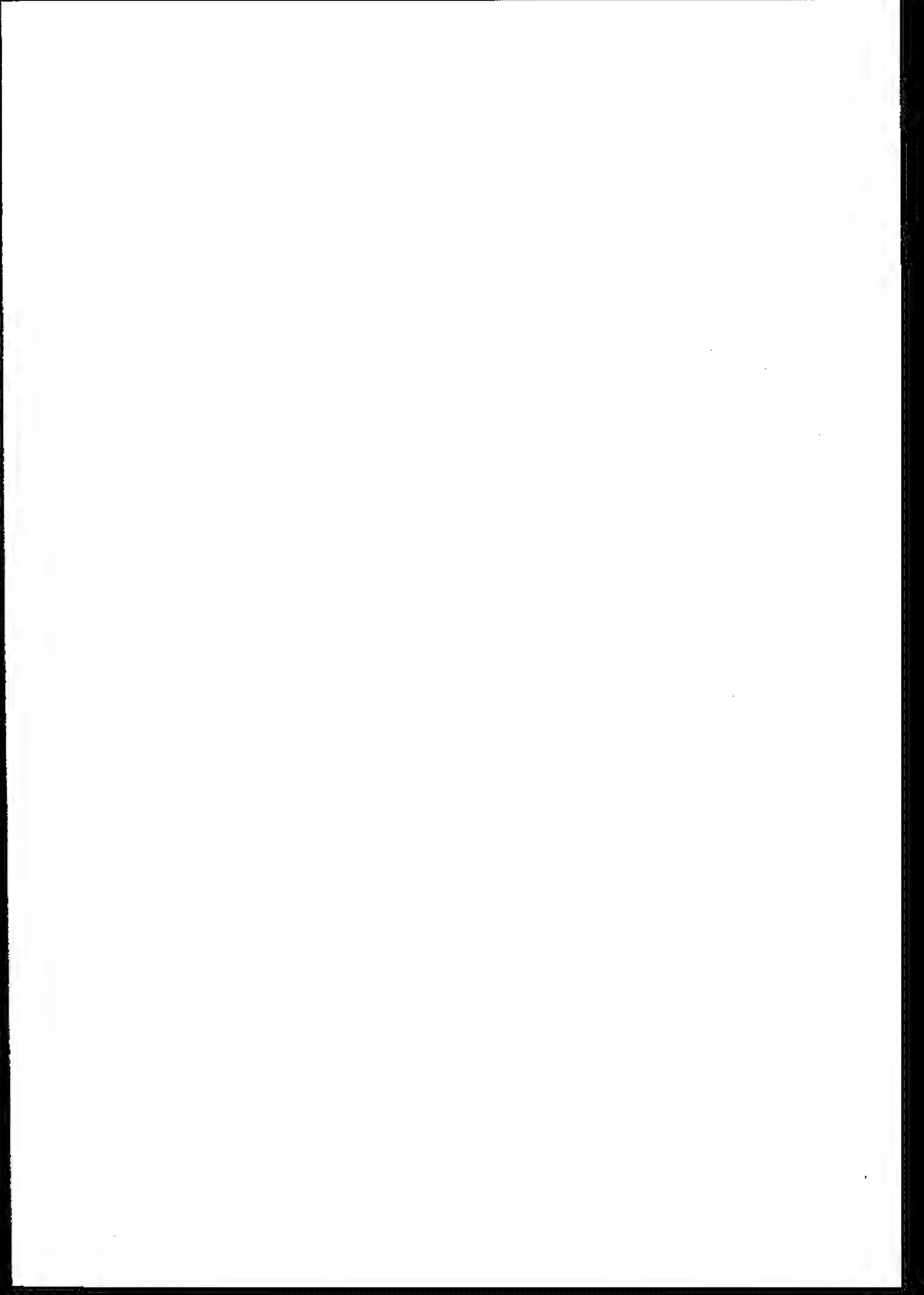
(١) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٨٣.

(٢) تكملة شرح الصدور ص١٥.



الفصل الخامس

وجوب الإيمان بالصحف وإبطال قول من أنكرها



الفصل الخامس
وجوب الإيمان بالصحف وإبطال قول من أنكرها

فيما تقدم ذكره من الأدلة على ثبوت الصحف وقراءتها في يوم القيامة، وقبل ذلك تسجيل أعمال بني آدم عليهم، وثبوت ذلك في كتاب الله عز وجل، وفي سنة نبيه ﷺ، وفي أقوال علماء الإسلام - ما فيه الكفاية لمن أراد الله هدايته إلى الحق.

وكيف ينكر صحف الأعمال شخص ينتسب إلى الإسلام وهو يقرأ تلك الآيات والأحاديث في إثباتها، وفي الأمر بالاستعداد لها بالعمل الصالح؟!

ولهذا فإنه لم ينقل عن أحد من السلف - أهل السنة والجماعة ومن سار على طريقتهم - خلاف حول ثبوت الصحف وأخذها باليمين أو بالشمال، وقراءتها في يوم القيامة في موقف فصل القضاء، فقد تلقوا خبر ذلك بالقبول والتسليم، وكفروا كل من أنكر شيئًا من ذلك[1] .

وقال السفاريني:

«والحاصل أن نشر الصحف وأخذها باليمين أو الشمال مما يجب الإيمان به، وعقد القلب بأنه حق؛ لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع»[2] .

وقال البزدوي: «قال أهل السنة والجماعة: إن قراءة الكتب حق، وإن

---

(١) انظر: كتاب تبسيط العقائد ص٢٢٥.

(٢) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٨٠، وانظر الكواشف الجلية ص٣٤٢.

الملائكة يكتبون الحسنات للعباد وسيئاتهم على الكتب، فتقرأ عليهم يوم القيامة . . . وفي هذا الباب أحاديث كثيرة جاءت عن النبي ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم، فيها ما يدل على صحة مذهب أهل السنة والجماعة، وكذا في كتاب الله ما يدل عليه»[١] .

إذا ثبت ذلك؛ فإن مما ينبغي الإشارة إليه: ما نسب إلى بعض أهل القبلة من إنكار قراءة الكتاب، وتسجيل الملائكة لأعمال العباد، وإن كان ابن حزم رحمه الله قد نفى أن يكون أحد ممن ينتمي إلى الإسلام قد خالف في هذا، كما في قوله: «قال أبو محمد: وكل هذا مما لا خلاف فيه بين أحد ممن ينتمي إلى الإسلام، إلا أنه لا يعلم أحد من الناس كيفية ذلك الكتاب»[٢] .

وممن نسب إليهم ذلك:

فرقة المعتزلة، والروافض، وعامة المبتدعة، كما عبر عن ذلك البزدوي بقوله: «وعند المعتزلة والروافض وعامة المبتدعة لا كتاب ولا قراءة»[٣] .

وممن ذكر أيضًا نكران المعتزلة للكتاب الشيخ عبد الكريم محمد المدرسي في قوله عنهم:

وأنكرت المعتزلة الكتاب والحساب، وأولوهما بإظهاره تعالى ما علم من أعمالهم عليهم ليجزيهم عليها، زعمًا منهم أن ذلك عبث، وهو تعالى بريء عن فعله»[٤] .

---

(١) كتاب أصول الدين ص١٦١ .

(٢) الفصل جـ٤ ص٦٦ .

(٣) أصول الدين ص١٦١ .

(٤) الوسيلة في شرح الفضيلة ص٨٠١ .

والذي يبدو أن نسبة إنكار كتاب الأعمال ونشر الصحف في يوم القيامة إلى فرقة المعتزلة فيه نظر، وذلك أن المعتزلة لا تنكر نشر الصحف، كما يفهم ذلك من كلام القاضي عبد الجبار المعتزلي، فإنه حينما ذكر مبحث الصحف قال: «وأما نشر الصحف فقد نطق به القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾»[١].

ومعلوم أنه لا أحد من أهل القبلة يستحل رد ما نطق به القرآن، فربما يكون إنكار الصحف قد صدر من بعضهم - كالغلاة منهم لا جميعهم - حتى يتم التوفيق بين ما ذكره ابن حزم ومن قال بقوله، وبين ما ذكره القاضي عبد الجبار.

ويذكر الشيخ عطية محمد سالم - دون عزو إلى أحد - أن بعض الناس يذهب في معنى إيتاء الكتاب إلى تأويل بعيد جداً عن الحقيقة والواقع، وإن غطاه قائله بحيلة التأويل، فهو يقول عند ذكره لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾، يقول: «فهو كتاب مكتوب ينشر يوم القيامة، يقرؤه كل إنسان بنفسه، مما يرد قول من يجعل أخذ الكتاب باليمين أو الشمال كناية عن اليمن والشؤم، وهذا في الواقع إنما هو من شؤم التأويل الفاسد، وبدون دليل عليه، والمسمى عند الأصوليين باللعب»[٢].

* * *

(١) شرح الأصول الخمسة ص٧٣٦.

(٢) أضواء البيان ص٤٤٤ جـ٨، وهو الأول من تتمة الكتاب المشار إليه.

ملاحظات

مما يجدر بالملاحظة والتنبيه إليه: ما يذكره بعض العلماء في هذا الباب من مسائل غيبية لا مجال لأحد في الكلام فيها بدون دليل، ولا يجزمون برفعها إلى رسول الله ﷺ، وهذا ما يجعل الشخص يتوقف في القول بها كثيراً؛ وذلك لأنها نصوص غيبية لا تقال إلا عن رسول الله ﷺ، لكنها ليست مرفوعة.

والظن بمن قال ذلك أن يكون قد اطلع على رفعها ولكنه لم يذكرها مرفوعة، ولكن يبقى السؤال: لماذا لم يصرح برفعها وهو يعرف ذلك؟ ولعلها ـ والله أعلم ـ مسائل غير ثابتة، أو لعلها استنباطات لبعض العلماء على ضوء نصوص لم يتيسر لي الاطلاع عليها الآن.

ومن هذه المسائل ما يلي:

(١) ما ينقله ابن كثير عن ابن أبي الدنيا بسنده إلى عثمان بن أبي الواتكة أو غيره قال: «من أوتي كتابه بيمينه أتي بكتاب في باطنه سيئاته وظاهره حسناته، فيقال له: اقرأ كتابك، فيقرأ باطنه فيساء بما فيه من سيئاته، حتى إذا أتى على آخرها قرأ فيه: هذه سيئاتك وقد سترتها عليك في الدنيا وغفرتها لك اليوم، ويغبطه بها الأشهاد ـ أو قال: أهل الجمع ـ بما يقرءون في ظاهر كتابه من حسناته، ويقولون: سُعِدَ هذا، ثم يؤمر بتحويله وقراءة ما في ظاهره، فيحولها له ويبدل الله ما كان في باطنه من سيئاته فيجعلها الله حسنات، حتى

يأتي على آخرها، ثم يقول: هذه حسناتك قد قبلتها منك، فعند ذلك يقول لأهل الجمع: ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾.

قال: وأما من أوتي كتابه وراء ظهره، يأخذه بشماله، ثم يقال له: اقرأ كتابك، فيقرأ كتابه في باطنه حسناته وفي ظاهره سيئاته، فيقرؤها أهل الجمع ويقولون: هلك هذا، فإذا أتى على آخر حسناته قيل: هذه حسناتك، وقد رددتها عليك، ويؤمر بتحويله، ويقرأ سيئاته حتى يأتي على آخرها، فعند ذلك يقول لأهل الجمع: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩][١].

فهذه التفاصيل الدقيقة لم يعزها ابن كثير إلى أحد، غير ابن أبي الدنيا، ولم أجد نصًا ثابتًا بتلك التفاصيل، والذي دلت عليه النصوص أن كتب الأعمال سجلات، كل سجل منها مثل مد البصر ـ كما في حديث البطاقة ـ يقرأ الإنسان فيه حسناته وسيئاته.

(٢) التنصيص على ذكر اسم أول من يعطى كتابه بيمينه أو بشماله، كما ذكر ذلك السفاريني في لوامع الأنوار حيث قال:

«ورد أن أول من يأخذ كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله وهو أول من يدخل الجنة من هذه الأمة بعد نبيها ﷺ، وهو أول من هاجر من مكة إلى المدينة».

قال: وقال بعض علماء المالكية: أول من يعطى كتابه بيمينه ـ وله شعاع كشعاع الشمس ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعده أبو سلمة.

---

(١) البداية والنهاية جـ٢ ص٦١.

وروي أن أول من يأخذ كتابه بشماله: أخو أبي سلمة بن عبد الأسد الأسود.

وروي أنه يمد يده ليأخذه بيمينه، فيجذبه ملك؛ فيخلع يده، فيأخذه بشماله من وراء ظهره، وذلك لأنه كان خلع يد سلمة لما أراد أن يهاجر، فمنع بنو المغيرة أم سلمة أن تسير إلى أبي سلمة، ونزعوا خطام البعير من يده، فأخذوها منه، فغضب رهط أبي سلمة وهم بنو عبد الأسد، فاجتذبوا ابنه سلمة المذكور من أمه حيث أخذها رهطها ولم يدعوها تسير مع أبي سلمة، فخلعوا يد الغلام. القصة[١]، فجوزي الأسود بخلع يده، فالجزاء من جنس العمل»[٢].

وقال القرطبي - فيما يعزوه إلى أحمد بن ثابت الخطيب - عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله شعاع كشعاع الشمس»**، فقيل له: أين يكون أبو بكر يا رسول الله؟ قال: **«هيهات، زفته الملائكة إلى الجنان»**[٣].

وهذا الحديث فيه راو متهم وهو عمر بن إبراهيم بن خالد الكردي، كما ذكر السيوطي في اللآلئ المصنوعة[٤]، والشوكاني في الفوائد المجموعة[٥]، ويذكر البرديسي أن الأقفهي نقله عن ابن عباس موقوفًا عليه[٦].

---

(١) والقصة التي يشير إليها انظرها في السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص٤٦٩.

(٢) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٨٣.

(٣) التذكرة ص٢٥٤.

(٤) اللآلئ المصنوعة جـ١ ص٣٠٢.

(٥) الفوائد المجموعة ص٣٣٦.

(٦) تكملة شرح الصدور ص١٥.

ويذكر القرطبي كذلك تفاصيل أخرى، من ذكر اسم الشخص الذي يعطى كتابه، واسم أبيه، ووصف كتاب الأعمال، ووصف خطه كذلك، والنتيجة بعد إتمام قراءة الكتاب، إلى آخر ما يورده في كلامه الآتي:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾؛ فعلم أنه من أهل الجنة؛ فيقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾، وذلك حين يأذن الله فيقرأ كتابه، فإذا كان الرجل رأسًا في الخير يدعو إليه ويأمر به ويكثر تبعه؛ دعي باسمه واسم أبيه؛ فيتقدم، حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض (بخط أبيض) في باطنه السيئات وفي ظاهره الحسنات.

فيبدأ بالسيئات فيقرؤها، فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيئاتك وقد غفرت لك؛ فيفرح عند ذلك فرحًا شديدًا، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحًا، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك قد ضوعفت لك؛ فيبيض وجهه، ويؤتى بتاج فيوضع على رأسه، ويكسى حلتين، ويحلى كل مفصل فيه، ويطول ستين ذراعًا وهي قامة آدم، ويقال له: انطلق إلى أصحابك فبشرهم وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أدبر قال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾. قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ أدنيت منهم، فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: قد غمرتك كرامة الله، من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي قدمتم في أيام الدنيا.

وإذا كان الرجل رأسًا في الشر، يدعو إليه ويأمر به، فيكثر تبعه عليه، نودي باسمه واسم أبيه، فيتقدم إلى كتابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود، في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرؤها، ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك وقد ردت عليك، فيسود وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير.

ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته، فلا يزداد إلا حزنًا ولا يزداد وجهه إلا سوادًا، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك، أي يضاعف عليه العذاب ليس المعنى أنه يزداد عليه ما لم يعمل، قال: فيلقى إلى النار، وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران، ويقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فينطلق وهو يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يعني الموت ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.

إلى أن يقول القرطبي: فينادي أصحابه فيقول: هل تعرفونني؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرى ما بك من الحزن، فيقول: أنا فلان بن فلان، لكل إنسان منكم مثل هذا.

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره، تخلع كتفه اليسرى، فيجعل يده خلفه، فيأخذ بها كتابه، وقال مجاهد: تحول وجهه في موضع قفاه ويقرأ كتابه لذلك»[1].

وهذه التفاصيل الدقيقة تحتاج كذلك إلى نصوص ثابتة عن المصطفى ﷺ.

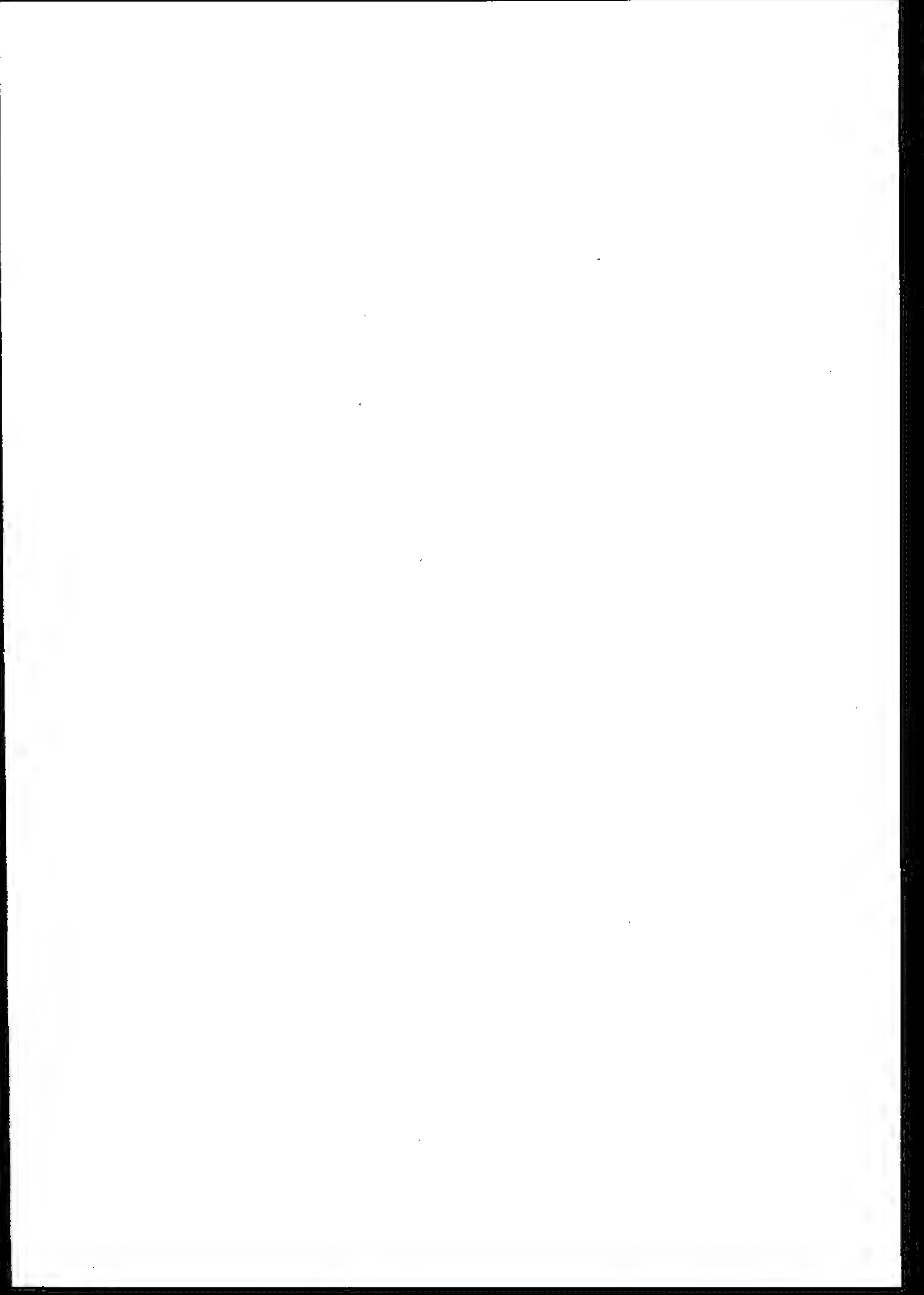
---

(١) انظر: التذكرة ص٢٥٦-٢٥٧.



الفصل السادس

ما قيل من الحكمة في إيتاء الصحف



الفصل السادس
ما قيل من الحكمة في إيتاء الصحف

الإنسان كما وصفه ربه: ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤]، ويوم القيامة وهو يرى ما أمامه من الأهوال والأخطار، وما يتوقعه من انكشاف أعماله التي عملها في الدنيا، وما يشاهد من زفير جهنم وشهيقها، كل هذه الأمور تعيد إلى ذاكرة الإنسان ما تعوده في الدنيا من الجدال وقلب الحقائق، لولا أنه في هذه الدار لا ينفعه ذلك شيئًا؛ لأنه أمام عالم الغيب والشهادة، وقد أخبر الله تعالى عن حالة الخلق في يوم القيامة، وما يسمع لهم من جدل وخصومة بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [١١١: النحل]، فلا قرابة ولا عصبية ولا محاماة، انقطعت هذه العلائق في هذا اليوم، فكل فرد حسيب نفسه، وأمام ربه الذي يعلم السر وأخفى، أمام الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة.

وقد شاء سبحانه وتعالى ـ لكمال عدله ـ أن يظهر لكل شخص عمله بما يقطع حجته، ويقر بأعماله مقتنعًا بما وجه إليه، وذلك بواسطة تلك السجلات التي سجلت عليه أيام حياته، ثم إحضار الشهود، حتى ينقطع جدل الإنسان ودفاعه عن نفسه بالكذب.

ومعلوم أنه لو شاء الله أن ينبئه بأعماله دون إيتاء ذلك الكتاب لكان ذلك في منتهى الدقة والصدق، فهو علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرة في

السموات ولا في الأرض، ولكن الله لم يشأ ذلك؛ بل شاء أن تكون هناك سجلات لأعمال العباد، ولتتم الحجة عليهم بشهادتهم، إضافة إلى شهادة الملائكة الكرام، إضافة إلى شهادة جوارح الإنسان نفسه، وعلم الله المحيط بذلك كله.

قال الثعلبي: «وإنما يؤتى بالصحف إلزامًا للعباد ورفعًا للجدل والعناد»[١].

وقد جاء في السنة النبوية: أن الإنسان يحاول الإنكار، ويتهم الملائكة بأنهم ظلموه، حتى ينطق الله جوارحه، فتنقطع حجته حينئذ.

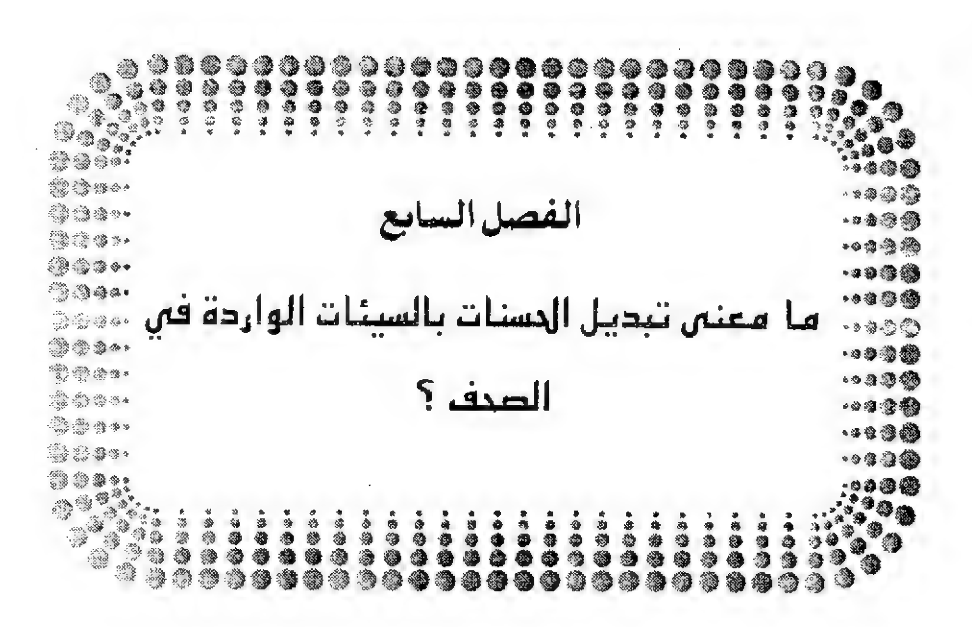
وستأتي أدلة ذلك في مبحث الحساب.

وكمثال على ذلك ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: «**هل تدرون مم أضحك؟** قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟** قال: **يقول: بلى**، قال: **فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني**، قال: **فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا**، قال: **فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي**، قال: **فتنطق بأعماله**، قال: **ثم يخلى بينه وبين الكلام**، قال: **فيقول: بعدًا لكنَّ وسحقًا، فعنكنَّ كنت أناضل**»[٢].

* * *

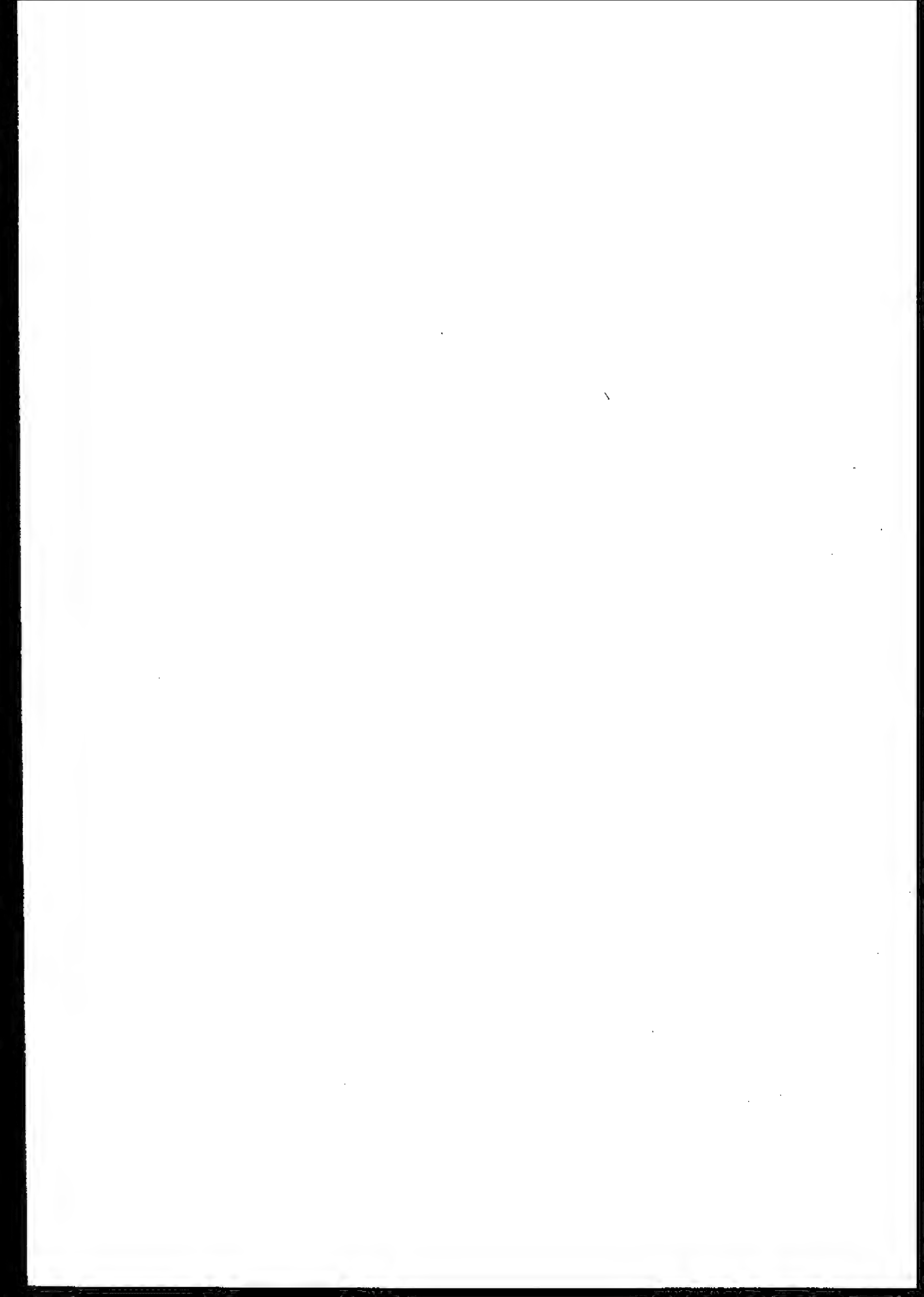
(١) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٨٠.

(٢) صحيح مسلم جـ٥ ص٨٢٥.



الفصل السابع

ما معنى تبديل الحسنات بالسيئات الواردة في الصحف ؟



الفصل السابع

ما معنى تبديل الحسنات بالسيئات الواردة في الصحف ؟

عرفنا فيما مضى أن الملائكة الموكلين بكتابة أعمال العبد أنهم يكتبون كل شيء صدر منه، سواء كانت حسنات أم سيئات، يكتبونها بغاية العناية والدقة.

وقد ورد أيضًا أن الله عز وجل يبدل لبعض عباده سيئاتهم حسنات، والسؤال هو: ما معنى هذا التبديل في الصحف؟ فلأجل ذلك ذكرنا اختلاف العلماء وأقاويلهم تتميمًا لهذا البحث.

ومدار ذلك هو قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

وليس في الآية نص عن زمن تبديل السيئات، لهذا كانت محتملة لأن يقع التبديل في الدنيا، ومحتملة لأن يقع التبديل في الآخرة أيضًا، ولكل من هذين الاحتمالين ذهب جماعة من العلماء:

(١) فمنهم من يذهب إلى أن معناه: «أن الله يبدل بقبائح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدله بالشرك إيمانًا وبقيل أهل الشرك

بالله قيل أهل الإيمان به، وبالزنا عفة وإحصانًا»[١].

لأنهم قد بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات.

وينسب هذا الرأي إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

«وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، قال: هم المؤمنون، كانوا قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات؛ فأبدلهم مكان السيئات الحسنات»[٢].

«وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات»[٣].

وقال الحسن البصري:

«أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصًا، وأبدلهم بالفجور إحصانًا، وبالكفر إسلامًا، وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين»[٤].

ويذكر عطاء بن أبي رباح، أن هذا التبديل يكون في الدنيا: «يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرًا»[٥].

أما القول الثاني: فهو أن الله يبدل سيئاتهم في الدنيا حسنات لهم يوم القيامة؛ بحيث أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا

---

(١) تفسير الطبري جـ١٩ ص٤٧.

(٢) تفسير الطبري جـ١٩ ص٤٧.

(٣)، (٤)، (٥) تفسير الطبري جـ١٩ ص٤٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ٣ ص٣٢٧.

الاعتبار، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه، فإنه لا يضره، وينقلب حسنة في صحيفته.

ومن الأدلة لهذا القول ما جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة، يؤتى برجل فيقول: سلوا عن صغار ذنوبه وأخبئوا كبارها، فيقال له: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا، عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا، قال: فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة**، قال: **فيقول: يا رب لقد عملت أشياء ما أراها هاهنا**. قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[1].

فهذا الحديث يفيد أن التبديل إنما يقع في يوم القيامة عند الحساب.

ومثل ما رواه ابن أبي حاتم - فيما يعزوه إليه ابن كثير: عن سلمان أنه قال: «يعطى الرجل يوم القيامة صحيفة، فيقرأ أعلاها، فإذا سيئاته، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها، فإذا حسناته، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات».

وما رواه كذلك عن أبي هريرة أنه قال: «ليأتين الله عز وجل بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات».

وما رواه عن أبي الصيف، - قال ابن كثير: وهو من أصحاب معاذ بن جبل - قال: «يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف، المتقين ثم الشاكرين ثم

---

(١) أخرجه الترمذي جـ٤ ص٧١٣، وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه الطبري جـ١٩ ص٤٧.

الخائفين ثم أصحاب اليمين، قلت: لِمَ سموا أصحاب اليمين؟ قال: لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات، فأعطوا كتبهم بأيمانهم، فقرءوا سيئاتهم حرفًا حرفًا، وقالوا: يا ربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا؟ فعند ذلك محا الله السيئات وجعلها حسنات، فعند ذلك قالوا: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾، فهم أكثر أهل الجنة»[١].

وقال علي بن الحسين زين العابدين ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ قال: في الآخرة.

وقد ذكر ابن كثير غير ما تقدم من الروايات عزاها إلى ابن أبي حاتم عن مكحول وإلى الطبراني، من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمر عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي فروة، وما رواه كذلك عن سلمة بن نفيل وعن أبي هريرة[١]، وهي بمعنى ما تقدم من أن ذلك التبديل يحصل في الآخرة.

وأخرج ابن جرير فيما يعزوه إلى سعيد بن المسيب أنه قال: «تصير سيئاتهم حسنات لهم يوم القيامة»[٢].

وتبعًا لهذه النصوص اختلفت آراء العلماء في معنى التبديل:

فالطبري يرجح القول بأن الله ينقلهم من الأعمال التي تسخطه إلى الأعمال التي ترضيه، وذلك في قوله:

«وأولى التأويلين بالصواب في ذلك: تأويل من تأوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٣٢٨.

(٢) تفسير الطبري جـ١٩ ص٤٧.

اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أعمالهم في الشرك ﴿حَسَنَاتٍ﴾ في الإسلام، ينقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى».

قال: «وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القبح، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى خلاف ما كانت عليه إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب - إن فعل ذلك كذلك - أن يصير شرك الكافر الذي كان شركًا في الكفر بعينه إيمانًا يوم القيامة بالإسلام، ومعاصيه كلها بأعيانها طاعة، وذلك ما لا يقوله ذو حجا»[1].

والقرطبي يذهب إلى ترجيح القول بأن ذلك التبديل يحصل في الآخرة، وذلك فيما يعزوه إلى هلال بن سعد أنه قال:

«إن الله يغفر الذنوب، ولكن لا يمحوها من الصحيفة، حتى يوقفه عليها يوم القيامة وإن تاب منها».

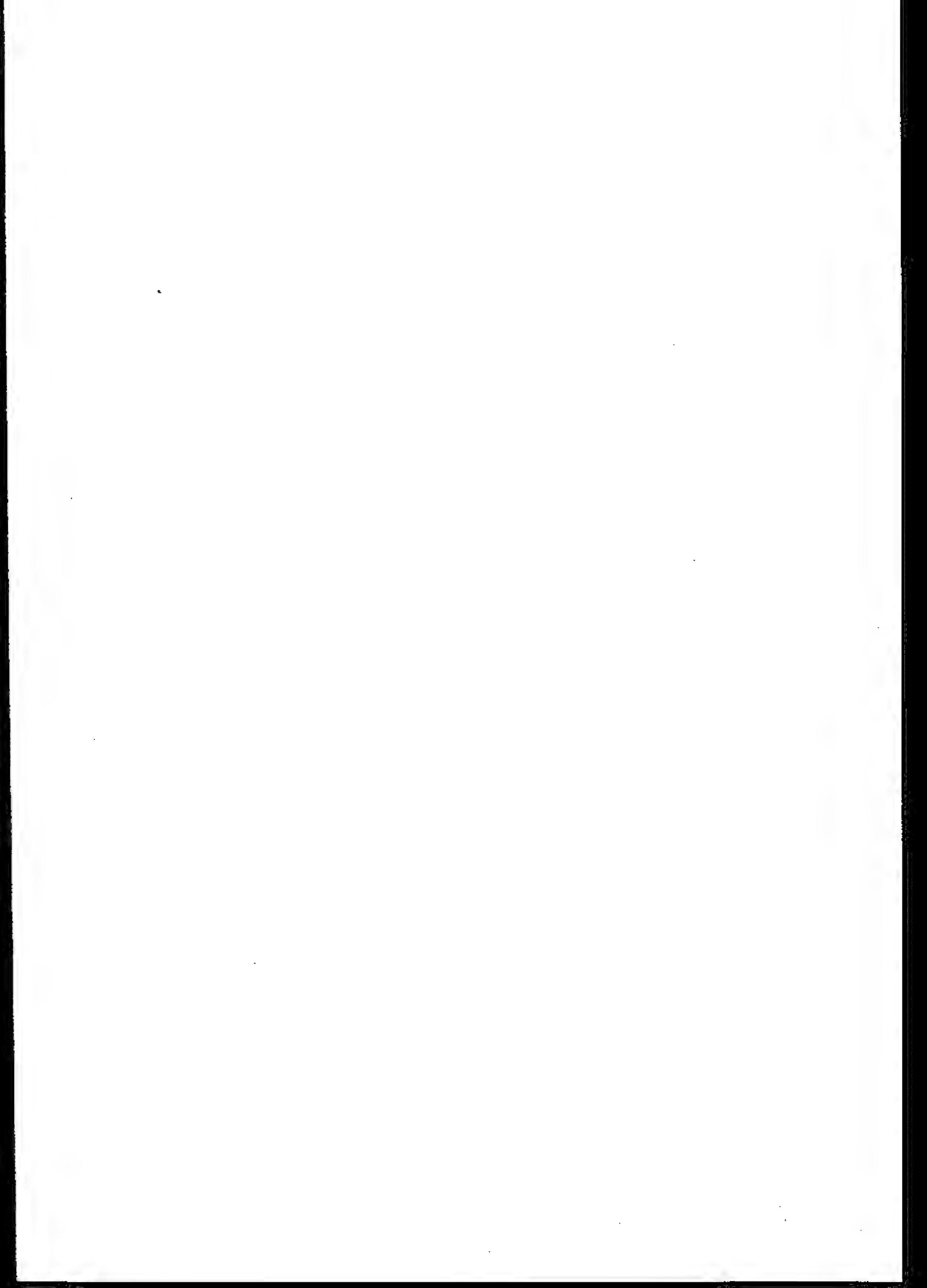
قال القرطبي: «ولا يعارض هذا ما في التنزيل والحديث من أن السيئات تبدل بالتوبة حسنات، فلعل ذلك يكون بعدما يوقفه الله عليها»[2].

ويفهم من هذا الخلاف أن المسألة قابلة للاحتمالات، والنصوص محتملة للخلاف. والله أعلم.

* * *

(١) تفسير الطبري جـ١٩ ص٤٧.

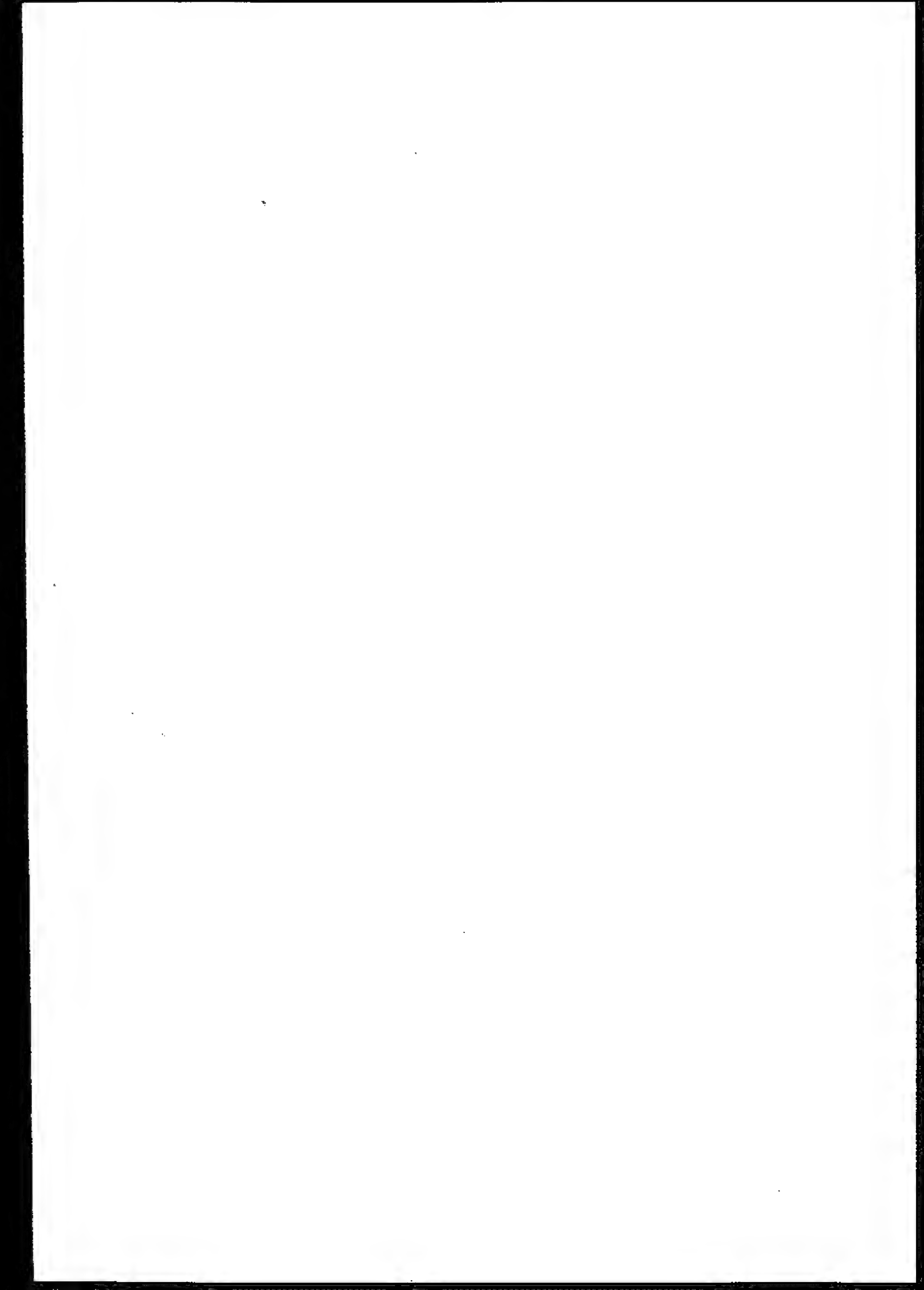
(٢) التذكرة ص٢٦٣.



الباب الثامن

الحساب

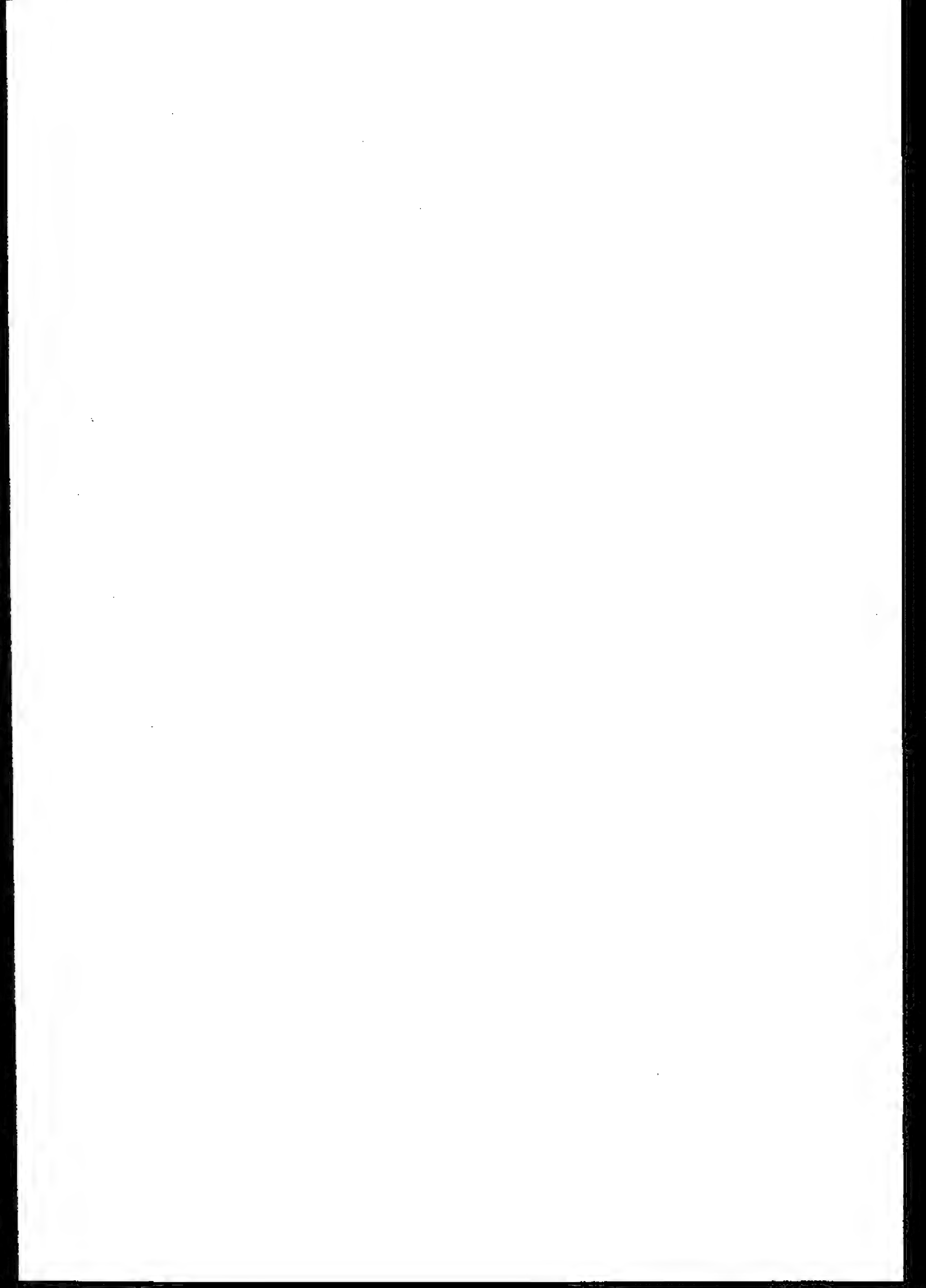
ويشتمل على الفصول الآتية :



الحساب

قبل البدء بذكر تفاصيل ما قيل عن حساب الله تعالى لخلقه، وإبراز أهمية أمر الحساب وعظيم ما ينتج عنه من السعادة والشقاوة، نشير قبل ذلك كله إلى تعريف الحساب في اللغة وفي الشرع فيما يلي.

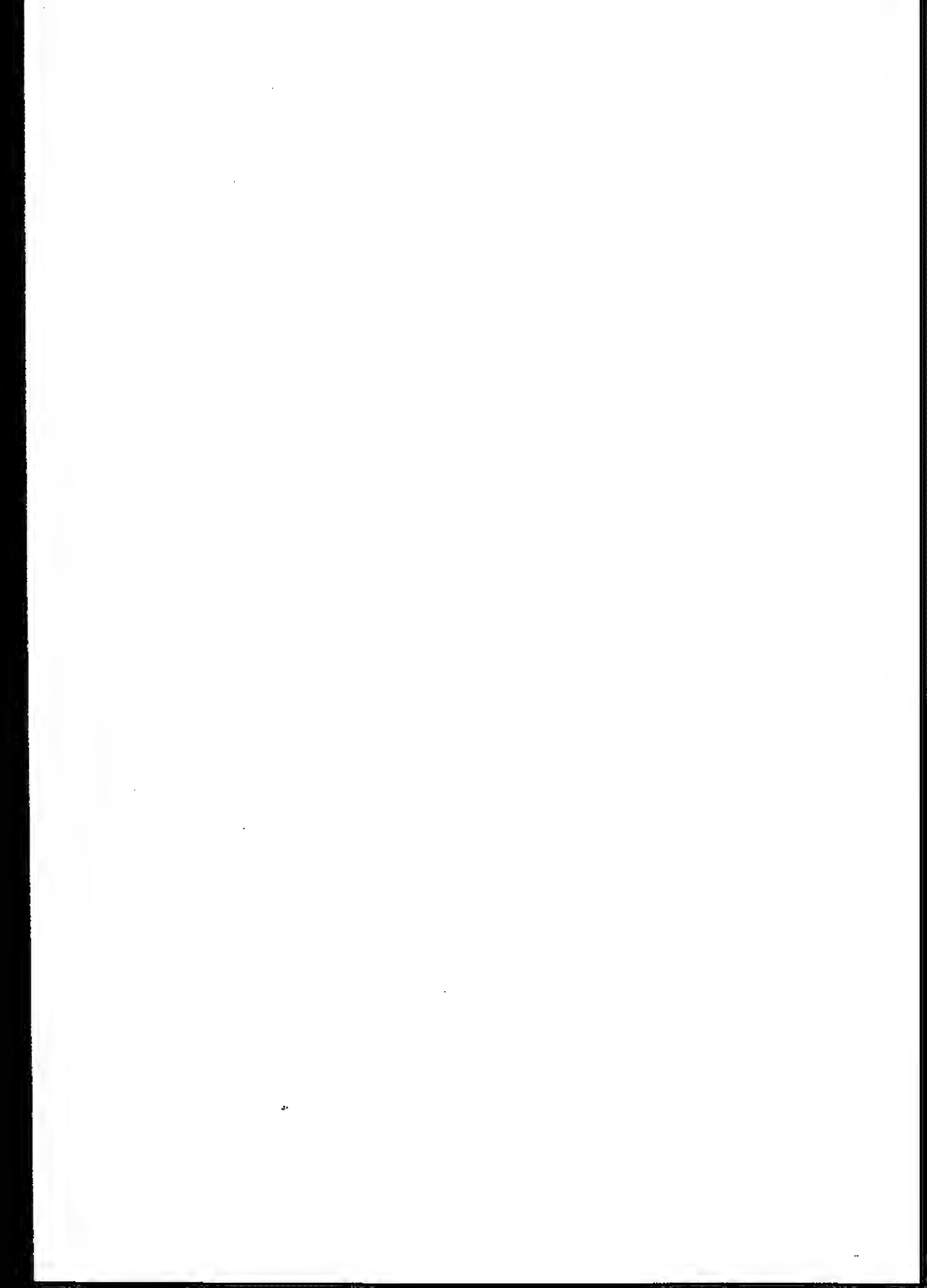
* * *





الفصل الأول

تعريف الحساب في اللغة وفي الشرع



الفصل الأول
تعريف الحساب في اللغة وفي الشرع

١ ـ تعريفه في اللغة :

جاءت في كتب اللغة عدة إطلاقات للفظة «الحساب».

ومن بين تلك الإطلاقات: أن الحساب يطلق ويراد به: العدد والمعدود والإحصاء بالدقة التامة دون زيادة ولا نقصان، وقد ذكر أهل اللغة في مادة «حسب» كثيراً من المعاني التي جاءت لهذه الكلمة.

وفي هذا يقول الأزهري:

«وإنما سمي الحساب في المعاملات حسابًا لأنه يعلم به ما فيه كفاية، ليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان».

وقال الليث: «والحساب والحسابة عدك الشيء، تقول: حسبت الشيء أحسب حسابًا وحسابة وحسبته».

ويأتي الحساب كذلك بمعنى الكثرة، قال أبو عبيد عن أبي يزيد: «أحسبت الرجل أي أعطيته ما يرضى، وقال غيره: معناه أعطيته حتى قال حسبي، قال الله عز وجل: ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾» [النبأ: ٣٦] أي كثيراً.

ويقال: أتاني حساب من الناس، أي جماعة كثيرة، وهي لغة هذيل[1].

---

(١) انظر كتب اللغة مادة «حسب» تهذيب اللغة جـ٤ ص٣٣١ وص٣٣٣، وانظر: تاج العروس =

وتأتي لفظة حسبان مرادفة لكلمة الحساب، والكل بمعنى واحد، نقل الأزهري عن أبي العباس أنه قال:

«حسبانًا مصدر، كما تقول حسبته أحسبه حسبانًا وحسابًا، وقال الأخفش: إن حسبانًا جمع حساب، وقال أبو الهيثم: الحسبان جمع حساب، وكذلك أحسبة، مثل شهاب وأشهبة وشهبان»[1].

وقال أيضًا:

«وأخبرني المنذري عن ثعلب أنه قال: «قال الأخفش في قوله عز وجل: ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ فمعناه: بحساب، فحذف الباء»[2].

ويقول الفيروزآبادي:

«حسبه حسبًا وحسبانًا بالضم، وحسبانًا وحسابًا وحسبة وحسابة بكسرهن عده، والمعدود محسوب»[3].

ويقول الهوريني: «حسبته أحسبه بالضم حسبًا وحسابًا وحسبانًا وحسابة إذا عددته والمعدود محسوب»[4].

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا أن «حسب» لها معان فقال: الأول: العد، تقول: حسبت الشيء أحسبة وحسبانًا. قال الله تعالى:

= جـ١ ص٢١٠-٢١٣، وانظر كذلك: القاموس المحيط جـ١ ص٥٦، والصحاح للجوهري جـ١ ص١١٠.

(١) (٢) تهذيب اللغة جـ٤ ص٣٣١-٣٣٢.

(٣) القاموس المحيط جـ١ ص٥٦.

(٤) فوائد في اللغة والصحاح ص٤٢.

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[1] .

وقال الراغب:

«الحساب: استعمال العدد، يقال: حسبت أحسب حسابًا وحسبانًا.

قال تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ »[يونس: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ ».

[الأنعام: ٩٦][2] .

والحسبان: «ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه»[3] .

وكذا لفظة الحسيب والمحاسب، فإنها تطلق مرادًا بها الحساب، قال الراغب: «والحسيب والمحاسب: من يحاسبك، ثم يعبر عن المكافئ بالحساب»[4] .

وقد ورد في القرآن الكريم كذلك إطلاق لفظة الحساب مرادًا بها الجزاء كما قال تعالى:

١ ـ ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

قال الطبري: «فإنما حساب عمله السيئ عند ربه، وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه»[5] .

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي

(١) معجم مقاييس اللغة جـ٢ ص٥٨ ط٢ ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م مطبعة الحلبي.

(٢)، (٣)، (٤) المفردات ص١١٦ ـ ١١٧.

(٥) جامع البيان جـ١٨ ص٦٤ وانظر: تفسير ابن كثير جـ٣ ص٢٥٩.

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾» [الشعراء: ١١١ ـ ١١٣]. قال ابن جريج: «أي هو أعلم بما في أنفسهم»(١).

٣ ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾» [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦]. قال ابن كثير: «أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر»(٢).

ويطلق أيضًا على محاسبة النفس.

قال تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾» [الإسراء: ١٤]؛ أي كفى بك لنفسك محاسباً»(٣).

ويطلق على التوسعة في الرزق كما قال تعالى:

﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾» [آل عمران: ٣٧].

«أي بغير تقتير وتضييق، كقولك: فلان ينفق بغير حساب؛ أي يوسع النفقة ولا يحسبها»(٤).

والحاصل أن أقوال أهل اللغة في المراد بالحساب، تشير إلى أنه يرد بمعنى الكثرة في الشيء، والزيادة فيه، والعدد، والإحصاء، والدقة في العدد دون زيادة ولا نقصان.

٢ ـ الحساب شرعًا :

أما المراد بالحساب في الشرع فإنه يراد به «توقيف الله عباده قبل الانصراف

---

(١) الدر المنثور جـ١٩ ص٣١١.

(٢) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٥٠٤.

(٣)، (٤) تهذيب اللغة جـ٤ ص٣٣٦.

من المحشر على أعمالهم، خيرًا كانت أو شرًا، تفصيلاً لا بالوزن، إلا من استثنى منهم»[1] .

وقوله: «لا بالوزن»، يحتمل أنه يريد أن الله يحاسبهم ثم يزن أعمالهم، لا أنه يكتفي بالمحاسبة عن الوزن «إلا من استثنى منهم» فإنه لا يحاسبهم ولا يزن أعمالهم.

ويحتمل أيضًا أن يكون المعنى: أن الله يوقفهم على أعمالهم تفصيلاً، ولا يكتفي بالمعرفة الإجمالية التي تتأتى من طريق الوزن.

ونقل السفاريني عن الثعلبي تعريفه للحساب قائلاً:

«الحساب تعريف الله ـ عز وجل ـ الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك، يدل على هذا قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾.

[المجادلة: ٦][2] .

والظاهر: أن تعريف الثعلبي أشمل من تعريف السفاريني؛ لأنه يتضمن تعريف الله عباده بأعمالهم تفصيلاً على مقدار ما يستحقونه من الجزاء، خيرًا أو شرًا، وتعريف السفاريني ينفرد بأن هذه المحاسبة لا يغني عنها الميزان، ولا تغني عن الميزان.

وقال القرطبي رحمه الله في تعريف الحساب:

«ومعناه أن الباريء ـ سبحانه ـ يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة،

---

(١) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٦٥ وانظر: الكواشف الجلية ص٣٤٣.

(٢) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٦٥.

يعدد عليهم نعمه ثم يقابل البعض بالبعض»[١] .

ومعنى هذه العبارة :

أن نتيجة مقابلة بعضها ببعض أي السيئات بالحسنات - لإظهار أيهما أرجح ، وعليه يحكم على الشخص ، إن كان من أهل الخير أو أهل الشر .

وهذا التعريف أليق من التعاريف السابقة ؛ لأنه أدخل المعنى اللغوي وقيده بالمراد منه في الشرع .

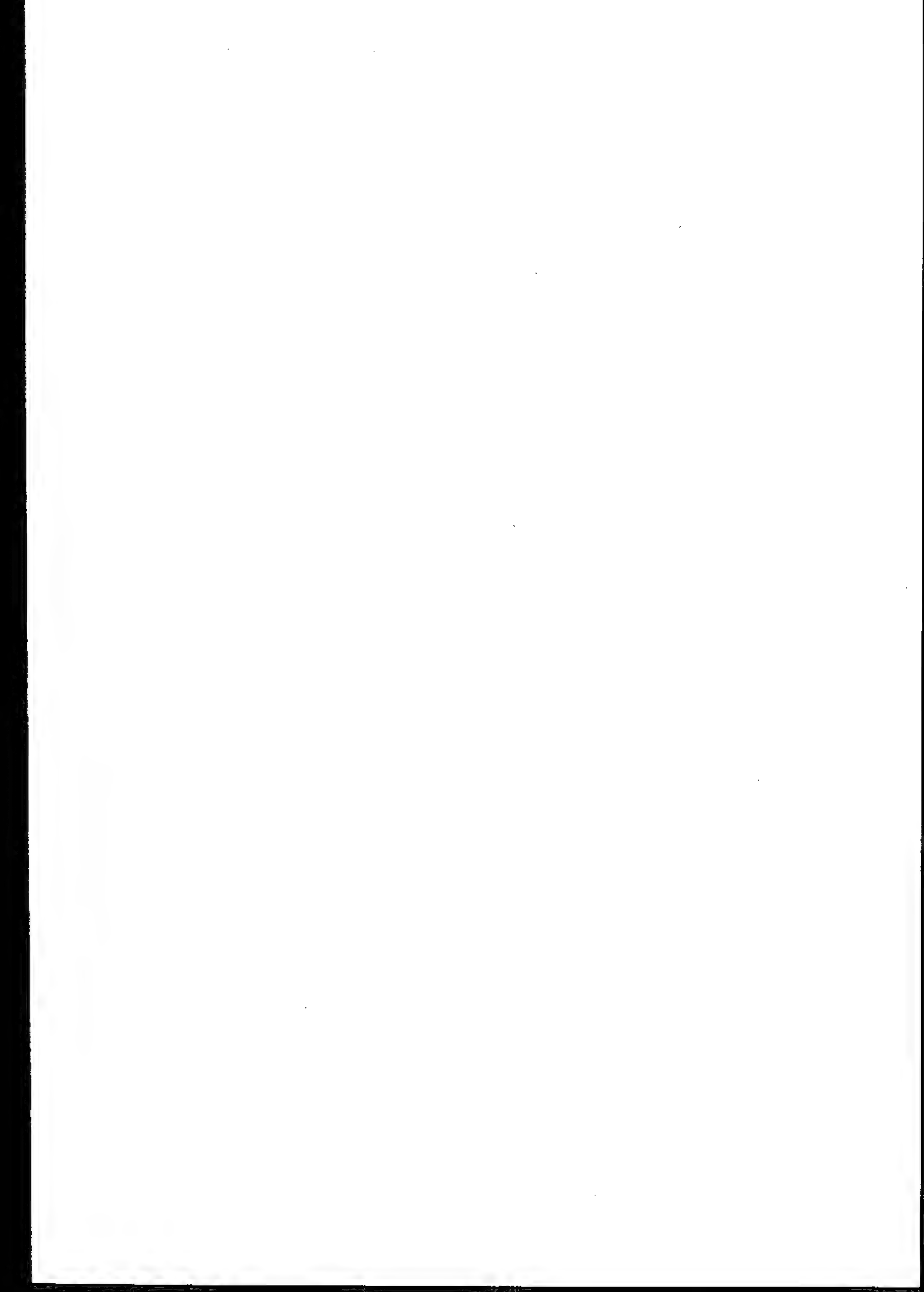
* * *

(١) التذكرة ص٢٧١ .



الفصل الثاني

أدلة إثبات الحساب



الفصل الثاني
أدلة إثبات الحساب

تمهيد:

لقد حظي ذكر الحساب بنصوص كثيرة في كتاب الله - عز وجل - وفي سنة نبيه ﷺ، وأجمع عليه جميع أهل الإسلام؛ إذ هو من المسائل الأخروية المعلومة من الدين بالضرورة.

وقد أكثر الله من ذكره في القرآن الكريم، في مواضع كثيرة، بعبارات متنوعة، ودلالات مختلفة، مصوراً هول ذلك أو مخبراً عنه ومبشراً به، كل ذلك لزيادة العناية وللفت أنظار الناس إليه؛ ليكونوا على بينة من أمرهم، فيستعدوا له بالعمل الصالح؛ إذ أنه من أهم الأمور التي تحدث في يوم القيامة؛ بل هو المراد ببعث الناس[1]، وقيامهم من قبورهم، وفي الموقف[2]، وبه يتميز الناس؛ فيسعد من يسعد، ويشقى من يشقى، حينما يفصل الله بين خلقه في أكمل صور العدل وأجلها.

ونعرض فيما يلي أدلة إثباته من كتاب الله عز وجل، ومن سنة نبيه ﷺ.

أدلة إثبات الحساب من كتاب الله عز وجل:

الأدلة في القرآن الكريم على وقوع الحساب كثيرة لا يتسع المقام لذكرها

---

(١) لأن ما يقع بعده من عذاب أو نعيم إنما هو نتيجة للحساب.

(٢) أي: وقيامهم في الموقف.

كلها، غير أننا سنقتصر على إبراز أهم الجوانب التي جاءت في أمر الحساب، فمن ذلك :

١ ـ ما جاء في إخباره ـ عز وجل ـ عن سرعة وقوع الحساب؛ فقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [المائدة: ٤)].

وقال تعالى في بيان أن سرعة ذلك الحساب يكون مع تمام العدل :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [إبراهيم: ٥١].

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧].

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٢ ـ والحساب تارة يكون يسيرًا على أهل الإيمان والطاعات، وتارة يكون عسيرًا على أهل الكفر والمعاصي.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٧ـ٩].

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩ـ٢٠].

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦].

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي

الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [الرعد: ١٨].

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

٣ - وقال تعالى في بيان إحاطة علمه بكل ما يصدر عن العباد ظاهراً أو باطنًا:

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[البقرة: ٢٨٤].

وقد عفا الله عما أضمره الإنسان في قلبه فلا يحاسبه عليه.

٤ - وقال تعالى في مدح المؤمنين وخوفهم من هول الحساب:

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٢١].

٥ - وقال تعالى في مدح الصابرين وبيان أجرهم:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

٦ ـ وقال تعالى في ذم المكذبين بالحساب:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ [النبأ: ٢٧].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾
[غافر: ٢٧]

وأما ما ورد من قولهم: ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾.

[ص: ١٦].

فإنما هو قول على سبيل الاستهزاء[١] أو التحدي للرسول ﷺ أن يريهم صكاكهم[٢] بحظوظهم من الخير أو الشر ـ الذي وعد الله عباده أن يؤتيهموها في الآخرة ـ قبل يوم القيامة في الدنيا؛ استهزاءً بوعيد الله[٣].

ونكتفي بما تقدم ذكره من الآيات التي تدل على وقوع الحساب في يوم القيامة، وبها يتبين مدى عناية القرآن الكريم بذكره وعظيم شأنه.

ونضيف إلى ما تقدم ـ من الأدلة الواردة في القرآن الكريم ـ أدلة أخرى من السنة النبوية فيما يأتي.

الأدلة من السنة النبوية على إثبات وقوع الحساب:

وكما حظي ذكر الحساب في القرآن الكريم بكثرة العناية بذكره، وإيراده في أكثر من موضع، كما رأينا فيما سبق عرضه؛ فقد حظي كذلك بالذكر

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم جـ٤ ص٢٩.
(٢) أي كتب أعمالهم.
(٣) انظر: جامع البيان جـ٢٣ ص١٣٥.

والعناية والاهتمام على لسان المصطفى ﷺ؛ فقد وردت أحاديث كثيرة بشأنه، وسنذكر منها ما يتبين به صدق ما قدمناه، وذلك فيما يلي:

قال ﷺ في الحث على الاستعداد بالعمل الصالح ومحاسبة النفس وعدم تركها ترتع كيفما شاءت، وهو ما ورد عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: **«الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني»**.

قال الترمذي: ومعنى قوله ﷺ: **«دان نفسه»**؛ يقول: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة»[1].

فإذا لم يستعد العبد بالعمل الصالح، ولم يسلك ما أمره الله به، ولم ينته عما نهاه عنه؛ بل كفر بربه ولقائه؛ فإنه سيندم يوم القيامة ويتمنى أن لو كان له ملء الأرض ذهبًا ويفتدي به - لو نفعه - حين يحاسب بين يدي الله تبارك وتعالى.

كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كان يقول: **«يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك»**[2].

وقد جاء عن النبي ﷺ في سهولة الحساب ويسره وتجاوز الله تعالى:

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك»**، فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ

---

(١) أخرجه الترمذي جـ٤ ص٦٣٨، وقال: حديث حسن.

(٢) صحيح البخاري جـ٧ ص١٩٨.

كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨]؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب»**[١].

وفي بعض روايات هذا الحديث: **«من حوسب عذب»** إلخ الحديث.

وقال ﷺ في تجاوز الله تعالى عمن يتجاوز عن الناس في الحساب وييسر عليهم، وتخفيف الله عن عباده؛ عن أبي مسعود البدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر. قال: قال الله عز وجل: «نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»**[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ في بعض صلاته ـ: **«اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا»** فلما انصرف قلت: يا نبي الله، ما الحساب اليسير؟ قال: **«أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك، وكل ما يصيب المؤمن يكفر الله عز وجل به عنه؛ حتى الشوكة تشوكه»**[٣].

وعن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال: **«اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت؛ والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال؛ وقلة المال أقل للحساب»**[٤].

---

(١) البخاري جـ٧ ص١٩٨.

(٢) صحيح مسلم جـ٤ ص٧١، وأخرجه الترمذي في البيوع، والإمام أحمد في المسند، والخطاب في قوله: «تجاوزوا عنه» للملائكة.

(٣) المسند جـ٦ ص٤٨.

(٤) المسند جـ٥ ص٤٢٧.

وعن السدي قال: حدثني من سمع علياً يقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، أحزنتنا، قال: قلنا: يحدث أحدنا نفسه فيحاسب به، لا ندري ما يغفر منه وما لا يغفر؛ فنزلت هذه الآية بعدها فنسختها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦][١].

وعن العدل في القصاص يوم القيامة، وتبادل الحسنات والسيئات، يقول ﷺ: **«من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها؛ فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه»**[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا؛ حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»**[٣].

وقد أخبر ﷺ أن ناسًا لا يحاسبون، وهم سبعون ألفًا؛ إكرامًا لهم، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **«عرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فنظرت**

---

(١) سنن الترمذي جـ٥ ص٢٠٠.

(٢) البخاري جـ١١ ص٣٩٥.

(٣) البخاري جـ١٠ ص١٩٧.

فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومنهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عـذاب». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: **«ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه**، فقال: **«هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»**. فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: **«أنت منهم»** ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: **«سبقك بها عكاشة»**[١].

وفي بيان أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة. قال رسول الله ﷺ: **«أول ما يقضى بين الناس بالدماء»**[٢].

وعن حريث بن قبيصة قال: قدمنا المدينة، فقلت: اللهم يسر لي جليسًا صالحًا، قال: فجلست إلى أبي هريرة فقلت: إني سألت الله أن يرزقني جليسًا صالحًا، فحدثني بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، لعل الله أن ينفعني به، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من**

---

(١) أخرجه البخاري جـ١٠ ص١٥٥، وأخرجه في جـ١١ ص٣٠٥ مختصرًا، ثم ذكر في ص٤٠٦ من هذا الجزء عدة روايات في هؤلاء السبعين الألف، وأخرجه مسلم جـ١ ص٤٩٥ واللفظ له.

وليس في روايات البخاري «الرهيط»، ومعنى الرهيط: الجماعة دون العشرة وهو بضم الراء، وليس في لفظ البخاري كلمة: «لا يرقون»، وقد حقق شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه اللفظة من رواية مسلم وهم من الأول، وعلى هذا فإن لفظة «لا يرقون» غير ثابتة، وأن المعتمد في هذا الحديث وشبهه ما جاء في صحيح البخاري من عدم ثبوت لفظة «لا يرقون».

وأخرج الحديث كذلك ابن ماجه وأحمد وأبو داود.

(٢) صحيح البخاري جـ٧ ص١٩٧.

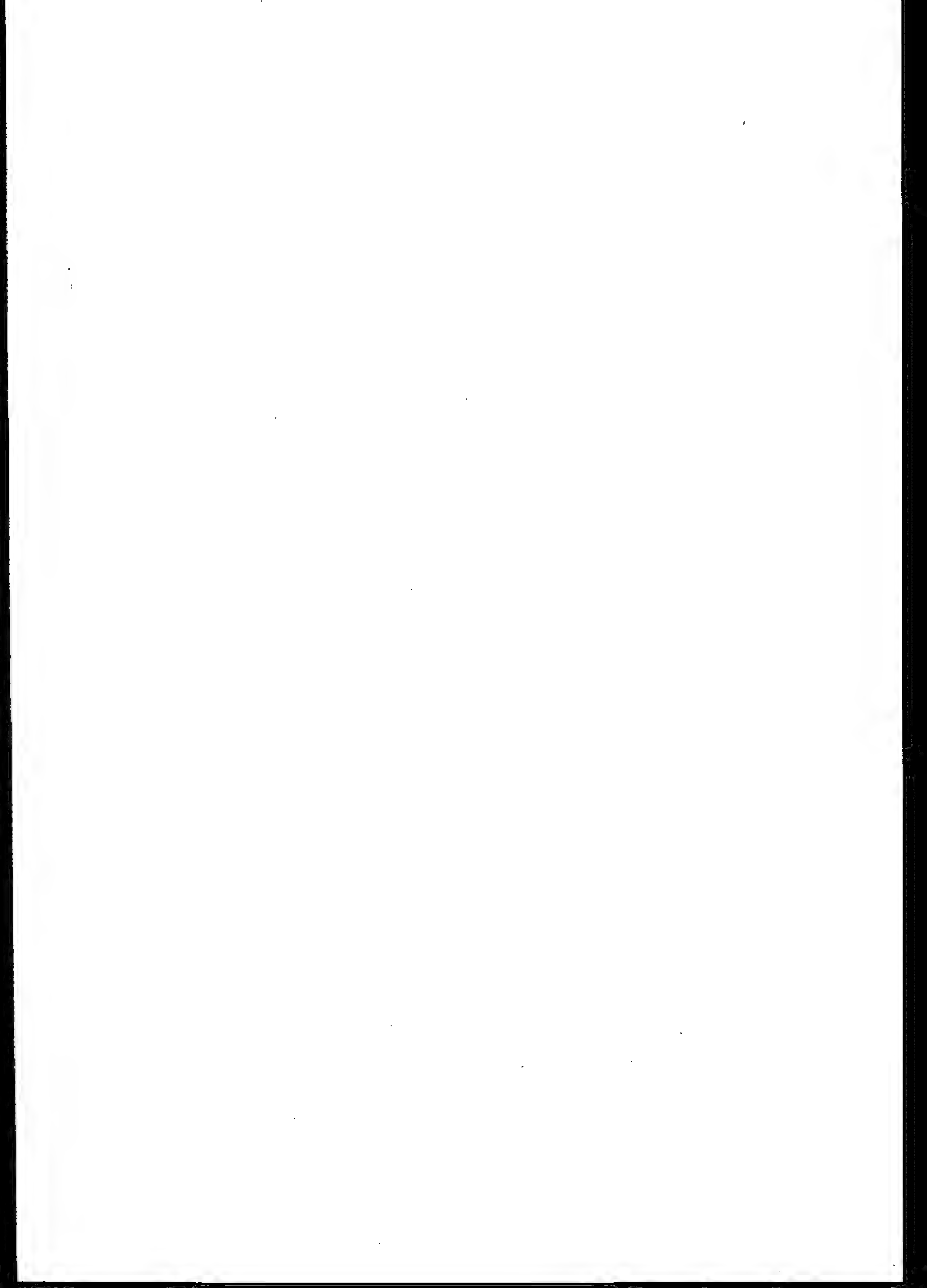
عمله صلاته؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء؛ قال الرب عز وجل: انظروا هل لعبدي من تطوع، فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك»[1] .

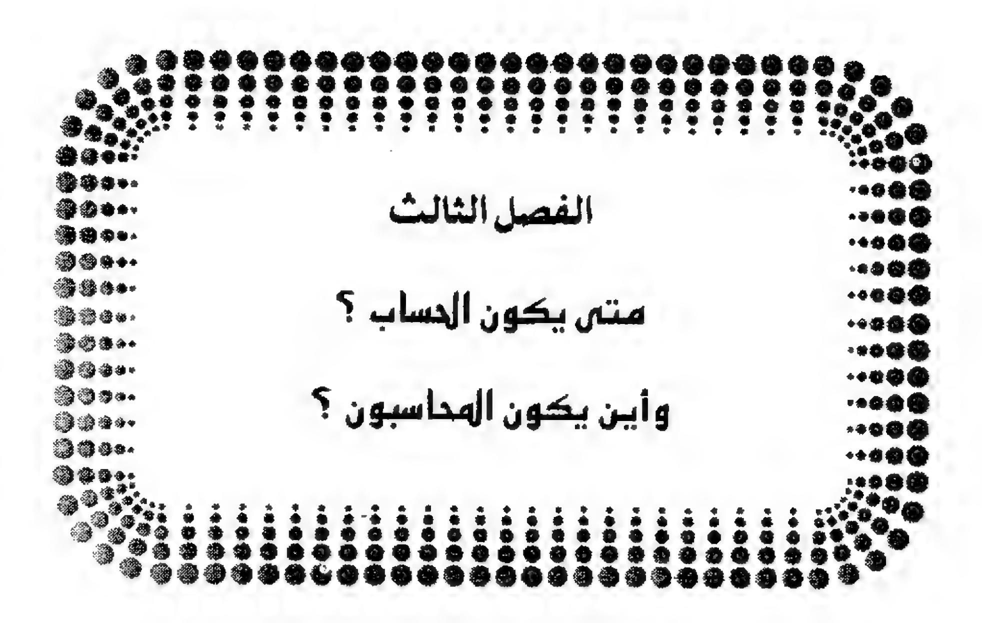
وعن أول الخلق حسابًا يقول ﷺ فيما يرويه ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : **«نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون»**[2] .

* * *

(١) سنن الترمذي جـ٢ ص٢٧٠ والنسائي جـ١ ص٢٣٢ ، وابن ماجه جـ١ ص٤٥٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه جـ٢ ص١٤٣٤ ، قال محمد فؤاد في الزوائد: «إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وأبو سلمة هو موسى بن إسماعيل البصري التبوذكي»، وأخرجه الإمام أحمد جـ١ ص٢٨٢-٢٩٦ .

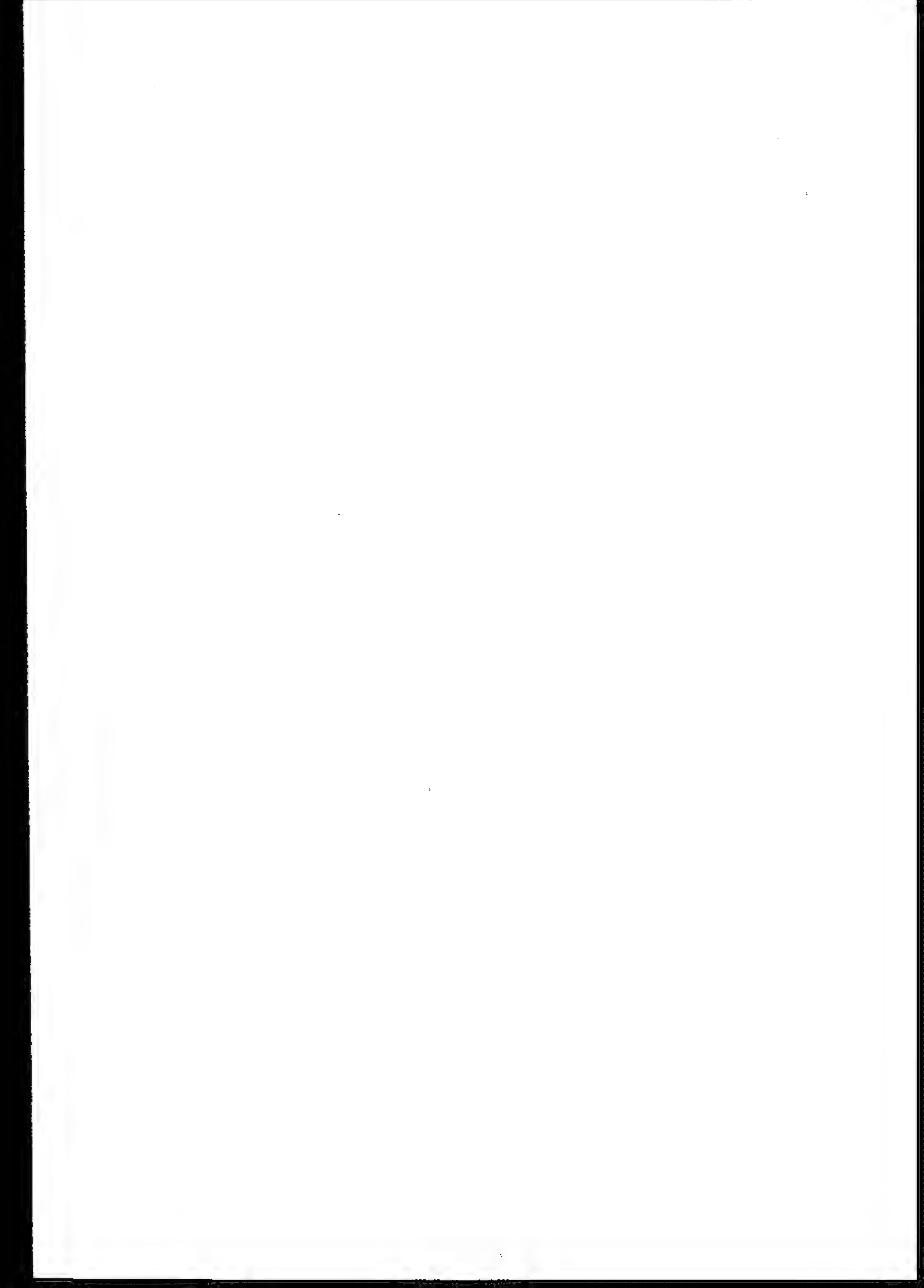




الفصل الثالث

متى يكون الحساب ؟

وأين يكون المحاسبون ؟



الفصل الثالث

متى يكون الحساب ؟ وأين يكون المحاسبون ؟

حينما يبعث الله العباد من قبورهم، يخرجون وهم لا يذكرون شيئًا من أعمالهم التي قدموها في حياتهم الدنيا، كما ذكر الله ذلك عنهم في كتابه العزيز في قوله عز وجل:

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾.

[المجادلة: ٦].

وما أسرع نسيان الإنسان لأعماله التي يعملها، وهو غافل لا يدري أن هناك من يراقبه مراقبة دقيقة، يسجل عليه كل ما يصدر عنه من قول أو فعل.

قال الطبري عن معنى الآية: «يقول ـ تعالى ذكره ـ أحصى الله ما عملوا؛ فعده عليهم، وأثبته وحفظه، ونسيه عاملوه، والله على كل شيء شهيد»[١].

فإذا جمعهم الله في الموقف، وأذن بفصل القضاء فيهم؛ أعطاهم الله تلك الكتب؛ ليقفوا على ما فيها، ثم بعد ذلك تبدأ المحاسبة، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾.

وفي تقديم الله تعالى ذكر الكتاب ـ أو صحف الأعمال ـ على ذكر الحساب؛ دلالة على تقديم أخذ الصحف على الحساب، وفي هذا يقول

(١) جامع البيان جـ ٢٨ ص١٢.

القرطبي: «فإذا وقف الناس على أعمالهم، من الصحف التي يؤتونها بعد البعث؛ حوسبوا بها»[١] .

وقبل حسابهم يمتاز كل فريق عن الآخر، المؤمنون في مكان، وغيرهم من الكفار كل فرقة في مكان، قال الحافظ ابن كثير:

«فإذا نصب كرسي فصل القضاء؛ إنماز الكافرون عن المؤمنين في الموقف إلى ناحية الشمال، وبقي المؤمنون عن يمين العرض، ومنهم من يكون بين يديه، قال تعالى:

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾[٢][يس: ٥٩].

قال الطبري في معناها: «أي تميزوا»[٣] .

وقال ابن كثير في معناها: «يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة، من أمره لهم أن يمتازوا، بمعنى يميزون عن المؤمنين في موقفهم، كقوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨].

وقال عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٤] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: ٤٣] أي يصيرون صدعين فرقتين»[٤] .

---

(١) التذكرة ص٢٥٥ .

(٢) النهاية جـ٢ ص١١٠ .

(٣) جامع البيان جـ٢٣ ص٢٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم جـ٣ ص٥٧٦ .

ويقول مقاتل: «معناه: اعتزلوا اليوم - يعني في الآخرة - من الصالحين»، وقال السدي: «كونوا على حدة» وقال الزجاج: «انفردوا عن المؤمنين»، وقال الضحاك: «يمتاز المجرمون بعضهم من بعض، فيمتاز اليهود فرقة، والنصارى فرقة، والمجوس فرقة، والصابئون فرقة، وعبدة الأوثان فرقة» وقال داود بن الجراح: «يمتاز المسلمون عن المجرمين، إلا أصحاب الأهواء؛ فإنهم يكونون مع المجرمين»[١].

وقد أخرج الطبري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة، أمر الله جهنم؛ فيخرج منها عنق ساطع مظلم، ثم يقول:**

﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ...** ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ **هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ...** ﴾. ﴿ **وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** ﴾ فتميز الناس ويجثون، وهي قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً** ﴾.

[الجاثية: ٢٨][٢].

فالثابت هنا هو تميز كل فريق عن الفريق الآخر، دون تحديد للجهات التي ذكرها الحافظ ابن كثير رحمه الله، كما في الآية السابقة، وكذا في قوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ** ﴾ [يونس: ٢٨].

قال ابن كثير في معنى الآية ﴿ **ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ** ﴾ «الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين»[٣].

---

(١) انظر: فتح القدير جـ٤ ص٣٣٧ هكذا في الكتاب: «فإنهم يكونون مع المجرمين».

(٢) جامع البيان جـ٢٣ ص٢٢.

(٣) تفسير القران العظيم جـ٢ ص٤١٥.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤].

وفسر الرازي هذا التفرق بأنه: «يجعل فريق في الجنة، وفريق في السعير»[١].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي يصيرون فرقتين.

وبمثل ما فسر الرازي هذا التفرق فسره كذلك الشوكاني، حيث قال: «والمراد بتفريقهم هاهنا: أن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة، وأهل النار يصيرون إلى النار»[٢].

وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢].

وهذه الآية فسرها بعضهم بأن كل صنف يتميز مع مثله، فقد جاء عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في قول الله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾؛ قال: «أمثالهم، الذين هم مثلهم، يجيء أصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر؛ أزواج في الجنة، وأزواج في النار»[٣].

وفي رواية عن ابن عباس: «قال: أشباههم، وفي لفظ: نظراءهم»[٤]، وفي رواية عن عكرمة مثله»[٥].

---

(١) التفسير الكبير جـ٢٥ ص١٠٢.

(٢) فتح القدير جـ٤ ص٢٢٩.

(٣)، (٤)، (٥) ذكره السيوطي في الدر المنثور جـ٧ ص٨٣ وعزاه إلى عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن منيع في مسنده وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

وعن مجاهد: «قال: أمثالهم، القتلة مع القتلة، والزناة مع الزناة، وأكلة الربا مع أكلة الربا»[1] .

وخلاصة ما قيل عن تميز المؤمنين عن غيرهم، وتميز كل فرقة بمفردها: أن الله تعالى أمر بأن يتميز أهل محبته ورضوانه عن أهل عداوته وعصيانه، إلى حيث يشاء سبحانه وتعالى، كما أمر أن ينفرد أهل عصيانه عن أهل طاعته؛ ليكون لكل فرقة من الفرق موضع يليق بها، وليعرف كل فريق حاله.

ثم بعد ذلك يحتمل أن يكون هذا التفرق يحصل في الموقف، ويحتمل أنه يحصل عند تفرقهم إلى الجنة أو النار، والآيات ظاهرة في أن الله تعالى يأمر كل فريق أن يتميز عن الآخر كيفما يشاء الله سبحانه، ولم تبين تلك الآيات الجهات التي ينحاز إليها كل فريق، وإنما بينت أن هناك تميزًا سيحصل بينهم.

ويظهر مما سبق ما يأتي:

(١) أن زمن الحساب يكون بعد خروج الناس من القبور.

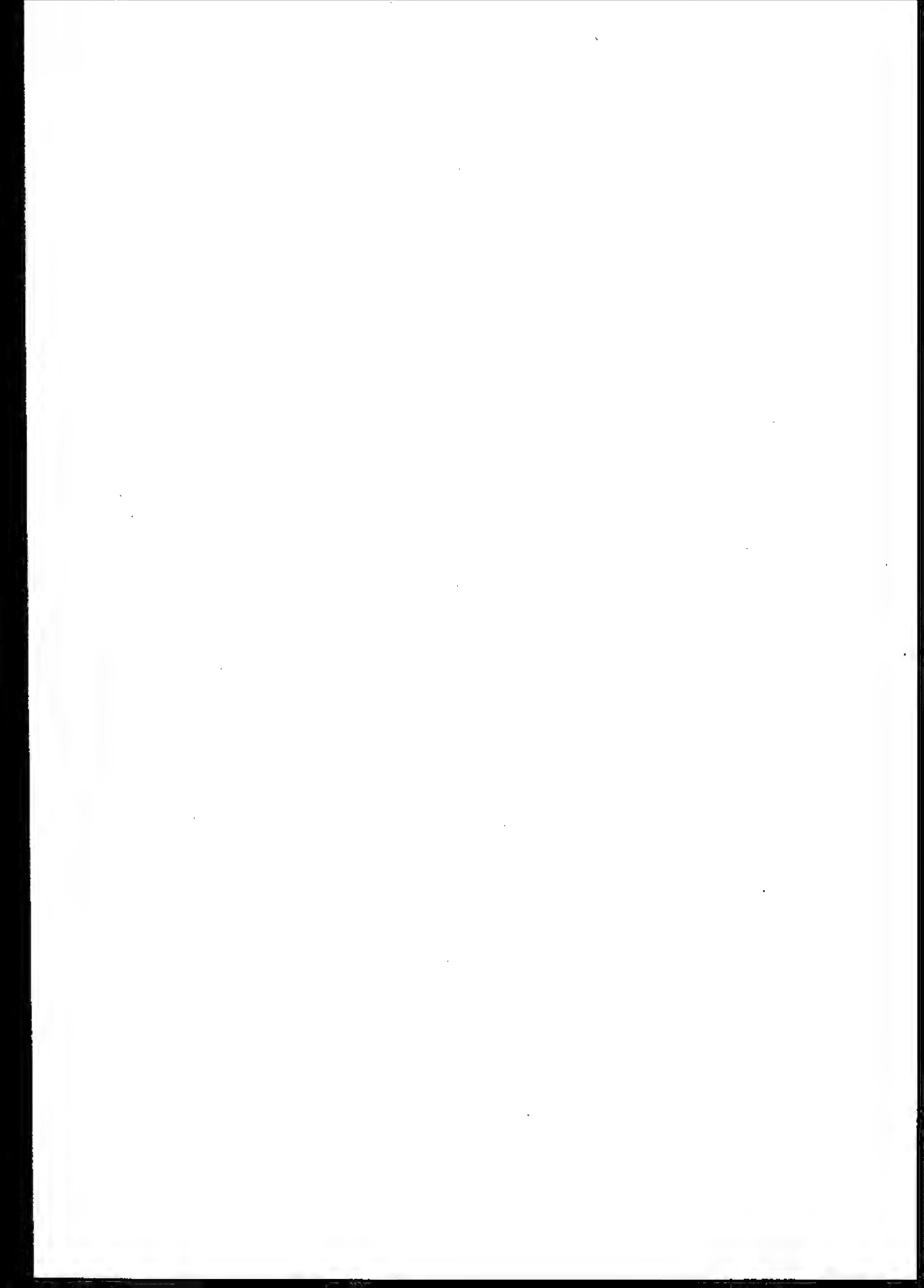
(٢) وأن المحاسبين يكونون في الموقف، كل فريق في جهة؛ فالمؤمنون في جهة، ويمتاز غيرهم عنهم في جهة أخرى.

وقد عين ابن كثير أن المؤمنين يكونون يمين العرش، وأن غيرهم يكونون على يساره، غير أن هذا القول يحتاج إلى نص.

* * *

---

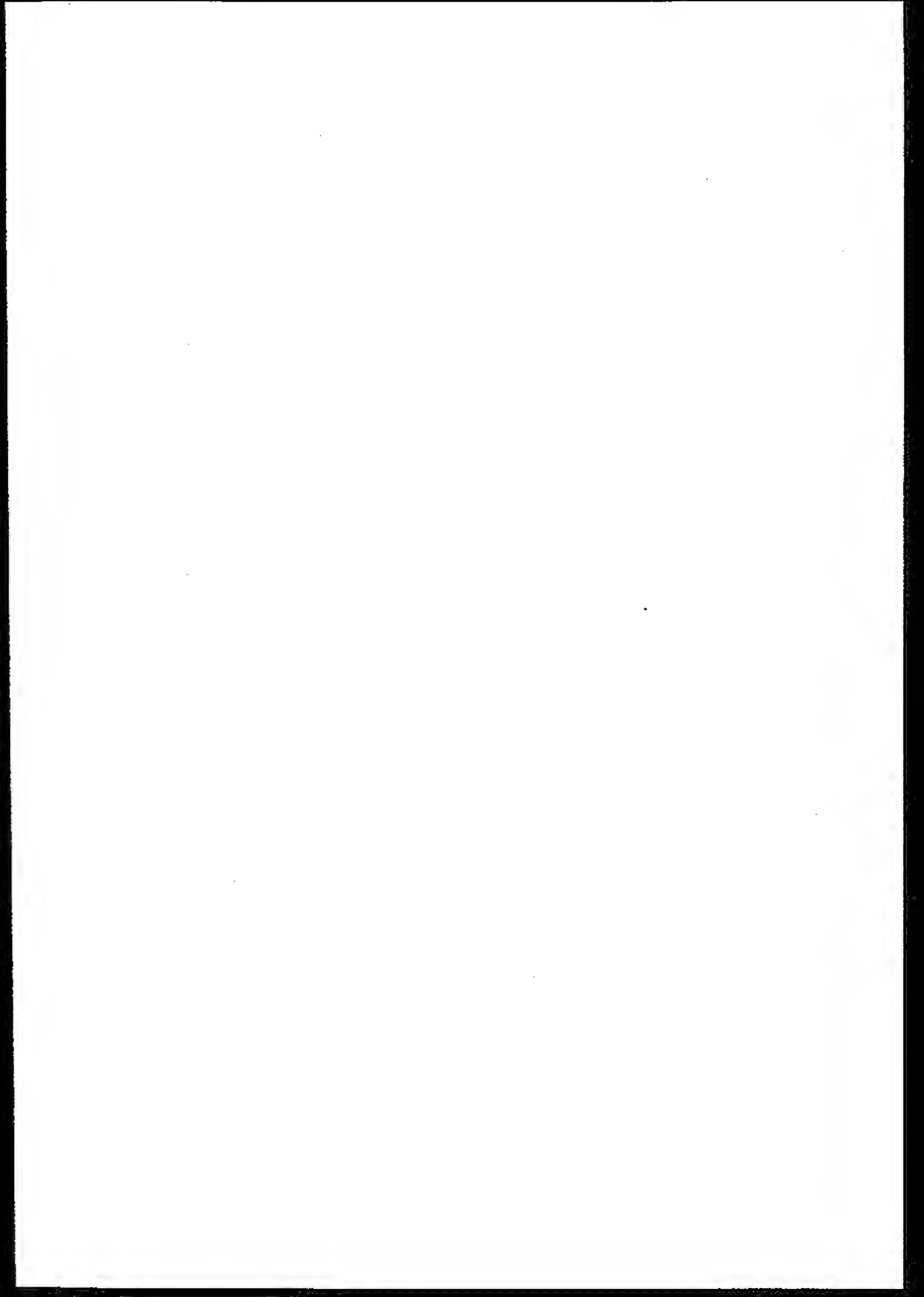
(١) انظر: الدر المنثور جـ٧ ص٨٤.





الفصل الرابع

من يتولى حساب الخلق ؟



الفصل الرابع

من يتولى حساب الخلق ؟

الذي يتبين من ظواهر النصوص - من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه ﷺ - ، أن الذي يحاسب الخلق كلهم هو الله جل وعلا ، وهو ما أفادته عموم الآيات التي يذكر فيها محاسبة الله تعالى لعباده ، وعموم الأحاديث التي يذكر فيها وقوف البشر عند ربهم للعرض والحساب . كما يتبين ذلك من عرض الأدلة من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه ﷺ فيما يلي :

١ - قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ .

[الغاشية : ٢٥ - ٢٦] .

٢ - وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] .

٣ - وقوله : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾

[المؤمنون : ١١٧] .

وأما ما ورد في السنة النبوية فهي أحاديث كثيرة ، مثل قوله ﷺ : **«إنكم سترون ربكم»**[١] .

«ليس منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان»[٢] .

---

(١) ، (٢) قد سبق تخريج هذه الأحاديث .

وكذلك ما جاء في بعض الأحاديث القدسية، مثل قول الله تعالى: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»[١].

وغير ذلك من النصوص التي تدل على أن الله تعالى هو الذي يتولى حساب خلقه، غير أن بعض العلماء يذهب إلى أن الله تعالى لا يحاسب بعض الخلق؛ بل تحاسبهم الملائكة؛ إهانة لهم؛ وتمييزًا لأهل الكرامة.

ويستدل هؤلاء بما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله تعالى يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بالطريق يمنع منه ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا ما يبايعه إلا للدنيا؛ فإن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يف له، ورجل يبايع رجلاً بعد العصر؛ فحلف بالله لقد أعطي كذا وكذا؛ فصدقه ولم يعط بها**»[٢].

وممن ذهب إلى هذا الرأي القرطبي فيما يذكر السفاريني، وذكر كذلك أن غيره قد ذهب إلى هذا القول أيضًا[٣].

وهي مسألة فيها خلاف كما تقدم، وأشرنا إلى أن مثل هذه النصوص تدل على أن الله لا يكلمهم في مكان ويكلمهم في مكان آخر. أو لا يكلمهم كلام راض عنهم، أو بكلام ينفعهم ويسرهم.

قال الحافظ النووي رحمه الله عن معنى الحديث:

---

(١) قد سبق تخريج هذا الحديث.

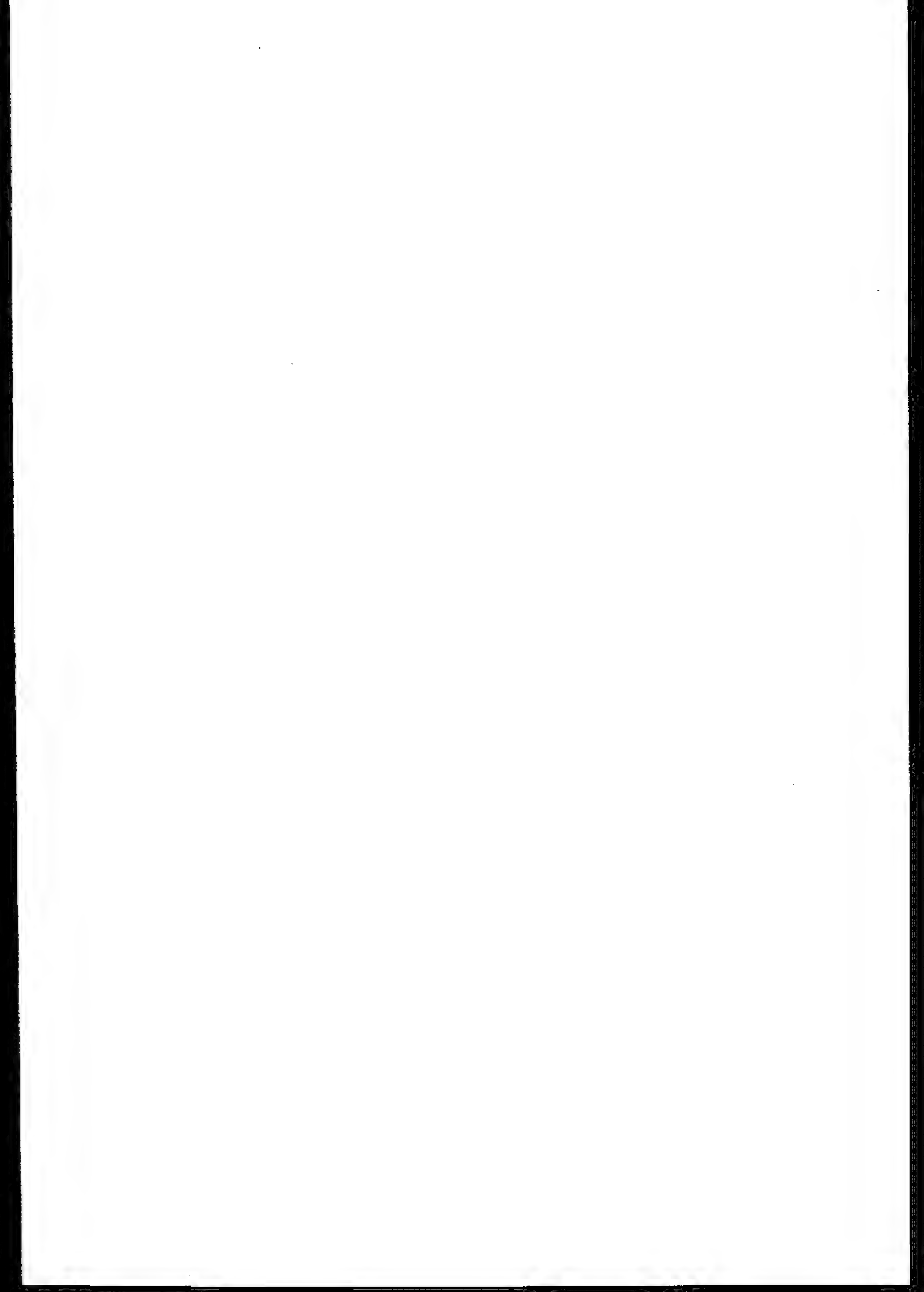
(٢) أخرجه البخاري جـ١٣ ص٢٠١ وص٤٢٣، ومسلم جـ١ ص٣٠٤.

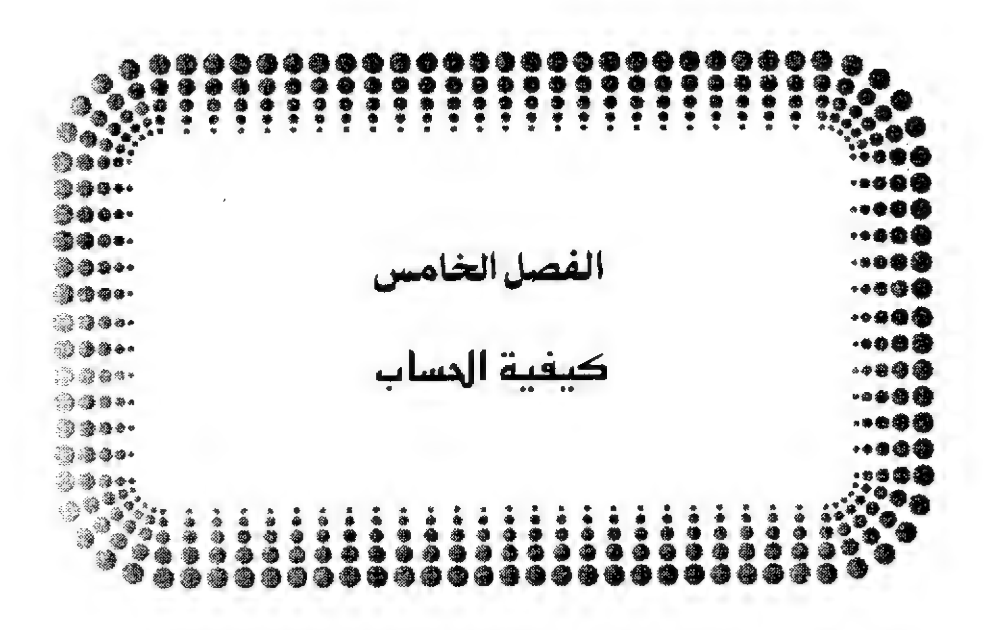
(٣) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٧٧.

«قيل: معنى **«لا يكلمهم»** أي لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات، وبإظهار الرضى؛ بل بكلام أهل السخط والغضب، وقيل: المراد الإعراض عنهم، وقال جمهور المفسرين: لا يكلمهم كلامًا ينفعهم ويسرهم، وقيل: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية، ومعنى **«لا ينظر إليهم»** أي يعرض عنهم»[1].

* * *

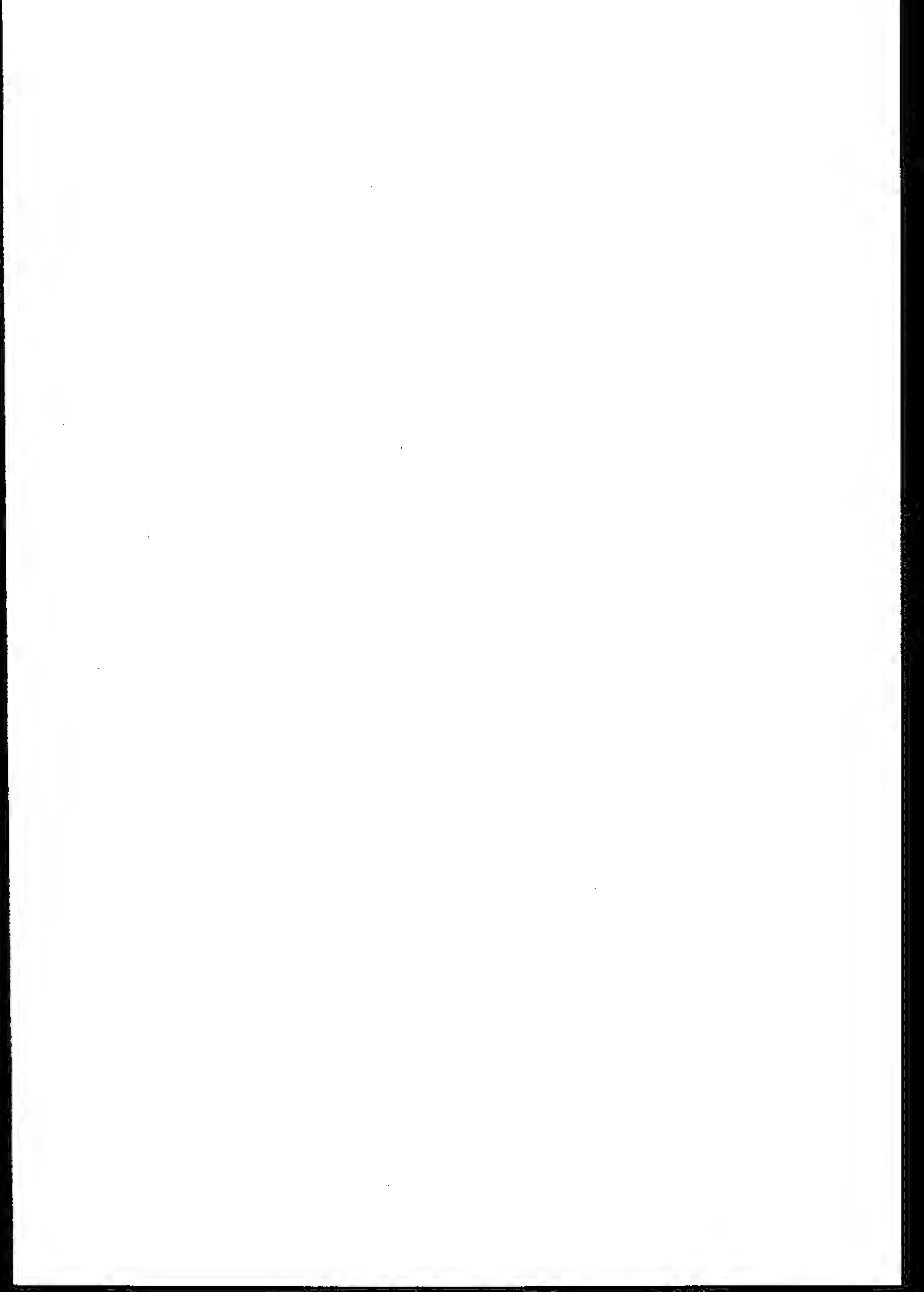
(١) شرح النووي لمسلم جـ١ ص٣٠٥.





الفصل الخامس

كيفية الحساب



الفصل الخامس
كيفية الحساب

اختلفت آراء العلماء حول الكيفية التي يتم بها حساب الخلق إلى أقوال :

أحدها : «أنه يعلمهم ما لهم وعليهم . . . قال بعض العلماء : بأن يخلق الله في قلوبهم علومًا ضرورية بمقادير أعمالهم من الثواب والعقاب» .

وهذا القول قد حكاه السفاريني والبرديسي دون بيان قائله ، وقد رأيته للقاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه شرح الأصول الخمسة ، في قوله : «فإن ذلك - يريد الحساب - يكون بخلق العلم الضروري في قلبه ، أنه يستحق من الثواب كذا ومن العقوبة كذا ، فيسقط الأقل بالأكثر»[(١)] .

الثاني - ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما - : «أن يوقف الله تعالى عباده بين يديه ، ويؤتيهم كتب أعمالهم ، فيها سيئاتهم وحسناتهم ، فيقول : هذه سيئاتكم وقد تجاوزت عنها ، وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم» .

الثالث : أن يكلم الله عباده في شأن أعمالهم ، وكيفية ما لها من الثواب وما عليها من العقاب»[(٢)] .

والذي يظهر - لي - أن كيفية الحساب هو أن يوقف الله العبد بين يديه ، ثم

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٧٣٦ .

(٢) انظر : لوامع الأنوار جـ٢ ص١٦٥ وانظر : تكملة شرح الصدور ص٢٠ .

يحاسبه على أعماله حسابًا يسيرًا أو حسابًا عسيرًا، كما ذهب إليه أهل القول الثالث، وهو الرأي المتبادر والظاهر من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ومن كيفيات الحساب كذلك أن:

١ ـ منه اليسير، قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾.

[الانشقاق: ٧].

٢ ـ ومنه العسير، قال تعالى عن الكفار: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الرعد: ١٨].

٣ ـ ومنه السر، وقد تقدم ذكر دليله، كحديث النجوى، وما ورد من فضيحة بعض الناس على رؤوس الأشهاد.

٤ ـ ومنه الجهر، كما تقدم في البعث، من إتيان الغادر يحمل غدرته على ظهره.

٥ ـ ومنه التوبيخ، ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

[القصص: ٦٢].

٦ ـ ومنه العدل، قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾

[الأنبياء: ٤٧].

٧ ـ ومنه الفضل، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

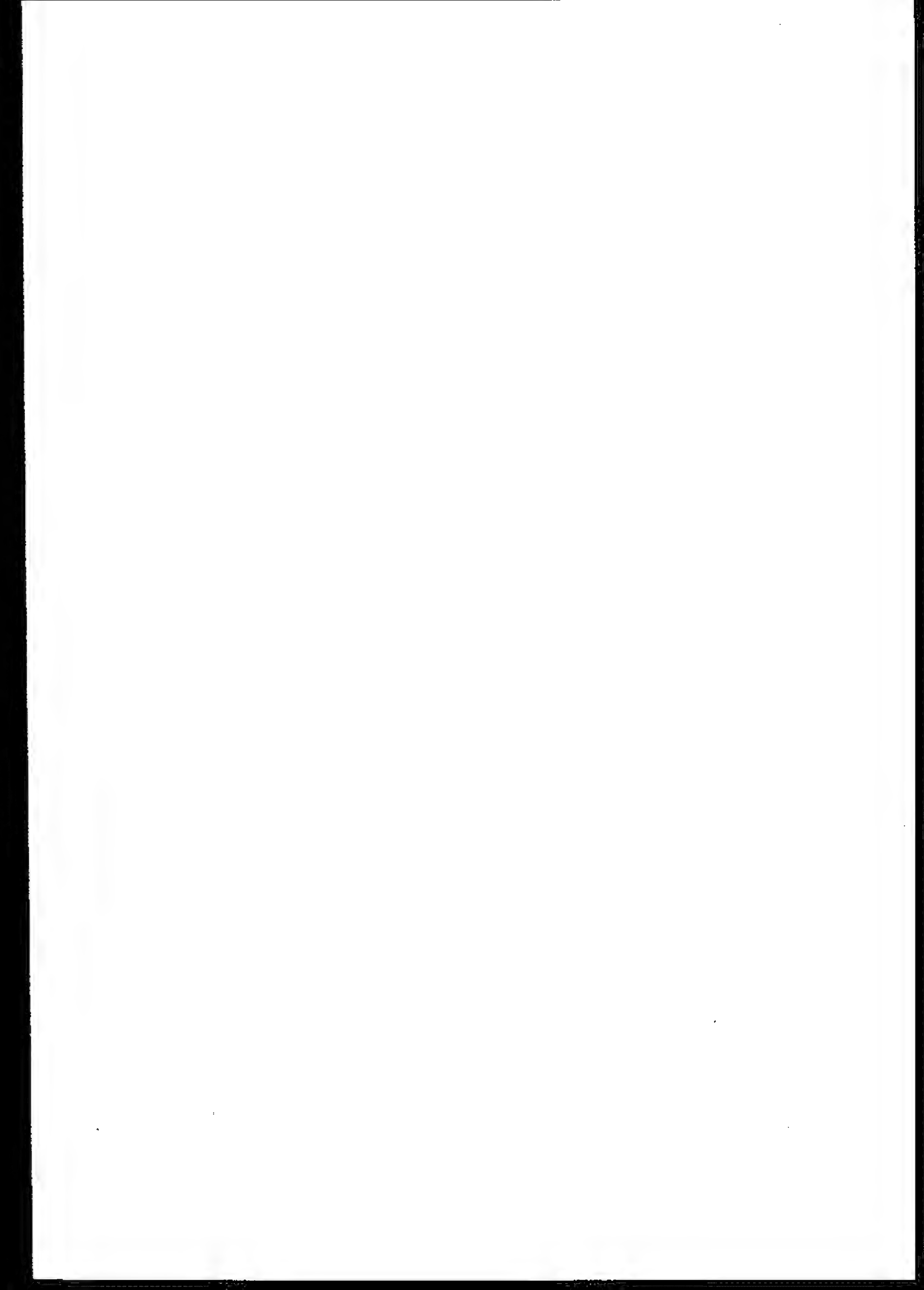
قال البرديسي:

«ويكون للمؤمن والكافر والإنس والجن، إلا من ورد الحديث

باستثنائهم»[١] . ومسألة حساب الجن وثوابهم وعقابهم، وهل يدخلون الجنة أم لا ؟ كل هذه المسائل وغيرها سنخصها بالذكر في مبحث الميزان .

* * *

(١) تكملة شرح الصدور ص٢٠ .





الفصل السادس

من هم الذين يشملهم الحساب ؟



الفصل السادس

من هم الذين يشملهم الحساب ؟

الناس في يوم القيامة يردون فصل القضاء طوائف متفرقة وأصنافًا شتّى، منهم من يستحق غاية الإكرام، ومنهم من يستحق غاية التعذيب، ومنهم من هو بين ذلك.

فهناك الأنبياء، وهناك المؤمنون ـ السابقون منهم والمقتصدون ـ ، وهناك من خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، وهناك كفار هم أعداء الله ومحل سخطه وبغضه.

إنهم يردون أصنافًا شتّى، لا يعلمهم إلا الله تعالى، فمن من هؤلاء يحاسب؟ ومن من هؤلاء لا يحاسب؛ بل يكرمهم الله فلا يحاسبهم؟

وقد أجمل القرطبي رحمه الله الجواب عن هذه الأصناف بالنسبة للحساب؛ فقسمهم إلى ثلاثة فرق فقال:

«فرقة: لا يحاسبون أصلاً، وفرقة: تحاسب حسابًا يسيرًا ـ وهما من المؤمنين ـ ، وفرقة: تحاسب حسابًا شديدًا، يكون منها مسلم وكافر، وإذا كان من المؤمنين من يكون أدنى إلى رحمة الله؛ فلا يبعد أن يكون من الكفار من هو أدنى إلى غضب الله؛ فيدخله النار بغير حساب»[1] .

---

(١) التذكرة ص٣٤٣.

والواقع أن الإجابة تحتاج إلى تفصيل أكثر لطوائف الناس، وسنذكر فيما يلي تفصيل ما قيل عن كل طائفة:

١ـ أما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

ففي محاسبة الله تعالى لهم خلاف بين العلماء، وسبب الخلاف فيهم هو ما جاء في قوله تعالى: ـ ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

[الأعراف: ٦].

فإن هذه الآية تدل على أن الله يحاسب جميع البشر؛ الرسل والمرسل إليهم، وهذا هو ما يذهب إليه بعض العلماء.

قال الرازي في إثبات أن السؤال يقع على الأنبياء والأمم أيضًا:

«المسألة الثانية: الذين أرسل إليهم هم الأمة، والمرسلون هم الرسل، فبين تعالى أنه يسأل هذين الفريقين. قال: ونظير هذه الآية قوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣][١].

وقال أيضًا في معرض عده للمسائل التي اشتملت عليها الآية:

«المسألة الرابعة: الآية تدل على أنه تعالى يحاسب كل عباده؛ لأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا رسلاً أو مرسلاً إليهم، ويبطل قول من يزعم أنه لا حساب على الأنبياء والكفار»[٢].

ويذكر ابن كثير أن الله تعالى يسأل الأنبياء عن تبليغ أقوامهم رسالة الله تعالى، فقال: «فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به،

(١) التفسير الكبير جـ١٤ ص٢٢.
(٢) التفسير الكبير جـ١٤ ص٢٤.

ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته».

ثم نقل عن ابن عباس في تفسير الآية: «أن الله يسأل الرسل عما بلغوا»[١].

ويذكر الشوكاني في معنى الآية ﴿وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أن السؤال للأنبياء الذين بعثهم الله: «أي نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم، ومن أطاع منهم ومن عصى، وقيل: المعنى فلنسألن الذين أرسل إليهم يعني الأنبياء، ولنسألن المرسلين يعني الملائكة»[٢].

وقال السفاريني عن مسألة حسابهم:

«والجواب أنه لا حساب على الأنبياء عليهم السلام على سبيل المناقشة والتقريع»[٣].

ويقول النسفي فيما ينقله عنه السفاريني:

«الأنبياء لا حساب عليهم، وكذلك أطفال المؤمنين، وكذلك العشرة المبشرة بالجنة، هذا في حساب المناقشة، وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب، ولهذا قال علماؤنا في عقائدهم: ويحاسب المسلمون المكلفون، إلا من شاء الله أن يدخل الجنة بغير حساب، وكل مكلف مسئول، ويسأل من شاء من الرسل عن تبليغ الرسالة، ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسل»[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٠٠.
(٢) فتح القدير جـ٢ ص١٨٩.
(٣) مختصر لوامع الأنوار ص٤٠٠.
(٤) المصدر السابق ص٤٠٠.

وعلى القول بأنهم يسألون ـ ومعلوم أنه لا ذنوب لهم ليحاسبوا عليها ـ فما المقصود من وقوع السؤال عليهم؟

أجاب الرازي عن ذلك بقوله:

«فإن قيل: فما الفائدة في سؤال الرسل مع العلم بأنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة؟ قلنا: لأنهم إذا أثبتوا أنه لم يصدر عنهم تقصير ألبتة؛ التحق التقصير بكليته بالأمة؛ فيتضاعف إكرام الله في حق الرسل لظهور براءتهم عن جميع موجبات التقصير، ويتضاعف أسباب الخزي والإهانة في حق الكفار لما ثبت أن كل التقصير كان منهم»[1].

فالذي يظهر أن إطلاق القول بأن الأنبياء يسألون؛ أن المقصود به مساءلتهم عن تبليغهم الدعوة إلى أقوامهم، وهو مجرد مساءلة لزيادة إقامة الحجة على العصاة، وليس مساءلة مناقشة وتقريع، كما ظهر مما سبق.

وأما إطلاق القول بأنهم لا يسألون، فالمراد به ما تقدم من أنهم لا يسألون سؤال مناقشة واستظهار.

وإذا كان قد ثبت أن طائفة من أتباع الأنبياء يدخلون الجنة بغير حساب، فكيف بالأنبياء الذين لهم المزية الأولى في كل تكريم؟

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عن مساءلة الأنبياء، وسؤال الله للرسل ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾: «لتوبيخ الذين كذبوهم، كسؤال الموءودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها»[2].

---

(١) التفسير الكبير جـ١٤ ص٢٣.

(٢) دفع إيهام الاضطراب ص١٣١.

٢ـ وأما بقية المؤمنين بصورة عامة:

فــلا ريب أن الله تعالى يحاسبهم محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، وبالحساب يمتاز بعضهم على بعض بالدرجات؛ نتيجة لثقل موازينهم وخفتها ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

[الزلزلة: ٧، ٨].

وقد قدمنا ذكر كثير من النصوص التي تدل على محاسبة الله تعالى عباده المؤمنين.

وأما أولئك السبعون الألف الذين ورد النص بأنهم لا يحاسبون، فهو إكرام من الله تعالى لنبينا محمد ﷺ ولأمته.

قال النووي في تعليقه على هذا الحديث: إن «فيه عظم ما أكرم الله سبحانه وتعالى به النبي ﷺ وأمته، زادها الله فضلاً وشرفًا»[١].

وقال السفاريني: «ثبت في عدة أخبار عن النبي المختار ﷺ ـ ما كرّ الليل على النهار ـ أن طائفة من هذه الأمة بلا ارتياب يدخلون الجنة بغير حساب، فيدخلون جنات النعيم قبل وضع الموازين وأخذ الصحف بالشمال واليمين»[٢].

ومصداق هذا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في السواد الذي رفع له، كما مر[٣].

---

(١) شرح النووي لمسلم جـ١ ص٤٩٠.

(٢) لوامع الأنوار جـ٢ ص١٧٧.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم، البخاري جـ١٠ ص١٥٥، ومسلم جـ١ ص٤٩٥.

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب**. فقال يزيد الأخنس: والله ما أولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذبان، فقال رسول الله: «**فإن ربي عز وجل قد وعدني سبعين ألفًا مع كل ألف سبعين ألفًا، وزادني ثلاث حثيات**»، قال فما سعة حوضك؟ قال: **ما بين عدن إلى عمان، وأوسع وأوسع** ـ يشير بيده ـ قال: **فيه مثعبان من ذهب وفضة**. قال: فما حوضك يا نبي الله؟ قال: **أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، من شرب منه لم يظمأ بعدها أبدًا، ولم يسود وجهه أبدًا**»[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سألت الله تعالى الشفاعة لأمتي، فقال: لك سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، قلت: ربي زدني، فحثا لي بيديه مرتين وعن يمينه وعن شماله**»[2] .

* * *

(١) قال الهيثمي جـ١٠ ص٣٦٢: «قلت: عند الترمذي وابن ماجه بعضه، رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح، إلا أنه قال في الطبراني: «فما شرابه؟ قال: **شرابه أبيض من اللبن وأحلى مذاقه من العسل**». أخرجه الترمذي جـ٤ ص٦٢٦، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) ذكره في الإتحافات السنية ص١٩٧، وعزاه إلى هناد.

فائدة

وللمناسبة، وعلى سبيل الاستطراد، نذكر طائفة من أقوال العلماء في بيان ما اشتبه على بعض الناس من حديث السبعين الألف، وما ورد فيه من معاني تحتاج إلى إيضاح وشرح تتميمًا للفائدة.

فقد اختلف العلماء في معنى الحديث: هل يراد به تحريم التداوي والمنع منه؟ أم أن التداوي جائز لكن الأولى تركه؟

أكثر العلماء على أن التداوي أمر مشروع وليس فيه أي محذور، وأن الحديث لا يدل على تحريمه.

وقد ذكر النووي اختلاف العلماء في المعنى المراد من الحديث، وذكر أقوال العلماء كالمازري والقاضي عياض والخطابي والداودي وغيرهم.

ثم رجح القول بجواز التداوي؛ لفعله ﷺ.

وفي هذا يقول: «اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، فقال الإمام أبو عبد الله المازري: احتج بعض الناس بهذا الحديث على أن التداوي مكروه، ومعظم العلماء على خلاف ذلك، واحتجوا بما وقع في أحاديث كثيرة، من ذكره ﷺ لمنافع الأدوية والأطعمة، كالحبة السوداء والقمط والصبر وغير ذلك، وبأنه ﷺ تداوى، وبإخبار عائشة رضي الله عنها بكثرة تداويه، وبما علم من الاستشفاء برقاه، وبالحديث الذي فيه أن بعض الصحابة أخذوا على الرقية أجرًا.

فإذا ثبت هذا؛ حمل ما في الحديث على قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطبعها، ولا يفوضون الأمر إلى الله تعالى.

قال القاضي عياض: قد ذهب إلى هذا التأويل غير واحد ممن تكلم على الحديث، ولا يستقيم التأويل، وإنما أخبر ﷺ أن هؤلاء لهم مزية وفضيلة، يدخلون الجنة بغير حساب، وبأن وجوههم تفيء إضاءة القمر ليلة البدر، ولو كان كما تأوله هؤلاء؛ لما اختص هؤلاء بهذه الفضيلة؛ لأن تلك هي عقيدة جميع المؤمنين، ومن اعتقد خلاف ذلك كفر.

وقد تكلم العلماء وأصحاب المعاني على هذا، فذهب أبو سليمان الخطابي وغيره إلى أن المراد من تركها توكلاً على الله تعالى ورضاء بقضائه وبلائه.

قال الخطابي: وهذه من أرفع درجات المحققين بالإيمان، قال: وإلى هذا ذهب جماعة سماهم، قال القاضي: وهذا ظاهر الحديث، ومقتضاه أنه لا فرق بين ما ذكر من الكي والرقى وسائر أنواع الطب.

وقال الداودي: المراد بالحديث: الذي يفعلونه في الصحة؛ فإنه يكره لمن ليست به علة أن يتخذ التمائم[1] ويستعمل الرقى، وأما من يستعمل ذلك ممن به مرض فهو جائز، وذهب بعضهم إلى تخصيص الرقى والكي من بين أنواع الطب لمعنى، وأن الطب غير قادح في التوكل؛ إذ تطبب رسول الله ﷺ والفضلاء من السلف، وكل سبب مقطوع به كالأكل والشرب للغذاء والري لا يقدح عند المتكلمين في هذا الباب، ولهذا لم ينف عنهم التطبب».

إلى أن يقول: «والكلام في الفرق بين الطب والكي يطول، وقد أباحهما

---

(١) الثابت عن السلف تحريم تعليق التمائم لأي عذر كان لكثرة الأحاديث المصرحة بذلك؛ كقوله ﷺ: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له» وغير ذلك.

النبي ﷺ وأثنى عليهما، لكني أذكر منه نكتة تكفي، وهو أنه ﷺ تطبب في نفسه وطبب غيره، ولم يكتو وكوى غيره، ونهى في الصحيح أمته عن الكي، وقال: **«ما أحب أن أكتوي»**.

قال النووي: «هذا آخر كلام القاضي».

ثم رجح رأي الخطابي ومن وافقه بقوله:

«والظاهر من معنى الحديث ما اختاره الخطابي ومن وافقه كما تقدم، وحاصله أن هؤلاء كمل تفويضهم إلى الله عز وجل فلم يتسببوا في دفع ما أوقعه بهم، ولاشك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها، وأما تطبب النبي ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز»[١].

والإمام البخاري يذهب - حسب ترجمته لهذا الحديث - إلى أن التداوي بالكي جائز للحاجة، وأن الأولى تركه إذا لم يكن متعينًا؛ لأنه قال في ترجمته لهذا الحديث: «باب: من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو».

قال ابن حجر: وعموم الجواز مأخوذ من نسبة الشفاء إليه في أول حديثي الباب، ويعني به قوله ﷺ: **«إن كان في شيء من أدويتكم شفاء ففي شرطة محجم أو لذعة بنار، وما أحب أن أكتوي»**[٢].

وفي صحيح مسلم عن جابر ما يدل صراحة على جواز التداوي، وأن النبي ﷺ فعله وأمر به، فعن جابر رضي الله عنه أنه قال: رمي سعد بن معاذ في أكحله، قال: فحسمه رسول الله ﷺ بيده بمشقص، ثم ورمت؛ فحسمه الثانية»[٣].

---

(١) شرح النووي ١/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٢) صحيح البخاري ١٠/ ١٥٥.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٧٣١.

وفي رواية عن جابر أيضًا: «أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا ثم كواه عليه»(١).

وقد بوب الترمذي على جواز الكي بقوله: «باب: ما جاء في الرخصة في ذلك»، ثم أخرج الحديث الآتي: عن أنس أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة(٢).

وهل اكتوى النبي ﷺ أم لا؟ فيه خلاف بين العلماء.

قال ابن حجر: «ولم أر في أثر صحيح أن النبي ﷺ اكتوى، وذكر أن ابن القيم على هذا الرأي».

وممن ذهب إلى أن الرسول ﷺ اكتوى: القرطبي والطبري والحليمي وابن التين(٣)، كما نقل عنهم الحافظ ابن حجر.

ويقول القرطبي:

«لا تظن أن من استرقى واكتوى لا يدخل الجنة بغير حساب، فإن النبي ﷺ رقى نفسه وأمر بالرقى، وكذلك كوى أصحابه ونفسه، فيما ذكر الطبري وغيره؛ فيحمل النهي عن رقى مخصوصة، بدليل قول الرسول ﷺ لآل عمرو ابن حزم: **«اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك»**.

وكذلك الكي الذي لا يوجد عنه غنى، فمن فعله في محله وعلى شرطه؛

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٧٣٠.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٠ قال: «وفي الباب عن أبي وجابر، قال: وهذا حديث حسن غريب».

(٣) فتح الباري ١٠/ ١٥٦.

لم يكن ذلك مكروهًا في حقه، ولا منقصًا له من فضله، ويجوز أن يكون من السبعين ألفًا، وقد كوى النبي ﷺ نفسه، فيما ذكر الطبري في كتاب آداب النفوس له. ذكره الحليمي في كتاب المنهاج في الدين له.

قال: «واختلفت الرواية في الكي، فروي أن النبي ﷺ اكتوى من الكلم الذي أصابه في وجهه يوم أحد، وكوى أسعد بن زرارة من الشوكة، وكوى سعد بن معاذ الذي اهتز لموته عرش الرحمن، وأبي بن كعب المخصوص بأنه أقرأ الأمة للقرآن، وقد اكتوى عمران بن حصين، وقطع رجله عروة بن الزبير.

فمن اعتقد أن هؤلاء لا يصلحون أن يكونوا من السبعين ألفًا؛ ففساد كلامه لا يخفى»[1].

وأما الروايات التي تمنع من ذلك.

فمنها ما في صحيح البخاري من قوله ﷺ: **«وما أحب أن أكتوي»**[2].

ومنها ما في صحيح مسلم عن عمران بن حصين: «كان يسلم علي حتى اكتويت؛ فتُرِك، ثم تركت الكي؛ فعاد»[3].

وله عنه من وجه آخر: «إن الذي كان انقطع عني رجع إليّ» يعني تسليم الملائكة، وفي لفظ: «أنه كان يسلم علي، فلما اكتويت أمسك عني، فلما تركته عاد إليّ».

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران «نهى رسول الله ﷺ

---

(١) التذكرة ص٤٥١.

(٢) صحيح البخاري ١٠/ ١٥٥.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٩٩.

عن الكي، فاكتوينا؛ فما أفلحنا ولا أنجحنا»، وفي لفظ «فلم يفلحن ولم ينجحن»[١] .

وهذه الألفاظ لا تدل على التحريم، وإنما تدل - كما قال الإمام ابن حجر - على الكراهة، وخصوصًا لمن لا ينفعه الكي، فإنه الأولى به أن يتركه، كما حصل لعمران بن حصين، ونص كلام ابن حجر قوله:

«والنهي فيه محمول على الكراهة، أو على خلاف الأولى؛ لما يقتضيه مجموع الأحاديث، وقيل: إنه خاص بعمران لأنه كان به الباسور، وكان موضعه خطرًا؛ فنهاه عن كيه، فلما اشتد عليه كواه فلم ينجح»[٢] .

ولابن قتيبة - فيما ينقله عنه ابن حجر - تفصيل في جواز الكي وعدمه، حيث قال: «الكي نوعان: كي الصحيح لئلا يعتل؛ فهذا الذي قيل فيه: «لم يتوكل من اكتوى» لأنه يريد أن يدفع القدر، والقدر لا يدافع. والثاني: كي الجرح إذا نغل: أي فسد، والعضو إذا قطع؛ فهو الذي يشرع التداوي به، فإن كان الكي لأمر محتمل؛ فهو خلاف الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق.

وحاصل الجمع: أن الفعل يدل على الجواز، وعدم الفعل لا يدل على المنع؛ بل يدل على أن تركه أرجح من فعله، وكذا الثناء على تاركه، وأما النهي عنه؛ فإما على سبيل الاختيار والتنزيه، وإما عما لا يتعين طريقًا إلى الشفاء»[٣] .

---

(١) المسند ٤/١٥٦.

(٢) فتح الباري ١٠/١٥٧.

(٣) المصدر السابق ١٠/١٥٥.

وأما لماذا قال الرسول ﷺ للرجل الذي قام يسأله أن يدعو الله له بأن يجعله من السبعين الألف هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب؟ فالجواب: أنه قال له ﷺ هذا القول لعله لسد الباب؛ إذ لو دعا الرسول ﷺ لهذا الرجل لقام كل من سمع يطلب أن يكون مثل عكاشة.

وقد اختلف العلماء في هذا المنع من الرسول ﷺ، فقال القاضي عياض: قيل: إن الرجل الثاني لم يكن ممن يستحق تلك المنزلة، ولا كان بصفة أهلها، بخلاف عكاشة.

وقيل: بل كان منافقًا فأجابه النبي ﷺ بكلام محتمل، ولم ير ﷺ التصريح له بأنك لست منهم؛ لما كان ﷺ عليه من حسن العشرة.

وقيل: قد يكون سبق عكاشة بوحي أنه يجاب فيه ولم يحصل ذلك للآخر»[1].

ويذكر النووي كذلك: «أن هذا الرجل الذي أبهم ذكر اسمه أنه سعد بن عبادة رضي الله عنه، كما يذكر الخطيب البغدادي في كتابه الأسماء المبهمة، فإن صح هذا؛ بطل قول من زعم أنه منافق»[2]. ورجح النووي القول الأخير من تلك الأقوال.

وأما عن حقيقة هذا التوكل الذي أثني عليهم به، فالواقع أن العلماء قد اختلفوا في حقيقة التوكل.

«فحكى الإمام أبو جعفر الطبري وغيره عن طائفة من السلف أنهم قالوا:

---

(١) شرح النووي لمسلم ١/ ٤٩١، وعكاشة بن مِحصَن بكسر الميم وفتح الصاد.

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.

لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى من سبع أو عدو، حتى يترك السعي في طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى له رزقه، واحتجوا بما جاء في ذلك من الآثار.

وقالت طائفة: حده الثقة بالله تعالى، والإيقان بأن قضاءه نافذ، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد منه من المطعم والمشرب، والتحرز من العدو، كما فعله الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين.

قال القاضي عياض: وهذا المذهب هو اختيار الطبري وعامة الفقهاء، والأول مذهب بعض المتصوفة وأصحاب علم القلوب والإشارات، وذهب المخلفون منهم إلى نحو مذهب الجمهور ولكن لا يصح عندهم اسم التوكل مع الالتفات والطمأنينة إلى الأسباب؛ بل فعل الأسباب سنة الله وحكمته، والثقة بأنه لا يجلب نفعًا ولا يدفع ضرًا، والكل من الله تعالى وحده ... هذا كلام القاضي عياض.

قال الإمام الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى: اعلم أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر فلا تنافي التوكل بالقلب، بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره، وإن تيسر فبتيسيره.

وقال سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه: التوكل الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.

وقال أبو عثمان الجبري: التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه.

وقيل: التوكل أن يستوي الإكثار والتقلل»[١].

---

(١) شرح النووي ١/ ٤٩٣.

٣ ـ وأما الكفار :

فإن العلماء قد اختلفت أقوالهم وتنازعوا في حسابهم ؛ هل يحاسبون أم لا؟

فمنهم من ذهب إلى أنهم يحاسبون ، قال شيخ الإسلام : «وهو رأي أبي حفص البرمكي من أصحاب أحمد وأبي سليمان الدمشقي وأبي طالب المكي .

ومنهم من ذهب إلى أنهم لا يحاسبون ، وهو رأي لأبي بكر عبد العزيز وأبي الحسن التميمي ، والقاضي أبي يعلى وغيرهم»[1] .

وقد ناقش هذا الكلام ابن تيمية حيث قال :

«وفصل الخطاب أن الحساب يراد به عرض أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها ، ويراد به الحساب موازنة الحسنات بالسيئات ، فإن أريد بالحساب المعنى الأول ؛ فلا ريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار ، وإن أريد المعنى الثاني ؛ فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة فهذا خطأ ظاهر .

وإن أريد أنهم يتفاوتون في العقاب ، فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قلت سيئاته ، ومن كان له حسنات خفف عنه العذاب ، كما أن أبا طالب أخف عذابًا من أبي لهب .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ [النحل : ٨٨]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ٣٧].

والنار دركات ، فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذابًا من بعض لكثرة

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٠٥ .

سيئاته وقلة حسناته؛ كان الحساب لبيان مراتب العذاب لا لأجل دخولهم الجنة»[١].

ومعنى هذا أن شيخ الإسلام لا يرى أن الكفار يحاسبون كحساب المؤمنين، أو ليتقرر مصيرهم على ضوء أعمالهم، فإن الكفار أعمالهم كلها لا تنفعهم، وإنما يحاسبون محاسبة عرض وتوبيخ.

وقد صرح بهذا في قوله: «ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة.

وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها»[٢].

وممن ذهب كذلك إلى القول بأن الكفار يحاسبون: القرطبي في التذكرة حيث قال: «فإن قيل: فهل يلقى الكافر ربه ويسأله؟ قلنا: نعم»[٣].

وكذلك الفخر الرازي كما تقدم النقل عنه[٤]، وغيرهما من العلماء.

وسبب هذا الخلاف أنه قد جاء في القرآن الكريم ما يدل على حساب جميع البشر، وجاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك.

ومن أدلة الرأي الأول قول الله تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/ ٣٠٥.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/ ١٤٦.

(٣) التذكرة ص٣٤٣.

(٤) التفسير الكبير ١٤/ ٢٤.

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٠].

وهذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ، يخبره فيه عن وقوف المجرمين يوم القيامة وحبسهم لحكم الله وقضائه فيهم، ومساءلته جل وعلا لهم توبيخًا وتقريعًا ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾ فيجيبون بقولهم: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أي أن البعث حق، ثم يجيبهم الله بقوله: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ [الكهف: ٤٨].

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤].

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥].

﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

ومن أدلة القول الآخر قول الله تعالى:

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٣٩].

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٨].

---

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ١٧٧.

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾.

[الرحمن: ٤١][١].

﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥][٢].

ولما كان ظاهر هذه الآيات متعارضة؛ إذ إن بعضها يثبت الحساب لعموم الكفار، والآيات الأخرى تثبت نفي الحساب عن الكفار، فقد أجاب العلماء في دفع هذا التعارض بأجوبة منها:

ما أجاب به القرطبي رحمه الله من أن «القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك؛ فلا يتناقض الآي والأخبار»[٣].

ثم نقل عن عكرمة أنه قال: «القيامة مواطن؛ يسأل في بعضها، ولا يسأل في بعضها».

وعن ابن عباس قوله: «لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ؛ لم عملتم كذا وكذا؟»[٤].

وقد قيل إن معنى قوله تعالى: ﴿ وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾:

«ولا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان سؤال التعرف لتمييز المؤمنين من الكافرين، أي أن الملائكة لا تحتاج أن تسأل أحدًا يوم القيامة أن يقال: ما كان دينك؟ وما كنت تصنع في الدنيا؟ حتى يتبين لهم بإخباره عن نفسه أنه كان

---

(١) انظر: دفع إيهام الاضطراب ص١٣١، والتذكرة ص٣٤٣-٣٤٤، ولوامع الأنوار ٢/ ٣٩٩، ص٣٩٩.

(٢)، (٣)، (٤) التذكرة ص٣٤٤.

مؤمنًا أو كان كافرًا، لكن المؤمنين يكونون ناضري الوجوه منشرحي الصدور، ويكون المشركون سود الوجوه زرقًا مكروبين، فهم إذا كلفوا سوق المجرمين إلى النار وتميزهم في الموقف؛ كفتهم مناظرهم عن تعرف أديانهم»[1] .

ويقول السفاريني عن مساءلة الكفار: «بأنهم لا يسألون سؤال تقرير فيقال لهم: فعلتم كذا»[2] .

وأكثر علماء التفسير على أن الإجابة في هذا هو القول بأن المساءلة وعدمها تحمل على تعدد مواقف القيامة وأوقاتها، حيث يمرون بأوقات يسألون فيها، وأوقات لا يسألون فيها.

وهذا ما أجاب به كثير من العلماء، منهم: ابن بطة في الإبانة[3] ، والرازي في التفسير الكبير[4] ، والشوكاني في فتح القدير[5] ، وغيرهم.

وقد ذكر الرازي إضافة إلى ما تقدم أن من أوجه الإجابة:

أولها: «أن القوم لا يسألون عن الأعمال؛ لأن الكتب مشتملة عليها، ولكنهم يسألون عن الدواعي التي دعتهم إلى الأعمال، وعن الصوارف التي صرفتهم عنها.

وثانيها: أن السؤال قد يكون لأجل الاسترشاد والاستفادة، وقد يكون لأجل التوبيخ والإهانة كقول القائل: ألم أعطك؟.

---

(١) انظر: التذكرة ص٣٤٥.
(٢) لوامع الأنوار ٢/ ١٧٤.
(٣) الإبانة ص٩٩.
(٤) التفسير الكبير ١٤/ ٢٣.
(٥) فتح القدير ٢/ ١٨٩.

إذا عـرفت هذا فنقـول: إنه تعـالى لا يسـأل أحـداً لأجل الاسـتـفـادة والاسترشاد، ويسألهم لأجل توبيخ الكفار وإهانتهم»[١].

وذكر العلامة الشنقيطي رحمه الله بأن السؤال وعدمه يرجع إلى نفس طريقة الأسئلة؛ لأن الأسئلة تختلف؛ فيها تقريع وتوبيخ، وفيها استخبار واستعلام، أو يكون ذلك بأن يسأل العبد عن أشياء ولا يسأل عن أشياء أخرى، أو أن ما جاء في إثبات السؤال إنما هو عن التوحيد وتصديق الرسل، وما جاء في النفي إنما هو عما عدا ذلك من شرائع الدين.

فقال في إجابته عن ذلك: «والجواب عن هذا من ثلاثة أجوبة:

الأول: وهو أوجهها لدلالة القرآن عليه، وهو أن السؤال قسمان:

سؤال توبيخ وتقريع، وأداته غالبًا «لم».

وسؤال استخبار واستعلام، وأداته غالبًا «هل».

فالمثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع.

ووجه دلالة القرآن على هذا أن سؤاله لهم المنصوص في كلمة توبيخ وتقريع، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾.

وكقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وسؤال الله للرسل: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ لتوبيخ الذين كذبوهم، كسؤال الموءودة بأي ذنب قتلت لتوبيخ قاتلها.

(١) التفسير الكبير: ١٤/ ٢٣.

والوجه الثاني: أن في القيامة مواقف متعددة، ففي بعضها يسألون وفي بعضها لا يسألون.

والوجه الثالث: هو ما ذكره الحليمي من أن إثبات السؤال؛ على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، وعدم السؤال محمول على ما يستلزمه من الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ **فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ** ﴾»[1].

وخلاصة هذا القول أن الله تبارك وتعالى أعد للجنة أهلاً بفضله، وأعد للنار أهلاً بعدله.

ثم إن أهل الجنة قسمان:

القسم الأول: هم قمة أهل الطاعة وخلاصة أهل الإيمان، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ومن جاء بحقهم نص مخصوص، فهؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب ولا سؤال فضلاً من الله وكرمًا.

القسم الثاني: أهل الإيمان عامة، وهؤلاء يدخلون الجنة إما بعد الحساب وإما بعد تطهيرهم من سيئاتهم، وذلك بفضل الله وكرمه أيضًا.

وكذلك أهل النار ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: قمة أهل الكفر والعناد وخلاصة المعاصي والفساد، وهؤلاء يدخلون النار من غير حساب ولا سؤال، وعلى رأسهم جميعًا إبليس وفرعون وهامان والنمروذ ومن ادعى الألوهية أو النبوة ومات على ذلك، وأمثالهم من أهل الجبروت والطغيان.

---

(١) دفع إيهام الاضطراب ٩/ ١٣١ ـ ١٣٢ ضمن أضواء البيان.

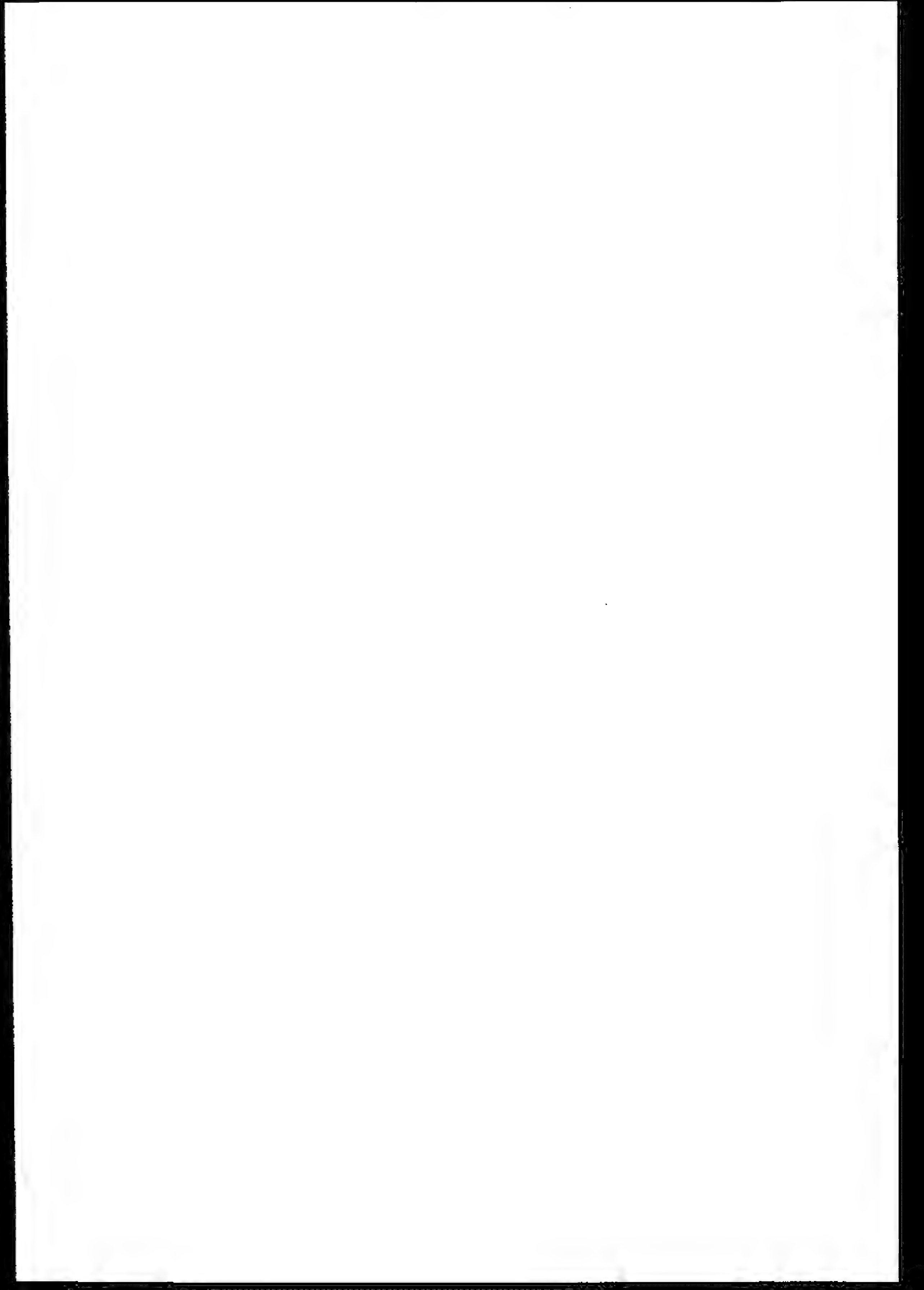
والقسم الثاني: أهل الكفر بصورة عامة، وهؤلاء يدخلون النار بعد الحساب والسؤال، وكل واحد يبوء النار بحسب عمله وكفره، والله تعالى أعلم.

* * *



الفصل السابع

أول من يحاسب من الناس



الفصل السابع
أول من يحاسب من الناس

يحاسب الله سبحانه وتعالى البشر كلهم في أسرع وقت كما ذكر، سبحانه لا يشغله شأن عن شأن.

وقد اختلفت أقوال العلماء في ذكر أول من يحاسب في يوم القيامة من الجماعات أو الأفراد، هل هم الملائكة؟ أم هو اللوح المحفوظ؟ أم هم الأنبياء والرسل؟ أم المغازون؟ أم أرباب الأموال والسعة؟ أم أنهم أول من تبارزوا في يوم بدر؛ علي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة وأقرانهم من المشركين؟ أم أن أول المحاسبين جاران من أمة محمد ﷺ؟ أم الزوج وزوجته؟

كل ذلك قد قيل، ونوضح فيما يلي أدلة تلك الأقوال والجمع بينها:

ـ أما ما جاء من أنهم الملائكة: فهو ما روى ابن أنعم عن حبان بن أبي جبلة فيما يعزوه البرديسي قال: «أول من يدعى يوم القيامة إسرافيل، فيقول الله جل ثناؤه: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم يا رب، فيخلى عن إسرافيل، ويقول لجبريل: ما صنعت بعهدي؟ فيقول: بلغت الرسل، فتدعى الرسل فيقول: هل بلغكم جبريل عهدي؟ فيقولون: نعم، فيخلى عن جبريل.

ويقال للرسل: هل بلغتم عهدي؟ فيقولون: نعم، قد بلغناه الأمم، فتدعى الأمم فيقال: هل بلغكم الرسل عهدي؟ فمكذب ومصدق، فتقول الرسل: لنا عليكم شهداء، فيقول الله تبارك وتعالى وهو أعلم: من؟ فيقولون: أمة

محمد ﷺ، فيقال لهم: أتشهدون أن الرسل قد بلغت الأمم؟ فتقول الأمم: يا رب، كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول الله عز وجل: تشهدوا عليهم ولم تدركوهم؟ فيقولون: يا ربنا أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت علينا كتابًا فقصصت علينا فيه أن قد بلغوا قولك»[1] .

ـ وأما ما جاء من أن أول المحاسبين اللوح المحفوظ: فهو ما جاء عن سنان أنه قال: «اللوح المحفوظ معلق بالعرش، فإذا أراد الله أن يوحي بشيء كتب في اللوح المحفوظ، فيجيء اللوح حتى يقرع جبهة إسرافيل، فينظر فيه، فإن كان لأهل السماء دفعه إلى ميكائيل، وإن كان لأهل الأرض دفعه إلى جبريل.

فأول ما يحاسب يوم القيامة اللوح، يدعى به ترعد فرائصه، فيقال: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: إسرافيل، فيجاء بإسرافيل ترعد فرائصه، فيقال: هل بلغك اللوح؟ فإذا قال: نعم؛ قال اللوح: الحمد لله الذي نجاني من سوء الحساب، ثم كذلك».

وفي حديث وهب بن الورد أن «إسرافيل عليه السلام يقول: بلغت جبريل، فيدعى جبريل عليه السلام ترعد فرائصه، فيقال: ما صنعت فيما بلغك إسرافيل؟ فيقول: بلغت الرسل، فيؤتى بالرسل، فيقال: ما صنعتم فيما أدى إليكم جبريل؟ فيقولون: بلغنا الناس، فهو قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾»[2] .

ـ وأما ما جاء من أن أول المحاسبين الأنبياء والرسل: فقد قال البرديسي:

(١) تكملة شرح الصدور ص١٣ .

(٢) ذكره البرديسي في تكملة شرح الصدور ص١٣ نقلاً عن كتاب الأعلام، الذي نقله بدوره عن أبي الشيخ عن سنان، والله أعلم بصحته .

«فيبدأ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيقول: ماذا أجبتم؟ ـ قيل في تفسيرها: كانوا قد علموا ولكن ذهبت عقولهم وغربت أفهامهم ونسوا، من شدة الهول وعظيم الخطب وصعوبة الأمر ـ فقالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب، ثم يقويهم الله عز وجل فيدعى بنوح عليه الصلاة والسلام»[1].

ثم استدل بما أخرج البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يدعى بنوح عليه السلام يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليهم شهيداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾**. والوسط: العدل، أي عدولاً خياراً، وخير الأمور الوسط»[2].

ـ وأما ما جاء من أنهم العلماء، أو المغازون، أو أرباب المال والسعة: فهو ما ذكره السفاريني إلا أنه لم يسنده إلى أحد[3].

ـ أما ما جاء من أنهم الذين تبارزوا في يوم بدر: فهو ما أخرج البخاري بسنده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة».

وروى كذلك عن قيس بن عباد وعن أبي ذر عن علي بن أبي طالب أن الآية من قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. أنها

---

(١) تكملة شرح الصدور ص١٣.

(٢) البخاري ١٣/ ٣١٦، في الاعتصام بالكتاب والسنة، والترمذي في كتاب التفسير.

(٣) لوامع الأنوار ٢/ ١٧٤.

نزلت في شأن الذين تبارزوا يوم بدر، وهم حمزة وعلي وعبيدة - أوأبو عبيدة - ابن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة[1] .

- وأما ما جاء من أنهم جاران: فهو ما روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول خصمين يوم القيامة جاران»**[2] .

ويجمع بين تلك الأقوال:

أن ما صح من تلك الروايات فإنه يحمل على أولية مقيدة في بابها، على أن هذه الروايات التي تقدمت تحتاج إلى نصوص تؤيدها، وعلى رغم انشغالي بالبحث والتفتيش للعثور على نصوص ثابتة لهذه الأقوال - غير ما وجدته في الصحيح - إلا أني لم أظفر بشيء تطمئن إليه النفس، وإنما رويتها للفائدة، وتبعتها على أصحابها الذين رووها.

وأما بالنسبة للأمم، فقد جاء في السنة أن أول الأمم يقضي الله بينهم هم أمة محمد ﷺ، وهذه مزية ومفخرة لهم؛ ليكونوا شهداء على الناس.

ومما ورد في هذا ما أخرجه ابن ماجه عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: **«نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون»**[3] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل**

---

(١) صحيح البخاري ٧/ ٢٩٦-٢٩٧. قال ابن حجر: «والمراد بهذه الأولية تقييده بالمجاهدين من هذه الأمة؛ لأن المبارزة المذكورة أول مبارزة وقعت في الإسلام».

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٥١ «بسند صحيح» كما قال الهيثمي ١٠/ ٣٤٥.

(٣) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٣٤، «في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات».

بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك؛ أن الرسل قد بلغوا فصدقناه. قال: فذلكم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾»[١] .

وورد عن رفاعة الجهني قال: صدرنا مع رسول الله ﷺ فقال: **«والذي نفس محمد بيده ما من عبد يؤمن ثم يسدد إلا سلك به في الجنة، وأرجو ألا يدخلوها حتى تبوؤا أنتم ومن صلح من ذراريكم مساكن في الجنة، ولقد وعدني ربي عز وجل أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا بغير حساب»**[٢] .

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنكم وفيتم سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»**[٣] .

فثبت بهذه النصوص أن أمة محمد ﷺ هم أول الأمم تحاسب، وأول الأمم تدخل الجنة، وفي هذا يقول الحافظ ابن كثير:

«ويكون أول الأمم يقضى بينهم هذه الأمة؛ لشرف نبيها ﷺ، كما أنهم أول من يدخل على الصراط، وأول من يدخل الجنة»[٤] .

* * *

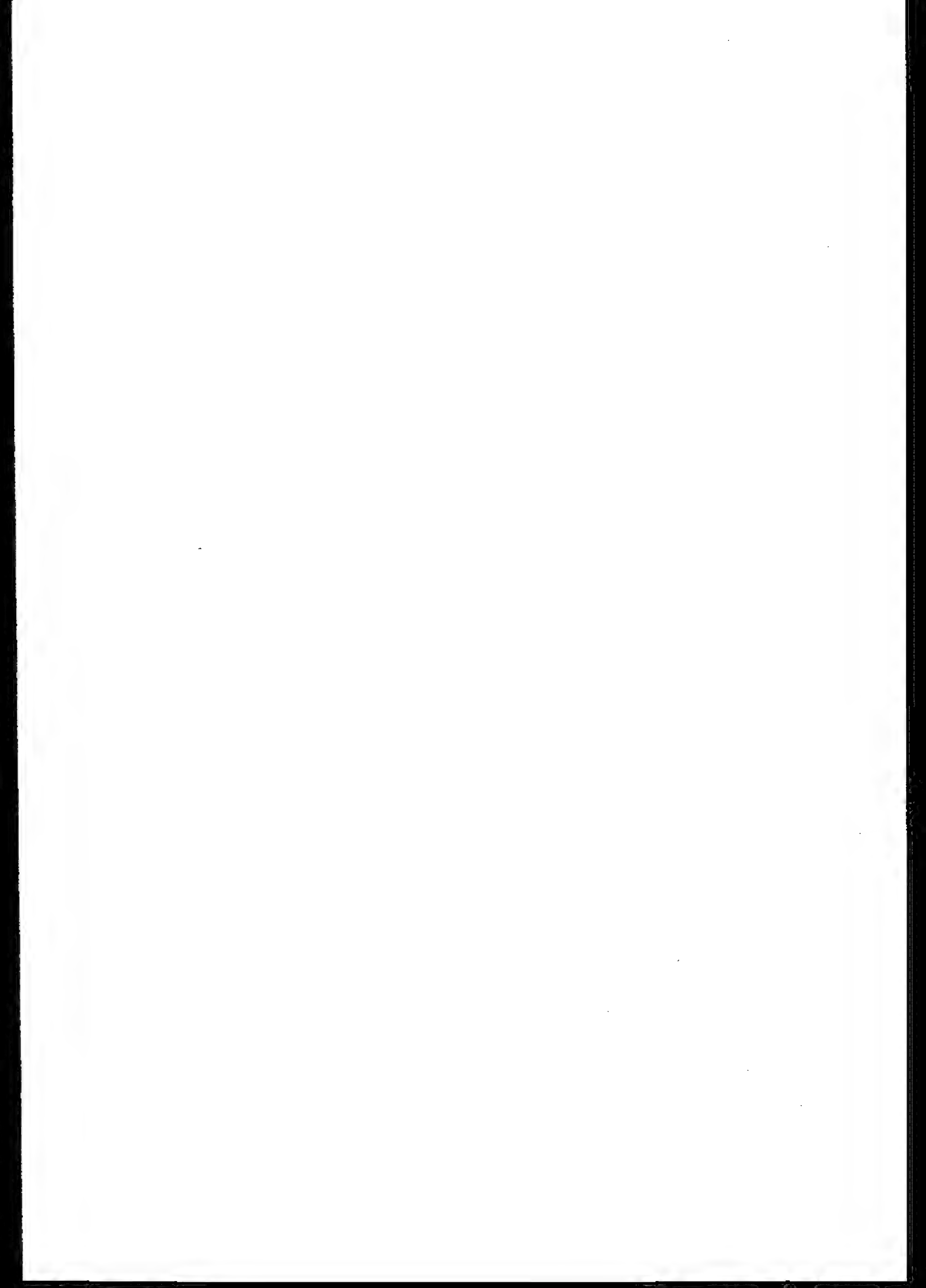
---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٣٢ .

(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٣٣، وفي إسناده محمد بن مصعب، قال: فيه صالح بن محمد البغدادي، ضعيف في الأوزاعي، وعامة أحاديثه عن الأوزاعي مقلوبة، لكن لم ينفرد به، وقد رواه النسائي في عمل اليوم والليلة عن يحيى بن حمزة عن الأوزاعي .

(٣) المصدر السابق .

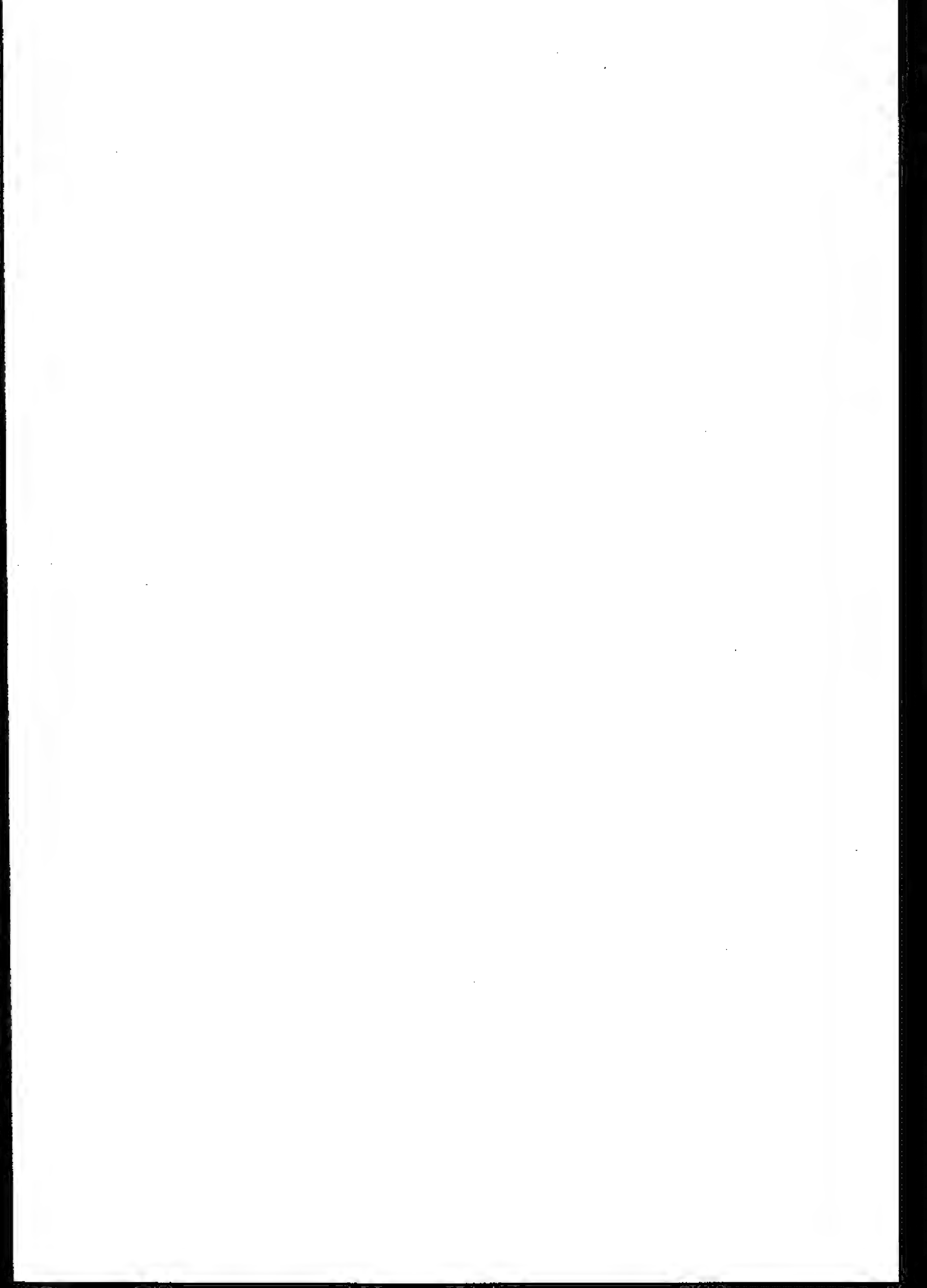
(٤) النهاية ٢/ ١١٧ .





الفصل الثامن

أول ما يسأل عنه العبد



الفصل الثامن

أول ما يسأل عنه العبد

تختلف الروايات في تحديد أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة؛ فبعضها يذكر أنه الصلاة، وبعضها يذكر أنه الدماء، وبعضها يذكر أنه الخصومات، وبعضها يذكر أنهم الجيران والجوار، وبعضها يذكر أنه الإسلام، وبعضها يذكر أنه الصحة والنعيم.

وسنعرض فيما يلي أدلة ذلك وترجيح القول الراجح منها:

- فأما ما جاء في إثبات أن أول ما يحاسب به العباد هو قضايا الدماء:

فهو ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال: قال النبي ﷺ: **«أول ما يقضى بين الناس في الدماء»**[1].

وفي رواية النسائي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء»**[2].

- وأما ما جاء في إثبات أن أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة: فهو ما أخرجه أصحاب السنن عن أنس بن حكيم الضبي قال: قال لي أبو هريرة: إذا أتيت أهل مصرك فأخبرهم أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **« إن أول ما**

(١) صحيح البخاري ١١/ ٣٩٥، وابن ماجه ٢/ ٨٧٣.

(٢) سنن النسائي ٧/ ٨٣.

يحاسب به العبد المسلم يوم القيامة الصلاة المكتوبة، فإن أتمها وإلا قيل: انظروا هل له من تطوع؟ فإن كان له تطوع أكملت الفريضة من تطوعه، ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك»[1] .

وعن يحيى بن سعيد أنه قال: بلغني أن أول ما ينظر فيه من عمل العبد الصلاة؛ فإن قبلت منه نظر فيما بقي من عمله، وإن لم تقبل منه لم ينظر في شيء من عمله[2] .

وفي رواية حريث بن قبيصة: أن أول ما يسأل عنه العبد الصلاة؛ فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وقد تقدم نص هذا الحديث في مبحث الأدلة من السنة على إثبات وقوع الحساب.

ـ وأما ما جاء من أن الله تعالى أول ما يسأل عن الإسلام ويحاسب عليه: فهو ما ورد عن الحسن قال: حدثنا أبو هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب، أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب، أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب، أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال على ذلك، فيقول الله تبارك وتعالى: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب، أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله عز وجل: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي.** قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ

---

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٤٥٨، وسنن النسائي ٤/ ٢٣٣.

(٢) الموطأ ص١٤٥.

ويشهد لمعنى هذه الرواية معنى الحديث الذي قبله (أي حديث أنس بن حكيم الضبي عن أبي هريرة: إذا أتيت أهل مصرك فأخبرهم . . . إلخ الحديث).

وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]»[١] .

قال الهيثمي: «وفيه عباد بن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح»[٢] .

ـ وأما ما جاء في أن أول ما يسأل عنه العبد الصحة والنعيم: فهو ما أخرجه الترمذي: **«إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال: ألم نصح لك جسمك ونرويك من الماء البارد؟»**[٣] .

فهذه روايات مختلفة في الدلالة، إلا أنه يمكن الجمع بين تلك الروايات بأن يقال: إن تلك الأوليات مقيدة في موضوعها أو في أشخاصها، فمثلاً: أول ما يسأل الله عن خصومات البشر فيما بينهم عن الدماء، وأول ما يسألهم عن عبادتهم عن الصلاة، وأول ما يسألهم عن نعمه في الصحة.

وهكذا يقال في كل ما جاء مقرونًا بالأولية في الحساب، وهذا هو ما أشار إليه ابن حجر رحمه الله حين ذكر حديث ابن مسعود السابق فقال:

«والمعنى: أول القضايا: القضاء في الدماء، ويحتمل أن يكون التقدير: أول ما يقضى فيه الأمر الكائن في الدماء، ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رفعه: **«إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته»** الحديث . . . لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق، والثاني فيما يتعلق بعبادة الخالق، وقد جمع النسائي[٤] في روايته في حديث ابن مسعود بين الخبرين»[٥] .

---

(١)، (٢) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٥، وعزاه إلى أبي يعلى والطبراني، ورواه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٢.

(٣) أخرجه الترمذي ٥/ ٤٤٨، وقال: حديث غريب.

(٤) تقدم تخريج هذا الحديث.

(٥) انظر: فتح الباري ١١/ ٣٩٦.

وأما المقصود بالقول: «أو في أشخاصها» فإن المراد بذلك أن بعض الأشخاص أول ما يحاسب عن الصلاة، وأن بعضهم الآخر يحاسب عن الدماء، كل بحسبه بالنسبة للأهمية التي يراها الله تعالى فيه.

وإن كان بعض العلماء ـ مثل الحافظ ابن كثير ـ يرجح فيما يظهر القول بأن أول ما يقضى بين الناس في الدماء، مستنداً إلى ما جاء في حديث الصور، وفيه: **«ثم يقضي الله بين العباد، فيكون أول ما يقضى فيه الدماء»**، قال: «وهذا هو الواقع يوم القيامة، وهو أنه بعد أن يفرغ الله من الفصل بين البهائم يشرع في القضاء بين العباد، كما قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٧]»[1].

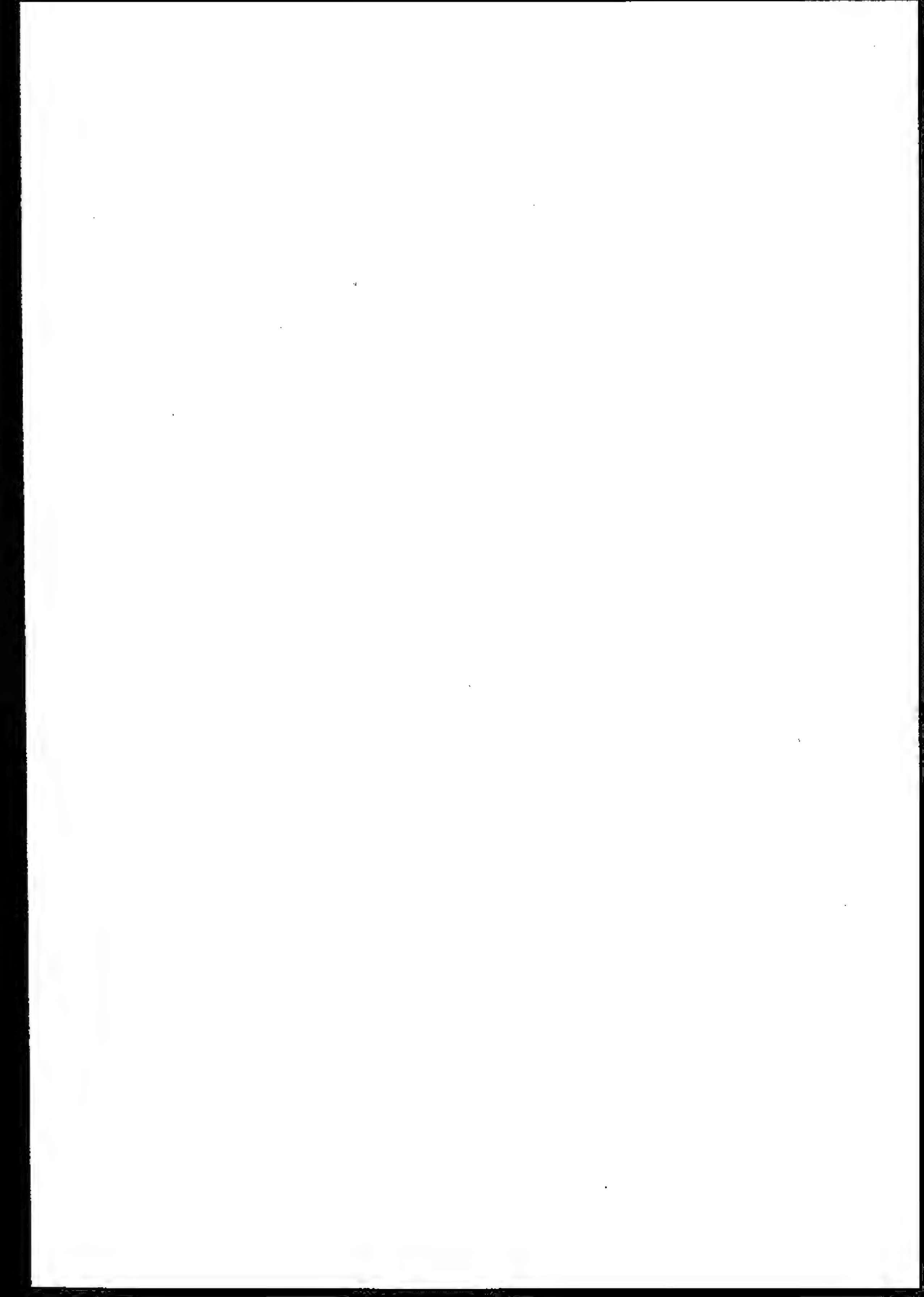
* * *

(١) النهاية ٢/ ١١٧. وقد صرح ابن كثير في النهاية جـ٢ ص٤٨ ط١ سنة ١٩٦٨م بأن مستنده في ذلك هو حديث الصور.



الفصل التاسع

تقرير الله لعباده في الحساب



الفصل التاسع
تقرير الله لعباده في الحساب

ثبت في النصوص التي قدمنا ذكرها أن الله تعالى يحاسب عباده في يوم القيامة بأعمالهم التي قدموها في الدنيا خيراً كانت أم شراً.

وقد ثبت كذلك أنه سبحانه وتعالى يقرر الخلق الذين يحاسبهم بذنوبهم، فيقول للعبد: عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا، ألم أعطك كذا وكذا؟، ألم أفعل لك كذا وكذا؟، فيقرره بذنوبه كلها، وعلى ضوء ذلك يتبين مصير هؤلاء الذين يحاسبهم.

أما المؤمن؛ فقد ورد أنه يعترف بجميع ما قدم، ثم يعفو الله عنه.

وأما الكافر؛ فإنه يجحد ويجادل، فيحاسبه الله حساب مناقشة واستقصاء وتقريع.

وفيما يلي نعرض بعض الأدلة التي تثبت هذا:

١ ـ عن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخذ بيده؛ إذ عرض رجل فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك؛ قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته.**

وأما الكافر والمنافقون فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»[١] .

وعن سليمان بن يسار رضي الله عنه قال : تفرق الناس عن أبي هريرة ، فقال له ناتل[٢] أهل الشام : أيها الشيخ ، حدثني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ ، قال : نعم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك**

---

(١) أخرجه البخاري ٥/ ٩٦ ، ومسلم ص٦١٣ .

قال الجزري في جامع الأصول ١/ ٤٥٦ : «النجوى في الأصل : السر ، والمراد به هنا مناجاة الله تعالى للعبد يوم القيامة ، وسياق الحديث يدل عليه» .

كنفه : كنف الإنسان ظله وجانبه ، والمراد به قرب الله تعالى ودنو رحمته وفضله من العبد ، تقول : أنا في كنف فلان أي في ظله وجانبه .

قال ابن حجر : «والكنف : الستر» (١٣/ ٤٤٧ الفتح) .

والمراد بالدنو هنا دنو كرامة وإحسان ، لا دنو مسافة ، والله تعالى منزه عن المسافة وقربها . شرح النووي ٥/ ٦١٣ .

والواقع أن هذا المعنى هو من باب تفسير الصفات بغاياتها ، وهذه طريقة مؤولة الصفات ، ينكرون حقائقها ويفسرونها بغاياتها ، والسلف إذ يتفقون معهم في هذا التفسير ، فإنهم لا يتفقون معهم في إنكارهم لحقائقها ؛ بل يثبتون حقائقها بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ، تعالى الله عن ذلك وتقدس .

وانظر : التذكرة ص٣١٧ ، وهذا لا يشمل ما كان بين العباد وبعضهم لبعض من مظالم ، فإن هذا لابد فيه من القصاص ، كما علم من دلالات النصوص .

(٢) وفي رواية ناتل الشامي ، وهو ناتل بن قيس الحزامي الشامي من أهل فلسطين ، وهو تابعي ، وكان أبوه صحابيًا ، وكان ناتل كبير قومه . النووي في شرحه لمسلم ٤/ ٥٦٨ .

وهو «أحد الأمراء لمعاوية وولده ، قتل سنة ست وستين ، وفي بعض الروايات : (ناقل الشام) وفي رواية : (أخو أهل الشام)» .

انظر : مختصر صحيح مسلم للألباني ص٢٨٩ .

حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل: ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما فعلت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[1] .

قال النووي: «قوله ﷺ في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار؛ دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة: ٥].

وفيه أن العموميات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء على العلماء، وعلى المنفقين في وجوه الخيرات؛ كله محمول على من فعل ذلك لله تعالى مخلصًا»[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عز وجل**

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٥٦٨، والنسائي ٦/ ٢٣.

(٢) انظر: شرح النووي لمسلم ٤/ ٥٦٩.

يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني، قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب، كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم، استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي»[1] .

قال النووي: «قال العلماء: إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى والمراد العبد؛ تشريفًا للعبد وتقريبًا له، قالوا: ومعنى وجدتني عنده: أي وجدت ثوابي وكرامتي، ويدل عليه قوله تعالى في تمام الحديث: **«لو أطعمته لوجدت ذلك عندي... لو أسقيته لوجدت ذلك عندي»**، أي ثوابه»[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: **«هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟** قالوا: لا، قال: **فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟** قالوا: لا، قال: **فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما،** قال: **فيلقى العبد فيقول: أي فل**[3] **، ألم أكرمك وأسودك**[4] **وأزوجك**

---

(١) صحيح مسلم ٥/ ٤٣٣ .

(٢) شرح النووي لمسلم ٥/ ٤٣٣ .

(٣) أي: يا فلان .

(٤) أجعلك سيدًا على غيرك .

وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس[1] وتربع[2] ؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني[3] .

ثم يلقى الثاني فيقول: أي فل، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب، فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني.

ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك، وصليت وصمت وتصدقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذًا[4] ، قال: **ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»[5] .**

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار وآخر أهل الجنة دخولاً، يؤتى برجل فيقول: سلوا عن صغار ذنوبه وأخبئوا كبارها، فيقال له: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا، عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا،** قال: **فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، قال: لقد عملت أشياء ما أراها هاهنا.** قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه» .

---

(١) تكون رئيس القوم وكبيرهم.

(٢) تربع، قيل معناه: تأخذ المرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة وهو ربعها، وقيل معناه: تركتك مستريحًا لا تحتاج إلى مشقة وتعب، وقيل: تأكل، وقيل: تلهو، وقيل: تعيش في سعة.

(٣) أي أمنعك الرحمة كما امتنعت عن طاعتي.

(٤) أي قف هاهنا حتى يشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكرًا.

(٥) شرح صحيح مسلم ٥/ ٨٢٣-٨٢٤.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«يجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج[١] ، فيوقف بين يدي الله، فيقول الله له: أعطيتك وخولتك[٢] وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته و ثمرته فتركته أكثر ما كان، فارجعني آتيك به، فيقول له: أرني ما قدمت، فيقول: يا رب جمعته وثمرته فتركته أكثر ما كان فارجعني آتيك به، فإذا عبد لم يقدم خيراً فيمضي به إلى النار»**[٣] .

وعن أبي هريرة وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعًا ومالاً وولدًا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع؟ فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني»**[٤] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»**[٥] .

---

(١) البذج: ولد الضأن.

(٢) خولتك: أي ملكتك.

(٣) أخرجه الترمذي ٤/ ٦١٨ ثم قال الترمذي: وقد روى هذا الحديث غير واحد عن الحسن قوله ولم يسندوه، وإسماعيل بن مسلم - أحد رواة الحديث - يضعف في الحديث من قبل حفظه، وفي الباب عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري. قال القرطبي في التذكرة ص٣١٩: أخرجه ابن العربي في سراج المريدين وقال فيه: حديث صحيح من مراسيل الحسن.

(٤) أخرجه الترمذي ٤/ ٦١٩ ثم قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب، ومعنى قوله: **«اليوم أنساك»** يقول: اليوم أتركك في العذاب، هكذا فسروه، قال أبو عيسى: وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ قالوا: إنما معناه: اليوم نتركهم في العذاب.

(٥) أخرجه الترمذي ٤/ ٦١٢ ثم قال: «قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ إلا من حديث الحسين بن قيس، وحسين بن قيس يضعف في الحديث من قبل حفظه، وفي الباب عن أبي برزة وأبي سعيد».

ويشهد لهذا الحديث ما جاء عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»**[١].

ولفظ هذا الحديث عام يشمل كل المخلوقات؛ لأن قوله: **«لا تزول قدما عبد حتى يسأل»** نكرة في سياق النفي تشمل العموم، ولكنه مخصوص بقوله ﷺ: **«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب»**، وبقول الله تعالى لنبيه ﷺ: **«أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن»**.

وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله عبدًا حجته. قال: يا رب، رجوتك وفرقت من الناس»**[٢].

ونشير هنا إلى أنه قد وردت أحاديث في هذا المعنى، نوردها للتنبيه على ضعف أسانيدها، ومنها:

ما جاء عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا كان يوم القيامة دعا الله عبدًا من عبيده فيوقفه بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله»**[٣].

وكذا ما جاء عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«يؤتى بالمليك والمملوك والزوج والزوجة، فيحاسب المليك والمملوك والزوج والزوجة، حتى يقال للرجل: شربت**

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٦١٢، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٣٢: «في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات».

(٣) قال في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٦: «رواه الطبراني في الصغير، ثم قال: وفيه يوسف بن يونس أخو أبي مسلم الأفطس، وهو ضعيف جدًا».

يوم كنا وكنا على لذة، ويقال للزوج: خطبت فلانة مع خطاب فزوجتكها وتركتهم»[1] .

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : **«إذا كان آخر الزمان صارت أمتي ثلاث فرق، فرقة يعبدون الله خالصًا، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون ليستأكلوا به الناس، فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذي كان يستأكل الناس: بعزتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: وعزتك وجلالك أستأكل به الناس، قال: لم ينفعك ما جمعت شيئًا تلجأ إليه، انطلقوا به إلى النار.**

ثم يقول للذي كان يعبد رياءً: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك رياء الناس، قال: لم يصعد إليّ منه شيء، انطلقوا به إلى النار.

ثم يقول للذي كان يعبده خالصًا: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك مني، أردت به ذكرك ووجهك، قال: صدق عبدي انطلقوا به إلى الجنة»[2] .

* * *

---

(١) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٩، وعزاه إلى البزار من رواية سعيد بن مسلمة الأموي عن ليث بن أبي سليم وكلاهما ضعيف، وقد وثقا، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٠، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط، وفيه عبيد بن إسحاق العطار، وقد ضعفه الجمهور ورضيه أبو حاتم الرازي ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات.



الفصل العاشر

الشهود في الحساب

الفصل العاشر
الشهود في الحساب

إن الله سبحانه وتعالى - وهو العليم الخبير الذي يعلم السر وأخفى - اقتضت حكمته أن تكون الخصومة في يوم القيامة بين العباد وبين ربهم على نحو ما تقع به الخصومة فيما بين العباد في الدنيا؛ جدال واعتذار وشهود ومناقشة، فإن الناس وهم عند الحكم العدل لابد من نقاش ودفاع وأخذ ورد وشهود وسجلات، وكل هذا ليعلم الإنسان أن الحكم الذي سيصدر بحقه ليس فيه أي حيف أو جور.

فهناك علم الله تعالى، وهناك شهود وهم الملائكة، وسجل كامل، ومع هذا فإن الإنسان لا يكاد يقر بما نسب إليه من أعمال إلا بعد دفاع ونقاش وشهود يدفعون إنكاره.

ومَن هم هؤلاء الشهود؟

الجواب: إنهم شهود لم يخطروا بباله، شهود لا يستطيع أن يدفع شهادتهم بأي حجة، أو حيلة من طرق الحيل، التي كان يستنجد بها في الدنيا. وهؤلاء الشهود هم - إضافة إلى علم الله تعالى، وتسجيل الملائكة لأعمال العباد - شهادة الأعضاء والجوارح من الإنسان، وكذلك شهادة الأرض بما عمل عليها، إضافة إلى شهادة كتب أعمالهم عليهم، وشهادة الملائكة والأنبياء.

ونبين فيما يلي أدلة ثبوت شهادة هؤلاء بالتفصيل:

١ـ أما شهادة جوارح الإنسان من القرآن الكريم :

فقد ذكر في كتابه الكريم أن الألسنة والأيدي والأرجل وسائر الجوارح هم من الشهود العدول على الإنسان، قال تعالى:

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

فثبت أن الألسنة والأيدي والأرجل هم من الشهود على المخلوق؛ كما ذكر الله ذلك في الآيات السابقة، وهناك شهود أيضًا غير هذه الأعضاء؛ هناك شهادة السمع والبصر والجلد.

وستنشأ مشادة وعتاب شديد بين الإنسان وجلده الذي شهد عليه، كما يفيده قول الله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٤].

وحينما تتم هذه الشهادة يعلم حينئذ أن لا نفع في الجدال والإنكار؛ لأن هؤلاء الشهود لا طعن في شهادتهم، ولا مظنة في تحاملهم عليه، وإذا كان

الأمر كذلك؛ فليحذر العاقل أن يستعمل هذه الأعضاء في معصية ربه، فإنهم سيكونون ضده في يوم القيامة.

يحذر يده أن يبطش بها إلا ما يسوغ له الشرع، ويحذر رجله فلا يمشي بها إلا فيما ينبغي، ويحذر سمعه فلا يسمع به إلا ما يحل له سماعه، ويحذر بصره فلا يبصر به إلا ما أبيح له، ويحذر جلده أن يمسه ما لا يحل له مسه؛ ليأتي يوم القيامة طاهراً نقيًا آمنًا.

قال قتادة: «ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك، فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، والظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل، ولا قوة إلا بالله»[1].

وأما ما يبدو من وجه التعارض في الظاهر بين ما أخبر الله به من أن الكفار لا يكتمون الله حديثًا، وبين ما أخبر الله به من أن الكفار يجحدون ما صدر منهم من شرك ومعاص؛ فليس هو من باب التعارض. كما سنبين ذلك بعد استعراضنا للآيات فيما يلي:

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فهذه الآية تدل على أن الكفار لا يكتمون الله شيئًا من أعمالهم[2] ولا أقوالهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٢٧٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٩٩.

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣].

وقال: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾.

[غافر: ٧٣، ٧٤].

وهذه الآيات تفيد أنهم ينكرون أن يكونوا قد عملوا أي سوء، وأنهم ما كانوا مشركين، وأنهم كانوا لا يدعون مع الله أحدًا. فهل هذا من باب التعارض؟

والجواب: أن هذا ليس هو من باب التعارض، ولا يمكن أن يحصل في كلام الله تعالى تعارض ـ كما هو معلوم ـ فإن هذا الإنكار لا يعارض ما تقدم من اعترافهم؛ ذلك أنهم ينكرون في حال، ولا ينكرون في حال أخرى، ينكرون قبل استنطاق جوارحهم، ويعترفون بكل شيء بعد استنطاق جوارحهم.

أي «إن عدم الكتم المذكور هنا؛ إنما هو باعتبار أخبار أيديهم وأرجلهم بكل ما عملوا عند الختم على أفواههم؛ إذا أنكروا شركهم ومعاصيهم»[1].

وقد أجاب ابن عباس نافع بن الأزرق حين سأله فقال: «يا ابن عباس، قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ وقوله: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾؟

---

(١) أضواء البيان ١/ ٣٢٩.

فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك فقلت: ألقي على ابن عباس متشابه القرآن، فإذا رجعت إليهم فأخبرهم أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئًا إلا ممن وحده؛ فيقولون: تعالوا نجحد، فيسألهم؛ فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، قال: فيختم الله على أفواههم، ويستنطق جوارحهم، وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين؛ فعند ذلك يتمنون لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتمون الله حديثًا»[١].

وقد أتاه أيضًا رجل فقال: «يا ابن عباس، سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد؛ فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثًا، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه»[٢].

وقد أجاب الرازي عن ذلك من وجوه فقال:

الأول: أن مواطن القيامة كثيرة؛ فموطن لا يتكلمون فيه وهو قوله: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، وموطن يتكلمون فيه، كقوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾، وقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيكذبون، وفي مواطن يعترفون على أنفسهم بالكفر ويسألون الرجعة، وهو قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم، وتتكلم

---

(١) تفسير ابن جرير ٧/ ١٦٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢٧.

أيديهم وأرجلهم وجلودهم، فنعوذ بالله من خزي ذلك اليوم.

الثاني: أن هذا الكتمان غير واقع؛ بل هو داخل في التمني على ما بينا.

الثالث: أنهم لم يقصدوا الكتمان؛ وإنما أخبروا على حسب ما توهموا، وتقديره: والله ما كنا مشركين عند أنفسنا؛ بل مصيبين في ظنوننا حتى تحققنا الآن»[1].

٢ ـ أما ما جاء في إثبات شهادة الجوارح من السنة:

فمنها ما أخرجه مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه من حديث طويل جاء فيه:

«ثم يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك؛ فيتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد عليّ؟، فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي؛ فتنطق فخذه ولحمه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»[2].

وعن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك؛ فقال: **«هل تدرون مم أضحك؟»** قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«من مخاطبة العبد ربه؛ يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟** قال: **يقول: بلى،** قال: **فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني،** قال: **فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا،** قال: **فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي،** قال: **فتنطق بأعماله،** قال: **ثم يخلى بينه وبين الكلام،** قال: **فيقول: بعدًا لكُنَّ وسحقًا؛ فعنكنَّ كنت أناضل»**[3].

وقد أعدت ذكر هذا الحديث هنا لأجل الاستشهاد به على شهادة الجوارح.

---

(١) التفسير الكبير ١٠/ ١٠٧.

(٢) صحيح مسلم ٥/ ٨٢٤.

(٣) المصدر السابق ص٨٢٥.

وأول ما يشهد على الإنسان من أعضائه فخذه من الرجل الشمال؛ كما روى الإمام أحمد بسنده إلى عقبة بن عامر: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه: فخذه من الرجل الشمال**»[١] .

وجاء في شهادة الألسنة: ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة؛ عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم، فقيل له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك، فيقول: كذبوا، فيقول: أهلك وعشيرتك، فيقول: كذبوا، فيقول: احلفوا، فيحلفون، ثم يصمتهم الله، وتشهد ألسنتهم، ثم يدخلهم النار**»[٢] .

وجاء في شهادة الأيدي والأرجل: ما يروى عن أبي أيوب أن رسول الله ﷺ قال: «**أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته، والله ما يتكلم لسانها؛ ولكن يداها ورجلاها؛ يشهدان عليها بما كانت تعيب لزوجها، وتشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها، ثم يدعى الرجل وخدمه؛ فمثل ذلك، ثم يدعى أهل الأسواق، وما يوجد ثم دوانيق ولا قراريط؛ ولكن حسنات هذا تدفع إلى هذا الذي ظلم، وسيئات هذا الذي ظلمه توضع عليه، ثم يؤتى بالجبارين في مقامع من حديد، فيقال: أوردوهم إلى النار؛ فوالله ما أدري يدخلونها**»[٣] **أو كما قال الله تعالى:** ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[٤] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٥١ والطبراني، وإسنادهما جيد؛ كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥١، وابن جرير في التفسير ٢٣/ ٢٤ .

(٢) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥١، وعزاه إلى أبي يعلى بإسناد حسن، على ضعف فيه، كما قال، وذكره كذلك ابن كثير ٢/ ١٢٣ (النهاية) .

(٣) هكذا عبارة مجمع الزوائد، ولعل المراد: هل يدخلونها مباشرة أم يمرون على الصراط كبقية الناس؟

(٤) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٩، وعزاه إلى الطبراني، وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي، وهو =

وروى أبو بكر بن أبي شيبة من حديث معاوية بن حيدة القشيري: أن النبي ﷺ قال: **«تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفدام، وأول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه»**[1] الحديث.

وإذا تقرر أن الأعضاء تشهد يوم القيامة على أهلها بما كانت تعمله في الدنيا، فما معنى تلك الشهادة وكيف تتم؟

أما تلك الشهادة عند أهل الحق:

فهم يقولون بما نطق به القرآن والسنة؛ أن تلك الأعضاء ينطقها الله سبحانه وتعالى؛ فتتكلم وتشهد بما فعلته؛ حينما يجحد الشخص ما وجه إليه من أعمال سيئة؛ تشهد اليد فتقول: بطشت. وتشهد الرجل فتقول: مشيت، ويشهد فرجه فيقول: فعلت، وهكذا جميع الأعضاء.

ثم بعد الإدلاء بتلك الشهادة الصادقة يرجع للإنسان الكلام؛ فينطق لسانه ـ بما حكى الله عنهم من عتاب وشتم ـ قائلين لهم: «لم شهدتم علينا؟»، أو قول الشخص لأولئك الشهود من أعضائه: «سحقًا لكُنّ؛ فعنكنّ كنت أناضل».

وإذا كانت تلك الشهادة يمكن وقوعها من تلك الأعضاء؛ فكيف يمكن وقوعها من اللسان بعد الختم عليه؟ يقول ابن جرير عن هذا: «فإن قال قائل: وكيف تشهد عليهم ألسنتهم حين يختم على أفواههم؟ قيل: عنى بذلك أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض؛ لا أن ألسنتهم تنطق وقد ختم على الأفواه»[2].

= ضعيف، وقد وثقه سعيد بن منصور وقال: كان مالك يرضاه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١) ذكره القرطبي في التذكرة ص٢٨٥، وعزاه إلى أبي بكر بن أبي شيبة.

(٢) جامع البيان ١٨/ ١٠٥.

ولكن كيف يتم هذا القول مع أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾.

فإن ظاهر الآية يدل على أن تلك الأعضاء هي جميعها أعضاء المشهود عليه، وكذا ما ورد من النصوص في السنة النبوية، والله أعلم بصفة ذلك.

وقد فسر ابن جرير رحمه الله شهادة تلك الأعضاء على ظاهر النصوص، فهو يقول عن معنى شهادة الأيدي: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾: «أي: بما عملوا في الدنيا من معاصي الله، ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ قيل: إن الذي ينطق من أرجلهم أفخاذهم من الرجل اليسرى بما كانوا يكسبون في الدنيا من الآثام»[1].

وعن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾.

يقول: «حتى إذا ما جاءوا النار؛ شهد عليهم سمعهم بما كانوا يصغون به في الدنيا إليه ويستمعون له، وأبصارهم بما كانوا يبصرون به وينظرون إليه في الدنيا.

وأما الجلود التي ذكرت في الآية؛ فالظاهر أنها هذه الجلود الظاهرة للمخلوقات، وقد قيل: إن الله عنى بالجلود في هذه الآية الفروج ولكن كنى عنها، ويظهر أن ابن جرير لم يوافق على هذا التأويل، وإن كان لا يستبعده من ناحية المعنى؛ فهو يقول:

«وهذا القول الذي ذكرناه ـ عمن ذكرنا عنه في معنى الجلود ـ وإن كان معنى يحتمله التأويل؛ فليس بالأغلب على معنى الجلود ولا بالأشهر، وغير

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٣/ ٢٤.

جائز نقل معنى ذلك المعروف على الشيء الأقرب إلى غيره؛ إلا بحجة يجب التسليم لها»[١] .

ويقول القرطبي عن معنى قول الرسول ﷺ : **«فأول ما يتكلم من الإنسان فخذه»**.

يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون ذلك زيادة في الفضيحة والخزي على ما نطق به الكتاب في قوله تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ ؛ لأنه كان في الدنيا يجاهر بالفواحش، ويخلو قلبه عندها من ذكر الله تعالى، فلا يفعل ما يفعل خائفًا مشفقًا، فيجزيه الله بمجاهرته بفحشه على رؤوس الأشهاد .

والوجه الآخر : أن يكون هذا فيمن يقرأ كتابه ولا يعرف بما ينطق به؛ بل يجحد؛ فيختم الله على فيه عند ذلك، وتنطق منه الجوارح التي لم تكن ناطقة في الدنيا؛ فتشهد عليه سيئاته .

وهذا أظهر الوجهين، يدل عليه أنهم يقولون لجلودهم ـ أي لفروجهم في قول زيد بن أسلم ـ لم شهدتم علينا؟ فتمردوا في الجحود؛ فاستحقوا من الله الفضح والإخزاء، نعوذ بالله منهما»[٢] .

والخلاصة :

أن الله تعالى قادر على إنطاق تلك الأعضاء حينما يريد منها ذلك .

وأما كيفية نطقها؛ فعلمه عند الله تعالى .

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٤/١٠٦ .

(٢) التذكرة ص٣٤٢ .

٢ ـ أما شهادة الأرض بما عمل على ظهرها :

فقد ذكره الله في قوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ١ - ٥].

وقد جاء في السنة النبوية إيضاح شهادة الأرض، فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ، قال : **«أتدرون ما أخبارها؟»** قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : **«فإن أخبارها: أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها؛ أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، وهذه أخبارها»**[١] .

وقد عزاه الإمام ابن كثير إلى الطبراني، من حديث ابن لهيعة قال: حدثني الحارث بن يزيد، سمع ربيعة الحدسي، أن رسول الله ﷺ قال: **«تحفظوا من الأرض؛ فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة»**[٢] .

وروي كذلك عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: «قال لها ربها: قولي؛ فقالت»[٣] .

ومعنى قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال سفيان: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ : قال: ما عمل عليها من خير أو شر»[٤] .

وقال ابن زيد في قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: «ما كان فيها

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٤٤٦، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٣٩، وعزاه إلى الطبراني.

(٣) المصدر السابق.

(٤) جامع البيان ٣٠/ ٢٦٧.

وعلى ظهرها من أعمال العباد»[١] .

وعن مجاهد قال: «تخبر الناس بما عملوا عليها»[٢] .

وقال ابن كثير في قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال: «أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها»[٣] .

وقد فسر الرازي معنى إخبار الأرض بالوجوه الآتية:

أحدها ـ وهو قول أبي مسلم ـ: يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله؛ فكأنها حدثت بذلك، كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة .

والثاني ـ وهو قول الجمهور ـ: أن الله تعالى يجعل الأرض حيوانًا عاقلاً ناطقًا، ويعرِّفها جميع ما عمل أهلها؛ فحينئذ تشهد لمن أطاع، وعلى من عصى، قال عليه السلام: **«إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عليها»** ثم تلا هذه الآية .

قال الرازي: «وهذا على مذهبنا غير بعيد؛ لأن البنية عندنا ليست شرطًا لقبول الحياة، فالأرض ـ مع بقائها على شكلها ويبسها وقشفها ـ يخلق الله فيها الحياة والنطق، والمقصود: كأن الأرض تشكو من العصاة، وتشكو من أطاع الله؛ فتقول: إن فلانًا صلى وزكى وصام وحج فيّ، وإن فلانًا كفر وزنى وسرق وجار .

والقول الثالث ـ وهو قول المعتزلة ـ: أن الكلام يجوز خلقه في الجماد؛ فلا يبعد أن يخلق الله تعالى في الأرض ـ حال كونها جمادًا ـ أصواتًا مقطعة

---

(١)، (٢) جامع البيان ٣٠/ ٢٦٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٣٩ .

مخصوصة؛ فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى»[1] .

وهذا تأويل بعيد ومخالف لمدلول الآية؛ فإن الله تعالى قد أسند الحديث إلى الأرض وليس إليه جل وعلا، وليست هذه المعاني التي ذكرها الرازي مسلمة؛ لافتقارها إلى الدليل.

وقد جاء أيضًا - إضافة إلى شهادة من تقدم ذكرهم - أن المال نفسه هو أيضًا من الشهود على العبد، ذلك المال الذي كان في الدنيا هو كل شيء عند بعض النفوس، يسرق ويقتل وينهب ويغش، ويركب كل صعب وذلول لجمعه، هذا المال يكون شاهدًا يوم القيامة على من جمعه، وربما يكون صاحبه قد جمعه ولم ينتفع به هو؛ بل انتفع به ورثته، وربما يكون فيهم من يستعين به على معصية الله تعالى ومحاربته؛ فيكون هؤلاء قد تنعموا بماله وهو محاسب عليه.

ومصداق هذا ما أورده البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: **«إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض»**، ثم ذكر زهرة الدنيا، فبدأ بإحداهما وثنى بالأخرى؛ فقام رجل فقال: يا رسول الله، أوَيأتي الخير بالشر؟ فسكت عنه النبي ﷺ، قلنا: يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير، ثم إنه مسح عن وجهه الرُّحضاء، فقال: **«أين السائل آنفًا؟ أوَخير هو - ثلاثًا -، إن الخير لا يأتي إلا بالخير، وإنه كل ما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها؛ استقبلت الشمس فثلطت وبالت، ثم رتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، ونِعْمَ صاحبُ المسلم لمن أخذه بحقه، فجعله في سبيل الله واليتامى والمساكين، ومن لم يأخذها بحقه**

(١) التفسير الكبير ٣٢/ ٦٠.

فهو كالآكل الذي لا يشبع، ويكون عليه شهيدًا يوم القيامة»[١] .

٣ ـ ومن الشهود كذلك الأنبياء :

فقد جاء أن كل نبي يشهد على أمته، وقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ** ﴾ [النحل: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلاءِ** ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ **وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ** ﴾ [القصص: ٧٥].

وشهيدًا: أي رسولاً، كما قاله مجاهد[٢] .

ومعنى هذه الشهادة: أن الله تعالى «يبعث من كل أمة شهيدًا، وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى»[٣] .

أما شهادة نبينا محمد ﷺ وأمته: فقد ذكر الله ذلك بقوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿ **مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا**

---

(١) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ٦/ ٤٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٩٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٨١.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

قال ابن جرير رحمه الله في معنى قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ إلخ الآية الكريمة، قال:

«يعني بمن يشهد عليها بأعمالها، وتصديقها رسلها، أو تكذيبها، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ يقول: وجئنا بك يا محمد ﴿عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك ﴿شَهِيداً﴾ يقول: شاهداً».

وأخرج ابن جرير عن القاسم: أن النبي ﷺ قال لابن مسعود: **«اقرأ علي»** قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: **«إني أحب أن أسمعه من غيري»**، قال: فقرأ ابن مسعود النساء، حتى بلغ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾ قال: فاستعبر النبي ﷺ، وكف ابن مسعود»[١].

ولله تعالى شهداء من خلقه كثيرون، كما ذكر ذلك في كتابه الكريم، كما أشرنا إليه سابقًا، فيشهد كل نبي على أمته، وأمة محمد ﷺ يكونون شهداء للرسل على أممهم أنهم قد بلغوهم عن الله ما أرسلوا به.

ومما جاء في السنة النبوية في هذه الشهادة التي أكرم الله تعالى بها محمداً ﷺ وأمته، ما أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجاء بنوح يوم القيامة، فيقال: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتسأل أمته: هل بلغكم فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته؛ فيجاء بكم فتشهدون**، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً - قال: عدلاً - لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.

---

(١) رواه البخاري جـ٩ ص٩٤، ومسلم جـ٢ ص٤٥٤، وهو في جامع البيان جـ٥ ص٩٣.

وعن جعفر بن عون حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ بهذا[١] .

وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء النبي ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، فيقال: من شهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، فيقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم، فيقول: وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك؛ أن الرسل قد بلغوا؛ فصدقناه، قال: فذلكم قوله تعالى:** ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣][٢]».

وأما شهادة عيسى عليه السلام: فقد ذكر الله ذلك بقوله سبحانه ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

[النساء: ١٥٩].

* * *

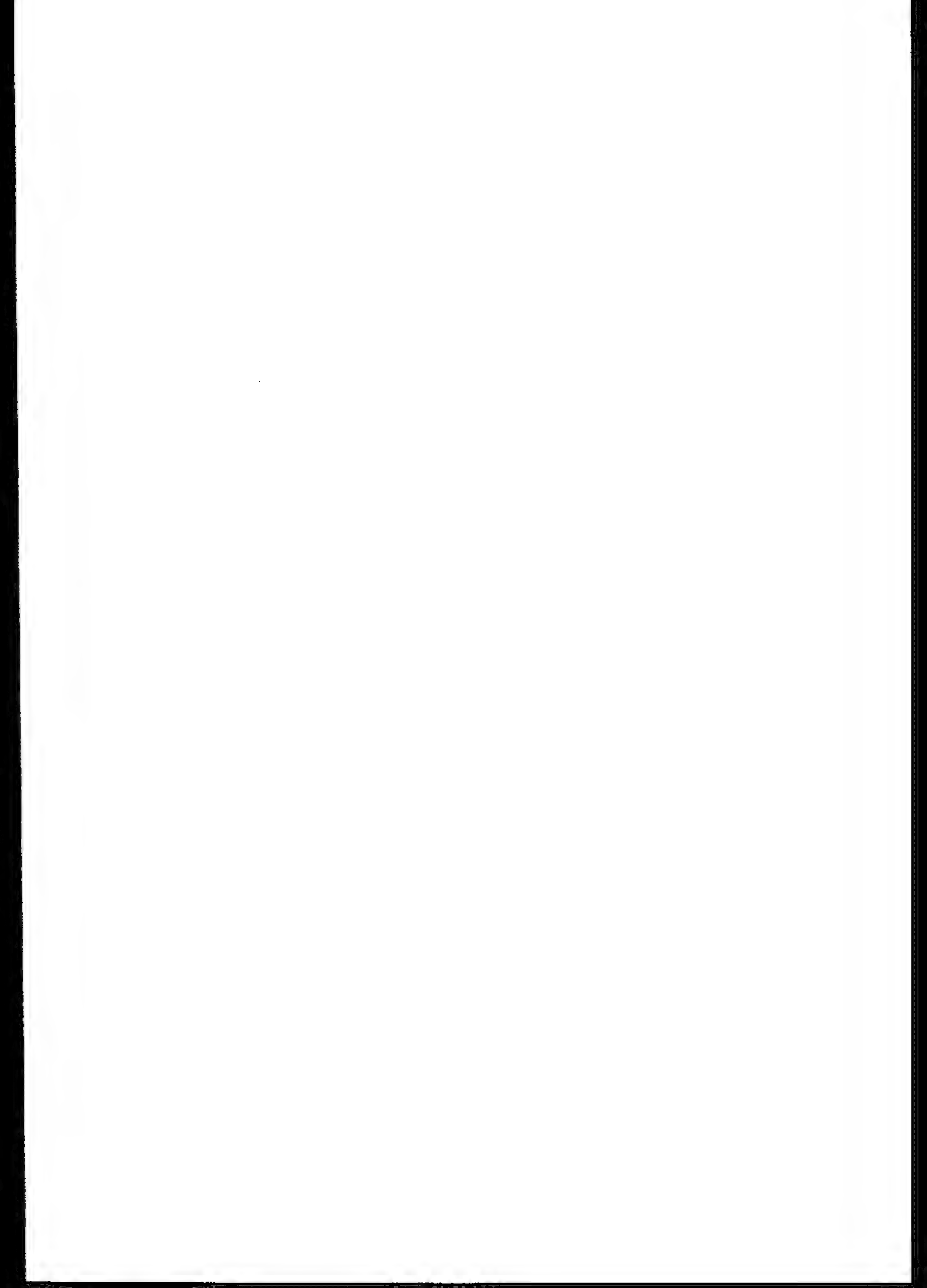
(١) البخاري ١٣/٣١٦، وأحمد في المسند ٣/٥٨ .

(٢) ابن ماجه ٢/١٤٣٢ .



الفصل الحادي عشر

عدل الله تعالى في القصاص بين الخلق



الفصل الحادي عشر
عدل الله تعالى في القصاص بين الخلق

إن العدل في الأحكام من الصفات الحميدة؛ بل إن ذلك من أرقى صفات الكمال، والناس يمدحون الشخص العادل ويجلونه؛ لأجل ما امتاز به من هذه الصفة الحميدة.

وإذا كان الناس يحبون هذه الصفة، ويحبون من اتصف بها، ويعظمونه بفطرتهم السليمة، فلاشك أنهم يكرهون ضد هذه الصفة، وهي صفة الجور، ويبغضونها ويبغضون من اتصف بها، ويسمونه جائرًا ظالمًا، وإذا أطلقت هذه الصفات الذميمة على شخص؛ فلاشك أنه سيكون محل ازدراء ونفور من الناس، فإذا كان الإنسان يسره أن يقال له عادل، ويغضبه أن يقال له جائر؛ فما ذاك إلا لعلمه بأن الصفة الأولى من صفات الكمال، والصفة الثانية من صفات النقص والاحتقار.

وما من إنسان سوي في نفسه إلا وهو يحب العدل، ويكره الجور بطبعه، ويحاول دائمًا أن يتصف بصفة العدل، وينفر دائمًا من صفة الجور.

فإذا كان هذا حال الإنسان وهو الظلوم الجهول، فكيف بحال خالق الإنسان، القوي القدير ذي الصفات الكاملة في كل شيء، الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا؟ أفلا يكون له من تلك الصفات الحميدة أعلاها وأكملها؟ بلى، لا يشك في ذلك مسلم؛ بل

وأي إنسان سليم الفطرة.

وسنعرض الآن بعض ما يدل على ذلك من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله ﷺ.

أ ـ الأدلة من القرآن الكريم :

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧].

٢ ـ ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

٣ ـ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

٥ ـ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١].

٦ ـ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

٧ ـ ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٤].

٨ ـ ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن

جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

[النمل: ٨٩، ٩٠].

٩ ـ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[الزلزلة: ٧، ٨].

١٠ ـ ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾.

[إبراهيم: ٥١].

١١ ـ ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [الزمر: ٧٠].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تخبر عن عدل الله تعالى بين خلقه في محاسبته إياهم، حتى إنه ليكاد القارئ لتلك الآيات يشعر أنه في موقف الحساب العادل، وذلك لكثرة تكراره في القرآن الكريم بأساليب متعددة وعبارات بليغة، تصور الناس وهم وقوف للحساب، يأخذ كل عامل ما استحقه من الخير والشر في أبلغ صور العدل.

وبعد عرض الأدلة من القرآن الكريم نعرض فيما يلي الأدلة من السنة النبوية المطهرة.

ب ـ الأدلة من السنة :

وكما ذكر الله تعالى عدله بين خلقه في كتابه الكريم؛ أخبر رسوله ﷺ عن ذلك، وبينه تمام البيان، فقد بين ﷺ أن الله تعالى يقيم الحساب بالعدل بين خلقه، بحيث يشمل ذلك حتى الحيوانات، حيث تقتص البهيمة التي لا قرن لها ممن نطحتها في الدنيا من ذوات القرون ـ كما قال ﷺ : **«لتؤدن الحقوق إلى**

أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء[(١)] من الشاة القرناء»[(٢)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقتص للخلق بعضهم من بعض، حتى للجماء من القرناء، وحتى للذرة من الذرة**»[(٣)] .

قال ابن الأثير: «الذر: النمل الأحمر الصغير، واحدتها ذرة، وسئل ثعلب عنها فقال: إن مائة نملة وزن حبة، والذرة واحدة[(٤)] منها».

وفي رواية: «**ليختصمن كل شيء يوم القيامة، حتى الشاتان فيما انتطحتا**»[(٥)] .

وإذا كان القصاص وظهور العدل شمل الحيوانات التي لا تعقل؛ فكيف بالعباد الذين هم محل التكليف والمسئولية؟

وسنرى مشاهد عديدة لإقامة العدل بين الخلق، فإضافة إلى المشهد الأول - وهو مشهد اقتصاص الحيوانات من بعضها البعض - هناك مشهد آخر وهو مشهد اقتصاص المظلوم من ظالمه، حتى إنه يأخذ جميع حسناته، فإن لم توجد أخذ من سيئات المظلوم فطرحت على الظالم.

كما في حديث المفلس الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا**

---

(١) التي لا قرن لها.

(٢) أخرجه مسلم ٨/ ١٩، والترمذي ٤/ ٦١٤، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/ ٣٦٣، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥١: ورجاله رجال الصحيح.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ٢/ ١٥٧.

(٥) المسند ٣/ ٢٩، ٢/ ٣٩٥.

من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه؛ أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[١] .

وما جاء عنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته؛ فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه»**[٢] .

وعن عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من رجل يضرب عبدًا له إلا أقيد منه يوم القيامة»**[٣] .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من ضرب سوطًا ظلمًا اقتص منه يوم القيامة»**[٤] .

هذا بالنسبة للظلم بالفعل، وهناك ظلم بالقول.

فالغيبة التي يتساهل الناس في أمرها، ويرددونها في اجتماعاتهم، أخبر ﷺ أنها تكون يوم القيامة وبالاً على صاحبها وخيرًا لمن قيلت فيه. كما جاء عن شبيب بن سعد البلوي: «إن العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منشورًا، فينظر فيه، فيرى حسنات لم يعملها، فيقول: يا رب، أنى هذا لي ولم أعملها؟ فيقول: هذا ما اغتابك الناس وأنت لا تشعر»[٥] .

والدين: الذي هو مذلة بالنهار وهموم بالليل، في يوم القيامة يكون أشد

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ١٨، وأخرجه الترمذي ٤/ ٦١٣، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح البخاري ٧/ ١٩٧.

(٣) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٥٣. وعزاه إلى البزار ثم قال: «ورجاله ثقات».

(٤) المصدر السابق، وعزاه إلى الطبراني والبزار ثم قال: «وإسنادهما حسن».

(٥) الإتحافات السنية ص١٢٨، وعزاه إلى أبي نعيم.

وقعًا على النفس مما هو في الدنيا؛ لأنه يأخذ أغلى ما لدى الإنسان، وأحوج ما يكون إليه؛ وهو الحسنات كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنه ليكون للوالدين على ولدهما دين، فإذا كان يوم القيامة يتعلقان به، فيقول: أنا ولدكما، فيودان أو يتمنيان أن لو كان أكثر من ذلك»**[١] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: «من أدان دينًا هو ينوي أن يؤديه، أداه الله عنه يوم القيامة، ومن استدان دينًا وهو لا ينوي أن يؤديه فمات؛ قال الله عز وجل يوم القيامة: ظننت أن لا آخذ لعبدي بحقه؟ فيؤخذ من حسناته فيجعل في حسنات الآخر، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات الآخر فجعلت عليه»[٢] .

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«يحشر الله العباد يوم القيامة** - أو قال: **الناس** - **عراة غرلاً بهمًا»**، قال: قلنا: وما بهمًا؟ قال: **ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت - يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب - : أنا الديان، أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقتصه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقتصه منه، حتى اللطمة.** قال: قلنا: كيف وإننا نأتي عراة غرلاً بهمًا؟ قال: **الحسنات والسيئات»**[٣] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «بينا رسول الله ﷺ جالس، إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله - بأبي

(١) التذكرة ص٣٢٤.

(٢) الإتحافات السنية ص٢٤٤، وعزاه إلى الطبراني والحاكم والبزار.

(٣) المسند ٣/ ٤٩٥، وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٤٠٤: «إن إسناده حسن».

أنت وأمي؟ قال: **رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله: كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب فليحمل من أوزاري**. وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: **إن ذلك ليوم عظيم، يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم**»[1] فذكر الحديث.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: **إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم؛ كان كفافًا؛ لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم؛ كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم؛ اقتص لهم منك الفضل**. فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول الله ﷺ: **أما تقرأ قول الله تعالى**: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟ فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيراً من مفارقتهم، أشهدك أنهم كلهم أحرار»[2].

وهذا العدل العظيم، وهذا القصاص المبني على تمام إيصال الحقوق إلى أهلها، إنما هو بين المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، أما الكافر فإنه يأتي يوم القيامة ولا حسنات له؛ لأن الله قدمها له في الدنيا.

كما في حديث أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يظلم**

---

(١) الترغيب والترهيب ٤/ ٤٠٥، وعزاه إلى الحاكم وقال: «صحيح الإسناد».

(٢) أخرجه الترمذي ٥/ ٣٢٠، وقال: «حديث غريب».

مؤمنًا حسنة، يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنات يجزى بها[1].

ومصداق هذا من كتاب الله تعالى قوله: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وفي الثناء على الذين استبقوا طيبات حياتهم الدنيا للآخرة؛ ثناء عظيم من الله تعالى، ورسوله ﷺ، وسلف الأمة الصالح، وقد ذموا الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا فاستمتعوا بها كيفما شاؤوا ولم يحجموا عن لذة إلا ووصلوها؛ حقاً كانت أم باطلاً.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «لو شئت كنت أطيبكم طعامًا وألينكم لباسًا، ولكني أستبقي طيباتي».

ولما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، قال: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد بن الوليد: لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة؛ لقد باينونا بونًا بعيداً.

ولقد دخل رسول الله ﷺ على أهل الصفة - مكان يجتمع فيه فقراء المسلمين - وهم يرقعون ثيابهم بالأدم، ما يجدون لها رقاعًا، قال: «**أنتم اليوم خير أو يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى، ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه**

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ١٣٥.

بأخرى، ويستر بيته كما تستر الكعبة؟ قالوا: نحن يومئذ خير، قال: **بل أنتم اليوم خير**»[١].

وقال ابن زيد في قول الله عز وجل: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا** ﴾ إلى آخر الآية، ثم قرأ ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ** ﴾، وقرأ ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ** ﴾ إلى آخر الآية، وقال: «هؤلاء الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»[٢].

وقال أبو مجلز: «ليفقدن أقوام حسنات كانت لهم في الدنيا، فيقال: ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا** ﴾»[٣].

وتظهر الأمور في ذلك اليوم ظهورًا كاملاً، ويهتك فيه ستر الظالم، بل وفي بعض الذنوب يكون القصاص فيها أمر في غاية الخطر، وجزاؤه من أعظم ما يتصوره الإنسان، وذلك لعظم الذنب الذي اقترفه هذا الظالم بحق المظلوم.

كما جاء في حديث سليمان بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم؛ إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟**»[٤].

والظن به - كما لا يخفى - أنه لا يبقى له حسنة واحدة.

---

(١)، (٢) انظر: جامع البيان ٢٦/ ٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٠.

(٤) رواه مسلم ٦/ ٤٣، وأبو داود ٢/ ٨، والنسائي ٧/ ٥٠.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أن هذا النوع من الظلم، وظلم العبد نفسه لابد من وقوع القصاص فيه، ولا يشملهما عفو الله، بخلاف سائر الظلم، وهذا ما يفيده حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه الله، فأما الظلم الذي لا يغفره الله: فالشرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وأما الظلم الذي يغفره الله: فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله: فظلم العباد بعضهم بعضًا حتى يدين لبعضهم من بعض**»[1].

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أمر هام ورد في الأحاديث السابقة؛ وهو أخذ المظلوم من ظالمه حسناته، فإن فنيت حسنات الظالم طرحت عليه من سيئات المظلوم، هنا يرد سؤال وهو: إن لم يكن للمظلوم سيئة ـ كالأنبياء ـ ولا للظالم حسنة ـ كالكفار ـ فكيف يمكن القصاص في ذلك؟

قال البرديسي في إجابته عن هذا:

«يعطى المظلوم من الثواب بقدر ما يستحقه، ويزاد في عقوبة الظالم بقدر ما كان يأخذ من المظلوم، إن لو كان ثم ما يؤخذ»[2].

وقد تبين لنا مما سبق عرضه من الأحاديث: أن هذا النوع من القصاص ثابت، وأنه عين العدل والحق، ولكن بعض المتغفلة الذين اتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، إعجابًا برأيهم، وتحكمًا على كتاب الله تعالى وسنة نبيه محمد ﷺ بعقول ضعيفة وأفهام سخيفة ـ قد اعترضوا على الله في حكمه وشرعه، وذلك

---

(١) مجمع الزوائد ١٠/ ٣٤٦، وعزاه إلى البزار، ثم قال الهيثمي: إن البزار رواه عن شيخه أحمد بن مالك القشيري، ولم يعرفه الهيثمي، وبقية رجال السند قد وثقوا على ضعفهم.

(٢) تكملة شرح الصدور ص١٤.

بعدم تسليمهم لما جاءت به تلك النصوص، فقالوا: «لا يجوز في حكم الله تعالى وعدله أن يضع سيئات من اكتسبها على من لم يكتسبها، ويؤخذ حسنات من عملها فتعطى من لم يعملها، وهذا ـ زعموا ـ جوراً، وأولوا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فكيف تصح هذه الأحاديث وهي تخالف ظاهر القرآن وتستحيل في العقل؟».

وهذا الاعتراض هو ما ذكره القرطبي رحمه الله عن هؤلاء الناس، ثم قال في جوابه عن ذلك: «إن الله سبحانه وتعالى لم يبن أمور الدين على عقول العباد، ولم يعد ولم يوعد على ما تحتمله عقولهم ويدركونها بأفهامهم؛ بل وعد وأوعد بمشيئته وإرادته، وأمر ونهى بحكمته، ولو كان كل ما لا تدركه العقول مردوداً؛ لكان أكثر الشرائع مستحيلاً على موضوع عقول العباد؛ وذلك أن الله تعالى أوجب الغسل بخروج المني ـ الذي هو طاهر عند بعض الصحابة وكثير من الأئمة ـ وأوجب غسل الأطراف من الغائط الذي لا خلاف بين الأئمة وسائر من يقول بالعقل وغيره في نجاسته وقذارته ونتنه، وأوجب بريح يخرج من موضع الحدث ما أوجب بخروج الغائط الكثير المتفاحش، فبأي عقل يستقيم هذا؟ وبأي رأي تجب مساواة ريح ليس لها عين قائمة بما يقوم عينه وتزيد على الريح نتنًا وقذرًا؟

وقد أوجب الله قطع يمين مؤمن بعشرة دراهم ـ وعند بعض الفقهاء بثلاثة دراهم، ودون ذلك ـ ثم سوى بين هذا القدر من المال وبين مائة ألف دينار، فيكون القطع فيهما سواء.

وأعطى الأم من ولدها الثلث، ثم إن كان للمتوفى إخوة جعل لها السدس

ـ من غير أن ترث الإخوة من ذلك شيئًا ـ فبأي عقل يدرك هذا؟ إلا تسليمًا وانقيادًا من صاحب الشرع . . . إلى غير ذلك.

فكذلك القصاص بالحسنات والسيئات، وقد قال وقوله الحق: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الآية، وقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وقال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وهذا يبين قوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى إذا لم تتعد، فإذا تعدت واستطالت بغير ما أمرت؛ فإنها تحمل عليها ويؤخذ منها بغير اختيارها»[١].

وقال البرديسي في الجواب عن مثل هذه النصوص:

«ولا تعارض بين هذا . . . لأن المراد بالآية في شخصين لا حق لواحد منهما عند الآخر، وأما هذه فبذنبه أخذ، وبكسبه عوقب، ويعني ذلك إذا مات وهو قادر على القضاء، وأما إذا مات عاجزًا عنه فلا يطرح عليه من سيئاته شيء»[٢].

وقال أيضًا: «وقد ذهب أهل الحق أن العبد إذا أتى بطاعات كأمثال الجبال، ثم كانت له مخالفة واحدة؛ فهو في المشيئة؛ فلله أن يعاقبه عليها ويعطيه ثواب طاعته، وله أن يغفرها له.

وقد قيل لأبي القاسم الجنيد: ما تقول فيمن خرج من الدنيا وما هي عليه

---

(١) التذكرة ص٣٢٥.

(٢) تكملة شرح الصدور ص٢٩، وقد عزا هذا الكلام إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

إلا قدر نواة؟ فقال: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم»[1] .

وهذه الأحاديث التي ذكرت الاقتصاص بالسيئات والحسنات لا تخالف القرآن، وإنما بينت المراد من الآيات. وهي وظيفة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤].

وأما قولهم إن العقل يحيل ذلك، فهذا مردود؛ لأن معنى استحالة العقل: أن لا يتصور العقل وقوع ذلك، فما الذي يحيله العقل أو لا يتصوره، بل العقل لا يجوز فقط، وإنما يحتم هذا القصاص في الآخرة التي ليس فيها بيع ولا خلال ولا ينفع مال ولا بنون، وإنما المجازات تكون بالسيئات والحسنات، وهذا منتهى العدل الرباني الذي وعد به، وإلا فكيف يجازى الذي اغتاب وفعل ما فعل من الموبقات.

فالحكمة تقتضي أن يؤخذ من حسناته أو تكال عليه سيئات خصمه، وكيف لا يكون ذلك وقد دلت النصوص وجاءت الأحاديث بإثباته؟

أما ما يفهم من كلام القرطبي رحمه الله أن الشرع قد يأتي مخالفًا للعقل، وأورد على ذلك أمثلة، كلها تثبت. في رأيه. مخالفة حكم العقل لحكم الشرع، وخلص من كل هذا إلى أنه يجب التسليم للشرع من غير بحث ولا نظر؛ فالحق الذي تهدي إليه النصوص أنه لا يمكن أن يكون هناك تضارب بين المنقول الصحيح وبين العقل الصحيح؛ بل كل ما جاء به النقل الصحيح يجب أن يطابق العقل الصحيح، وما يظهر في بعض الأمور من المخالفة؛ إنما هو بالنظر لعدم كمال العقل واستيفاء النظر، أو لعدم صحة النقل.

---

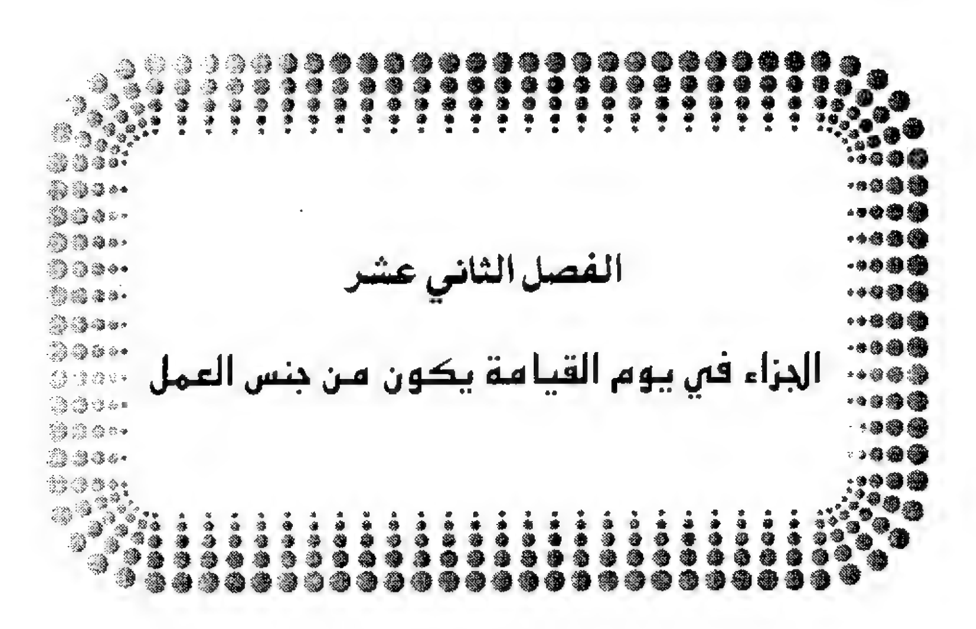
(١) تكملة شرح الصدور ص٣٠.

على أنه قد يخفى على الناظر بعض الحكم، ولكن ليس لمناقضتها للعقل؛ بل لعدم وجود العلم الكافي الذي يهيئ للعقل فهمها.

وهناك أشياء قد سلمها المسلمون السابقون من غير أن يعرفوا حكمتها وجاء العلم الحديث الذي أفصح تمام الإفصاح عن حكمتها، وقد كانت تسمى فيما مضى بأمور غيبية تعبدية، فجلاها العلم وأصبحت حكمتها ظاهرة.

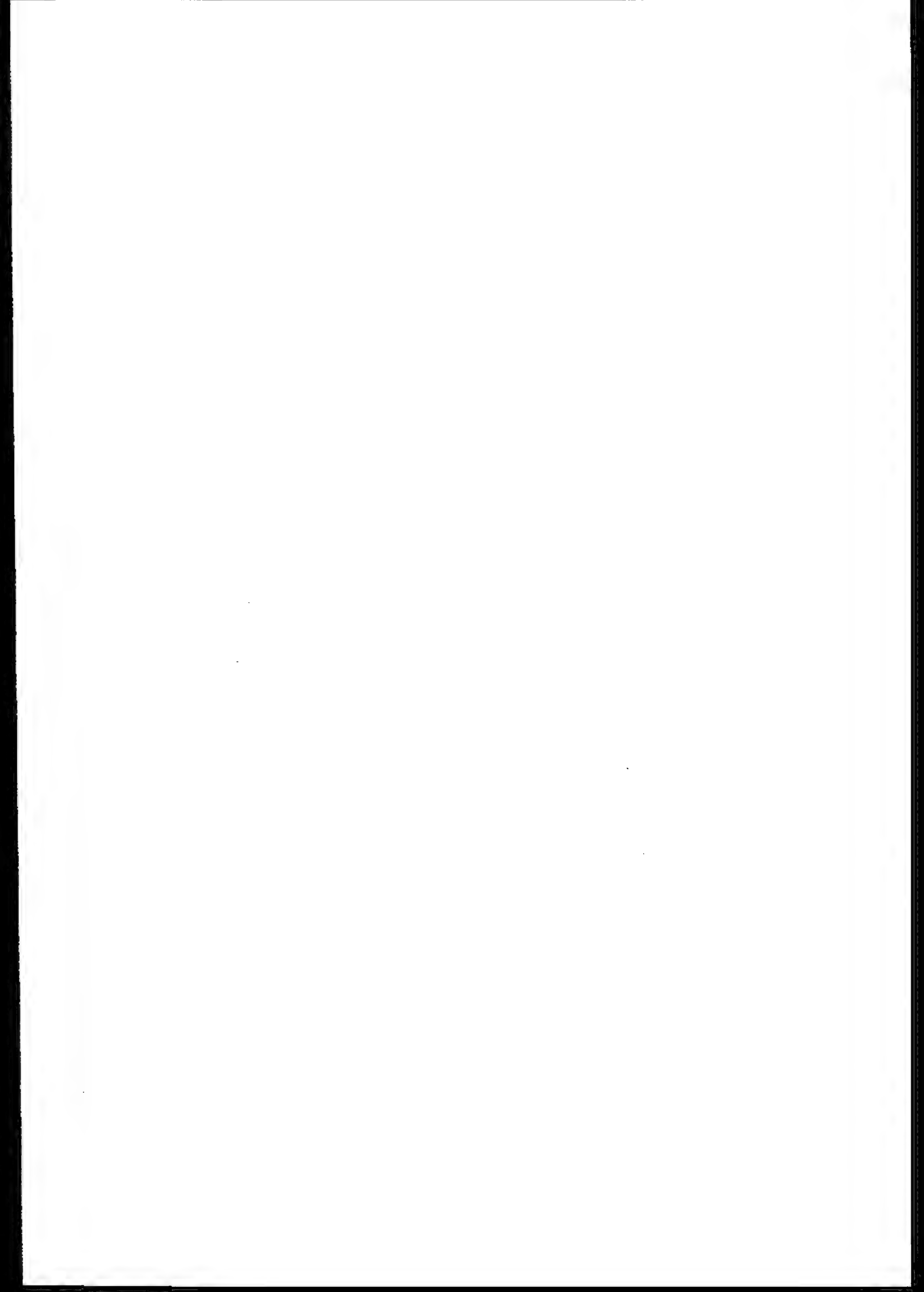
كمسألة غسل الإناء إذا ولغ فيه الكلب سبع مرات إحداهن بالتراب، فقد قيل إن الغسل بالتراب أمر تعبدي، لأن التراب ليس من أدوات التطهير والنظافة، فجاء العلم بوسائله الجديدة فاكتشف بواسطة الميكروسكوب والمكبرات الدقيقة الجراثيم والميكروبات التي يخلفها الكلب بلعقه للإناء، فجربوا جميع المبيدات ووسائل التطهير فلم تزل ذلك الميكروب، ثم جربوا التراب فإذا هو المطهر الوحيد الذي أزال هذا الخطر.

* * *



الفصل الثاني عشر

الجزاء في يوم القيامة يكون من جنس العمل



الفصل الثاني عشر

الجزاء في يوم القيامة يكون من جنس العمل

ولأن يوم القيامة هو اليوم الفاصل بين الحياتين: الدنيوية والأخروية، ولأن من مقاصد البعث هو مجازاة كل عامل بعمله، ولأن الأعمال تختلف اختلافًا كثيرًا ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، ولإظهار كل جريمة أمام صاحبها، مواجهة لكل هذا ـ ولغيره مما يعلمه الله ـ اقتضى الحال أنه لابد وأن يكون الجزاء من جنس العمل، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، أي: موافقًا لأعمالهم[١] كما قاله ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد ومجاهد[٢].

وقد وردت بذلك النصوص الصريحة من كتاب الله تعالى ومن سنة نبيه ﷺ بذلك.

١ ـ فمما ورد في مصداق ذلك من كتاب الله تعالى:

قوله الكريم في بيان إشكال الجزاء وأنواعه: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

---

(١) تفسير النسفي جـ٤ ص٣٢٧ وانظر: جامع البيان جـ٣ ص١٥.

(٢) انظر: جامع البيان جـ٣ ص١٥.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: في شأن استعظامهم وتكذيبهم لحشرهم هم وآباؤهم بعد أن يصيروا عظامًا، واستكبارهم عن الإيمان بذلك: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾.

[الصافات: ١٦ - ١٨].

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في إثبات أن الجزاء سيكون من جنس العمل.

وبعد عرض ما تقدم من الآيات نعرض فيما يلي طائفة من الأحاديث:

٢ـ الأدلة من السنة النبوية:

وأما ما جاء في السنة النبوية من إثبات ذلك الجزاء الواقع بحسب ما يستحقه العبد، فهو ما ذكره رسول الله ﷺ من جزاء الغال والمتكبر والبخيل والظالم ومانع الزكاة، وغير ذلك مما سنذكر أدلته وكيفية وقوعه في يوم القيامة.

فأما الغال: فإنه كما ذكر الله تعالى يأت بما غله، حاملاً له على عنقه أو ظهره، تشهيراً بجريمته الشنيعة وهي الغلول، وقد حذر الله منه وحذر رسول الله ﷺ منه أشد التحذير، وأخبر عليه الصلاة والسلام عن عاقبة من يأتيه، في أحاديث كثيرة، نذكر منها ما يتعلق بجزاء الغال المشاهد أمام الخلق في يوم القيامة، في موقف فصل القضاء كمثال على ذلك:

---

(١) أي صاغرين أذلاء حقيرين (أضواء البيان جـ٤ ص٢١٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره قال: «**لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة**[١] **يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد بلغتك، وعلى رقبته بعير له رغاء**[٢] **يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق. فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك**»[٣] .

وقال البخاري: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عروة عن أبي حميد الساعدي أنه أخبره: أن رسول الله ﷺ استعمل عاملاً؛ فجاءه العامل حيث فرغ من عمله فقال: يا رسول الله، هذا لكم وهذا أهدي لي، فقال له: «**أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا؟**».

ثم قام رسول الله ﷺ عشية بعد الصلاة، فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: «**أما بعد، فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول: هذا من عملكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى له أم لا؟ فوالذي نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئًا إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه؛ إن كان بعيرًا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاةً جاء بها تيعر، فقد بلّغت**».

فقال أبوحميد: ثم رفع رسول الله ﷺ يده حتى إنا لننظر إلى عفرة إبطيه، قال أبو حميد: وقد سمع ذلك معي زيد بن ثابت من النبي ﷺ فسلوه[٤] .

---

(١) الحمحمة: هي صوت الفرس دون الصهيل. (النهاية لابن كثير جـ١ ص٤٣٦).

(٢) الرغاء: هو صوت الإبل. (النهاية جـ٢ ص٢٤٠).

(٣) البخاري جـ٦ ص١٨٥، مسلم جـ٣ ص١٤٦١ .

(٤) صحيح البخاري جـ١١ ص٥٢٤، ورواه مسلم جـ٣ ص١٤٦٣ ـ باب تحريم هدايا العمال.

وقد أخرج أصحاب السنن وغيرهم من أهل التفسير ـ كالطبري ـ كثيرًا من الأحاديث التي تصور الغال في يوم القيامة، وما يلقاه من العذاب وهو يحمل ما غله على رقبته.

أخرج الإمام أبو داود عن أبي مسعود الأنصاري قال: بعثني رسول الله ﷺ ساعيًا، ثم قال: **«انطلق يا أبا مسعود، لا ألفينك يوم القيامة تجيء وعلى ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته»** قال: إذن لا أنطلق، قال: **«إذن لا أكرهك»**[١].

ولابن ماجه عن عمر رضي الله عنه من حديث عبد الله بن أنيس، أنه تذاكر هو وعمر بن الخطاب يوما الصدقة فقال: ألم تسمع قول رسول الله، حين ذكر غلول الصدقة: **«من غل منها بعيرًا أو شاة؛ فإنه يحمله يوم القيامة؟»**. قال عبد الله بن أنيس: بلى[٢].

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادي: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل جملاً له رغاء، يقول: يا محمد يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قسمًا من أدم، ينادي: يا محمد، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا قد بلغتك»**[٣].

وهذا الجزاء على حقيقته؛ فإن الغال يحمل ما غله على ظهره ورقبته معذبًا به أمام الخلق.

---

(١) سنن أبي داود جـ٢ ص١٢٢.

(٢) سنن ابن ماجه جـ١ ص٥٧٩ وفيه: (موسى بن جبير) قيل: إنه يخطئ.

(٣) أخرجه ابن جرير جـ٤ ص١٥٩ وقال عنه ابن كثير إنه لم يروه أحد من أهل الكتب الستة، (تفسير القرآن العظيم جـ١ ص٤٢١).

قال القرطبي :

«قال علماؤنا رحمهم الله في قوله : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ : إن ذلك على الحقيقة ، كما بينه ﷺ ، أي يأت به حاملاً له على ظهره ورقبته ، معذبًا بحمله وثقله ، ومرعوبًا بصوته ، وموبخًا بإظهار خيانته على رؤوس الأشهاد ، وكذا مانع الزكاة»[١] .

وأما حمل الأوزار التي ذكرها الله في الآية الكريمة ، فإن أهل التفسير يذكرون في معناها : أن الله تعالى يحيل الذنوب والآثام التي كان يركبها الفجرة إلى صورة محسوسة ، فتركب صاحبها وتسوقه إلى النار ، وتخاطبه قائلة له : أنا عملك الذي كنت تعمله في الدنيا من ركوبك الشهوات والآثام ، فاليوم أركبك .

وقد ساق ابن جرير بسنده إلى عمرو بن قيس الملائي قال : إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله في أحسن صورة وأطيبه ريحًا ، فيقول : هل تعرفني؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك ، فيقول : كذلك كنت في الدنيا ، أنا عملك الصالح ، طالما ركبتك في الدنيا ، فاركبني أنت اليوم ، وتلا : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾[٢] .

وأن الكافر يستقبله أقبح شيء صورة وأنتنه ريحًا ، فيقول : هل تعرفني؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك ، فيقول : كذلك كنت في الدنيا ، أنا عملك السيئ ، طالما ركبتني في الدنيا ، فأنا اليوم أركبك ، وتلا :

---

(١) التذكرة ص٣٥٥ .

(٢) ولعل وجه الدلالة على ما فهمه الراوي أن من إكرام الوفود أن تأتي راكبة لا ماشية ، وقد فسر ذلك الركوب بأنه على نوق ، ولم ير الخلائق مثلها . انظر : تفسير ابن كثير جـ٣ ص١٣٧ .

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾[١] .

وأخرج ابن جرير كذلك عن السدي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ الآية، قال: «ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره؛ إلا جاء رجل قبيح الوجه، أسود اللون، منتن الريح، عليه ثياب دنسة، حتى يدخل معه في قبره، فإذا رآه قال له: ما أقبح وجهك، قال: كذلك كان عملك قبيحًا، قال: ما أنتن ريحك، قال: كذلك كان عملك منتنًا، قال: ما أدنس ثيابك، قال: فيقول: إن عملك كان دنسًا، قال: من أنت؟ قال: أنا عملك، قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، فأنت اليوم تحملني، قال: فيركب على ظهره، فيسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾[٢] .

وأما حشر الكافر أعمى: فإنه جزاء من جنس العمل.

فإنه كان في الدنيا قلبه أعمى عن الإيمان، وبصره مفتوح إلى الشهوات، فجازاه الله بأن سلب بصره في يوم القيامة، وما وجد من قول لبعض السلف من تفسيرهم للعمى بالحجة؛ أي لا حجة له؛ كما هو رأي مجاهد وأبي صالح والسدي، أو أن معناه عمي كل شيء إلا جهنم؛ كما ينسب إلى عكرمة، فإنه تفسير بخلاف ما دلت عليه الآية من أن العمى المذكور هو عمى البصر.

وذلك لوجود قرائن تدل على هذا، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾، فصرح بأن عماه هو العمى المقابل للبصر

---

(١) جامع البيان جـ٧ ص١٧٩ .

(٢) جامع البيان جـ٧ ص١٧٩ ، وتبعه في هذا علماء التفسير.

وهو بصر العين؛ لأن الكافر كان في الدنيا أعمى القلب، كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله[1] .

ويحشرون أيضًا ـ إضافة إلى العمى ـ بكمًا صماً، لأنهم كانوا في الدنيا لا ينطقون بالحق والإيمان، ولا يسمعون ما يأمرهم الله به من اتباع سبيله، فجازاهم الله بذلك الجزاء، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** ﴾ [الإسراء: ٩٧].

ومما ينبغي الإشارة إليه: أن الله تعالى قد أثبت أن الكافر يحشر أعمى، كما في آية طه، ويحشر كذلك أبكم أصم، كما في آية الإسراء، لكنه تعالى قد أثبت في آيات أخر أن الكفار يسمعون ويبصرون ويتكلمون؛ كما قال تعالى: ﴿ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا** ﴾، ﴿ **وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا** ﴾، ﴿ **رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا** ﴾.

فهل بين هذا تعارض؟

الجواب: أن هذا، وإن كان فيما يبدو ظاهره التعارض، لكنه في الواقع ليس فيه تعارض.

وقد أجاب العلماء عن هذا من عدة وجوه.

الوجه الأول: وهو ما استظهره أبو حيان من كون المراد مما ذكر حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر، ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم

---

(١) أضواء البيان جـ٤ ص٥٩٧.

وسمعهم؛ فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله عنهم في غير موضع.

الوجه الثاني : أنهم لا يرون شيئًا يسرهم، ولا يسمعون كذلك، ولا ينطقون بحجة، كما أنهم كانوا في الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ولا يسمعونه، وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وروي أيضًا عن الحسن - كما ذكره الآلوسي في تفسيره، فنزل ما يقولونه ويسمعونه ويبصرونه منزلة العدم لعدم الانتفاع به.

والوجه الثالث : أن الله إذا قال لهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون؛ وقع بهم ذاك العمى والصم والبكم، من شدة الكرب واليأس من الفرج.

قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة[1].

وإضافة إلى ذلك، فإنه يمكن أن يقال في وجه الجمع في هذه الآيات التي وصفت الكافرين بما وصفت: أن هذه الأوصاف ليست لكل واحد من الكفار، وذلك لأن الكفار على أشكال متعددة، فيكون لكل صنف ما يناسبه من الجزاء؛ فمنهم من يأتي أعمى، ومنهم من يأتي أصم، ومنهم من يأتي أبكم، ومنهم ومنهم . . . إلى ما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وقد أخبر ﷺ عن مشهد آخر من مشاهد الجزاء؛ وهو حشر من ظلم بأخذ ما ليس له بحق في امتلاك الأرض، وإن كان ذلك يساوي قيد شبر منها، فإنه سيحمله يوم القيامة كما حمل الغال ما غله على عنقه، فهذا يحمل ما أخذه

(١) دفع إيهام الاضطراب، ضمن أضواء البيان جـ٩ ص١٨٨.

ظلمًا، وأنه يجعل له كالطوق في عنقه.

ونظير ذلك في قوله تعالى: ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. ولا يستبعد إنسان برأيه وقوع ذلك؛ فالله تعالى قادر على ذلك.

قال النووي إنه: «على تقدير التطويق في عنقه يطوّل الله تعالى عنقه، كما جاء في غلظ جلد الكافر وعظم ضرسه»[١].

وقد استدل ابن كثير على معنى التطويق المذكور في الآية، وأنه يجعل له كالطوق يوم القيامة بروايات مرفوعة عن أبي هريرة وابن عمر وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم[٢].

والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها ما جاء عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ظلم من الأرض شيئًا طوقه من سبع أرضين**»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لأبي سلمة: يا أبا سلمة، اجتنب الأرض؛ فإن النبي ﷺ قال: «**من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**»[٤].

قال النووي عن معنى هذا التطويق:

---

(١) والقول بأنه يطوق سبع أرضين حقيقة، هو أحد الأقوال التي ذكرت في معنى التطويق. انظر: شرح النووي لمسلم جـ٤ ص١٣١، وفتح الباري جـ٥ ص١٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٤٣٣.

(٣) البخاري جـ٥ ص١٠٣، ومسلم جـ٤ ص١٣١، ١٣٣، وأخرجها أحمد وأصحاب السنن.

(٤) المصدر السابق.

«وأما التطويق المذكور في الحديث: فقالوا: يحتمل أن معناه أنه يحمل مثله من سبع أرضين، ويكلف إطاقة ذلك.

ويحتمل أن يكون: يجعل له كالطوق في عنقه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقيل معناه: أنه يطوق إثم ذلك ويلزمه كلزوم الطوق بعنقه.

قال: وعلى تقدير التطويق في عنقه؛ يطول الله تعالى عنقه ـ كما جاء في غلظ جلد الكافر وعظم ضرسه»[1].

ونقل ابن حجر عن الخطابي أن معنى التطويق له وجهان:

أحدهما: أن معناه: أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر، ويكون كالطوق في عنقه لا أنه طوق حقيقة.

الثاني: معناه: أنه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، أي فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقًا في عنقه.

وقال ابن حجر: «وقيل معناه كالأول، لكن بعد أن ينقل جميعه يجعل كله في عنقه طوقًا، ويعظم قدر عنقه حتى يسع ذلك، كما ورد في غلظ جلد الكافر ونحو ذلك، ويحتمل ـ وهو الوجه الرابع ـ أن يكون المراد بقوله: «يطوقه» يكلف أن يجعله له طوقًا، ولا يستطيع ذلك؛ فيعذب بذلك.

ويحتمل ـ وهو الوجه الخامس ـ أن يكون التطويق تطويق الإثم، والمراد به أن الظلم المذكور لازم له في عنقه لزوم الإثم ـ ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْزَمْنَاهُ

---

(١) شرح النووي لمسلم جـ٤ ص١٣١.

طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ .

«ويحتمل أن تتنوع هذه الصفات لصاحب هذه الجناية، أو تنقسم أصحاب هذه الجناية؛ فيعذب بعضهم بهذا وبعضهم بهذا بحسب قوة المفسدة وضعفها»[١] .

وهذه الأقوال كلها لا دليل عليها، وإنما هي من باب الاستنباط، ولو وقف عند ذكر الحديث مع مراعاة عظم جريمة من اغتصب شبراً من الأرض، وإرجاع أمر هذه العقوبة وكيفيتها إلى الله عز وجل، مع اعتقاد حصول ذلك العقاب؛ لما كان في هذا ـ فيما أظن ـ حرج، والله أعلم.

وأبو سلمة الذي روى عن عائشة هو أبو سلمة بن عبد الرحمن[٢] .

وأخبر ﷺ أن من منع الزكاة الواجبة في أمواله؛ أن الله تعالى يحول ذلك إلى صورة شجاع أقرع يأخذ بشدقي صاحبه، ويقول له: أنا كنزك، أنا مالك[٣] .

كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه** ـ يعني شدقيه ـ **ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك،** ثم تلا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]»[٤] .

وفي تلاوة النبي ﷺ الآية دليل على أنها نزلت في مانعي الزكاة، وهو

---

(١) فتح الباري جـ٥ ص١٠٥ .
(٢) المصدر السابق ص١٠٥ .
(٣) انظر: فتح الباري جـ٣ ص٢٧٠ .
(٤) البخاري جـ٣ ص٢٦٨ .

قول أكثر أهل العلم بالتفسير[١] .

وورد عن أبي هريرة رضي الله عنه فيمن لم يؤد زكاة مواشيه قوله ﷺ : **«تأتي الإبل على صاحبها على خير ما كانت. إذا هو لم يعط فيها حقها. تطؤه بأخفافها، وتأتي الغنم على صاحبها على خير ما كانت. إذا لم يعط فيها حقها. تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها، قال : ومن حقها أن تحلب على الماء»**[٢] الحديث .

وأخبر رسول الله ﷺ عن أشياء إذا فعلها الإنسان ابتغاء ثواب الله تعالى أن الله يجازيه بمثلها في الآخرة في يوم القيامة ، وقد يحصل ذلك أيضًا في الدنيا ، وذلك كإخباره ﷺ عن تفريج الله كربة من فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، وعن ستر الله لمن ستر على مسلم ما يحب ستره .

كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : **«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»**[٣] .

وفي هذا الحديث إضافة على الحض على التعاون وحسن التعاشر والألفة . «أن المجازاة تقع من جنس الطاعات»[٤] ، وغير ذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : **«لا يستر الله على عبد في**

---

(١) فتح الباري جـ٣ ص٢٧١ .

(٢) على مجتمع الناس على الماء ، والحديث أخرجه البخاري جـ٣ ص٢٦٩ .

(٣) البخاري جـ٥ ص٩٧ .

(٤) نفس المرجع السابق .

الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»[1] .

وفي رواية عنه : **«لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»**[2] .

وفي رواية عنه لابن ماجه : **«من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة»**[3] .

ومعلوم أن الستر المندوب إليه في هذه الأحاديث يراد به : «الستر على ذوي الهيئات، ونحوهم ممن ليس هو معروفًا بالأذى والفساد»[4] ، وهذا لا يشمل المجاهرين والأشرار، ومن كان عدم الستر عليه لمصلحة دينية أو دنيوية .

وورد في المتحابين في الدنيا ـ لأجل الله تعالى وحده ـ فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه : **«إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»**[5] .

ومعنى هذا الحديث ـ فيما يذكر القاضي ـ أن «ظاهره أنه في ظله من الحر والشمس ووهج الموقف وأنفاس الخلق. قال : وهذا قول الأكثرين»[6] .

وهذا الجزاء لتشريفهم وتكريمهم ؛ فإنهم كما اجتمعوا تحت ظل محبة الله تعالى في الدنيا، وألفت بينهم المحبة في الله؛ جمعهم الله وألف بينهم تحت ظله .

وأخبر رسول الله ﷺ أن الجزاء قد يتضاعف بسبب جهل الشخص أو

---

(١)، (٢) صحيح مسلم جـ٥ ص٤٥٠ .

(٣) سنن ابن ماجه جـ٢ ص٨٥٠ .

(٤) شرح النووي لمسلم جـ٥ ص٤٤٢ .

(٥) صحيح مسلم جـ٥ ص٤٣٠ .

(٦) المصدر السابق ص٤٣١ .

علمه، فإن الذي يعمل المعاصي وهو جاهل بها أخف جرمًا ممن يعملها وهو عالم بالتحذير منها، فإذا كان الشخص ـ مثلاً ـ قبل أن يسلم مصراً على بعض الذنوب والتي في أولها الشرك بالله تعالى، ثم هداه الله إلى الإسلام بتوبته عن جميع ما سلف منه، ثم نكص على عقبيه ورجع إلى تلك الذنوب التي سلفت منه وأعظمها الشرك؛ فلا شك أنه حينئذ يكون أكثر جرمًا منه عما مضى؛ فيتضاعف عليه الجزاء.

ومصداق هذا ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ قال: **«من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»**[1].

وهذا على القول بأن هذا الشخص أسلم ظاهرًا وباطنًا، وذهب بعضهم إلى أن معنى الحديث وارد على من أسلم نفاقًا.

وعلى كل من القولين؛ فإن المنافق ـ بحكم إسلامه في الظاهر ـ قد عرف كثيرًا من شرائع الإسلام، ثم أصر على كفره بالله؛ فيجازى بكلتا السيئتين.

والرياء وهو أحقر الأخلاق وأرذلها؛ إذ كم من عمل لو خلي عنه لكان صاحبه من الفائزين، ولكنه صار بسببه هباءً منثورًا مهما عمل من أسباب الخير؛ كقراءة القرآن.

والقتل في سبيل الله، والتصدق، فهذه أعمال عظيمة يستحق صاحبها الثواب العظيم، وهي من أحب الأمور إلى الله، ولكن إذا دخلها الرياء انقلب جزاؤها إلى ضدها، وصار من يتصف بها من أبغض الخلق إلى الله، ولهذا

---

(١) البخاري جـ١٢ ص٢٦٥، ومسلم جـ١ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

فإنه يعجل حسابهم ـ كما ينقله الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ .

فقد اتفق أن شفيا الأصبحي دخل المدينة ؛ فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له: أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، ثم نشغ[1] أبو هريرة نشغة، فمكث قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى ثم أفاق ومسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا معه في هذا البيت، ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارآ على وجهه، فأسندته علي طويلاً، ثم أفاق فقال:

حدثني رسول الله ﷺ : **«أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به : رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال.**

فيقول الله للقارئ : ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال إن فلانًا قارئ ؛ فقد قيل ذاك.

---

(١) نشغ : أي شهق حتى كاد يغمى عليه، ويحصل ذلك للإنسان إذا اشتد أسفه على فائت. سنن الترمذي جـ٤ ص٥٩١ .

ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله : كذبت ، وتقول له الملائكة: كذبت ، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد ؛ فقد قيل ذاك.

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت؟ فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله : بل أردت أن يقال فلان جريء؛ فقد قيل ذاك.

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : **يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».**

وقال الوليد أبو عثمان : فأخبرني عقبة بن مسلم أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، قال أبو عثمان : وحدثني العلاء ابن أخي حكيم : أنه كان سياقًا لمعاوية، فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية : قد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديدًا حتى ظننا أنه هالك، وقلنا : قد جاءنا هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه وقال : صدق الله ورسوله ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦][(١)] .

وأخيرًا؛ فإن اللعن والسباب وهو من العادات القبيحة المرذولة لدى كل

---

(١) أخرجه الترمذي جـ٤ ص٥٩٢، وقال عن الحديث : إنه حسن غريب.

عاقل، يفقد بسببه الشخص في يوم القيامة صفة هي من أحسن الصفات وأعظمها؛ ألا وهي صفة الشفاعة والشهادة، فلا يكون شفيعًا ولا شهيدًا، وأي خسارة كبيرة لحقته أعظم من هذه.

والسبب في ذلك هو استهانته باللعن للناس وإكثاره منه؛ حتى صدقت عليه صيغة المبالغة «لعان».

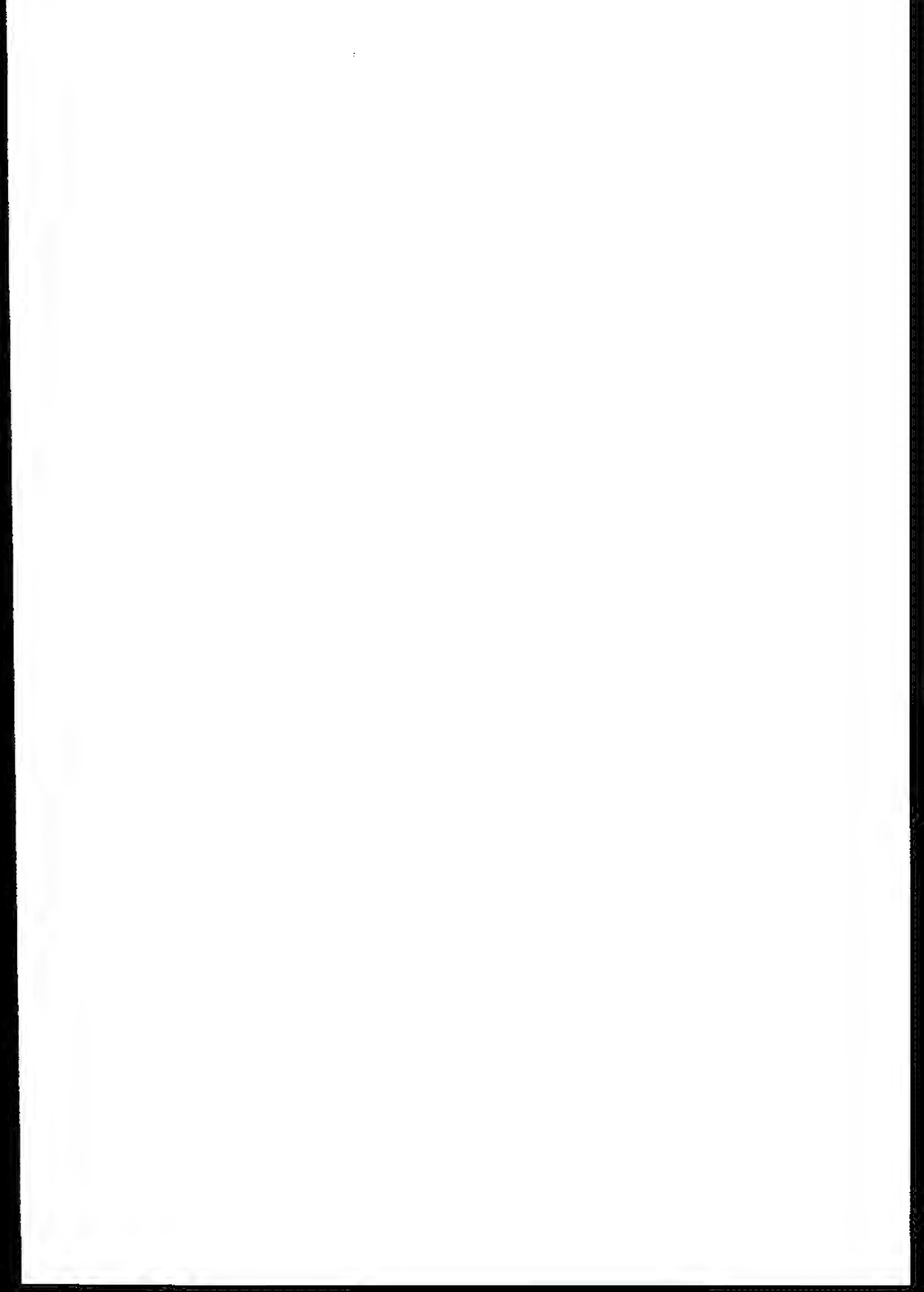
وإذا كان اللعن هو طلب عدم مغفرة الله للعبد الملعون، والدعاء عليه بالطرد والإبعاد عن رحمة الله؛ فإن اللعان يكون قد أسقط قبول شفاعته؛ لأنه يطلب من الله - بلعنه الناس - إبعادهم عن رحمة الله، فكان جزاؤه أن يحرم من شفاعته فيهم والشهادة لهم.

ومصداق هذا ما روته أم الدرداء قالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: **«لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»**[1].

وبما تقدم نكتفي، وخلاصة ذلك أن الله سبحانه وتعالى يجعل الجزاء معجلاً من جنس العمل؛ حتى تكون إشارة عليه وتشهيرًا بذنبه أمام جميع من في الموقف، وقد تقدم - في أول مبحث الحشر - ذكر بعض الصفات التي تتعلق بمجيء الخلق إلى الموقف.

* * *

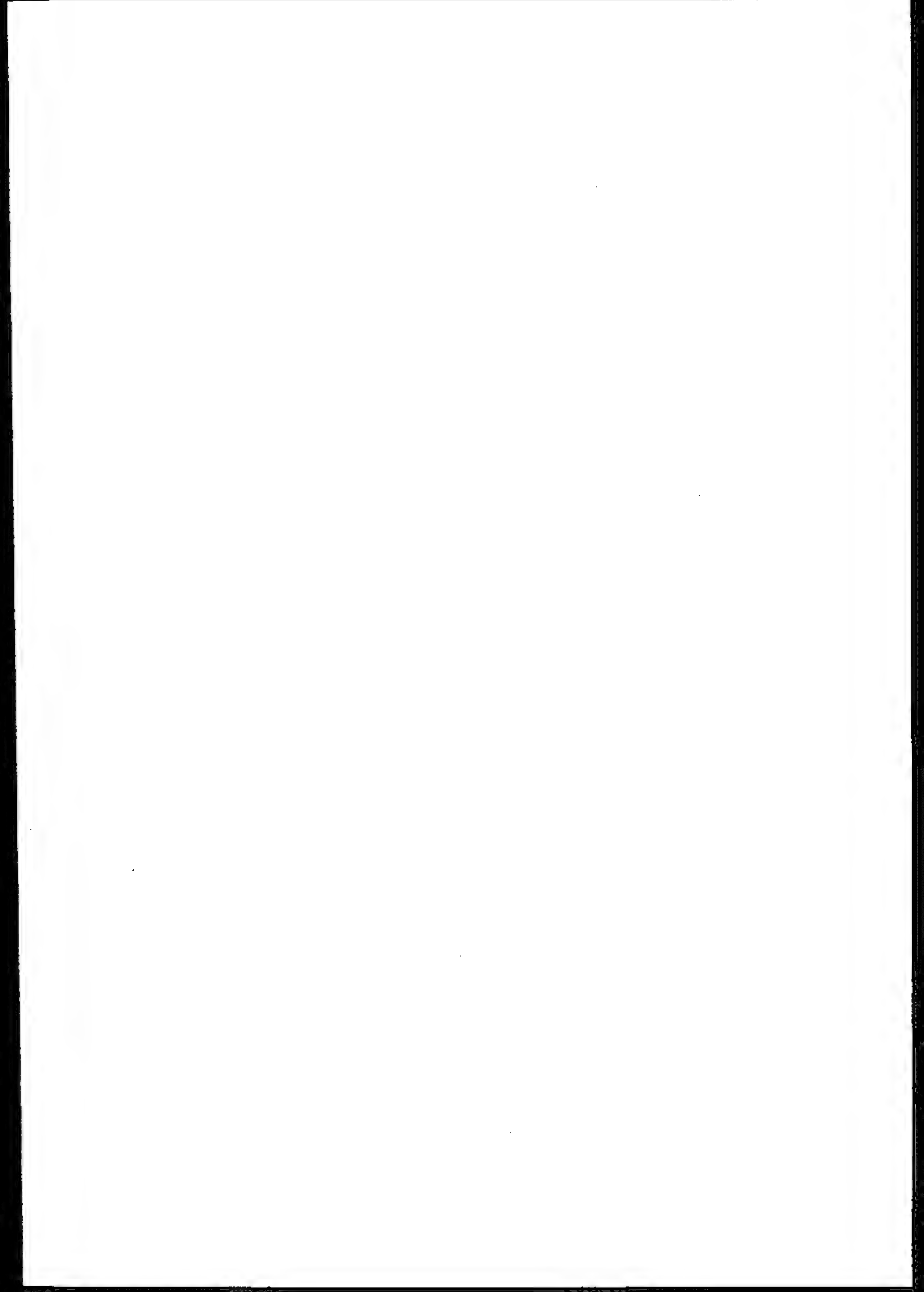
(١) أخرجه مسلم جـ٥ ص٤٥٦.





الفصل الثالث عشر

رحمة الله بعباده في الحساب



الفصل الثالث عشر
رحمة الله بعباده في الحساب

لقد وصف الله نفسه بأنه رؤوف رحيم في أكثر من آية في كتابه الكريم، وأخبر رسوله محمد ﷺ عن رحمة الله ولطفه بعباده في أكثر من حديث، وإذا كانت الرحمة صفة مدح وكمال ـ يحب كل شخص أن يتصف بها، ويحب نسبتها إليه، ويكره نسبة ضدها إليه، وينفر عنها ـ فكيف بالخالق الذي خلق الخلق، وخلق الرحمة ذاتها فيهم، واتصف من كل صفة بكمالها وأعلاها؟ ![1]، وقد وصف نفسه عز وجل بالرحمة الواسعة.

وسنتبين سعة رحمته تعالى في يوم القيامة في عرضنا الآتي للأدلة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

١ ـ الأدلة من القرآن الكريم :

أما الآيات التي تثبت رحمة الله تعالى بعباده فهي كثيرة جداً في القرآن الكريم، يصف الله سبحانه وتعالى نفسه فيها بأنه: الغفور الرحيم، الرؤوف الرحيم، الرحمن الرحيم، العزيز الرحيم، التواب الرحيم، أرحم الراحمين.

---

(١) الرحمة المخلوقة المضافة إلى الله تعالى: هي الرحمة التي تكون من نوع إضافة المفعول إلى فاعله، وسماها رحمة ـ كما جاءت بها النصوص ـ لأنها خلقت للرحمة، وخص بها أهل الرحمة.

انظر: الأسئلة والأجوبة على العقيدة الواسطية ص١١٠.

ولكثرتها في هذا الباب وظهورها؛ فإننا نحيل إلى كتب المعاجم لألفاظ القرآن الكريم، في مادة (رحم)؛ فيسجد القارئ آيات كثيرة في بيان ذلك، كلها تبشر العباد بأن ربهم أرحم الراحمين، وأنه خير الغافرين، وما إلى ذلك من أوصاف رحمته؛ لتطمئن قلوبهم إلى رحمته بهم؛ فلا يقنطوا، لأن الإنسان إذا علم أن هناك من يرحمه؛ كان إلى العودة والإقبال، أقرب منه إلى النفور والإبعاد، وإذا علم أن هناك من ينصفه ويثيبه، كان إلى العمل أقرب منه إلى الترك.

ويكفي أن نشير إلى أن أول كلمة في القرآن الكريم هي ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، وأن أول سورة الفاتحة: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣].

ويكفي أن الله تعالى يقول: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

[الأعراف: ١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

٢ ـ الأدلة من السنة:

ومما جاء في السنة النبوية ـ من وصف الله تعالى بالرحمة عمومًا، وفي الحساب في يوم القيامة خصوصًا ـ ما نورد بعضه فيما يأتي:

فـممـا يدل على أن الله تعالى رحيم، وأنه كتب على نفسه الرحمة، وأن رحمته سبقت غضبه، ورأفته أكثر من نقمته؛ ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش»**[1].

وفي بعض الروايات: **«تغلب غضبي»**.

فهذه بشارة عظيمة للخلق، فإذا كانت رحمته تغلب غضبه، فإنه لا يهلك على الله بعد ذلك إلا هالك.

وأخبر ﷺ أن الله تعالى خلق الرحمة ـ يوم خلقها ـ وهي مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة، وادخر عنده تسعة وتسعين رحمة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة؛ لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب؛ لم يأمن من النار»**[2].

وعنه عن النبي ﷺ قال: **«إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»**[2].

وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا،**

---

(١) أخرجه البخاري جـ١٣ ص٥٢٢، ٣٨٤، ٤٠٤، ٤٤٠، وأخرجه مسلم جـ٥ ص٥٩٥، وابن ماجه جـ٢ ص١٤٣٥، وأحمد جـ٢ ص٢٤٢.

(٢) البخاري جـ١١ ص٣٠١.

فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[١] .

قال ابن أبي جمرة: يحتمل أن يكون سبحانه وتعالى لما مَنَّ على خلقه بالرحمة؛ جعلها في مائة وعاء، فأهبط منها واحدًا للأرض.

وقال المهلب: الرحمة التي خلقها الله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا: هي التي يتغافرون بها يوم القيامة التبعات بينهم، قال: ويجوز أن يستعمل الله تلك الرحمة فيهم؛ فيرحمهم بها، سوى رحمته التي وسعت كل شيء، وهي التي من صفة ذاته ولم يزل موصوفًا بها، فهي التي يرحمهم بها، زائدًا على الرحمة التي خلقها لهم، قال: ويجوز أن تكون الرحمة التي أمسكها عند نفسه هي التي عند ملائكته المستغفرين لمن في الأرض؛ لأن استغفارهم لهم دال على أن في نفوسهم الرحمة لأهل الأرض.

ويشكل على كلام المهلب أنه ليس في شيء من طرق الحديث أن التي عند الله رحمة واحدة؛ بل اتفقت جميع الطرق على أن عنده تسعة وتسعين رحمة[٢] .

وعن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة؛ فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة؛ أكملها بهذه الرحمة»**[٣] .

---

(١) مسلم جـ٥ ص٥٩٦.

(٢) انظر فتح الباري جـ١ ص٤٣٢.

(٣) مسلم جـ٥ ص٥٩٧، وابن ماجه جـ٢ ص١٤٣٥.

وعن عمر بن الخطاب أنه قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذ وجدت صبيًا في السبي؛ فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»** قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**[١] .

قال النووي رحمه الله في بيان معنى أحاديث تلك الرحمة التسعة والتسعين المدخرة ليوم القيامة قال:

«هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين، قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار - المبنية على الأكدار - بالإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه، وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به، فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهي دار الجزاء؟!»[٢] .

وكلمة «تسقي» جاءت في رواية البخاري.

وفي رواية «تسعى»، وفي رواية مسلم: «تبتغي» أي: تطلب.

والظاهر أنه لا تعارض بين رواية تسعى وتبتغي؛ فهي قد جاءت تسعى وتبتغي طلب ولدها، ولكن القاضي عياض قال: إن رواية «تبتغي» وهم من الرواة، والصواب ما في رواية البخاري «تسعى».

وقد تعقبه النووي وقال: «كلاهما صواب لا وهم فيه؛ فهي ساعية وطالبة؛ مبتغية لابنها»[٣] .

وأما رواية «تسقى» فقد حذف بعدها كلام يبينه رواية الإسماعيلي،

---

(١) البخاري جـ١٠ ص٤٢٦، ومسلم جـ٥ ص٥٩٧ .

(٢) انظر: شرح النووي لمسلم جـ٥ ص٥٩٧٧ .

(٣) فتح الباري جـ١٠ ص٤٢٠ .

وفيها: «إذا وجدت صبيًا في السبي؛ أخذته فأرضعته، فوجدت صبيًا؛ فأخذته فألزمته بطنها».

قال ابن حجر: «وعرف من سياقه: أنها كانت فقدت صبيها، وتضررت باجتماع اللبن في ثديها، فكانت إذا وجدت صبيًا أرضعته ليخف عنها، فلما وجدت صبيها بعينه أخذته فالتزمته»[1].

أما قوله في الحديث: «**لله أرحم بعباده**»، فالمراد بالعباد هنا: أهل التقوى لا الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وإن كانت رحمة الله «عامة من جهة الصلاحية، وخاصة بمن كتبت له» كما قاله الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة، قال أيضًا: «ويحتمل أن يكون المراد أن رحمة الله لا يشبهها شيء لمن سبق له منها نصيب، من أي العباد كان، حتى الحيوانات». قال: «وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما - حتى يقصد لأجلها - فالله سبحانه وتعالى أرحم منه؛ فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة»[2].

وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**كان رجل ممن كان قبلكم يسيء الظن بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف، ففعلوا به، فجمعه الله ثم قال: ما حملك على الذي صنعت؟ قال: ما حملني عليه إلا مخافتك؛ فغفر له**»[3].

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٤٣١.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) صحيح البخاري جـ١١ ص٣١٢.

وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ : ذكر رجلاً فيمن كان سلف ـ أو قبلكم ـ آتاه الله مالاً وولدًا، يعني أعطاه، قال: **«فلما حضر قال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يبتئر**[1] **عند الله خيرًا، وإن يَقدَم على الله يعذبه، فانظروا؛ فإذا مت فأحرقوني، حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني ـ** أو قال: **فاسهكوني ـ ثم إذا كان ريح عاصف فاذروني فيها، فأخذ مواثيقهم على ذلك، وربي، ففعلوا؛ فقال الله: كن؛ فإذا رجل قائم، ثم قال: أي عبدي، ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك ـ أو فرَق منك ـ فما تلافاه أن رحمه الله»**[2] .

ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله: إذا مات فحرقوه ثم اذروا نصفه في البر ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب، وأنت أعلم؛ فغفر الله له»**[3] .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه أرحم الراحمين، كما في حديث أبي سعيد الخدري، وهو حديث طويل، وفيه أن الله تعالى يقول: **«شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين»**[4] الحديث .

وفي المساءلة الآتية بين آخر من يدخل الجنة وبين أرحم الراحمين نرى كيف أن الله تعالى يتدرج بعبده؛ ليطمعه فيما عنده من ثواب ورحمة، إلى أن يدخله

---

(١) فسرها قتادة: لم يدخر .

(٢) صحيح البخاري جـ١١ ص٣١٢، وأخرجه مسلم جـ٥ ص٦٠١، وأخرجه أحمد في المسند جـ٣ ص٧٨ .

(٣) مسلم جـ٥ ص٥٩٨ .

(٤) صحيح مسلم جـ٥ ص٤٤٠ وأخرجه أحمد في المسند .

الجنة، فقد جاء عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «**آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها؛ التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة؛ فيقول: أي رب، أدنني من هذه الشجرة؛ فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا يا رب، ويعاهده ألا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه؛ فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها.**

ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى؛ فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها، فيعاهده ألا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه؛ فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها.

ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ قال: بلى يا رب، هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليها؛ فيدنيه منها، فإذا أدناه منها؛ فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب، أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم ما يصريني[1] منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟».

فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟

---

(١) صرى: له عدة معان: أنسبها هنا أن تفسر بمعنى منع، أي: ما يمنعني منك؟ لو شئت لعاقبتك، ويجوز أن تكون بمعنى يكفني منك، أي ما يكفيك عما تطلبه مني؟ (الإتحافات ص٧٢).

قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: **«من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر»**[١] .

وقد روى هذا الحديث أيضًا أبو سعيد الخدري، وزاد في روايته له ما يدل على كرم الله ورحمته، وذلك بتذكير الله لهذا العبد ما يرغب فيه من الأماني التي يتمناها، ثم مضاعفة الله تلك الأماني، فقال أبو سعيد في رواية له:

«ويذكره الله: سل كذا وكذا، فإذا انقطعت به الأماني قال: هو لك وعشرة أمثاله»[٢] .

ومن مظاهر رحمة الله كذلك ما تقدم ذكره في فصل: (تقرير الله لعباده في الحساب)، من حديث ابن عمر في النجوى، وهو مخرج في الصحيحين[٣] ، وكذا حديث أبي ذر رضي الله عنه المذكور في الموضع المشار إليه[٤] .

وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إني لأعلم آخر رجل من أمتي يجوز الصراط، يتلوى على الصراط كالغلام حين يضربه أبوه، تزل يده مرة فتصيبها النار، فتزل رجله فتصيبها النار، قال: فتقول الملائكة: أرأيت إن بعثك الله من مقامك هذا فمشيت؛ أتخبرنا بكل عمل عملته؟ قال: فيقول: إي وعزته، ولا أكتمكم من عملي شيئًا، قال: فيقولون له: قم فامش مستويًا؛ فيقوم فيمشي حتى يجاوز الصراط، فيقولون له: أخبرنا بأعمالك التي عملت، فيقول في نفسه: إن أخبرتهم بما**

---

(١) أخرجه مسلم جـ٥ ص٤٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص٤٥١ .

(٣) البخاري جـ٥ ص٩٦، مسلم جـ٥ ص٦١٣ .

(٤) أخرجه الترمذي جـ ٤ ص٧١٣ وقال: «حديث حسن صحيح»، والطبري جـ١٩ ص٤٧ .

عملت، ردوني إلى مكاني، قال: فيقول: لا وعزتك ما أذنبت ذنبًا قط، قال: فيقولون: إن لنا عليك بينة، قال: فيلتفت يمينًا وشمالاً؛ هل يرى من الآدميين ممن كان يشهد في الدنيا؟ فلا يرى أحدًا؛ فيقول: هاتوا بينتكم، فيختم الله على فيه، وتنطق يداه ورجلاه وفخذاه بعمله، فيقول: وعزتك لقد عملتها وإن عندي للعظائم المضمرات[١] ، قال: فيقول الله: اذهب فقد غفرتها لك»[٢] .

وفي رواية عن أبي هريرة من حديث طويل جاء فيه :

«ثم يفرغ الله من القصاص بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار؛ فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاها ـ اشتعالها ـ فيدعو الله ما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله تعالى: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله؛ فيصرف وجهه عن النار.

فإذا أقبل على الجنة ورآها؛ سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أي رب، قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير الذي أعطيتك، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: أي رب، لا أكون أشقى خلقك، ثم يدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء من عهود ومواثيق، فقدمه إلى باب الجنة.

فإذا أقبل على باب الجنة فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة، فيقول الله تعالى: أليس قد

---

(١) في المخطوطة المظهرات ولعل الصحيح المضمرات ، (لعل الله لم يذكرها له).

(٢) تكملة شرح الصدور ص٣٠ وعزاه إلى ابن أبي شيبة .

أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت لك، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: أي رب، لا أكون أشقى خلقك.

فلا يزال يدعو الله؛ حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك منه قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله: تمن؛ فيسأل ربه ويتمنى؛ حتى إن الله ليذكره من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني؛ قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه»[١] .

قال البرديسي في الجواب عن نقض هذا العبد أيمانه في كل مرة:

«وليس نقض هذا العبد عهده جهلاً منه ولا قلة مبالاة؛ بل على أمنه أن نقض هذا العهد أولى من الوفاء؛ لأن سؤاله ربه أولى من إبرار قسمه، ففي الحديث: **«من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها؛ فليكفر ويأتي الذي هو خير»**»[٢] .

ومن هذه النصوص نستفيد معرفة سعة رحمة الله تعالى ولطفه بعباده في يوم القيامة، غير أن المؤمن لا يغفل عن العلم بأنه مع وجود هذه الرحمة يوجد عقاب شديد، ولهذا فإن المؤمن دائمًا بين الخوف والرجاء، يطمع في رحمة الله ومغفرته ويخاف عقابه، وقد قرن الله في كتابه الكريم بين المغفرة والعقاب في آية واحدة فقال تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾.

[غافر: ٣].

قال الطبري في معنى الآية: «يقول تعالى ذكره: شديد عقابه لمن عاقبه من أهل العصيان له، فلا تتكلوا على سعة رحمته، ولكن كونوا منه على حذر؛

---

(١) أخرجه مسلم جـ١ ص٤٣١ ـ ٤٣٣.

(٢) تكملة شرح الصدور ص٣٤ وعزا هذه الفائدة إلى القسطلاني.

باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، فإنه - كما لا يؤيس أهل الإجرام والآثام من عفوه، وقبول توبة من تاب منهم من جرمه - كذلك لا يؤمنهم من عقابه وانتقامه منهم بما استحلوا من محارمه وركبوا من معاصيه»[1] .

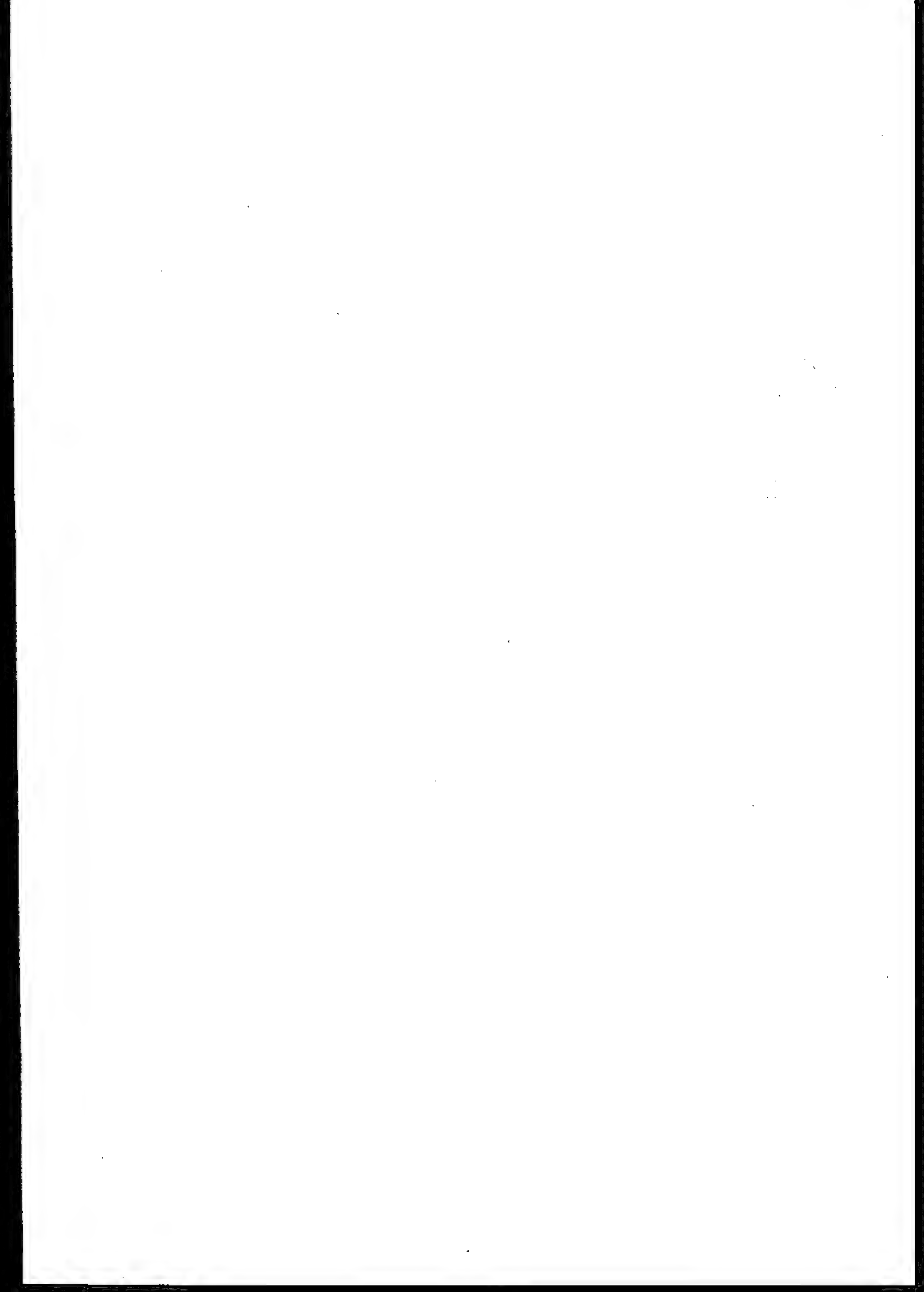
* * *

(١) جامع البيان جـ٢٤ ص٤١ .



الفصل الرابع عشر

المنكرون للحساب والرد عليهم



الفصل الرابع عشر
المنكرون للحساب والرد عليهم

بعد ما سبق عرضه من الأدلة الواضحة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ على إثبات وقوع الحساب؛ فإن الظن بكل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ألا يشك في وقوع الحساب، فضلاً عن إنكاره بالكلية؛ ذلك أن معرفة وقوع الحساب من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة، فمن أنكر دلالة تلك النصوص المتضافرة على وقوعه؛ فلا شك أنه ملحد مكذب بكتاب الله تعالى وبسنة نبيه ﷺ، ويعتبر خارجًا عن جماعة المسلمين.

ومما يجدر ذكره هنا أنه قد نسب إلى بعض الفرق من أهل القبلة القول بنفيه؛ فالجيلاني يذكر أن الغالية من الرافضة تنكره، وذلك في قوله: «إلا الغالية منهم، فإنها زعمت بأن لا حساب ولا حشر»[١].

ويذكر البزدوي أن المعتزلة والروافض وعامة المبتدعة تنكر الحساب[٢].

والظاهر أن المعتزلة لا تنكره إنكارًا تامًا، وإنما ينكرون أن تكون صفته كما هو العادة في المحاسبة في الدنيا؛ فإن القاضي عبد الجبار يقول: «وأما الحساب فمما لا يجوز إنكاره»[٣].

---

(١) الغنية جـ١ ص٨٧.

(٢) أصول الدين ص١٦١.

(٣) شرح الأصول الخمسة ص٧٣٦.

ولعل من نسب إليهم القول بإنكاره؛ لاحظ ما يذهب إليه المعتزلة من أن الحساب من الله، المقصود به: خلق علم ضروري في نفس الإنسان، يعرف به مقدار ثوابه وعقابه، ولهذا صح إطلاق وصف سرعة الحساب على الله تعالى، وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار: «وأما الحساب فمما لا يجوز إنكاره، فقد قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

غير أن محاسبته تعالى إيانا لا تجري على حد ما تجري المحاسبة بين الشريكين والمتعاملين، فإن ذلك فيما بيننا إنما يكون بعقد الأصابع أو ما يجري مجراه، وليس هكذا محاسبة الله تعالى عباده، فإن ذلك يكون بخلق العلم الضروري في قلبه أنه يستحق من الثواب كذا ومن العقوبة كذا، فيسقط الأقل بالأكثر، وعلى هذا صح ذلك بسرعة»[1].

فهم ينكرون صفة الحساب لا وقوع الحساب بالكلية، حسب ما يفيده كلام القاضي.

وأما غلاة الرافضة: فقد جاءوا في عقائدهم بما لا يدع مجالاً للشك في كفرهم، ومن أراد التأكد من ذلك، فليرجع إلى ما ذكره عنهم أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - في كتابه مقالات الإسلاميين؛ حيث بين عقائدهم مفصلة، واستوفى ذكر فرقهم وآرائهم الضالة، وكذلك ما كتبه عنهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب[2]، وكذلك فضائحهم التي ذكرها البغدادي[3]، وغير

---

(١) شرح الأصول الخمسة ص٧٣٦.

(٢) انظر: كتابه «رسالة في الرد على الرافضة» تحقيق الدكتور ناصر سعد الرشيد.

(٣) كتاب أصول الدين ص٣٣١.

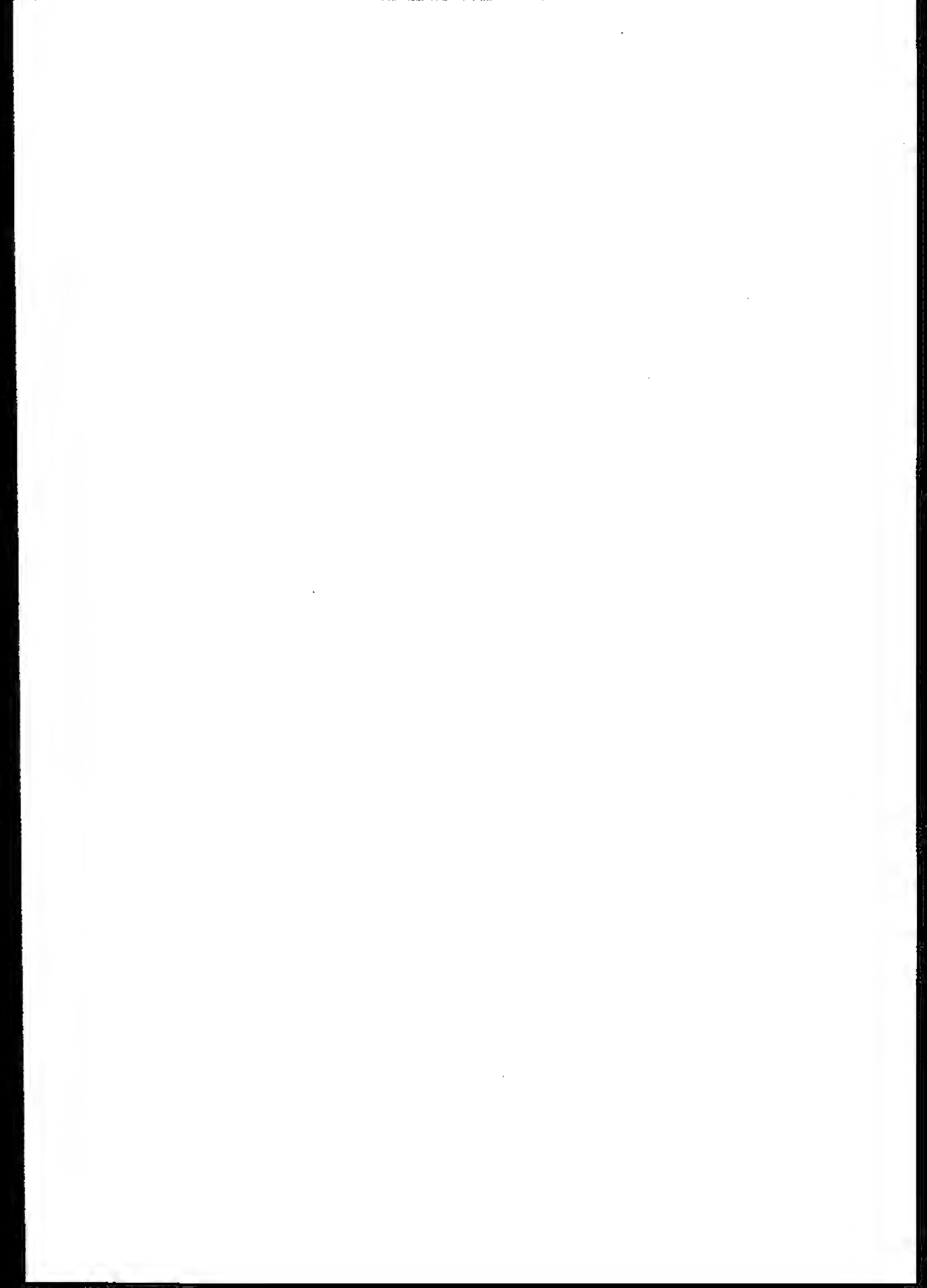
بعيد أن يحصل منهم إنكار الحساب.

وقد ذكر الأشعري أن هؤلاء الروافض: «يزعمون أن الأموات يرجعون إلى الدنيا قبل يوم الحساب»، وأن الغلاة منهم: «ينكرون القيامة والآخرة، ويقولون: ليس قيامة ولا آخرة، وإنما هي أرواح تتناسخ في الصور: فمن كان محسنًا، جوزي بأن ينقل روحه إلى جسد لا يلحقه فيه ضرر ولا ألم، ومن كان مسيئًا، جوزي بأن ينقل روحه إلى أجساد يلحق الروح في كونه فيها الضرر والألم، وليس شيء غير ذلك، وأن الدنيا لا تزال أبدًا هكذا»[1].

وفي الذي قدمنا من النصوص الكثيرة ـ من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، وأقوال علماء الإسلام وإجماعهم على اعتقاد الحساب ـ ما يغني عن إعادته هنا، ولم أجد نصًا لهؤلاء الذين أنكروا الحساب، لا من النقل ولا استندوا إلى عقل؛ فلا ينبغي أن يلتفت إلى إنكارهم المظلم مع إشراق الحق وضيائه.

* * *

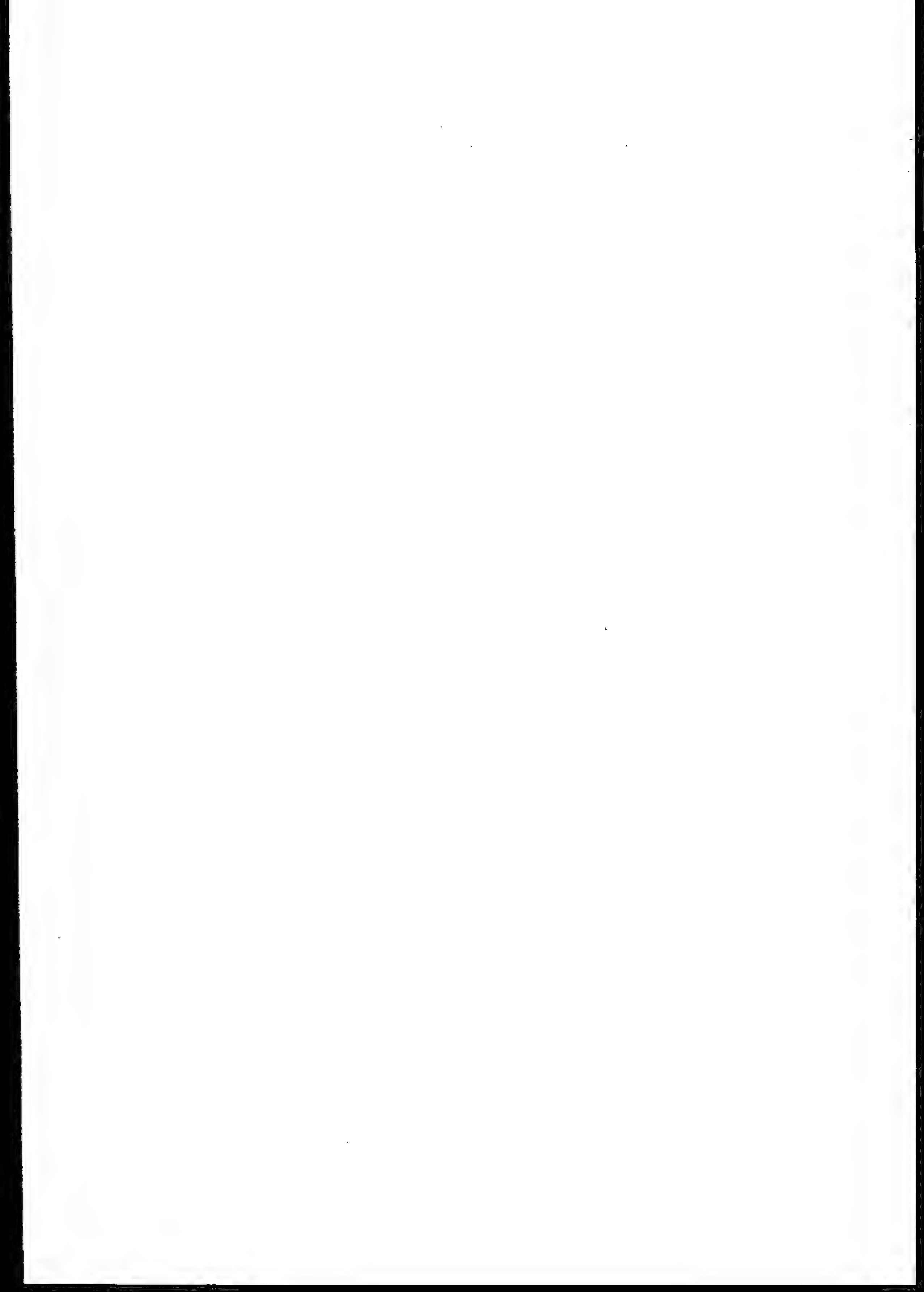
(١) مقالات الأشعري جـ١ ص١١٩.





الفصل الخامس عشر

دور العمل في دخول الجنة



الفصل الخامس عشر
دور العمل في دخول الجنة

وإذا كنا قد قدمنا أن الله تعالى يحاسب عباده بأعمالهم، فمن فاز بالعمل الصالح دخل الجنة، ومن أفلس منه دخل النار، فإن مما تجدر الإشارة إليه أن نتيجة العمل مهما كانت طيبة، فإنها لا تدخل صاحبها الجنة إلا بشيء زائد عن العمل، وهو وجود فضل الله ورحمته، وقد وقع في هذه المسألة خلاف ونزاع بين أهل الحق وغيرهم من أهل البدع، ويتمثل ذلك الخلاف فيما يلي:

أهل القول الحق يقولون: العمل وحده لا يدخل صاحبه الجنة، على خلاف فيما بينهم حول معنى ذلك[١].

والقدرية تقول: دخول الجنة بالعمل وحده، وهو مقابل ذلك وعوضه، كتقابل الأعواض.

والجبرية أنكروا أن تكون الأعمال سببًا في دخول الجنة.

فالقدرية والجبرية على طرفي نقيض في هذا، وقد تمسك كل منهم ببعض النصوص التي تدل بظاهرها على مدعى كل فريق.

ونعرض فيما يلي أدلة مذهب كل طائفة:

---

(١) أي حول معنى النصوص الدالة على عدم دخول الجنة بالعمل وحده، ومن ذلك قولهم: الأعمال أسباب لدخول الجنة لا أنها عوض العمل وثمنه. انظر: ص١٠٧١-١٠٧٤.

فـمن **الأدلة لأهل القـول الأول** ـ وهو أن العمل وحـده لا يدخل صاحبه الجنة ـ ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لن ينجي أحدًا منكم عمله»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا»**[١].

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وإن أحب الأعمال أدومها إلى الله وإن قل»**[٢].

وعن عائشة عن النبي ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحدًا الجنة عمله»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»**[٣].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل أحدًا منكم عمله الجنة، ولا يجيره من النار، ولا أنا؛ إلا برحمة من الله»**[٤].

فهذه الأحاديث تدل على أن العمل لا يكفي وحده لدخول الجنة؛ بل الدخول فيها يكون برحمة الله تعالى وفضله، مع مراعاة جانب العمل.

وأما أدلة الفريق الثاني ـ وهم القدرية الذين ذهبوا إلى أن دخول الجنة إنما هو بالعمل ـ فهو ما أفادته ظواهر بعض الآيات القرآنية الآتية:

قال تعالى: **﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [النحل: ٣٢].

---

(١)، (٢)، (٣) صحيح البخاري جـ١١ ص٢٩٤، ومسلم جـ٥ ص٦٨١ ـ ٦٨٤.

(٤) صحيح مسلم جـ٥ ص٦٨٣.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٤].

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وهي آيات كثيرة نكتفي بما تقدم ذكره[1].

وأما أدلة **الفريق الثالث**؛ وهم الجبرية: فقد استندوا إلى ما قدمنا من الأحاديث التي تدل على عدم دخول الجنة بالعمل، وإنما هو برحمة الله؛ حيث ألغوا تأثير العمل في دخول الجنة.

والواقع أن ما ذهب إليه القدرية والجبرية غير صحيح؛ ذلك أن تلك النصوص إذا أخذناها على مأخذ الجبرية والقدرية؛ فإنها تكون متعارضة في الظاهر؛ فيجب حينئذ التوفيق بينها وبين ما دلت عليه، وهي نصوص ثابتة كلها ويمتنع أن يحصل فيها تعارض حقيقي.

وقبل ذكر الجمع ينبغي التنبه إلى أمر هام في هذا الموقف، وهو أن الكون وما فيه ملك لله تعالى، يفعل فيه ما يشاء، قال تعالى: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فلو عذب أهل الطاعة وأنعم على أهل المعصية؛ لكان ذلك عدلاً منه تعالى، ولكنه أخبر عز وجل أنه لا يفعل ذلك؛ بل أخبر أنه يثيب أهل طاعته بالجنة وأهل عصيانه بالنار؛ تفضلاً وعدلاً منه؛

(١) انظر: شرح النووي لمسلم جـ٥ ص٦٨٣، وانظر: مفتاح دار السعادة ص٩٢.

كما يجب اعتقاد أن الله تعالى لا يجب عليه شيء إلا ما أوجبه على نفسه، وأن العبد لا يستحق على ربه أي شيء، كما يكون للمخلوق على المخلوق، ومن قال من أهل السنة بالوجوب، قال: إنه كتب على نفسه الرحمة وحرم الظلم على نفسه سبحانه وتعالى[١] .

قال قتادة في تفسير الآية: معناها: «لا يسأل عما يفعل بعباده، وهم يسألون عن أعمالهم»[٢] .

وقال ابن جريج: «لا يسأل الخالق عن قضائه في خلقه، وهو يسأل الخلق عن عملهم»[٣] .

وقال الضحاك: «لا يسأل الخالق عما يقضي في خلقه، والخلق مسئولون عن أعمالهم»[٤] .

أما الإجابة عن الجمع بين الآيات التي تدل على أن دخول الجنة يكون بالعمل، وبين الأحاديث السابقة التي تدل على أن دخول الجنة يكون برحمة الله؛ فقد جمع العلماء بين تلك النصوص من عدة أوجه:

الأول: قاله النووي، وحاصله: «أنه لا يستحق أحد أن يدخل الجنة بعمله، وما ورد من الآيات خلاف هذا فإن معناه أن العمل يكون سببًا في دخول الجنة . . . وذلك من رحمة الله تعالى، وما جاء من الأحاديث في نفي دخول الجنة بالعمل؛ فمعناه أن العمل بمجرده لا يكون كافيًا لدخولها؛ بل لابد من وجود الرحمة مع العمل، ثم إن العمل نفسه هو من رحمة الله أيضًا؛ إذ لو شاء الله

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم ص٤٠٩ .

(٢) انظر: جامع البيان جـ١٧ ص١٤ .

(٣)، (٤) المصدر السابق .

لمنعه سبب حصول العمل الصالح المقتضي لدخول الجنة.

ونص كلام النووي رحمه الله هو قوله:

«وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] ونحوها من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة؛ فلا يعارض هذه الأحاديث؛ بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال، والهداية للإخلاص فيها، وقبولها، برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث، ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة»[1].

وقال ابن القيم رحمة الله، في الجمع بين تلك النصوص ورد زعم القدرية والجبرية، قال:

«الأعمال أسباب، لا أعواض وأثمان، والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه، فالمثبت باء السببية، والمنفي باء المعاوضة والمقابلة، وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة».

قال: «والقدرية والجبرية تنفي باء السببية جملة، وتنكر أن تكون الأعمال سببًا في النجاة ودخول الجنة، وتلك النصوص وأضعافها تبطل قولهم، والقدرية النفاة تثبت باء المعاوضة والمقابلة، وتزعم أن الجنة عوض الأعمال، وأنها ثمن لها، وأن دخولها إنما هو بمحض الأعمال، والنصوص النافية لذلك تبطل قولهم، والعقل والفطر تبطل قول الطائفتين، ولا يصح في النصوص

(١) شرحه لمسلم جـ٥ ص٦٨٣.

والعقول إلا ما ذكرناه من التفصيل، وبه يتبين أن الحق مع الوسط بين الفرق في جميع المسائل».

إلى أن يقول:

«فأصاب الجبرية في نفي المعاوضة، وأخطئوا في نفي السببية، وأصاب القدرية في إثبات السببية، وأخطئوا في إثبات المعاوضة، فإذا ضممت أحد نفيي الجبرية إلى أحد إثباتي القدرية ونفيت باطلهما؛ كنت أسعد بالحق منهما»[١].

وقد ذكر ابن القيم رحمة الله تعالى أن الباء المقتضية للدخول غير الباء الماضية، فالأولى السببية الدالة على أن الأعمال سبب الدخول المقتضية له، كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها، والثانية بالمعاوضة، نحو اشتريت منه بكذا.

فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد، وأنه لولا رحمة الله لعبده لما أدخله الجنة؛ لأن العمل بمجرده - ولو تناهى - لا يوجب بمجرده دخول الجنة، ولا أن يكون عوضًا لها، لأنه ولو وقع على الوجه الذي يحبه الله - لا يقاوم نعمة الله؛ بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة، فتبقى سائر نعمه مقتضية لشكرها، وهو لم يوفها حق شكرها، فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه وهو غير ظالم، وإذا رحمه في هذه الحالة كانت رحمته خيرًا من عمله، كما في حديث أُبي بن كعب الذي أخرجه أبو داود وابن ماجه في ذكر القدر ففيه: **«لو أن الله عذب أهل سماواته وأرضه؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم؛ كانت رحمته خيرًا لهم»**[٢].

---

(١) مفتاح دار السعادة ص٩٢.

(٢) أبو داود جـ٢ ص٥٢٧، سنن ابن ماجه جـ١ ص٣٠.

قال: «وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال سببًا في دخول الجنة من كل وجه، والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض العمل، وأنها ثمنه، وأن دخولها بمحض الأعمال، والحديث يبطل دعوى الطائفتين»(١) .

وقد نقل الحافظ ابن حجر عدة أقوال في الجمع بين تلك النصوص، ومنها: القول بأن الآية واردة على معنى اقتسام المنازل في الجنة، وذلك يكون بالعمل، والحديث وارد على مجرد دخول الجنة والخلود فيها، وذلك يكون برحمة الله تعالى.

وهذا الجمع هو للعلامة ابن بطال رحمه الله فيما يذكره عنه ابن حجر بقوله: «قال ابن بطال في الجمع بين هذا الحديث وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢] ما محصله ـ أن تحمل الآية على أن الجنة تنال المنازل فيها بالأعمال، فإن درجات الجنة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، وأن يحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها، ثم أورد على هذا الجواب قوله تعالى: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

فصرح بأن دخول الجنة أيضًا بالأعمال، وأجاب بأنه لفظ مجمل بينه الحديث، والتقدير: ادخلوا منازل الجنة وقصورها بما كنتم تعملون، وليس المراد بذلك أصل الدخول.

ثم قال: ويجوز أن يكون الحديث مفسرًا للآية، والتقدير: ادخلوها بما

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ص١٠٨ ـ ١١٠.

كنتم تعملون، مع رحمة الله لكم وتفضله عليكم، لأن اقتسام منازل الجنة برحمته، وكذا أصل دخول الجنة هو برحمته، حيث ألهم العالمين ما نالوا به ذلك، ولا يخلو شيء من مجازاته لعباده من رحمته وفضله، وقد تفضل عليهم ابتداء بإيجادهم، ثم برزقهم، ثم بتعليمهم».

ثم تابع ابن حجر النقل عن العلماء في أوجه الجمع بين تلك النصوص، فذكر عن القاضي عياض أنه جمع بينها بنحو ما جمع به ابن بطال وزاد؛ فذكر أن تلك النصوص تعود إلى العمل، والعمل من توفيق الله ورحمته، فصح أنه دخل الجنة برحمة الله وبالعمل الذي وفقه الله إليه، وهذا ما ذكره بقوله:

«وقال عياض: طريق الجمع أن الحديث فسر ما أجمل في الآية، فذكر نحواً من كلام ابن بطال الأخير، وأن من رحمة الله توفيقه للعمل وهدايته للطاعة، وكل ذلك لم يستحقه العامل بعمله، وإنما هو بفضل الله وبرحمته».

ثم نقل عن ابن الجوزي أربعة أوجه في الجمع: الأول منها: هو ما أفاده القاضي عياض، والثالث: هو ما أفاده ابن بطال، وزاد فذكر أن من أوجه الجمع: أن عمل العبد مهما بلغ فإنه مستحق لله استحقاق عمل العبد لسيده، وما أعطاه بعد ذلك فإنه يعد تفضلاً منه، لا استحقاقًا من العبد.

ثم ذكر كذلك أن من أوجه الجمع أن يقال: إن أعمال العباد كانت في زمن يسير، وخلودهم في الجنة لا إلى نهاية، ومعلوم أن هذا الفارق الكبير إنما هو بفضل الله ورحمنه، ونص ما ذكره ابن حجر عنه هو قوله:

«وقال ابن الجوزي: يتحصل عن ذلك أربعة أجوبة:

الأول: أن التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصل بها النجاة.

الثاني: أن منافع العبد لسيده، فعمله مستحق لمولاه، فمهما أنعم عليه من الجزاء، فهو من فضله.

الثالث: جاء في بعض الأحاديث أن نفس دخول الجنة برحمة الله، واقتسام الدرجات بالأعمال.

الرابع: أن أعمال الطاعات كانت في زمن يسير، والثواب لا ينفد، فالإنعام الذي لا ينفد، في جزاء ما ينفد، بالفضل لا بمقابلة الأعمال.

وقال الكرماني: الباء في قوله: ﴿**بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ ليست للسببية؛ بل للالتصاق أو المصاحبة؛ أي: أورثتموها ملابسة أو مصاحبة، أو للمقابلة؛ نحو أعطيت الشاة بالدرهم، قال: وبهذا الأخير جزم الشيخ جمال الدين بن هشام في المغني، فسبق إليه؛ فقال: ترد الباء للمقابلة، وهي الداخلة على الأعواض، كاشتريته بألف، ومنه: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ لأن المعطى بعوض قد يعطى مجانًا، بخلاف المسبَّب فلا يوجد بدون السبب. قال: وعلى ذلك ينتفي التعارض بين الآية والحديث، وقول الكرماني هذا مسبوق بما قرره ابن القيم قبله.

وقال ابن حجر عن جمعه هو:

«ويظهر لي في الجمع بين الآية والحديث جواب آخر، وهو أن يحمل الحديث على أن العمل - من حيث هو عمل - لا يستفيد به العامل دخول الجنة ما لم يكن مقبولاً، وإذا كان كذلك، فأمر القبول إلى الله تعالى، وإنما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه، وعلى هذا؛ فمعنى قوله: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾؛ أي تعملونه من العمل المقبول، ولا يضر بعد هذا أن تكون الباء للمصاحبة أو للالتصاق أو المقابلة، ولا يلزم من ذلك أن تكون سببية.

والخلاصة : أن تلك الأقوال ـ التي قيلت في أوجه الجمع بين الآيات والأحاديث ـ تجتمع في أمر واحد؛ وهو القول بأن العمل وحده لا يكفي في دخول الجنة، وأن من ألغاه كالجبرية فإنه على خطأ، ونأخذ من لفظ الحديث الشريف عبرة وهي :

«إذا كان الرسول ﷺ لا يدخل الجنة بعمله، وهو مقطوع له بالجنة، فكيف بغيره ممن هو إلى التقصير أقرب؟»، ولهذا فإن السائل حينما سمع النبي ﷺ يقول : «**لن يدخل أحدكم عمله الجنة**» استعظم هذا فقال : ولا أنت؟ فقال : «**ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته**» فاتكال الإنسان بعد ذلك على عمله وحده هو غرور منه، والاتكال على الرحمة وحدها تقصير منه.

ولهذا فإنه ورد عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه :

«يبعث تعالى يوم القيامة عبداً لا ذنب له، فيقول: أي الأمرين أحب إليك؛ أن أجزيك بعملك، أم بنعمتي عندك؟ قال: يا رب، أنت تعلم أني لم أعصك، قال: خذوا عبدي بنعمة من نعمي، فما تبقى له حسنة إلا استفرغتها تلك النعمة، فيقول: رب بنعمتك ورحمتك، فيقول: بنعمتي ورحمتي.

ويؤتى بعبد محسن في نفسه لا يرى له سيئة، فيقال له: كنت توالي أوليائي؟ قال: رب كنت من الناس سلماً، قال: فهل كنت تعادي أعدائي؟ قال: يا رب لم أكن أحب أن يكون بيني وبين أحد شيء، فيقول الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعادي أعدائي»[1] .

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب جـ٤ ص٣٣٩ وعزاه إلى الطبراني، وذكره صاحب الإتحافات ص٢٧١ وعزاه إلى الحكيم والطبراني.

وعن أنس رضي الله عنه :

«يؤتى بالنعم يوم القيامة وبالحسنات والسيئات ، فيقول الله تعالى لنعمة من نعمه : خذي حقك من حسنات عبدي ، فما تترك له حسنة إلا ذهبت بها»[١] .

وعن محمد بن أبي عميرة رضي الله عنه - وكان من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه رفعه إلى النبي ﷺ قال : **«لو أن عبدًا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله عز وجل؛ لحقره ذلك اليوم، ولود أنه يرد إلى الدنيا كيما يزداد الأجر والثواب»**[٢] .

* * *

---

(١) الإتحافات ص٢٦٨ وعزاه إلى أبي الشيخ وابن النجار .

(٢) رواه أحمد جـ٤ ص١٨٥ قال المنذري جـ٤ ص٣٩٧ : «ورواته رواة الصحيح» .

